تفسير النور

من سورة هود إلى سورة النحل

تأليف
الشيخ محسن قراءتي

المجلد الرابع

دار المؤرخ العربي
بيروت

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

تفسیر النور

تفسير النور

من سورة هود إلى سورة النحل

تأليف

الشيخ محسن قراءتي

ترجمة

عباس صافي

مراجعة الترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد الرابع

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المؤرخ العربي

بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤/٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

سُورَةُ هُودٍ

السورة: ١١ الجزء: ١١ ـ ١٢

عدد الآيات: ١٢٢

ملامح سورة هود

نزلت هذه السورة المباركة في الفترة الأخيرة من وجود النبيّ ﷺ في مكّة، وهي الفترة التي عاش المسلمون فيها أوقاتاً عصيبة للغاية بسبب وفاة أبي طالب والسيدة خديجة الكبرى عليها السلام.

روي عن النبيّ ﷺ قوله: «شَيَّبَتْني سُورَةُ هُود»[1]! وذلك لنزول آية الاستقامة فيها في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[2]. وكانت قلّة صبر أصحاب النبي ﷺ تؤذيه وتزعجه.

وتتناول سورة هود عليه السلام التي تشتمل على (١٢٣) آية، سيرة الأنبياء لا سيّما النبيّ نوحاً عليه السلام والمسائل العقائدية. ويُستفاد من دقّة تناول موضوع تأريخ الأنبياء أنّ حركتهم جميعاً تُمثّل حركة تأريخية مستمرة وليست حادثة عابرة؛ إذ إنّ تأريخ الأنبياء وأُممهم وأقوامهم هو في الواقع تأريخ منظّم ودقيق يمكن من خلال دراسته استشفاف عوامل انحطاط الشعوب وازدهارها، إضافة إلى بيانه أنّ الدين ليس مُنفصلاً عن المجتمع بل إنّ مصير هذا الأخير ومآله مرتبط بالدين بشكل كامل وأساس.

وقد ذُكِر اسم النبيّ هود عليه السلام خمس مرّات في هذه السورة، وهو ما يُعادل تكرار هذا الاسم في سُوَر القرآن الكريم كلّها.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص ١٩٨.

(٢) سورة هود: الآية ١١٢.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١
أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

إشارات:

- يتألّف القرآن الكريم من هذه الحروف الهجائية التي يعرفها الجميع، وقد أنزل الله سبحانه كتاباً مؤلّفاً من هذه الحروف نفسها ومع ذلك عجز الإنسان عن الإتيان بمثله. وكما أنّ الإنسان قادر على صُنع الطوب والفخّار من التراب، فإنّ الله تعالى خلق من هذا التراب كذلك آلاف الأنواع من الزهور والنباتات والفاكهة والحيوانات، بل والإنسان نفسه. ونرى قدرة الله سبحانه في نظام التكوين، ويمكننا كذلك مشاهدة قدرته في كتاب التشريع.
- القرآن الكريم كتاب مُحكم ومُفصّل في الوقت نفسه، فلا تناقض ولا تهافت فيه، وهو فصيح وبليغ، وعلى الرغم من أنّ آياته وسُوَره منفصلة بعضها عن بعض فإنّها مرتّبة ومتواصلة.
- القرآن الكريم كتاب مُحكم يمتلك روحاً واحدة متميّزة تتمثّل في التوحيد، وقصصه ومواعظه وأحكامه وآياته كلّها مُعَدّة لبيان تلك الروح وتفسيرها وتوضيحها.
- القرآن الكريم كتاب مُحكم، لم تطلْه يد التغيير أو التحريف إطلاقاً، وليس موضع شكّ أو رَيب البتة. وهو لا يتّخذ من الحدس أو الظنّ أو الافتراض مبدأً له، بل على العكس من ذلك؛ إذ إنّ جميع مواضيعه مُحكمة ومتينة.

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم كتاب مهمّ للغاية، (﴿كِتَٰبٌ﴾ التنكير والتنوين إشارة إلى عظمته).

٢ ـ تشير ألفاظ القرآن الكريم وتعابيره إلى عظمته، ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾.

٣ ـ العناصر المؤلّفة للقرآن الكريم محكمة ومتينة، ولا يمكن لأيّ شيء ضعضعة أيّ جزء من أجزائه، بل إنّ التقدّم العلمي يكشف في كلّ يوم عن أسرار هذا الكتاب وخفاياه، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

٤ ـ لا بدّ من أن يكون القانون والكتاب مُحكميْن وواضحيْن، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾. (القوانين الوضعيّة غير الإلٰهيّة إمّا أن تكون غير مُحكمة أو غير واضحة، وإمّا أنّ المشرّع لم يعمد إلى وضع القانون وفقاً لما تقتضيه الحكمة والمصلحة والوعي).

٥ ـ القرآن الكريم كتاب استدلاليّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، مضافاً إلى أنّه كتاب يجمع أبعاد الحياة الدنيوية والأُخروية قاطبةً، ﴿أُحۡكِمَتۡ...ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

٦ ـ نزل القرآن الكريم بمجموعه على قلب النبيّ ﷺ ثمّ تمّ تفصيله في خلال ثلاث وعشرين سنة، ﴿أُحۡكِمَتۡ...ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

٧ ـ كتاب الله محكم لأنّه تعالى حكيم، وهو الخبير بكلّ شيء فجاء الكتاب مفصّلاً لكلّ شيء، ﴿أُحۡكِمَتۡ...ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

٨ ـ تُعتبر الدعوة إلى التوحيد عنوان رسالات الأنبياء جميعاً، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

٩ ـ تكمن فلسفة نزول الكُتب السماوية في تثبيت أركان التوحيد وتطهير المجتمعات من أدران الشّرك، ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

١٠ ـ تُمثّل الدعوة إلى التوحيد والنُّذُر والبشارات، أنموذجاً لكلام الله المتين والحكيم، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

١١ ـ النبيّ ﷺ مُرسَل من قبل الله سبحانه ليهدي الناس السعادة، ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ﴾.

١٢ ـ يتضمّن أسلوب الأنبياء في تبليغ رسالاتهم الوعيد والبشارة، ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾

إشارات:

- ورد موضوع التوحيد في الآية السابقة، لكنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرّجوع إلى الله والبقاء حول محور التوحيد.
- عبارة ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ معناها حياة سعيدة ومنعّمة تغمرها الطمأنينة الروحية، وهذا في مقابل المعيشة الضّنكى والحياة المُرّة والمريرة التي يحصل عليها الذين نسوا الله وأعرضوا عن ذِكره، وإن كانوا يتمتّعون بالرفاهية والراحة في هذه الحياة الدنيا من الناحية المادّية في الظاهر.

التعاليم:

١ ـ من واجبات الأنبياء، إصلاح المنحرفين والضالّين وإعادة المارقين إلى جادّة الصواب، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾.

٢ ـ وما لم يطهّروا أنفسهم من الخطايا ويخفّفوا عن كاهلهم أعباء الذنوب والآثام، لن يكون بإمكانهم التحليق في ملكوت الحقّ تعالى، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾.

٣ ـ لا يكفي محو الذنوب، بل لا بدّ من التحرّك نحو الله سبحانه، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾.

٤ ـ التوبة واجبة، ﴿تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

٥ ـ التوبة عن الذنوب هي السبب في عودة ألطاف الله المادّية كذلك، ﴿تُوبُوٓاْ... يُمَتِّعۡكُم﴾.

٦ ـ إنّ القدرات والإمكانات التي يمتلكها الكفّار ليست مباركة ولا حسنة لأنّها تُستخدَم في طريق الفساد والفتنة، ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾.

٧ ـ الحياة الطيبة هي المسألة الأكثر أهميّة بنظر الإسلام، ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾.

٨ ـ الإيمان والتوبة هما اللتان تضمنان حياة الإنسان إلى آخر لحظة من عُمُره، ﴿يُمَتِّعْكُم... إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٩ ـ التوبة هي رمز السعادة النوعية والكميّة، ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٠ ـ تُمثّل التوبة عاملاً من عوامل الحيلولة دون التعرّض إلى الموت الفجائي، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١١ ـ يجهل الإنسان تاريخ الوفاة أو الموت وزمانهما، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٢ ـ تتفاوت الدرجات وتختلف المنازل يوم القيامة، فمن اكتسب فضيلة أكبر في هذه الدنيا سيحصل في الآخرة على لطف أكبر وأعظم، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

١٣ ـ لا شكّ في أنّ الأنبياء هم الأكثر حرصاً على الناس. وقد وردت عبارة: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ كثيراً في القرآن الكريم.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- ﴿يَثْنُونَ﴾: يُقال ثَنيتُ الشّيءَ، إذا عَطفته وطَوَيْته، وتُطلَق كناية كذلك على الحقد والنفاق. فجملة ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ إمّا أن تعني أنّ الكفّار والمشركين يجتمعون ليتحدّثوا سرّاً ضدّ الأنبياء ويتآمروا عليهم، أو أنّهم يغلقون أبوابهم ويرسلون ستورهم ويستغشون ثيابهم ويثنون صدورهم على الحقد على الأنبياء ومعاداتهم.
- قال تعالى في الآية (٧) من سورة نوح: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾.

❑ تكمن مشكلة المنكرين للمعاد في نقطتيْن اثنتيْن، هما:

أ) أيّ قدرة يمكنها إحياء الموتى؟ فيجيبهم القرآن الكريم في الآية (٤) من هذه السورة بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ب) كيف يمكن جمع الذرات المتناثرة هنا وهناك وتأليفها؟ فتجيبهم الآية (٥) بقولها: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

التعاليم:

١ ـ إنّ رجوعنا وعودتنا في النهاية إلى الله تعالى وحده وليس إلى الآخرين، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٢ ـ تناولت الآيات السابقة موضوع (التوحيد) و(النبوّة)، بينما تشير هذه الآية إلى (مبدأ المعاد)، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٣ ـ أيّها المشركون، حتى وإن كنتم تُخفون أهدافكم المشؤومة عن النبيّ ﷺ فإنّ الله سبحانه يعلم بما تُخفيه صدوركم، ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ...إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الجزء (١٢)

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

❑ كلمة «دابّة» مشتقّة من «دَبيب» بمعنى السّير بتأنٍّ وتَؤدة والمَشي بخطوات قصيرة؛ لكنّها تُطلَق على كلّ ما يدبُّ على الأرض.

❑ «الرِّزق» الإنعام المستمرّ غير المنقطع، سواء أكان مادّيًا أو معنويًا، ولذلك نقرأ في بعض الأدعية: **«اللّهمّ ارزقني... قَلباً خاشعاً... ولساناً ذاكِراً... وعِلماً**

نافعاً»[١]. ولا ريب في أنّ ما يُنعم به الله تعالى على مخلوقاته من الرّزق يكون مناسباً لها، فمثلاً يكون غذاء الطفل في بطن أمّه متناسباً مع حالة الطفل نفسها ويتغيّر بتغيُّر أوضاعه وحالاته، حتى يتحوّل ذلك الطعام إلى لَبن (حليب) عند ولادته؛ إذ أي قدرة للإنسان كانت تستطيع إيصال الطعام والغذاء إلى الجنين وهو في رَحِم أمّه؟ أو كيف يمكن للطفل أن يوفّر غذاءه ويهيّئه بنفسه وهو في بطن أمّه؟ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾[٢].

- كلمة «**مُسْتَقَرّ**» تعني (المكان الثابت)، والـ«**مُسْتَوْدَع**» هو مكان الإيداع والأخذ، ويُكنّى به عن المكان أو الموضِع الموقّت.

- يقول الإمام علي عليه السلام في وصيّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاك**»[٣]؛ (مثل النور والمطر والهواء في الطبيعة وكذلك الذكاء والقدرات العقليّة في الإنسان).

إذاً، فليس مقصود الآية الشريفة هو أن ننزوي جانباً وننتظر نزول الطعام علينا من السّماء، بل تريد حثّنا على العمل وتشجيعنا على السّعي والمثابرة، واعتبار كلّ ما نحصل عليه رزقاً من الله تعالى؛ لذلك يُخبرنا التاريخ بأنّ جميع أئمّتنا عليهم السلام كانوا يشتغلون ويعملون ولم يكونوا عاطلين عن العمل.

- إيصال الرّزق والطعام إلى المخلوقات جميعاً يتطلّب عِلم المُوصِل بمكان تلك الموجودات ونسبة ما تحتاج إليه؛ وهنا لا بدّ من وجود نظام دقيق للغاية يقوم بذلك الجهد كلّه؛ نظام يشتمل على أدقّ المعلومات والإحصائيّات التي تشير إلى مقدار حاجة تلك المخلوقات إلى الرزق وأماكن تواجدها، وأن يعلم كذلك عدد أفراد البشر والحيوانات في البحر والجوّ والقفار والصحاري، والمخلوقات جميعاً، صغيرها وكبيرها، بكلّ أنواعها واحتياجاتها المختلفة بشدّة، ﴿...وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٥، ص ٢٥٨.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٠.

(٣) بحار الأنوار، ج٥، ص ١٤٧.

□ إذا كانت الأمور كلّها موجودة ومكتوبة في كتاب مبين ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إذاً، فالذي عنده علم الكتاب لا شكّ في أنّه عالِم بكلّ شيء. قال تعالى في الآية الأخيرة من سورة الرّعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، واعترفت الروايات سواء لدى السنّة أو الشيعة بأنّ الشخص الذي ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو الإمام علي عليه السلام.

□ إنّ لله سبحانه سُنّتين: سُنّة الرّزق وسنّة إجراء الأمور والشؤون وتطبيقها عن طريق الأسباب والوسائط؛ لذلك فإنّ السّعي للوصول إلى الرّزق وطلبه لا يتنافى مع القانون الإلٰهيّ القائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ من حقّ الكائن الحيّ أن يحصل على طعامه وغذائه، وقد أوجب الله تعالى على نفسه هذا الحقّ، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ أرزاقنا كلّها بيد الله سبحانه، وعلى هذا، يجب علينا عدم الخضوع أو الخنوع لغير الله، ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ... إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٣ ـ ليس علينا أن نخشى على رزقنا أو أن نتّبع الجشع والطمع في الحصول عليه، ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ... إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٤ ـ لقد هيّأ الله سبحانه لنا مصادر الرّزق ووهب لنا العقل والوسائل لاستخراج ذلك الرّزق واكتشافه والحصول عليه، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٥ ـ أينما نذهب أو نُولّي وجوهنا فلن نغيب عن عين الله تعالى؛ لا في السّفر ولا في الحضر، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

٦ ـ جميع المعلومات والإحصائيّات المتعلقة بهذا العالم وكلّ ما فيه، موجودة ومُثبّتة بعناية ودقّة في مكان آمن ومحفوظ، ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) سورة النّجم: الآيتان ٣٩ و٤٠.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾

إشارات:

- المقصود بالأيّام الستة المذكورة في هذه الآية هو المراحل أو الأشواط الستّة لأنّ الشمس لم تكن موجودة في بداية الخلقة ليتمّ حساب ذلك بواسطة الليل والنهار[١].

- تُطلَق كلمة «عَرْش» على كلّ مكان مسقَّف أو مُغلق، وتُطلَق أيضاً على السرير المرتفع الكبير للملوك والسلاطين، ويُكنّى بها أحياناً للإشارة إلى القدرة والعظمة، كأن يُقال مثلاً: جلس زيدٌ على العَرش، أو أُزيح عَمرو عن العَرش، بمعنى أنّه نُحّيَ عن الحكم أو السلطان.

- **سؤال**: تُشير هذه الآية إلى أنّ الهدف من خلق الإنسان هو اختباره وامتحانه وابتلاؤه، لقوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، لكن أشارت آيات أخرى إلى أمور أخرى كأهداف الخلق، فما معنى ذلك؟

الجواب: تصبّ الأهداف كلّها في بوتقة واحدة وهي على مراحل متعدّدة، مثلما يكون الهدف من الحرث هو الزراعة، والهدف من الزراعة هو [زراعة] الحنطة، والهدف من زراعة الحنطة هو صُنع الخبز والرّغيف، والهدف من صُنع الخبز هو إطعام الإنسان. وهكذا، فقد بيّنت الآيات القرآنية الهدف من خلقة الإنسان ولكن على شكل مراحل وكالآتي:

أ) الهدف من الخلقة هو الامتحان والابتلاء، ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾.

---

(١) «أي، ما مقداره ستة أيام لأنّه لم يكن هناك أيام بعد، فإنّ اليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها». (مجمع البيان، ج٥، ص ٢٤٥). [المترجم]

ب) الهدف من الاختبار والامتحان هو تمييز الصالح من الطالح، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[١].

ج) الهدف من تمييز الصالح من الطالح هو إعطاء كلّ منهما حقّه وجزاءه الذي يستحقّه، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢].

د) ليس الثواب والعقاب المناسب إلّا وفقاً لما وَعد به الله تعالى، ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾[٣].

- عن الإمام علي عليه السلام: **«أَلَا إِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونَ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاء»**[٤].

- فُسِّرت عبارة ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في بعض الروايات كما يلي: «عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه تلا قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ إلى قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ثمّ قال: **«أيُّكم أحسَنُ عَقلاً وَأورَع عَنِ مَحارِمِ اللهِ وَأسْرَع في طاعَةِ الله»**[٥]. وورد في روايات أخرى أنّها تعني (مَن أزهد في الدّنيا)[٦]، وعن الإمام الصّادق عليه السلام: **«هو حُسنُ العَمَل»**؛ أي العَمل مع العلم والإخلاص والتقوى وليس العمل الكثير الخالي من كلّ ذلك[٧].

التعاليم:

١ ـ خُلِق هذا العالَم لأجل الإنسان، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

٢ ـ على الرغم من أنّ الله تعالى قادر على أن يخلق أيّ شيء وكلّ شيء في لحظة واحدة إلّا أنّ حكمته سبحانه اقتضت أن تكون عمليّة الخلق تدريجية، ﴿خَلَقَ... فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٧.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٤.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان، ج١٠، ص ٦٩.

(٦) بحار الأنوار، ج٧٤، ص ٩٣.

(٧) تفسير كنز الدقائق.

٣ ـ الماء والموادّ المنصهرة هي المصدر الماديّ للسموات والأرض، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

٤ ـ من الواضح أنّ الماء كان موجوداً قبل خَلق السموات والأرض، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

٥ ـ الهدف من خَلق جميع الموجودات هو تطوّر الإنسان المعنويّ والاختياريّ، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ الجودة والنوعية لا الكميّة هما عاملان مهمّان في أيّ عَمل، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٧ ـ خُلِقَت السموات والأرض للقيام بالأعمال الحَسنة وليس للّهو وللّذة وللغفلة، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٨ ـ تخلو جعبة المُنكرين للمَعاد من أيّ دَليل على ما يدّعون، وما يدّعون إلّا باطلاً وبُهتاناً، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾

إشارات:

- تُطلَق كلمة «أمّة» على الجماعة أو الفئة التي يجمعها هَدف مشترك واحد، وعلى الزّمان أو العصر كذلك. وفي هذه الآية فإنّ المقصود بعبارة: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ هو الزّمان المُعيَّن والأجل المحدود، وهو أيضاً ما سنطالعه في الآية (٤٥) من سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، في إشارة إلى السَّجين الذي كان مع يوسف عليه السلام والذي لم يتذكّر ما أوصاه به يوسف عند خروجه من السّجن إلّا بعد مرور فترة طويلة.

- وفقاً لبعض الروايات فإنّ من بين ما تعنيه عبارة ﴿أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ هو زمان ظهور

الإمام المهديّ عليه السلام، أي أنّ الله سبحانه وعد أن لا يُنزَل عذابه على هذه الأمّة حتى ذلك الوقت[١].

□ تأخير العذاب الإلٰهيّ له مصالح عدّة كتوفير فرصة التوبة للعاصين والمُذنبين أو ظهور أجيال جديدة أكثر إيماناً من الوالديْن العاصييْن، إضافة إلى أنّ دُعاء الأفراد الصالحين هو السبب في تأخير العذاب الإلٰهيّ ونزوله على الآخرين.

التعاليم:

١ ـ ترتبط بعض أفعال الله تعالى بالزّمن والتوقيت، ﴿أَخَّرْنَا... إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾.
٢ ـ قد يُؤخّر الله سبحانه غَضبه وسَخطه إلى حين، ﴿...أَخَّرْنَا﴾.
٣ ـ إنّ فترة تأخير عذاب الله تعالى وغضبه هي فترة قصيرة، ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾.
٤ ـ تأخير الله تعالى عذابه علامة من علامات لُطفه وكَرَمه وليس ضعفاً منه ـ حاشَا له ـ إذاً، علينا أن لا نتّخذ ذلك سخريّةً أو عَبثاً، ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا... لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾.
٥ ـ لن يُرفَع العذاب الإلٰهيّ عن الكافرين المُستهزئين إطلاقاً، ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾.
٦ ـ يجب علينا عدم الاغترار بالمهلة التي يمنحها الله لنا؛ لأنّ العذاب الإلٰهيّ يُمكن أن يُؤخَّر ويُمكن أن يُقدَّم من دون أن يعلم أحد بذلك، ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾.
٧ ـ الاستهزاء بالعقائد الدينيّة هو الأسلوب الذي يعتمده الكفّار دائماً، ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾

إشارات:

□ ليست كلّ نعمة يهبها الله سبحانه إلى أيّ من عباده تعني محبّته ذلك العبد، بل

---

(١) انظر: المصدر نفسه.

العكس صحيح أيضاً، وسَلب نعمة ما من المخلوق لا تعني غضب الله أو سَخطه عليه، بل إنّ ذلك كلّه امتحان وابتلاء.

□ الإنسان يجهل الحكمة الإلٰهيّة أو المصلحة في أمر ما، فنجده يُسارع إلى الحُكم المسبق ما يدفعه إلى اليأس والقنوط ومن ثَمّ الكُفر.

التعاليم:

١ ـ إنّ سعادة الإنسان مجرّد عمليّة تذوّق بسيطة، ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

٢ ـ تُمثّل نِعَم الله تعالى وأفضاله رَحمته هو، لا استحقاقنا أو جدارتنا نحن، ﴿أَذَقْنَا... رَحْمَةً﴾.

٣ ـ إذا طالت فترة سعادة الإنسان فلا ينبغي له الاغترار، ﴿أَذَقْنَا... ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا﴾، إذ يشير حرف العطف (ثم) إلى المدّة الطويلة.

٤ ـ من الواضح أنّ الأخذ والعطاء بيد الله وحده، ﴿أَذَقْنَا... نَزَعْنَٰهَا﴾.

٥ ـ لا رَيب في أنّ سَلب الرّحمة (النِّعَم) من الإنسان سيكون أمراً صعباً بالنسبة له، ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾ ـ و«النَّزْع» هو الاقتلاع بقوّة وشدّة.

٦ ـ إنّ تحمّل الإنسان ضعيف للغاية، فبمجرّد فقدانه نِعمة من النّعم يُصبح آيساً من رحمة الله الواسعة بأكملها، ﴿نَزَعْنَٰهَا... إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾.

٧ ـ لا يجب أن نربط إيماننا بالله سبحانه بمقدار ما نحصل عليه من السعادة والملذات في حياتنا، ﴿نَزَعْنَٰهَا... إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾.

٨ ـ اليأس من رحمة الله مقدّمة للكُفر والجحود[1]. ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ ليس حال الدّهر متشابهاً في الأوقات والأزمان كلّها بل هو كما قيل في

(١) قال تعالى في الآية ٨٧ من سورة يوسف: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الروايات: **«الدّهرُ يَوْمان: يَومٌ لَكَ ويَومٌ عَليكَ، فإنْ كانَ لَكَ فَلا تَبْطُر، وإنْ كانَ عَليكَ فاصبِرْ، فَبِكِلَيْهِما سَتُخْتَبَر»**[1].

□ إنّ النِّعَم والآلاء التي يحصل عليها الإنسان بعد كَدّ وعناء ومُثابرة وشقاء، تستحقّ أن يُشكَر مُنعِمُها ويُذْكَر المُتَفَضِّل بها على الدّوام، وينبغي أن لا تكون سَبباً للفَخر والزّهو والغطرسة.

□ شيئان يُعرّضان السعادة والنّعمة إلى الخطر: أوّلاً، التحليل الخاطئ وسوء الفهم ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾، وثانياً، أن يُصبح هذا الفرح والزّهو سبباً للاستخفاف بالآخرين والتفاخر عليهم، ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ طاقة الإنسان بسيطة وتحمّله ضعيف، فتراه يفخر ويزهو لأصغر النِّعَم، ﴿أَذَقْنَٰهُ... لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

٢ ـ يتميّز القرآن الكريم بأسلوب أدبيّ متوازن ونغمة بلاغية عَذبة. (لاحظ التناغم الكبير بين كلمتَيْ ﴿نَعْمَآءَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾، وبين العبارتَيْن ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾).

٣ ـ النّعماء والضّراء كلتاهما زائلتان لا محالة، ﴿أَذَقْنَٰهُ... مَسَّتْهُ﴾.

٤ ـ أن يعتقد الإنسان بأنّه لن يمرّ بأيّ ضرّاء أو مصيبة بعد الآن إنّما هو اعتقاد وتصوّر باطلان من دون شكّ، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾.

٥ ـ لا ينبغي اعتبار السعادة والنّجاح دليلاً على حُبّ الله تعالى لنا، وهكذا فلا يحقّ لنا أن نقول لن يُصيبنا أيّ مكروه بعد الآن أبداً، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾.

٦ ـ التصوّرات الخاطئة والتحليلات المغلوطة هي سبب صدور التصرّفات غير المنطقية؛ إذ قد يُخيَّل للبعض أنّه نقيّ وطاهر من كلّ شائبة، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص ٨١.

عَنِّيٓ﴾، ولهذا نرى مثل هؤلاء يفخرون ويتفاخرون من دون وَجه حقّ، ﴿لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾.

٧ ـ يتّصف بعض الأفراد المذبذبين بالتأثّر المباشر بالأحداث الخارجيّة بدلاً من الكمالات الداخليّة (الذاتية)، فتجدهم أحياناً ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾، وأحياناً أخرى ﴿لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- وردت عبارة «العمل الصالح» في القرآن الكريم إلى جانب كلمة «الإيمان» دائماً، كقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلّا في هذه الآية الشريفة التي قال تعالى فيها: ﴿صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والمُراد من ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ هنا بالطّبع هم المؤمنون الحقيقيّون. لكن، بما أنّ ذلك مذكور في مُقابل الأشخاص المتهوّرين غير المؤهّلين، فقد استخدم الله كلمة ﴿صَبَرُواْ﴾ بدلاً من «آمَنُوا».
- لا يكون الصّبر في مُقابل المشاكل والمُعضلات وحسب؛ بل لا بدّ من الاستعانة بالصّبر حتى في السّرّاء وحالات الفرح والسرور وإلّا أدّى فقدان الصّبر واليأس إلى الطغيان والتمرّد، وهو ما حدث لبَني إسرائيل عندما كانوا يرزحون تحت نَير فرعون واستبداده وطغيانه، فلمّا نجّاهم الله وأذاقهم طعم الحريّة والرفاهية: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾[1] طغوا واستكبروا، وراحوا يعبدون العِجل، ولمّا نهاهم هارون (أخو موسى ﷺ) عن المُنكر كادوا يقتلونه: ﴿وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾[2].

التعاليم:

١ ـ التمسّك بالصّبر والاستعانة بالتحمّل في الشدائد والملمّات كما في السّراء والحياة السعيدة، مصداق العمل الصالح، ﴿صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

٢ ـ لا سبيل لنفوذ اليأس والكُفران والتفاخر إلى روح المؤمن (الحقيقيّ)، فهو قويّ وصامد على الدّوام، ﴿صَبَرُوا﴾.

٣ ـ الصّبر والثبات وسيلتان لغُفران الذنوب، ﴿صَبَرُوا... لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

٤ ـ لو عَلِم الإنسان ما ينتظره من أجر كبير ومغفرة حسنة لصَبره وتحمّله، لَما كان شيء أحلى لديه منهما، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا... لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٥ ـ من الواضح أنّ دَرء الخطر أهمّ من اكتساب المنفعة؛ ولذلك أولاً: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ثم بعد ذلك: ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ كان الكفّار يُطالبون النبيّ ﷺ أحياناً بتحويل جبال مكّة إلى ذَهب كمُعجزة لإثبات نبوّته أو إنزال ملائكة من السمّاء تُويّد رسالته، بينما لم يكن بعضهم الآخر مستعدّاً لسماع ما يريد النبيّ ﷺ قوله حول الإمام علي عليه السلام حقداً وكراهية. وحتى إذا قال شيئاً عن ذلك لم يكونوا ليقبلوه أو يوافقوا عليه. ولهذا كان صَدر النبيّ ﷺ يضيق ويتألّم بسبب تصرّفات المشركين تلك، ما يدفعه إلى تأخير إيصال آيات القرآن الكريم ومضمونها إلى الملأ من قومه. وليس لذلك تأثير على عصمته ﷺ أو نبوّته، إذ إنّ بعض آي القرآن الكريم لا تتطلّب السرعة في التبليغ، فكان النبيّ ﷺ يؤخّر إبلاغ قومه بتلك الآيات لمصلحة يقتضيها الدّين وليس شخصه الكريم. لكن، وبعد نزول هذه الآية، لم يجد النبيّ ﷺ بدّاً من وضع المُراعاة والمسامحة جانباً، لينفّذ ما أُمِرَ به بحَزم وقوّة[1].

□ قد يكون النبيّ ﷺ حاول تأخير إبلاغ أوامر الله في بعض الأحيان بسبب عناد بعض أفراد قومه وقنوط النبيّ ﷺ من إيمانهم وإسلامهم، لكنّ الله سبحانه يُعلِم

(١) تفسير نمونه، ج ٩، ص ٣٧.

نبيّه أنّ عليه أداء واجبه والقيام بما يأمره به ربّه وإن أصابه اليأس من إيمان مثل هؤلاء الأشخاص ولم يعد يأمل منهم خيراً.

□ وقد يكون معنى هذه الآية الشريفة هو: «إنّ الكفّار يزدادون عناداً ومشاكسة وكأنّك لم تقرأ عليهم آياتنا ولم تُبلّغهم أوامرنا»، وقد يكون معناها كذلك هو: «يبدو أنّ تأخّرك عن إبلاغ بعض آياتنا وعدم مُفاتحة قومك بموضوعها يُسبّب لك الألم والمُعاناة».

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لمَن يُكَلَّف بإبلاغ كلام الله تعالى وأوامره من أن يكون حازماً وباتّاً ولا يأبه بمسألة مراعاة الناس ولا كلامهم وأعذارهم، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ... أَن يَقُولُوا﴾.

٢ ـ لاحظ أنّ الله سبحانه يُعلّمنا أن نتّبع الحذر والدقّة في تعاملنا مع الآخرين وإرشادهم، فلا نقول لهم: إنّكم كذا وكذا، بل نقول: يبدو أنّكم كذا، أو قد تكونوا كذا، أو نتمنّى أنّكم لستم كذا وكذا، كما استخدم الله تعالى كلمة ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ لمخاطبة نبيّه ﷺ بدلاً من «إنّك».

٣ ـ بالإضافة إلى الأذى الجسديّ الذي كان الكفّار يسبّبونه للنبيّ ﷺ فقد كانوا يأتون النبيّ بمعاذير وحجج مختلفة وغير مقبولة ليضغطوا عليه من الناحية النفسية كذلك، ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ...﴾.

٤ ـ إنّ عُقول بعض الأشخاص في عيونهم وأبصارهم، ومثل هؤلاء يطمعون في الرّسالة والثروة والجاه معاً، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾.

٥ ـ الإنسان مسؤول عمّا كُلّف به وليس عن نتيجته؛ فافعل ـ أيّها النبيّ ـ ما كُلّفتَ به، ودَع الأمور الأخرى إلى الله سبحانه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

٦ ـ تتلخّص مسؤولية الداعية في إنذار الناس لا في إجبارهم على الإيمان، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- لا تقتصر مُعجزة القرآن الكريم على فصاحته وبلاغته فحسب، بل على ما يتضمّنه من المعارف والمواعظ والبراهين والأخبار الغيبية والقوانين الإعجازية كذلك، فجملة ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ هي دعوة الناس جميعاً ـ وليس العرب فقط وهم الذين يعون ويفقهون فصاحة القرآن وبلاغته ـ لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

- وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، منها حلاوة الألفاظ وجمال التعابير عند تلاوتها، وانسجام مضامينه على الرغم من نزول آياته على مَدى ثلاث وعشرين سنة، ثمّ إشارته إلى علوم لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت، والإخبار بالأحداث والأمور الغيبيّة التي وقعت بالفعل فيما بَعد، وسَرده قصص الأقوام التي سبقت قوم النبيّ ﷺ وسيرتهم التي لم يبق لها أيّ أثر، ثمّ بيانه القوانينَ الشاملة والكاملة في أبعاد حياة الإنسان الشخصيّة والاجتماعية قاطبةً، وبعد هذا وذاك، بقاء القرآن الكريم محفوظاً ومُصاناً من أيّ تحريف أو تغيير أو تبديل أو قِدَم أو نسيان طيلة القرون الماضية.

- على الرغم من كلّ هذه التسهيلات وتلك المشجّعات، عجز البشر جميعاً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهو ما تحدّاهم القرآن بقوله: ﴿أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾[2]، ثمّ يتساهل معهم فيقول: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾. وفي موضع آخر يُخفّف الله تعالى عن البشر وطأة الإتيان بعشر سوَر فيقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[3]. ثمّ يُنهي القرآن الكريم المسألة ويقول للناس: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.
(٢) السورة نفسها: الآية ٨٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣.

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، متحدّياً إيّاهم بفعل ذلك حتى وإن استعانوا بعقول البشر أجمع على وَجه البسيطة. وقد أثبت التاريخ كذلك هذه الحقيقة وبيّن عَجز أولئك الذين حاربوا الإسلام وأرادوا النّيل من إعجازه وعظمته ودبّروا المؤامرات وحاكوا الدّسائس؛ لكنّهم لم يتمكّنوا من الإتيان ولو بسورة واحدة مثل القرآن الكريم، فهل هناك مُعجزة أعظم من هذه؟

التعاليم:

١ ـ بدلاً من أن يأتي الكفّار بأيّ أدلّة أو براهين تؤيّد ادّعاءاتهم وأقوالهم، راحوا يتّهمون النبيّ ﷺ بأنّه هو الذي ألّف القرآن وكتبه وأنّه ليس كلام الله، ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

٢ ـ سيبقى القرآن الكريم مُعجزة على مرّ التاريخ، ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ
وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- كان المشركون يتّهمون النبيّ ﷺ بأنّ أحداً ما علّمه هذا القرآن ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]، فردّ عليهم القرآن الكريم قائلاً: إنّ مصدر إلهام هذا الكتاب [أي، القرآن الكريم] هو العِلم الإلٰهيّ وليس إملاء الآخرين. وفي أحيان أخرى كانوا يدّعون أنّ النبيّ ﷺ هو كاتب القرآن ومؤلّفه، وأنّه ربّما ساعده آخرون في إنجاز ذلك ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[2]، فجاءت هذه الآية لتردّ على اتّهاماتهم وتخرّصاتهم جميعاً.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥. (٢) سورة الفرقان: الآية ٤.

التعاليم:

١ ـ إنّ مَعين القرآن الكريم ومصدر إلهامه هو عِلْم الله الذي لا ينتهي، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ ليس القرآن الكريم حدساً أو افتراضاً ولا خيالاً أو فكرة أو عملاً من أعمال البشر، إنّما هو [كتاب] مُستندٌ إلى علم الله سبحانه، ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ القرآن الكريم ليس [كتاباً] محدوداً بزمن أو مكان مُعيّنيْن ولا بقوم أو مِلّة مُعيّنة لأنّه مُستندٌ إلى علم الله سبحانه، ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ أسرار القرآن لا تنتهي، تماماً كما أنّ علم الله سبحانه هو علم غير متناهٍ، ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ لا يدفعنّكم [أيّها المسلمين] كُفر المشركين ودعاوى أعداء الله إلى التشكيك في حقّانية القرآن ووحدانيّة الله سبحانه، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟... أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال**: تؤكد هذه الآية الشريفة أنَّ الله سبحانه سيُري الذين يحرصون على هذه الحياة الدنيا ومتاعها جزاء أعمالهم الذي يستحقّون غير منقوص منه، لكنّنا نطالع آية قرآنية أخرى تقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1]، فكيف يمكننا التوفيق والجمع بين مضمون هاتيْن الآيتيْن؟

الجواب: يقول الله سبحانه في الآية (١٥) من سورة هود عليه السلام إنّ الله سبحانه سيُري الكفّار نتائج أعمالهم وأفعالهم، في حين أنّ الآية المذكورة في سورة

(١) سورة الإسراء: الآية ١٨.

الإسراء لا تشير إطلاقاً إلى موضوع الأعمال، بل تشير إلى مسألة التمنّي والأمل إذ يُبيّن الله تعالى أنّ مِن الناس مَن يصل إلى جزء من أحلامه وأُمنياته في هذه الدنيا.

- الذين لا يؤمنون بالمعاد والبَعث ولا يفعلون ما يُرضي الله لا يستحقّون من الله شيئاً حيث يُؤتيهم في هذه الدنيا بعض ما يرغبون مقابل خدماتهم واختراعاتهم واكتشافاتهم من دون أن يكون لهم خلاق في الحياة الآخرة. ومن يؤمن بالحياة الأخرى هو الذي يمكنه أن يتوقّع أجراً أُخروياً كذلك، وليس مَن لا يُؤمن بالله أصلاً ولا يعترف بالمعاد، فمِثل هذا لا يمكنه أن ينتظر خيراً هناك.
- مَن يطلب الدّنيا بدلاً من الآخرة ويرغب في الفاني بدلاً من الدائم الباقي ويتعلّق بالمحدود دون اللامحدود، فإنّه سيحصل على نتيجة عمله هذا وثمرته في هذه الدنيا المحدودة والفانية كذلك.

التعاليم:

١ ـ لا ريب في أنّ العمل وحده لا يكفي بل لا بدّ من وجود الدافع والهدف كعاملَيْن أساسيّن، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ ـ الإنسان مُخيَّر ويمكنه أن يتصرّف كيفما يشاء، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾.

٣ ـ إنّ الله عادل فهو يُعطي الأجر في هذه الدنيا حتى للذين لا يؤمنون به ولا يأتمرون بأوامره، من دون أن يُنقص من أجرهم شيء، ﴿نُوَفِّ... لَا يُبْخَسُونَ﴾.

٤ ـ السّبب في عدم قبول البعض للحقّ هو تمسّكهم بهذه الدنيا وزينتها، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ... مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- لمّا كان من واجب الإنسان العبادة إضافة إلى الحاجة بهدف التقرّب فإنّ العمل

من دون أيّ هدف هو عمل باطل، وعندما لا يكون الهدف هو التقرّب ويكون كلّ ما يقوم به ويفعله لأجل هذه الدنيا، فإنّ ثمرة ذلك العمل ونتيجته ستنحصر ضمن إطار هذه الدنيا فقط، بينما سيُعتبر في الآخرة كلّ ما قام به في هذه الدّنيا مجرّد عمل باطل.

□ يُقال: إنّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ خرج من عند أهله فإذا جارية عليها ثياب وهيئة، فجلس عندها. فقامت فأهوى بيده إلى عارضها فمضت فأتبعها بصره ومضى خلفها، فلقيه حائط فخمش وجهه، فعلم أنّه أُصيب بذنبه. فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك. فقال ﷺ: «**أنتَ رجلٌ عجّل الله عقوبة ذنبكَ في الدنيا؛ إنّ الله تعالى إذا أراد بعبدٍ شَرّاً أمسك عنه عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة، وإذا أراد به خَيراً، عَجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا**»[1].

□ كان الإمام عليّ عليه السلام كلّما قرأ هذه الآية يقول: «**فكيف أستطيعُ الصّبرَ على نارٍ لو قُذفت بشَررة إلى الأرض لأحرقت نَبْتَها؟**»[2].

التعاليم:

١ ـ ستكون صحيفة المُتعلّقين بهذه الدنيا وزينتها خالية من أيّ عمل صالح في الآخرة، ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

٢ ـ العمل من أجل الدنيا أو رئاء الناس هو عمل باطل لا قيمة له في الآخرة، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

□ تؤكد بعض الروايات التي وصلتنا عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أنّ المقصود بالـ

(١) تفسير مجمع البيان، ج٥، ص ٢٥٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٠، ص ٣٤٦.

(شَاهِد) في هذه الآية هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام نفسه كذلك في إحدى خُطبه قائلاً: «وَأَنَا الشَّاهِد»[١].

- استناداً إلى هذه الآية الشريفة فإنّ الشاهد على النبيّ صلى الله عليه وآله هو واحد من أهل بيته وليس شخصاً آخر غريباً عنه، ووفقاً للروايات الواردة عن طريق أهل السنّة والشيعة فقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنتَ مِنّي وأنا مِنك»[٢].

وجاء في الآية الأخيرة من سورة الرّعد أنّ الكفّار لمّا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ردّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله قائلاً بأمر من الله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وفي الروايات السنيّة والشيعية أنّ المُراد من جملة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام فهو الشاهد على صِدق الرسول صلى الله عليه وآله وعلى نبوءته. ففي الآية (١٧) من سورة هود عليه السلام قيل عنه: (شَاهِد)، وفي الآية (٤٣) من سورة الرّعد سُمي بالـ (شَهِيد).

التعاليم:

١ ـ حاوِلوا أن تحاجّوا الضمائر الحيّة والفطرة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهاميّ، ﴿أَفَمَن كَانَ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم حجّة الله على الناس، ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٣ ـ من رافق النبيّ صلى الله عليه وآله طيلة حياته الشريفة ولم يتخلّ عنه لحظة واحدة لا بدّ من أن يكون خليفته على الحقّ كذلك، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾.

٤ ـ يُمثّل الأصحاب المُخلصون والثابتون على إيمانهم والمُضحّون بأنفسهم وسيلة من الوسائل التي تعرّفنا بالأنبياء وتُثبت حقّانيّتهم وصِدقهم، ﴿بَيِّنَةٍ... شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، المجلس الثالث عشر؛ وقارن بأصول الكافي، ج١، ص ١٩٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصّلح، باب كيف نكتب؛ مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص ٣٥٦.

٥ ـ أتمّ الله سبحانه حجّته على الناس من خلال القرآن الذي يُعتبر مُعجزة إلٰهيّة وكذلك الشاهد المُتمثّل بعليّ بن أبي طالب عليه السلام إضافة إلى التوراة التي بشّرت به قبل ظهوره، ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ... شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

٦ ـ الكُتُب السماوية تُؤيّد بعضها بعضاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

٧ ـ تُعتبر معرفة المُخاطَب في التبليغ أمراً أساساً، فاليهود كانوا موجودين في الحجاز قبل مجيء المسيحيّين إليها، والخطاب في القرآن الكريم موجّه إلى هذه الفئة [أي اليهود] على الرغم من أنّ الإنجيل كذلك بشّر بظهور النبيّ ﷺ في كثير من آياته، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

٨ ـ من المؤكّد أنّ الكُتُب والقوانين السماوية هي طُرُق لهداية الناس ووسيلة لنزول رحمة الله سبحانه، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

٩ ـ لا بدّ للناس من اتّخاذ الكُتُب السماوية المُنزَلة هادياً وقائداً لهم، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾.

١٠ ـ الإمامة والرّحمة أمران ضروريان ومتلازمان، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

١١ ـ يجب أن يكون الحقّ هو المعيار وليس التحزّب، وبدلاً من الانتماء للحزب والعنصر والإقليم لا بدّ من اتّباع الحقّ، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

١٢ ـ على الناس جميعاً التمسّك بالقرآن وهَدْيه مهما كانت اثنيّاتهم وطوائفهم وأحزابهم، وإلّا فلن ينجوا من غضب الله وسخطه، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

١٣ ـ لا ينبغي للمؤمنين أن ييأسوا أو يرتابوا في دينهم وإيمانهم بسبب كُفر بعض الناس، ﴿وَمَن يَكْفُرْ... فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

١٤ ـ الأغلبية ليست دائماً معياراً للحقّ، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ... أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

❑ يُوجد شهود عدّة في محكمة يوم القيامة، منهم:

أ) الله سبحانه وتعالى وهو الشاهد على الأعمال والأفعال كلّها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

ب) الرسول الأعظم ﷺ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٢].

ج) الأئـمّـة الـمـعـصـومـون ﷺ، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٣]. واستناداً إلى الروايات فإنّ المقصود بالـ (أُمَّة) هو الأئمة الأطهار لأنّ باقي أفراد الأمّة لا يمتلكون العلم والعصمة اللازمتيْن للإدلاء بالشهادة في ذلك اليوم.

د) الملائكة، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٤].

هـ) الأرض، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٥].

و) الوجدان والضمير، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٦].

ز) أعضاء الجسم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[٧].

ح) الزّمان؛ فالإمام السجّاد عليه السلام يقول في الدّعاء السادس من أدعية الصحيفة السجاديّة: «**وهَذَا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ، وهُو عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيد**».

ط) العَمل، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[٨].

---

(١) سورة الحجّ: الآية ١٧.
(٢) سورة النساء: الآية ٤١.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٤) سورة ق: الآية ٢١.
(٥) سورة الزلزال: الآية ٤.
(٦) سورة الإسراء: الآية ١٤.
(٧) سورة النور: الآية ٢٤.
(٨) سورة الكهف: الآية ٤٩.

□ **سؤال**: أطلق القرآن الكريم كلمة ﴿أَظْلَمُ﴾ على أنواع كثيرة من الذنوب، في حين لا بدّ من أن يكون أعظم الظلم واحداً لا غير، فما معنى ذلك؟

الجواب: على الرغم من ورود هذه الكلمة (١٥) مرّة في كلّ القرآن الكريم لكنّها جميعاً تشير إلى الانحرافات والضلالات الفكرية بما في ذلك الشِّرْك والافتراء وكتمان الحقّ والصدّ عن سبيل الله وذِكره. وعلى هذا، فإنّ أكبر الظلم ـ كما هو واضح ـ هو الظلم الفكريّ والثقافيّ والعقائديّ.

□ يُبيّن القرآن الكريم في هذه الآية وبعض الآيات القادمة، صفات المُفترين على الله سبحانه، منها: أنّهم أكثر الأشخاص ظُلماً؛ وأكثرهم حرماناً من ألطاف الله؛ والذين لا يؤمنون بيوم القيامة؛ ويحرّفون الحقائق ويزيّفونها؛ ويصدّون عن سبيل الله؛ وهؤلاء ليسوا بمُعجزين في هذه الدنيا وما لهم في الآخرة من أولياء؛ ولا شكّ في أنّهم يستحقّون عذاباً إضافيّاً؛ وهؤلاء قضوا سنيّ حياتهم في العبث واللّهو؛ وباءت جهودهم كلّها بالفشل؛ وخسروا أنفسهم أخيراً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الافتراء على الله تعالى هو أكبر أنواع الظّلم؛ لذا يجب على المؤلّفين في العلوم الدينيّة والمُتحدّثين باسم الدّين أن يكونوا حَذرين في ما يقولونه أو يكتبونه. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ هناك علاقة وثيقة بين حجم الظّلم وقُبحه من جهة وبين المعنيّ بذلك الظلم من جهة أخرى، ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ في يوم القيامة ستزول الحُجُب وتُرفَع الأستار ولن يبقى هناك أيّ شيء يُمكن إخفاؤه أو كتمانه، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ ستمتلئ محكمة يوم القيامة بالكثير من الشّهود [العدول] وسيشهد كلّ منهم بما يعلم؛ إذاً، على كلّ واحد منّا أن يرقب عمله ويلاحظ فعله، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

إشارات:

- يعمد أعداء الدين إلى الصدّ عن سبيل الله تعالى بأساليب مختلفة ووسائل متنوّعة، منها: البدعة والتهمة والتفسير بالرّأي ووضع الأحاديث وابتداع الشبهات وتعطيل المساجد وإبعاد آل بيت الرسول ﷺ وتنحيتهم عن حقّهم وعدم الاستناد إلى تعاليمهم والنّهي عن المعروف (بدل المُنكر) واختلاق المعاذير ووضع العراقيل والترويج للملاهي المُفسِدة والتعلُّل بالمسائل الثانوية وتمجيد بعض الشخصيّات من دون وَجه حقّ وإشاعة الباطل وإهانة المؤمنين واحتقارهم وتحريم المباحات وتكريم الباطل والتبليغ المغلوط وتعظيم الطاغوت وغير ذلك.
- من النماذج الحيّة للصدّ عن سبيل الله غَلق أبواب بيوت أولياء الله وآل بيت الرسول ﷺ والأئمّة المعصومين العادلين عليهم السلام.

التعاليم:

١ ـ الصدّ عن سبيل الله أو بيانه بشكل مُغاير لحقيقته هو الظّلم بعينه، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ... ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾.

٢ ـ يقوم عدوّ الله في البداية بغلق الطُّرق والصدّ عن سبيل الله، فإذا لم يُفلح عمدَ إلى تشويه معالم ذلك السّبيل، ﴿يَصُدُّونَ... وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

٣ ـ يُمثّل تحريف العلوم والمعارف الدينيّة وتشويه صورة الدّين، نوعاً من أنواع الصدّ عن سبيل الله تعالى، ﴿يَصُدُّونَ... وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

٤ ـ لا اعوجاج ولا انحراف في دين الله إطلاقاً، بَيْدَ أنّ أعداء الدّين هم الذين يختلقون الشبهات حوله وهم الذين يُصوّرونه بشكل مُنحرف، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

٥ ـ يُعتبر إنكار الآخرة والمعاد مقدّمة لكلّ أنواع الظّلم، ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾

إشارات:

□ **سؤال**: ألا يتعارض العذاب المُضاعف مع العدل الإلٰهيّ؟

الجواب: لا شكّ في أنّ الذي يدفع الآخرين إلى الانحراف ويُجبرهم على الكُفر بسبب مقامه الرفيع وسلطاته الواسعة وقدراته العظيمة، لا شكّ في أنّه يتحمّل وزر كلّ المُنحرفين. وهكذا فإنّ ذنوب العلماء والعارفين تتضاعف مُقارنة بذنوب الأشخاص العاديين وذلك لأنّهم أسوة سائر الناس وقدوتهم، وهذا هو عين العدل.

التعاليم:

١ ـ الظالمون ليسوا بخارجين عن قدرة الله تعالى وسيطرته وغضبه، وسوف يرون عاقبة ما فعلوا لا محالة، ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢ ـ لا يظنّ المفترون أنّ دفاعهم المستميت عن الطواغيت وحمايتهم لهم ستنجيهم من غضب الله أو عذابه، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

٣ ـ لا جرم أنّ قادة الضلال في المجتمع الذين يتسبّبون في انحراف الآخرين ودفعهم إلى الهاوية، سيتحمّلون وِزر كلّ فرد من أفراد مجتمعاتهم، ﴿يَصُدُّونَ... وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا... يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾.

٤ ـ لقد أعمى وأصمّ الكُفر واللجاجة والعناد والتعصّب أبصار الضالّين وأسماعهم حتى أصبحوا عاجزين عن رؤية الحقّ أو سماعه، ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ...﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾

إشارات:

□ تُعتبر هذه الدنيا في الثقافة الإسلاميّة سوقاً والناس فيها باعة، وبضاعتهم التي يعرضونها للبيع هي الأنفس والأموال والأعمال، وأمّا الشُّراة والمتسوّقون فهم

قسمين: القسم الأوّل وهو الله ﷻ الذي يشتري تلك البضائع [وإن كان بعضها لا يساوي شيئاً] بأغلى الأثمان، أمّا القسم الثاني من المُشترين فهم كلّ ما سوى الله، وعلى رأسهم الشيطان الرّجيم الذي لا يدفع إلّا أبخس الأثمان مُقابل تلك البضائع [وإن كان بعضها لا يُقَدَّر بثَمَن]، وليس الثّمن الذي يدفعه سوى أهواء نفسيّة. ولذلك نرى أنّ القرآن الكريم يستخدم الكلمات (أجْر) و(ثَواب) و(ضِعْف) و(أضعاف) كإشارة للرّبح في حين عَبّر عن الأضرار والخسائر بكلمات مثل (خُسْر) و(خُسرانٌ مُبين) و(الأخسَرين).

أمّا الشيء الذي ينبغي أن لا يغيب عن بالنا فهو أن أيّ ضرر أو خسارة يمكن تعويضهما إلّا انقضاء سنيّ العمر.

□ في بعض الأحيان تزول الأموال والمساكن والبيوت والسلطة والنفوذ والشهادات التي يحصل عليها الإنسان وحتى المناصب التي تُوكَل إليه، وفي أحيان أخرى نراه يفقد ذاته وإنسانيّته وشخصيّته وهذا هو الخُسران المُبين.

التعاليم:

١ ـ قد تكون الأقوال الباطلة والادّعاءات الفاسدة جميلة المظهر، لكنّها جميعاً تزول وتنمحي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ خسارة النّفس وضياع العُمر هباءً هو الحدّ الأقصى للخسارة، أمّا الخسائر الماديّة فلا تساوي شيئاً في مُقابل ذلك كلّه، ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ... هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

٣ ـ يُمكن تعويض الخسائر أو الأضرار الدنيويّة، لكنّ المهمّ هو أن لا نخسر شيئاً يوم القيامة حيث لات ساعة مَندم، ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ «الخَبْت» الخضوع والتسليم، وكذلك الهدوء والطمأنينة.

□ ورد التشجيع إلى جانب التحذير والتهديد، وتُشير هذه الآية إلى صفات أهل الحقّ والإيمان بعد أن مرّ ذِكر المُفترين ومصيرهم في الآية السابقة.

التعاليم:

١ ـ يجب علينا أن لا نغترّ أو نتفاخر بأعمالنا الصالحة لأنّ شرط العبوديّة لله سبحانه هو التسليم المطلق له، ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢ ـ لا شكّ في التأثير الكبير الذي تولّده الحالات الباطنية والمعنوية على الثواب الذي يحصل عليه الإنسان، ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ كما أنّ الجسد يمتلك العين والأُذن فإنّ القلب والروح كذلك يمتلكان السّمع والبصر، وكما أنّ الأعمى أو الأصمّ لا يستطيع إدراك المحسوسات الموجودة في هذا العالم وهو بذلك محروم من الاستمتاع بكلّ تلك الأمور، فإنّ المُعاندين أيضاً لا يستطيعون فَهم المعارف الإلٰهيّة وإدراكها، وهم في الحقيقة محرومون من أيّ مُتعة أو لذّة معنوية.

التعاليم:

١ ـ إنّ مَن اقتصر بَصَره وتحدّدت بصيرته بالمحسوسات المادّيّة وعَميتا عن المعنويّات وعن الآخرة ككلّ، هو الأعمى بكلّ ما لهذه الكلمة من مَعنى، ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ... وَٱلْبَصِيرُ﴾.

٢ ـ حاولوا أن تحاجّوا الضمائر الحيّة والفطرة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهاميّ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ يُعتبر سيّدنا نوح عليه السلام أوّل الأنبياء من أُولي العَزم، وهو كذلك أوّل مَن حارب الشّرك وقاوم عبادة الأصنام. فلمّا أُغرق الكُفّار جميعاً بالطوفان كان مَن بقي مع نوح عليه السلام ونجا معه أتباعه والمؤمنون به، ولذلك سُمي النبيّ نوح عليه السلام بأبي البشر الثاني، ودُعي أيضاً بشيخ الأنبياء لطول عُمره أكثر من بقيّة الأنبياء والمُرسلين.

□ قد يكون العذاب الذي خَشي النبيّ نوح عليه السلام نزوله على قومه هو غضب الله سبحانه في هذه الدنيا، حيث يُخبرنا القرآن الكريم في الآيات التالية ما قاله قومه له وهو: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ اقتصرت دعوة الأنبياء في المرحلة الأولى على قومهم فقط، ﴿أَرْسَلْنَا... إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ تحذير الأنبياء لقومهم يصبّ في خانة منافع الناس وخيرهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾.

٣ ـ الشخص الغافل هو أحوج ما يكون إلى التحذير والنذير، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾.

٤ ـ يجب أن تكون الدعوة واضحة بيّنة، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥ ـ الأنبياء عليهم السلام مُكلّفون بتحذير الناس وبيان موارد مصلحتهم في الوقت نفسه، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٦ ـ يتمثّل هدف الأنبياء وواجبهم في توضيح مسألة التوحيد وبيانها، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ لاحِظ أنّ تاريخ الشّرك والمُشركين يعود إلى زَمن النبيّ نوح عليه السلام، ﴿لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٨ ـ من المعروف أنّ مبدأ العبودية وأصل الطاعة والخضوع متأصّلان في فطرة كلّ إنسان، وأمّا ما يقوم به الأنبياء فهو توجيه ذلك ووضعه على الطريق الصحيح، ﴿لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٩ ـ كلّ الأنبياء كانوا حريصين على الناس ولا يريدون لهم إلّا الخير والسعادة، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠ ـ يتلخّص واجب المُبلّغ والمُعلّم ومسؤوليّتهما في بيان الأخطار والتحذير من العواقب السيئة الناجمة عن الشّرك بالله تعالى، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- يعمد المُخالفون للحقّ في بعض الأحيان إلى إهانة الأنبياء والمرسلين والتقليل من شأنهم بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾، وفي أحيان أخرى كانوا يستهزئون بأصحابهم وبالذين اتّبعوهم ويحقّرونهم قائلين: ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، ويسخرون من الدعوة والدّين ويقولون: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، أو ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أو أنّ ما جاء به النبيّ هو كلام عاديّ يمكنهم أن يأتوا بمثله إن شاؤوا، إلى غير ذلك.

التعاليم:

١ ـ يمثّل الملأ أو الأشراف من قوم الرسول أو النبيّ في العادة خط المواجهة الأوّل ضدّه، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ـ يبدو أنّ المسكتبرين مُستاؤون بالدرجة الأولى من مساواة النبيّ إيّاهم مع

الطبقة العادية من الناس وخاصة طبقة المحرومين والمساكين، ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

٣ ـ الذين لا تربطهم مع هذه الدنيا علاقة وطيدة هم أسرع الأفراد إيماناً، ﴿مَا نَرَىٰكَ... ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

٤ ـ من وجهة نظر المُنهمكين في ملذّات الحياة الدنيا والمنشغلين بالشؤون المادّية فإنّ الأموال والثروات لها قيمتها الخاصّة التي لا يمتلكها الحقّ أو الحقيقة، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

٥ ـ ليس لدى مخالفي الأنبياء والمُعترضين عليهم أيّ برهان بيّن، بل إنّ كلّ ما يدّعونه إنّما هو مستند إلى الظنّ والريبة والوهم، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾.

٦ ـ عُقول الكفّار في عيونهم وأبصارهم، وقد وردت كلمة ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ ثلاث مرّات في هذه الآية وحدها.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ تُجيب هذه الآية الشريفة عن الشّبهتيْن اللتيْن أوردهما الكفّار في الآية السابقة على نبيّهم:

أ) قال الكفّار: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فتجيب الآية عن ذلك بالقول: نعم، على الرغم من أنّني أُشبِهُكم في الظاهر، ولكن ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

ب) قال المُعترضون على نبيّهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾، فتردّ عليهم الآية: كلّا، ليس الأمر كما تظنّون، بل إنّ هؤلاء آمنوا بربّهم وهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ منه وبرهان قاطع، وليس ما يفعلونه خالياً من الأدلة والبراهين.

□ لا يخفى ما اتّبعه الأنبياء من حُسن السلوك والمُداراة وضبط النفس وسعة الصّدر مع المُعاندين لهم على الرغم من كلّ ما قالوه عنهم واتّهموهم به ونسبوه إليهم من شرّ الكلام، ومع هذا لم يُثنهم ذلك عن مواصلة الحديث معهم بالمنطق والبرهان نفسه إلى جانب الحرص عليهم والخوف على مصيرهم.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء هم من البشر ومع البشر وهم حريصون عليهم كحرصهم على أنفسهم، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾.

٢ ـ حاولوا أن تستخدموا الأسلوب العاطفيّ في أثناء التبليغ، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾.

٣ ـ كانت دعوة الأنبياء قائمة على أساس البيّنة والبراهين، ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾.

٤ ـ مقام النبوّة هو رحمة إلٰهيّة، ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾.

٥ ـ يؤمن الأنبياء جميعاً بأنّ كلّ ما يمتلكونه من الكمالات إنّما هي من عند الله سبحانه، ﴿مِّن رَّبِّي... مِّنۡ عِندِهِۦ﴾.

٦ ـ إنّ مَن يعجز عن إدراك البرهان والمعنويّات والنبوّة وفهمها، هو الأعمى، ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٧ ـ كلّنا نعلم بأنّ الإنسان مُخيّر في اعتناق أيّ دين أو مذهب يريده، وليس مُجبَراً على ذلك، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾.

٨ ـ ليس باستطاعة الإنسان التنعّم بنور الوحي والاهتداء به ما لَم يمتلك الاستعداد لقبول الحقّ، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾

التعاليم:

١ ـ عدم توقّع الأنبياء الأجر من وراء دعوتهم أو انتظار الشّكر مُقابل ذلك هو دليل حقّانيّتهم وصِدقهم، ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾.

٢ ـ يكمن رمز نجاح المُبلّغ في مهمّته في عدم انتظاره لأيّ أجر أو مُقابل من الناس وتجاهله الأثرياء ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ ولا شكّ في أنّ أجر المُبلّغين كبير وعظيم عند الله سبحانه، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لو كان الأنبياء يبحثون عن الرّبح لانضمّوا إلى صفوف الأغنياء والملأ من قومهم وتركوا الفقراء على حالهم، ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.

٤ ـ كان الملأ وسادة القوم يطلبون من الأنبياء أن يطردوا الفقراء والمساكين من حولهم كشرط لقبولهم دعوتهم والإيمان بهم، لكنّ الأنبياء جميعاً ردّوا على ذلك بحزم ولم يقبلوا به، فجملة ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ﴾ اسمية والباء فيها للتأكيد.

٥ ـ إذا لم يكن هدف المُبلّغ [الحقيقيّ] هو المال والسلطة، فسيتساوى لديه الفقير والغنيّ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٦ ـ يجب أن لا نُعير توقّعات المستكبرين وأحلامهم أيّ اهتمام، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٧ ـ يعتبِر الكُفّارُ المؤمنين أراذل لكنّ النبيّ ﷺ يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٨ ـ لا ينبغي لأيّ حكومة حقّة تجاهل الطبقة المحرومة وإهمالها من أجل إرضاء الأغنياء والتودّد إليهم، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٩ ـ لا يحقّ طَرد مَن هم مُكرَّمون عند الله، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

١٠ ـ من شأن ذِكر يوم القيامة وأهوالها تصحيح مواقفنا في هذه الدنيا، ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

١١ ـ من المؤكّد أنّ احتقار المؤمنين والاستهزاء بهم سببه الجهل، ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

١٢ ـ يُسمّي القرآن الكريم أولئك الذين يعتبرون المؤمنين أراذل لهم، يُسمّيهم بالجَهلة ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ـ فلا النُبل أو المقام السامي هما علامة على العِلم ولا الفقر أو الحرمان دليل على الجهل.

١٣ ـ تُمثّل درجة اللّقاء والشهود إحدى درجات العرفان، وهو ما لا يمكن

للمرفّهين أن يدركوه أو يشعروا به أو يتوصّلوا إليه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

التعاليم:

١ ـ إنّ طرد المؤمنين أو احتقارهم يُغضب الله سبحانه ولو كان الفاعلون هم الأنبياء أنفسهم، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾.

٢ ـ ليس بإمكان أحد الوقوف في مواجهة الغضب الإلٰهيّ أو مَنعه، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ إذا طُرِد المؤمنون فمَن ذا الذي سينصر دينَ الله؟ ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾.

٤ ـ حذار من إرضاء المخلوق على حساب الخالق، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾.

٥ ـ مُداراة الأنبياء الناس نابع من صميم مسؤوليتهم الإلٰهيّة وليس لها علاقة أبداً بالمكانة الشخصيّة أو الاجتماعيّة لهم، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ حاولوا أن تحاجّوا الضمائر الحيّة والفطرة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهاميّ، ﴿مَن يَنصُرُنِي... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٧ ـ كلّ المخلوقات عاجزة ولا طاقة لها بغضب الله ـ سبحانه ـ وهذا ما تُقرّه جميع العقول، على الرغم من تجاهلهم هذا الأمر في بعض الأحيان، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

إشارات:

□ عِلم الغيب مُطلقٌ يحيط بكل شيء وهو مختص بالله وحده: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ

ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[١]؛ لكن، قد تُفتَح بعض نوافذ الغيب لأولياء الله بإذنه طبعاً كما يقول تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ﴾[٢]. ولهذا فإنّ أنبياء الله ورُسُله يعلمون الغيب بإذن الله تعالى وهو مصداق قوله تعالى في الآيتيْن (٢٦) و(٢٧) من سورة الجنّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

□ لا يقتصر عِلم الغيب وحده على الله سبحانه بل وكذلك القدرة على الإتيان بجميع الأفعال الخارقة للعادة (ونعني بذلك المُعجزات) فهي الأخرى شأن من شؤونه تعالى وحده دون غيره، لكنّه ﷻ قد يمنح شيئاً من تلك القدرة وبالمقدار والمصلحة اللازمتيْن إلى أيّ كان من مخلوقاته. وعلى الرغم من أنّ الموت والحياة هما بيد الله تعالى كما هو معروف ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[٣]، إلّا أنّه سبحانه منح سيّدنا عيسى عليه السلام القدرة كذلك على إحياء الموتى بإذنه ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾[٤]، وعلى الرغم من أنّ الله سبحانه هو قابض الأرواح ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٥] لكنّه قد يُوكِل فعل ذلك إلى بعض ملائكته أيضاً فتقبض أرواح المخلوقات بإذنه ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٦]، وعلى الرغم من أنّه تعالى هو خالق كلّ شيء ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ﴾[٧]، لكنّ سيّدنا عيسى عليه السلام كان يخلق بعض الأشياء بإذن الله كذلك، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ﴾[٨].

التعاليم:

١ ـ ليس من طَبع الأنبياء ولا سلوكهم الادّعاء الفارغ، فواجبهم هو الدّعوة وهدفهم يكمن في الإرشاد في ظلّ عبوديّتهم لله سبحانه، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ...﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٩.
(٢) سورة هود: الآية ٤٩.
(٣) سورة النّجم: الآية ٤٤.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٩.
(٥) سورة الزّمر: الآية ٤٢.
(٦) سورة السّجدة: الآية ١١.
(٧) سورة الرّعد: الآية ١٦.
(٨) سورة المائدة: الآية ١١٠.

٢ ـ لا يُعتبر عِلم الغيب ولا امتلاك الخزائن والكنوز شرطاً من شروط النبوّة، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ...﴾.

٣ ـ يكمن هدف الأنبياء ﷺ في إرشاد الناس معنويّاً وليس في تقسيم الخزائن والكنوز المادّيّة، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ...﴾.

٤ ـ أيّ نعمة تُوهَب لنا لا بدّ من أن تكون صادرة من مَعين ما أو من خزانة مُعيّنة. (و«الخزائن» جمع يشير إلى مصادر جميع النِّعَم).

٥ ـ ينبغي أن لا نُغالي في شخصيّات أولياء الله سبحانه، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ... وَلَا...﴾.

٦ ـ من الواضح أنّ نظرة الملأ من قوم نوح ﷺ كانت نظرة سطحيّة جوفاء، ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ...﴾.

٧ ـ لا يحقّ لنا الحُكم على الآخرين من خلال النّظر إلى أشكالهم وهيئتهم الظاهرة، ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ...﴾.

٨ ـ لا تشمل ألطاف الله سبحانه إلّا المؤمنين الضعفاء والمساكين، ولا شأن لذلك بما نتخيّله أو نتوهّمه، ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٩ ـ الاستحقاق والجدارة الباطنية والمعنوية للإنسان هي معايير اللّطف الإلٰهيّ، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

١٠ ـ طرد المحرومين واحتقارهم لمجرّد فقرهم وعوزهم هو ظلم كبير، ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١ ـ الادّعاءات الكاذبة والأقاويل الفارغة وإساءة استخدام المناصب والوظائف الخادعة، ظلم كبير كذلك، ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

☐ عندما يكون الجدال قائماً على دعائم الحقّ فهو عندئذٍ ذو قيمة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، ولكن إذا كان أساس المجادلة باطلاً وإفكاً، فلا قيمة لها إطلاقاً، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ تشير الآية بوضوح إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا صامدين في دعوتهم ومستمرّين فيها حتى النهاية، ﴿جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾.

٢ ـ لاحِظ أنّ الأعداء يُسمّون المنطق الصحيح والبرهان الحقّ جدالاً وعناداً، ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾.

٣ ـ ليس صحيحاً أن نعتبر إمهال الله ووعده مؤشّراً على صحّة ما نقوم به، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

٤ ـ الإنسان عجول في كلّ شيء، حتى في نزول العذاب، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

٥ ـ لم يأت دعاء سيّدنا نوح عليه السلام على قومه إلّا بعد أن أعلن كفّارهم كامل استعدادهم للهلاك، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

٦ ـ يلجأ الكفّار إلى إنهاء المناقشة وسدّ باب البحث؛ لأنّهم لا يمتلكون أيّ منطق وليس لديهم ما يقولونه، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

٧ ـ كان سيّدنا نوح عليه السلام يُحذّر الكفّار من عذاب الله تعالى باستمرار ومن دون انقطاع (إذ استُخدِمَت كلمة ﴿تَعِدُنَآ﴾ بدلاً من «وَعَدْتَنا»).

٨ ـ يبدو أنّ الكفّار كانوا يرتابون من صِدق أنبيائهم أو ربّما شكّوا في ما كانوا يقولونه لهم، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) سورة النّحل: الآية ١٢٦.
(٢) سورة المؤمن (غافر): الآية ٥.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾

إشارات:

- تُطلق كلمة الـ«نُصْح» على الكلام أو الفعل الخالصيْن اللذيْن يُراد بهما الإصلاح، و«الغَيّ» هو الجَهل الناجم عن الفساد. والفرق بين (**الإضلال**) و(**الإغواء**) هو أنّ الضالّ يعرف الهدف لكنّه ضلّ طريقه، أمّا الغَيّان فهو مَن أضاع الهدف والطريق معاً.
- لا شكّ في أنّ نسبة الإضلال والإغواء إلى الله تعالى هو من باب مُعاقبة العناد والفساد الأخلاقيّ لدى الضالّين، لا أن يقوم الله سبحانه بإضلال الآخرين منذ البداية ومن دون أيّ مقدّمات، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الأنبياء مأمورون بإبلاغ الناس فقط، أمّا مُعاقبة الضالّين فبيد الله وحده، ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ ليس لأيّ شيء أن يُجبر اللهَ سبحانه على القيام بأمر ما إطلاقاً (حتى بعد أن يُهدّد سبحانه بفعل شيء ما)، ﴿إِن شَآءَ﴾.

٣ ـ من المعلوم أنّه ليس باستطاعة الكفّار منع نزول العذاب الإلٰهيّ أو حماية أنفسهم ووقايتها منه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤ ـ الأنبياء حريصون على البشر ورؤوفون بهم، ﴿نُصْحِىٓ﴾.

٥ ـ إرادة الله سبحانه فوق كلّ إرادة، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ... إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ (وحتى التأثير الذي يولّده كلام النبيّ ونُصحه قومه لا يكون إلّا بالقدر الذي يريده الله سبحانه).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦.

٦ ـ هُدى الناس أو ضلالهم خاضع لإرادة الله وحده، ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

٧ ـ إغواء الضالين بعد عنادهم ومُطالبتهم بنزول العذاب في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هو جزء من الشؤون الربانيّة، ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾.

٨ ـ رَفض الكفّار نصائح الأنبياء يُنزل الغضب الإلٰهيّ، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٩ ـ حتى وإن تجاوز الله سبحانه عن مُعاقبتنا في هذه الدنيا، فإنّ مصيرنا يوم القيامة سيكون بيده سبحانه، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٠ ـ إنّ رجوع جميع المخلوقات إلى الله هو أمر خارج عن إرادتها واختيارها، فقد قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يقُل «إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ».

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- أصل «الإجرام» و«الجُرم» في اللّغة هو قطف الفاكهة الفجّة غير الناضجة، ثمّ أُطلق في ما بعد على كلّ عمل قبيح وطالح.

التعاليم:

١ ـ عَلّم الله سبحانه أنبياءَه أسلوب التحاور والتعامل مع المشركين، ﴿يَقُولُونَ... قُلْ...﴾.

٢ ـ نسبة الأفعال التي يقوم بها الناس إلى الله سبحانه هي جُرم ومعصية، ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾.

٣ ـ كلّ امرئ مسؤول عن عَمله وفعله، ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾.

٤ ـ البراءة من الشّرك أمر واجب، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ﴾.

٥ ـ الشّركَ جريمة كُبرى، ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ
إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ دُعاء النبيّ نوح عليه السلام على قومه في سورة (نوح) الآية (٢٦) بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ كان وفقاً للإخبار الذي تلقّاه من الله عزّ وجلّ في هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ يصل الإنسان أحياناً إلى درجة من السقوط حيث لا رَجعة ولا أمل في خلاصه أبداً، ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾.

٢ ـ يُنبئ الله تعالى ـ متى شاء ـ رُسله ببعض الأخبار المستقبليّة، ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾.

٣ ـ لا ينبغي للقادة والدعاة الدينيين أن يتوقّعوا إيمان جميع الناس بهم، ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾.

٤ ـ على الرغم من حِرص الأنبياء على أقوامهم، فإنّه لا يجب عليهم التأسّف على المُعاندين منهم إطلاقاً، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يحقّق الله سبحانه إرادته ومشيئته بواسطة الأسباب والعلل الطبيعية ولا ينبغي لنا انتظار الأمور الغيبية على الدوام، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

٢ ـ لا يُعتبر العمل عاراً على أولياء الله، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

٣ ـ الحديث والكلام والتبليغ وحده لا يكفي لتخليص الناس وإنقاذهم، بل لا بدّ من وجود وسيلة للنجاة كذلك، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

٤ ـ من الواضح أنّ صناعة السّفن لها جذور تاريخية عريقية، حيث خاطب الله نبيّه نوحاً عليه السلام قائلاً: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾.

٥ ـ الشعور والإحساس بوجود الله سبحانه وحضوره في كلّ آن ووقت من شأنه أن يمنح الإنسان القوّة والطمأنينة والحصانة ضدّ الكوارث والمصائب، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

٦ ـ ما مِن شكّ في أنّ الاختراعات والإبداعات البشرية مُستلهمة من الله تعالى، ﴿وَاصْنَعِ... بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

٧ ـ يبدو أنّ شفاعة الأنبياء كذلك لا تُجدي في القوم الظالمين، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٨ ـ العناد والإلحاح العقيم مع الأنبياء هو نوع من أنواع الظّلم، ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٩ ـ لاحِظ أنّ دعاء الأنبياء أيضاً وشفاعتهم لا يُغيّران شيئاً في التقديرات الإلٰهيّة المحتومة، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي... إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

١٠ ـ
يُعاقَب الظالمون لا محالة بالعذاب الدنيويّ، ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ لا ينبغي أن تضعف عزيمتنا بسبب استهزاء الأعداء وسخريتهم منّا فقد كان أعداء الله يسخرون كذلك من أنبيائه عليهم السلام. فعندما كان النبيّ نوح عليه السلام مشغولاً بصنع السفينة بأمر الله تعالى كان البعض يمرّون بالقرب منه ويقولون مستهزئين به وبأصحابه: «ترك النبوّة واشتغل بالنجارة»، ويقول آخرون ساخرين منه: «يتّخذ سفينة في البرّ!». وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ

نوحاً عليه السلام صنع السفينة في ثمانين عاماً[١] وأنّه صنعها في مسجد الكوفة[٢] المعروف وأنّ طول السفينة بلغ حوالى (٤٠٠) متر وعرضها (٤٠) متراً[٣].

التعاليم:

١ ـ أنبياء الله جميعاً يمتثلون أوامره سبحانه، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ... وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾.

٢ ـ يبدو أنّ المكان الذي اختاره النبيّ نوح عليه السلام لصُنع الفُلك كان مكاناً عامّاً حيث يمرّ الناس، ﴿مَرَّ عَلَيْهِ﴾.

٣ ـ تتّصف وسائل الإعلام لدى العدو والأساليب التي يستخدمها للإيذاء بالشمولية والاستمرارية، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ﴾.

٤ ـ إذا عجزنا عن فَهم الحكمة وإدراكها في عمل ما (لا سيّما أعمال الأنبياء) فلا يجوز لنا الاستهزاء، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ... سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

٥ ـ عندما يفقد العدوّ كلّ منطق وبرهان يحاول اللّجوء إلى الاستهزاء والسخرية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

٦ ـ لا ينبغي أنّ نكفّ عن مواصلة الإصلاحات والعمل للأجيال القادمة بسبب ما يردّده بعض الناس، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ... سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

٧ ـ كان أصحاب النبيّ نوح عليه السلام يُساعدونه في بناء السفينة، ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾.

٨ ـ على الرغم من أنّ الكفّار كانوا يوجّهون كلامهم إلى النبيّ نوح عليه السلام، إلّا أنّهم كانوا يعنون بكلامهم ذاك الاستهزاء بدعوته والسخرية من أصحابه، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ... تَسْخَرُوا مِنَّا﴾.

٩ ـ لا شكّ في أنّ أسلوب الاستهزاء بادئ ذي بِدء هو أسلوب قبيح؛ لكن إذا

---

(١) تفسير البرهان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) المصدر نفسه.

كان المُراد بالاستهزاء هو مُقابلة المُستهزئ بالمِثل فذلك هو عين العدل[١]، ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

١٠ ـ حذار من فقدان الثقة بأنفسنا أمام استهزاء العدوّ وسخريته، بل ينبغي المواجهة بالردّ بالأسلوب نفسه، ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- قال صاحب تفسير الميزان: «قوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلّهم، والمراد بقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يُفارَق، وهو عذاب النار في الآخرة»[٢].

التعاليم:

١ ـ حاولوا حرمان الكفّار من لذّة استهزائهم بكم وذلك من خلال توجيه الإنذار إليهم وتهديدهم وإخافتهم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٢ ـ إذا قُمنا بمقارنة مرارة استهزاء الكفّار أو الأعداء بنا في سبيل الله مع العذاب المُقيم الذي سيصيبهم، سيهون علينا كلّ شيء، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٣ ـ إنّ ألوان العذاب التي سيلقاها الكفّار في الآخرة هي أكبر استهزاء أبديّ بهم، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) وهو ما أكّده القرآن الكريم كذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن؛ ج١٠، ص ١١٧.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾

إشارات:

- ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ هو الفُرن الذي يُخبَز فيه، أمّا الفوران فهو خروج الماء منه أو كناية عن شدّة الغضب الإلٰهيّ بحيث فاض التنور بالماء وهو مكان استعار النار، وربّما كان المُراد بذلك هو تنّور خاصّ كان خروج الماء منه وفيضانه علامة على شروع العذاب الإلٰهيّ(١).

- ذكرتْ بعض الروايات أنّ نوحاً عليه السلام حمل معه إلى داخل السفينة كذلك بعض الأشجار والنباتات بالإضافة إلى الحيوانات(٢)، وهذا تأكيد على أنّ عبارة ﴿مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ الواردة في الآية الشريفة لا تقتصر على الذّكر والأنثى من الحيوانات بل يُراد بها المؤنّث والمذكّر من كلّ موجود. وورد في تفسير (نور الثقليْن) أنّ المُراد بالزوجيْن هو الذّكر والأنثى من كلّ حيوان (يعني الذكر والأنثى من الحيوانات الأليفة ومثلهما من الحيوانات الوحشية)(٣).

- جاء في تفسير (روح المعاني) للآلوسي أنّه كان لسيّدنا نوح عليه السلام أربعة أولاد هم كنعان الذي هلك بالطوفان، وسام (وهو أبو العرب وفارس والرّوم)، وحام (أبو السودان)، ويافث (أبو الأتراك)(٤). وورد في رواية أخرى أنّه كانت لنوح عليه السلام ابنة مؤمنة ركبت معه السفينة(٥).

---

(١) تفسير نور الثقليْن.

(٢) وأيّد بما أخرجه إسحاق بن بشر وغيره عن علي كرّم الله تعالى وجهه مرفوعاً أنّ نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر، وبما أخرجه أبو الشيخ عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما قال: «أُمِرَ نوح عليه السلام أن يحمل معه (مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن) فحمل من التمر العجوة واللّون...» انظر: تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي).

(٣) الجزء الثالث، ص ٦٣.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، ج١٧، ص ١٤٣.

(٥) انظر: تفسير نور الثقليْن.

□ وفي حديث وهب بن منبه أنّ الله تعالى أعقمَ أصلاب الرّجال وأرحام النساء من قوم نوح عليه السلام فلبثوا أربعين سنة لا يُولَد لهم ولد[١].

التعاليم:

١ ـ استمرّ استهزاء الكفّار بالمؤمنين وسخريتهم منهم حتى لحظة نزول العذاب والغضب الإلٰهيّين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾.

٢ ـ تتضمّن قصّة نوح عليه السلام مع قومه أهميّة كبيرة ومعانيَ كثيرة، ﴿أَمۡرُنَا﴾.

٣ ـ فوران الماء لا يكون إلّا بأمر من الله تعالى، ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

٤ ـ إنّ الله سبحانه هو مُسبّب الأسباب ومُبطِلها في الوقت نفسه، فمرّة يجعل التنّور الذي هو موقد للنار يفور بالماء، ومرّة يُحيل سبحانه النّارَ التي أراد النّمرود بها إحراق سيّدنا إبراهيم عليه السلام بَرداً وسلاماً وروضة جميلة. ثمّ ها نحن نراه تعالى يجعل الماء وهو العنصر الحياتيّ الأهم، سبباً لهلاك الكفّار وانقراضهم بالغرق، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

٥ ـ لاحِظ أنّ الله سبحانه وتعالى أراد الحفاظ على سلالة الحيوانات والموجودات الأخرى ومنعها من الانقراض، ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

٦ ـ العلاقات الدينيّة تسمو على العلاقات الشخصيّة والأُسريّة، فهوذا ابن نوح النبيّ عليه السلام وأمّه (زوجة نوح) مُنعا من ركوب سفينة النّجاة، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾.

٧ ـ التاريخ يُخبرنا بأنّ عدد المؤمنين والسائرين على الحقّ كان ضئيلاً دائماً، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾. وجاء في بعض الروايات أنّ المقصود بـ ﴿قَلِيلٞ﴾ في هذه الآية هو أنّ عدد الذين آمنوا وصدّقوا دعوة النبيّ نوح عليه السلام لم يتجاوز الثمانين نفراً[٢].

(١) بحار الأنوار، ج١١، ص ٣١٢.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣٥٦ و٣٥٧.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

□ قيل إنّ أبا ذَر الصحابيّ الكبير كان يوماً ممسكاً بحلقة باب الكعبة المشرّفة ويصيح بأعلى صوته قائلاً: «أيّها الناس! لقد سمعتُ رسول الله ﷺ بأُذنيّ هاتين وهو يقول: **«إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمِثْلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ»**. وقد روى هذا الحديث كذلك كبار العُلماء في صدر الإسلام؛ منهم أبو سعيد الخدريّ وابن عبّاس وعبد الله بن الزّبير وأنس بن مالك، ونقلتها أمّهات كُتب أهل السنّة[1][2].

ولو وضعنا هذا الحديث المتواتر إلى جانب حديث آخر حيث قال رسول الله ﷺ: **«سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فِرْقَةٌ مِنْهَا نَاجِيَةٌ»**[3] سيتبيّن لنا أنّ النبيّ ﷺ اعتبر أهل بيته ﷺ **مِصداق الفرقة الناجية لذلك قال: «مَن رَكبها نَجا»**؛

(١) انظر: المُعجم الكبير، الطبرانيّ؛ المُستدرك، الحاكم النيسابوريّ؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدّمشقيّ؛ تاريخ الخلفاء، السيوطيّ؛ عيون الأخبار، ابن قُتيبة؛ ذخائر العُقبى، الطبريّ؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغداديّ؛ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهانيّ؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المُعتزليّ؛ تفسير روح المعاني، الآلوسيّ... بالإضافة إلى الكُتب الأخرى، كما جاء تفصيل ذلك في كتاب إحقاق الحقّ، المجلّد التاسع، ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) ورد الحديث المذكور في كُتب أهل السنّة مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظه، مثل: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَ فِيهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»**. المُعجم الكبير، الطبرانيّ، مُسْنَدِ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، الحديث رقم «١٢٢١٨»)؛ وجاء تفصيل الحديث في تفسير القرآن العظيم لابن كثير كما أوردناه في أعلاه قائلاً: «قال الحافظ أبو يعلى: حدّثنا سويد بن سعيد، حدّثنا مفضل بن عبد الله عن أبي إسحاق عن حنش، قال: سمعتُ أبا ذر ﷺ وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنّما مَثَل أهل بيتي فيكم كمَثَل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، من دخلها نجا ومن تخلّف عنها هلك»**. الجزء الخامس، ذيل تفسير آية التطهير. [المترجم]

(٣) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص ٤٩.

إذ يشير الفعل (نَجا) إلى كلمة (الناجية) الواردة في الحديث المذكور.

□ جاء في الروايات أنّ نوحاً عليه السلام ركب السفينة أول يوم من رجب[١] وأنّ حركتها كانت من الكوفة[٢].

التعاليم:

١ ـ الشّروع بأيّ عمل باسم الله هو رمز التوكّل والاستعانة بالله تعالى، ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لا حركة ولا توقّف إلّا بمعونة الله سبحانه، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.

٣ ـ السفينة هي مجرّد وسيلة، وعلى الإنسان أن يذكر الله لأنّ كلّ شيء حادث بإرادته ومشيئته، ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ إنّ نجاة أصحاب نوح عليه السلام من الطوفان من تجلّيات العظمة والمغفرة والرحمة الإلٰهيّة، ﴿ٱرْكَبُوا۟... إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أنّ نوحاً عليه السلام تحدّث إلى ابنه (كنعان) قبل أن تتحرّك السفينة لاستحالة صعوده على مَتن السفينة بعد تحرّكها وتلاطم الأمواج كالجبال[٣].

□ **سؤال**: لماذا طلب نوح عليه السلام من ابنه فقط الصعود إلى السفينة؟

الجواب: أوّلاً، لا شكّ في أنّ مسؤولية الأب تجاه أبنائه هي مسؤولية جسيمة وكبيرة؛ ثانياً، لمّا رأى نوح عليه السلام ابنه واقفاً حسبه نادماً ينوي قبول الحقّ

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣٦٠.
(٢) أصول الكافي، ج٣، ص ٤٩٢.
(٣) انظر: تفسير روح المعاني، ج٨، ص ٢٤٧.

والرّجوع عن غيّه؛ وربّما كان ذلك بمثابة تحذير للآخرين من خلال دعوته ابنه للنجاة.

□ عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**رَكِبَ نُوحٌ عليه السلام السفينةَ في أوّل يَومٍ مِن رَجَب فصامَ وأمَرَ مَن مَعَه أن يَصُومُوا ذلكَ اليومَ**». ثمّ قال الإمام عليه السلام: «**مَن صامَ ذلكَ اليومَ تباعَدَت عَنه النّارُ مَسيرة سَنة**»[1].

□ يدلّ مُخور الفُلك وشَقّها تلك الأمواج الهائجة على عظمة السفينة ومهارة نبيّ الله نوح عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ لم تنته مُعاناة الناجين في الفُلك فأمامهم طريق وعرة، على الرغم من وجودهم في تلك السفينة وامتلاكهم ربّاناً كالنبيّ نوح عليه السلام فما زال ينتظرهم الكثير حتى يصلوا إلى شاطئ الأمان، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

٢ ـ علينا أن نفكّر في خلاص الآخرين ونجاتهم حتى اللّحظة الأخيرة، وإن كانوا كُفّاراً، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾

٣ ـ الوالدان مسؤولان عن مصير أولادهم ومُستقبلهم، ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾.

٤ ـ مَن عاشَرَ الكفّار لن يسلم من الانحراف عن جادّة الحقّ والصّواب ولو كان ابناً لنَبيّ، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ وما أروع ما قاله الشاعر الفارسيّ (سعدي) بهذا الشأن:

أضاعَ ابن نوح هيبة أسرتِهْ بِجُلوسه مع الكفّار من أبناء جِلدَتِهْ

٥ ـ عراقة الأُسرة وأصالتها ليستا كافيتيْن، فبيئة الكُفر والشّرك هي سبب الانحرافات والفساد، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) تفسير مَجمع البيان، ج٥، ص ٢٨٠.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لَمّا غَرِقَت الدّنيا رَفَعَ اللهُ تِلْكَ القُبّةَ**[١] **وَغَرِقَتِ الدّنيا إلّا مَوْضِعِ البَيْت**»[٢].

التعاليم:

١ ـ في البلايا والمشكلات يلجأ الموحّد إلى الله والمُشرك إلى الجبل. الاتّكال على الشّرق والغرب والثروة والأموال والمناصب، كلّ ذلك يُعدّ شركاً بالله، ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾.

٢ ـ إذا جاءَ أمرُ الله فلن تمنح الجبال الشاهقة النجاةَ من الطوفان لأحد، ولن تصمد هي كذلك أمام هذا السيل، ﴿جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ أصبح الماءُ بأمرِ الله تعالى سبباً لهلاك الكفّار وتعذيبهم وهو مصدر الحياة لجميع الموجودات، ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ الحوادث الطبيعية ليست وليدة الصّدفة إنّما هي أمر من أوامر الله الحكيم، ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ مَن ذا الذي يُنقذ المخلوق من غضب الله إلّا الله[٣]، ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ... إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ نتيجة مَن يكون ﴿مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هي أن يكون ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

٧ ـ لا تؤثّر العلاقات الأُسرية والقرابة على الحُكم الإلٰهيّ، فهوذا الابن العاقّ للنبيّ الصالح يغرق أمام ناظريْ والده فلا يجد هذا الأخير بدّاً من الامتثال لحُكم ربّه، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

---

(١) القبّة التي أنزلها الله سبحانه على أبينا آدم عليه السلام. [المترجم].

(٢) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) وهذا المعنى نَجده في الدعاء المعروف بدعاء (أبي حَمزة الثّماليّ): «هارِبٌ مِنْكَ إلَيْكَ».

٨ ـ إنّ الله سبحانه رَحيم، لكنّه حكيم كذلك؛ فمن رَحمته أن يمتلئ صدر الأمّ لبناً استقبالاً لولادة الجنين، ومن عدله أن يغرق الوَلد أمام عَينيْ والده ويهلك، ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- تُعَدُّ هذه الآية من أبلغ آيات القرآن الكريم [وكلّ آيات الله بليغة] وأكثرها احتواءً للمعاني؛ إذ استحوذت على إعجاب الأدباء واهتمام أهل اللّغة والكلام من العُلماء منذ عصر النبيّ ﷺ وإلى يومنا هذا. فكان كلّ مَن يحاول محاربة القرآن ووضع كلام مُشابه له، يرعوي وينتهي بمجرّد بلوغه هذه الآية الشريفة.
- يُقال: بَلَعَ الماءَ، يَبْلَعه بَلْعاً، إذا شربه؛ و«الإقلاع» الكَفّ والإمساك، ﴿وَغِيضَ﴾ بمعنى ابتُلِعَ ونَقص.
- المُراد بـ ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾ هو الجَبل مُطلقاً أو هو اسم جَبل مُعيّن اختُلِفَ في موضعه، فقيل: إنّه يقع:

أ) في مدينة الموصل (العراق).

ب) على حدود الشام.

ج) بين الموصل والجزيرة.

د) في الجزيرة العربية.

هـ) ضمن سلسلة جبال أراراط في تركيا.

- ورد في الروايات أنّ سفينة نوح عليه السلام بقيت ستة أشهر على وَجه المياه وأنّها طافت بمكّة والحجاز حتى استوت على الجبل المذكور بأمر الله تعالى[1]. وعن

(١) ووفقاً لحديث ذكره الشيخ الطوسيّ صاحب تهذيب الأحكام قال: بلعت الأرض ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه. الجزء السادس، ص ٢٣.

الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**يوم النيروز هو اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام على الجودي**»[(١)].

التعاليم:

١ ـ يستحقّ الظالمُ اللّعنَ حتى بعد هلاكه، ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى
وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

□ لمّا كان الله سبحانه قد وعدَ في الآية «٤٠» من هذه السّورة بنجاة آل بيت النبيّ نوح عليه السلام فقد ظنّ هذا الأخير أنّ امرأته هي الشخص الوحيد المحكوم بالهلاك من بين أفراد أُسرته، فكان من الطبيعيّ أن يدفعه ذلك إلى دعوة ابنه (الذي تخلّف عنه) إلى الرّكوب في السفينة، ومن ثَمّ التوسّل بالله سبحانه لإنقاذه.

التعاليم:

١ ـ من الضروريّ مراعاة الأدب والحدود عند الدّعاء ومناجاة الله سبحانه وتعالى، فسيّدنا نوح عليه السلام لم يقُل: إلهي! لقد وعدتني بنجاة أهلي، فلِمَ لم تُنجِ ابني؟، بل تركَ الأمر لصاحب الأمر وقال: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ ليس المقصود بـ ﴿تَسْـَٔلْنِ﴾ في مخاطبة نبيّ معصوم هو وجود سؤال مطروح؛

---

(١) بحار الأنوار، ج١١، ص ٣٤٢.

لأنّ سيّدنا نوحاً عليه السلام يُصرّح في الآية التالية قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، بل المقصود هو: حذار أن تسأل! فنوح عليه السلام كان يظنّ أن ابنه يستحقّ عناء التشفّع له فأخبره الله سبحانه بأنّه ليس من أهله[١].

□ تتضمّن الكثير من الروايات الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عبارة (لَيسَ مِنّا...)، منها الروايات التالية[٢]:

أ) قال الرسول صلى الله عليه وآله: «مَنْ غَشّ مُسْلِماً فَلَيْسَ مِنّا».

ب) وقال صلى الله عليه وآله: «مَن أكرَمَهُ النّاسُ اتّقاءَ شَرّهِ فَليسَ مِنّي».

ج) وقال صلى الله عليه وآله: «مَن أصبحَ ولَمْ يَهتمَّ بِأُمورِ المُسلِمينَ فَليسَ بِمُسلِم».

□ **سؤال**: ورد في الآية (١٠) من سورة التحريم: إنّ امرأتيْ النبيّيْن نوح ولوط عليهما السلام قد خانتاهما[٣]، وفي هذه الآية يُخبر سبحانه نبيّه بشأن ابنه قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، فهل يفيد معنى الآيتيْن أنّ ابن نوح كان من السّفاح؟

الجواب: أوّلاً، إنّ المقصود بخيانة امرأة نوح عليه السلام هو إفشاؤها أسرار زوجها إلى الكفّار وإعانتهم عليه، وليست خيانة الزنا؛ لأن أزواج الأنبياء منزّهات عن ذلك. ثانياً: تشير الآية (٤٦) من سورة هود إلى أنّ السبب في اعتبار ابن نوح ليس من أهله هو عمله غير الصالح وليس شيئاً آخر.

التعاليم:

١ ـ العلاقات الدينيّة تسمو على العلاقات الشخصيّة والروابط الأُسريّة[٤]، ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) أي ليس مؤمناً ليستحقّ الشفاعة. [المترجم]

(٢) أغلب هذه الروايات موجود في كتاب سفينة البحار، الجزء الثاني، ص ٣١٨ و٦٩١.

(٣) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

(٤) ووفقاً لهذه القاعدة أيضاً أصبح سلمان الفارسيّ من آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله بينما لحقت اللعنة أبا لهب إلى الأبد وهو عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله.

﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وأمّا العلّة في نجاة مجموعة مُعينة من الغرق فهي إيمانهم بدعوة نوح عليه السلام وليس شيئاً آخر.

٢ ـ يُبالغ الإنسان أحياناً في عمل الخير أو الشرّ حتى يُصبح جزءاً لا يتجزّأ من ذلك العمل، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

٣ ـ الأنبياء كذلك بحاجة إلى مواعظ الله سبحانه، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾. يحذّر الله سبحانه أنبياءه عند اللزوم ويحفظهم من الزلّات في اللحظات الحرجة.

٤ ـ اجتنبوا كثيراً من الجهل، ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فلا شكّ في أنّ طلب شيء من الله على غير هدى وحكمة هو طلب يدلّ على الجهل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الأنبياء جميعهم خاضعون لله سبحانه وخاشعون له، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ... قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾.

٢ ـ أكثِروا من استخدام كلمة (رَبِّ) في أدعيتكم، ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ...﴾.

٣ ـ الاستعاذة بالله والاستجارة به أفضل أنواع التأمين للإنسان ضدّ الحوادث، ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾.

٤ ـ علينا اتّباع الأدب والخضوع أمام المواعظ الإلٰهيّة، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ... رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾.

٥ ـ متى جهلنا المصلحة والحكمة في أمر ما، علينا الكفّ عن الإلحاح، ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٦ ـ كلّ طلب أو كلام في غير محلّه يلزمه التوبة والاعتذار، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾. إذا كان هذا هو حال الأنبياء في لجوئهم إلى الله والاستعاذة به من أيّ طلب غير

منطقيّ، فكيف بنا ـ نحن البشر العاديين ـ ونحن نطالب الله سبحانه بشتى أنواع المطالب غير المنطقية ولا المشروعة؟

٧ ـ اطلبوا المغفرة أوّلاً ثمّ الرّحمة، ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾.

٨ ـ عدم حصول الإنسان على المغفرة يساوي خسارته لكلّ شيء، ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي... أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

٩ ـ ليس باستطاعة البشر جميعاً، بمن فيهم الأنبياء، الوصول إلى أهدافهم من دون لطف الله سبحانه، فمَن حُرِمَ المغفرة فهو كمَن افترسه قسوَرة، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- ذُكِر الأمر بالهبوط إلى كلّ من آدم عليه السلام[1] وسيّدنا نوح عليه السلام، ثمّ افترق الناس إلى فرقتيْن: فرقة مؤمنة وأخرى كافرة.
- إمّا أن يكون المقصود بـ﴿أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ هو إشارة إلى أنّ كلّ فرد ممّن آمن بنوح عليه السلام وكان معه في السفينة سيُصبح أباً لجيل أو أجيال قادمة، أو يكون المُراد من ذلك هو أنّ كلّ مؤمن ممّن كانوا معه كان ينتمي إلى قبيلة من القبائل التي كانت موجودة قبل الطوفان.

التعاليم:

١ ـ كانت الحياة بعد ذلك الطوفان الذي غمر العالم تواجه خطريْن كبيريْن:

---

(١) مثلاً: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، (سورة البقرة: الآية ٣٦). [المترجم]

أوّلهما التلوّث الذي أُزيلَ بأمر الله بقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾، وثانيهما هو فناء جميع أنواع النباتات وهلاكها، وهو كذلك خطر رفعه الله سبحانه بالوعد الذي قطعه بقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾.

٢ ـ على الرغم من المواعظ التي يقدّمها الله تعالى والتحذيرات بل وحتى إغراق الأبناء الكافرين أمام أعيُن آبائهم، إلّا أنّه سبحانه وفي مواضع أخرى لا يبخل بمنح السلام والبركات على خَلقه، ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾.

٣ ـ أهمّ نعمة إلٰهيّة يتلقّاها العبد المؤمن من ربّه هي السلامة والبركة، في حين لا يحصل الكافر إلّا على المتاع الموقّت، فليس كلّ متاع أو متعة هي نعمة وبركة، بل إنّ كلّ نعمة هي نتيجة العاقبة الحسنة، ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾.

٤ ـ لا يمنع الله سبحانه متاع الدنيا حتى عن الكفّار، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾.

٥ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى إعطاء النِّعَم للناس وإمهالهم، ثمّ إثابتهم أو مُعاقبتهم، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾.

٦ ـ الرّحمة والغضب كلاهما من الله سبحانه، ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا... يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾.

٧ ـ لاحظ أنّ الله تعالى يُخبر نبيّه نوحاً عليه السلام بظهور أُمَم ومُجتمعات كافرة من المؤمنين الذين كانوا معه في الفُلك، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

❑ وردت قصّة نوح عليه السلام في ستّ سُوَر من سُوَر القرآن الكريم هي: الأعراف، وهود عليه السلام، والمؤمنون، والشُّعراء، والقَمر، وسورة نوح عليه السلام، لكنّ أكثر تلك القصص تفصيلاً وردت في سورة (هود) هذه.

ملامح النبي نوح عليه السلام في القرآن[1]:

□ على الرغم من أنّ القرآن الكريم ذكر اسم النبيّ نوح عليه السلام أربعين مرّة إلّا أنّه لم يُشِر لا من بعيد ولا من قريب إلى مسقط رأسه أو مهنته أو عمله أو وفاته أو حتى قبره؛ لأنّ ما يُهمّنا من قصّته عليه السلام هو أخذ الدروس والاقتداء بسلوكه ومنطقه.

• كان نوح عليه السلام أوّل الأنبياء من أُولي العزم إذ كانت رسالته عالميّة وله كتاب وشريعة.

• بُعِث النبيّ نوح عليه السلام بعد آدم عليه السلام وذلك عندما شاع الشّرك وانتشرت عبادة الأصنام وسيطر الظلم.

• تضمّنت دعوته التوحيد والصلاة والأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر والعدل والصّدق والوفاء بالعهود.

• كانت مدّة رسالته عليه السلام «٩٥٠» سنة، وعندما أخبره الله سبحانه في النهاية قائلاً: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ يئِس نوح عليه السلام من إيمان قومه ما دفعه إلى الدعاء عليهم، فكانت امرأته وولده من الكافرين وغرقا مع الغارقين.

▪ اختار الله تعالى نوحاً عليه السلام رسولاً له إلى قومه، ويُسمّى بأبي البشر الثاني بعد آدم عليه السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا... عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وهو الذي سلّم عليه الله من بين خلقه قائلاً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

هذا وقد وردت قصّة نوح عليه السلام في التوراة مع كثير من الاختلاف. والجدير بالذّكر أنّ كُتب الكلدان والهندوس والصين واليونان والفُرس أشارت إلى قصّة الطوفان واعتبرته نتيجة الغضب الإلٰهيّ بسبب ظلم البشر وفسادهم في الأرض. وتنبّأ كتاب (الأفستا) وهو الكتاب المقدّس لدى الزرادشتية، بوقوع طوفان عالميّ عظيم يُغرق البشر جميعاً، وأنّه أُوحي إلى (جَمشيد) أن يبني سوراً كبيراً وعالياً

---

(١) انظر: تفسير الميزان.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.
(٣) سورة الصافات: الآية ٧٩.

ويضع داخله كلّ الرجال الصالحين والنساء الصالحات جميعاً وكذلك الحيوانات من كلّ زوجيْن اثنيْن. لقد كانت رسالة نوح عليه السلام عالميّة لاستحالة غياب الحجّة عن الأرض، ويشهد على ذلك غرق الكفّار بسبب دعاء نوح عليه السلام حيث قال تعالى على لسان نبيّه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1]، ولو كانت رسالة نوح عليه السلام إقليمية أو خاصّة بمنطقة مُعيّنة وكان الطوفان مُقتصراً على تلك المنطقة دون غيرها، لما أُمِر بحَمل زوجيْن اثنيْن من كلّ الحيوانات، إذ من الواضح أنّ ذلك كان للحفاظ على سلالة الحيوانات ومنع انقراضها من على وَجه البسيطة[2].

وتزخر سيرة حياة النبيّ نوح عليه السلام بالأحداث التاريخية، تروي قصّة طوفان إغراق العالم كلّه وانقراض أجيال من البشر وبداية ظهور أجيال جديدة أخرى مكانها ونشوء مجتمعات حديثة بعدها كلوحة فنيّة تُصوّر انتصار الحقّ على الباطل وجانباً من استجابة لدعاء الأنبياء وشكلاً من أشكال انقطاع الصلة بين الأب وابنه بسبب الدّين الحقّ وآية من خضوع الوجود وركوعه أمام أمر الله النافِذ وسبيلاً لحفظ السلالة الحيوانيّة، بالإضافة إلى مشهد رائع لصناعة سفينة في قلب الصحراء حيث لا بحر ولا ماء.

وتشير هذه القصّة إلى إمكانية وصول الإنسان إلى حافة السقوط حيث لا ينفع معه نُصح الأنبياء عليهم السلام ولا تُؤثّر فيه مواعظ الأولياء، وبدلاً من ذلك نراه ينعت أتباع الأنبياء والمؤمنين بهم ويسمّيهم بالأراذل ويتحدّى الغضب الإلٰهيّ بما يظنّه وسيلة ناجعة للتخلّص والنجاة من الغرق وهي لجوؤه إلى جَبل يعصمه من الماء.

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم هو أفضل مصدر للتاريخ البشريّ، ﴿تِلۡكَ﴾.

(١) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٢) العجيب أنّه على الرّغم من كلّ تلك الأدلّة ادّعى صاحب تفسير (المنار) بأنّ رسالة نوح عليه السلام كانت محليّة وخاصة بمنطقة مُعيّنة، لكنّ العلّامة الطباطبائي ردّ على ذلك بقوّة في تفسيره الموسوم بالميزان.

٢ ـ ظلّ قسم كبير من التاريخ البشريّ مجهولاً لنا ومن ذلك تاريخ النبيّ نوح عليه السلام، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾.

٣ ـ لم يكن أمام نبيّنا صلى الله عليه وآله وقومه أيّ وسيلة لمعرفة شيء من تاريخ نوح عليه السلام سوى الوَحي (القرآن الكريم)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.

٤ ـ الوَحي هو أفضل مرجع للأخبار التاريخية وأصدقها، فهو العلم الذي لا نهاية له، وناقله لا يخضع للضغوط أو الغفلة أو النسيان، ﴿أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.

٥ ـ لا يتعدّى مقدار عِلم الأنبياء والرّسل عليهم السلام من الغَيب ما يُوحيه إليهم ربّهم، ﴿أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ تاريخ الأنبياء عليهم السلام السابقين وسيرتهم هي أفضل وسيلة لتطييب خواطر الأنبياء اللاحقين وتهدئة نفوسهم، ﴿فَاصْبِرْ﴾.

٧ ـ الصّبر والتقوى شرطان لازمان للنّصر والتوفيق، فقد قال الله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولَم يقُل: «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلصّابرين».

٨ ـ وأخيراً، نجح الحقّ وانتصر وزهقَ الباطل واندحر، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ بُعِثَ سيّدنا هود عليه السلام بعد نوح عليه السلام، وقد وردت قصّة هذا النبيّ وسيرته مع قومه كذلك في سورة الأعراف (من الآية «٦٥» إلى «٧٢»). ولمّا كان هود عليه السلام ينتمي إلى قبيلة (عاد) فقد سمّته الآية بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾.

□ لمّا حضرت نوحاً عليه السلام الوفاة جمع شيعته فقال لهم: «اعلموا أنّه سيكون من بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت، وأنّ الله عزّ وجلّ سيُفرّج عنكم بالقائم من ولدي اسمه (هود)»[1].

---

(١) انظر: تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٤٢ ـ ٤٣، الحديث رقم ١٧٠، نقلاً عن: الشيخ الصدوق، كمال الدّين وتمام النّعمة، ج١، ص ١٣٥.

□ إنّ جَعل الكفّار الأصنامَ شُفعاء لهم هو افتراء على الله تعالى وعلى الأصنام لاعتبارها ذات نَفع أو ضرر.

التعاليم:

١ ـ رسالة سيّدنا هود عليه السلام خصوصاً إلى قوم عاد، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾.

٢ ـ التبليغ في جوّ أخويّ له تأثيره الخاصّ، ﴿أَخَاهُمْ﴾.

٣ ـ كان الأنبياء إخوة لأقوامهم ولم يكونوا تجّاراً أو مُحتالين أو حُكّاماً، ﴿أَخَاهُمْ﴾.

٤ ـ الدعوة إلى التوحيد هي مسؤولية الأنبياء الأولى، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ يقوم التوحيد العمليّ على أساس التوحيد العقائديّ، ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٦ ـ ليس الشّرك بالله سبحانه سوى وَهم كبير وفِرية أكبر، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم في الكثير من آياته إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يطلبوا أجراً أو ثمناً على دعوة قومهم؛ إذ يبدو أنّ المسائل الماديّة كانت أهمّ العوائق التي يمكن أن تحول بين الأفراد وبين قبولهم أيّ دعوة إلهيّة.

التعاليم:

١ ـ أهداف الأنبياء عليهم السلام ليست ماديّة، بل الهدف من دعوتهم هو الحصول على مرضاة الله سبحانه، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى...﴾ فالله هو الذي يجزي أنبياءه على أعمالهم.

٢ ـ الإخلاص [في العمل] هو شرط رئيس للنجاح في التبليغ، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٣ ـ رأس الإخلاص معرفة قدرة الله سبحانه، ﴿عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٤ ـ التعقّل والتدبّر هما اللذان يقودان الإنسان إلى طاعة الأنبياء واتّباع الوَحي. (فالعقل لا يتعارض مع الوَحي بل هو الذي يهيّئ الأرضية لقبوله والاعتراف به)، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٥ ـ صحيح... فما الذي يدفع البعض إلى ركوب أمواج الصّعاب وتحمّل الإهانة والعِقاب وهو لا يرجو ربحاً ولا متاعاً في هذه الدّنيا؟! ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الاستغفار والتوبة من الذنوب أمران واجبان، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾.

٢ ـ الاستغفار من الذنوب هو مقدّمة للإنابة إلى الله سبحانه، ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ... ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾.

٣ ـ الاستغفار والتوبة الفرديّتان لا تُغيّران من وضع مجتمع بأكمله، بل لا بدّ من تغيّر شامل ليعمّ الفيض الإلٰهيّ كلّ نقطة من نقاط المجتمع، ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ... تُوبُوٓاْ... يُرۡسِلِ﴾.

٤ ـ تُؤثّر الأفعال والمُعتقدات على الأحداث الطبيعية، ﴿تُوبُوٓاْ... يُرۡسِلِ﴾. (ويُذكر أنّ قوم عاد أُصيبوا بالمجاعة والجفاف آنذاك).

٥ ـ لا تسمحوا للعوامل الطبيعية بإلهائكم عن حكمة الله والغفلة عن إرادته، ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾.

٦ ـ إذا أراد النظام الإسلاميّ تطوير الاقتصاد فلا بدّ من تطوير البرامج المعنوية في المجتمع قبل كلّ شيء، ﴿تُوبُوٓاْ... يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾.

٧ ـ الثروات والإمكانات الأخرى هي ثواب دنيويّ مُقابل التوبة والإنابة إلى الله، ﴿تُوبُوٓاْ... يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾.

٨ ـ الإيمان بالله وطاعته سبحانه لا يعنيان الابتعاد عن الأموال والثروات إطلاقاً، ﴿تُوبُوٓاْ... يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ... وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾. (فالإيمان لا يؤدي إلى نقصان أموالنا بل على العكس من ذلك إذ يزيده وينمّيه ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾).

٩ ـ إنّ تعظيمنا لله سبحانه وطلب التوبة والاستغفار منه يزيد من قوّتنا ويُعزّز من مكانتنا، ولا يصغّر من شأننا أبداً، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٠ ـ كان قوم عاد أقوياء وأشدّاء، ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١١ ـ يكتمل الإنسان باجتماع قدرة الإيمان لديه إلى قدرته الجسمية، ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٢ ـ إيجاد المجتمع القويم المُتمتّع بالنِّعَم والمُتّصف بالقوّة والقدرة، من الأهداف التي تصبو إليها الأديان السماويّة، ﴿وَيَٰقَوْمِ... تُوبُوٓاْ... وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٣ ـ يُمثّل وجود نظام اقتصادي متين أرضية صُلبة لإيجاد أنظمة قويّة أخرى، فأوّلاً ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾، ثمّ بعد ذلك ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٤ ـ لا بدّ من استخدام أسلوب التشجيع كذلك في التبليغ، ﴿تُوبُوٓاْ... يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ... وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾. (لا مانع من الإشارة إلى النتائج الماديّة للوصول إلى الأهداف المنشودة).

١٥ ـ تجاهل دعوة الأنبياء وعدم طاعتهم ظلم عظيم، ﴿مُجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ
ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا غَرو أنّ الذين يسجدون للحجر والخشب ولا يملكون دليلاً منطقياً لما يقومون به، يشكّون في نبيّ شيمته المُعجزة وأسلوبه الدليل الواضح البيّن، ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

٢ ـ يتلخّص مُجمَل كلام الكفّار في رفضهم ترك عبادتهم لمُجرّد ما يقوله النبيّ هود ﷺ وليس بسبب افتقادهم لما يُبرّر أفعالهم، فقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ يشير بوضوح إلى أنّهم لم يكونوا بحاجة إلى أيّ منطق، والدليل على ذلك تكرارهم لعبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا... وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ في بداية دعوتهم واجه الأنبياء ﷺ مقاومة شديدة من قِبل المُشركين، لكنّ ذلك لم يمنعهم من الاستمرار والإصرار، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

- (اعترى) بمعنى اعترضَ وأصابَ.
- تحدّى النبيّ هود ﷺ المُشركين لإثبات بطلان وجود القدرة الخيالية لدى الأصنام، كما كان النبيّ نوح ﷺ يقول لقومه من قبل: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]، وهذا ما قاله نبيّنا ﷺ كذلك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ كان قوم عاد يظنّون أنّ كلّ صَنم من أصنامهم مَعنيّ بشأن من شؤون هذا العالم، ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾.

٢ ـ ليس جديداً أن يُتّهمَ الأنبياء ﷺ والمصلحون [الدينيّون] بالجنون، في أيّ مجتمع لأنّهم يحاربون الخرافة والسّفه، ﴿ٱعْتَرَىٰكَ... بِسُوٓءٍ﴾.

---

(١) سورة يونس: الآية ٧١.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

٣ ـ إعلان البراءة من الشرك والتبرّي من المشركين هما سُنّة الأنبياء جميعاً، ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

٤ ـ لا بدّ من الوقوف بحزم وإصرار أمام الخرافة، ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

٥ ـ تحدّي النبيّ هود عليه السلام دليل على صِدقه وأحقيّة دعوته، ﴿فَكِيدُونِي﴾.

٦ ـ الأنبياء لا يهابون أيّ قدرة أو سلطة، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾.

٧ ـ الأصنام أضعف من أن تُنسب إليها قدرة أو سلطة، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ
بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾

التعاليم:

١ ـ الاعتراف بربوبيّة الله تعالى القاهرة أساس التوكّل عليه، ﴿تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾.

٢ ـ قوام الشجاعة التوكّل [على الله]، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا... إِنِّي تَوَكَّلۡتُ﴾. (إذا توكّلنا على الله سبحانه سنواجه العالم بأسره من دون وَجل)

٣ ـ ما مِن مخلوق يقدر على الإضرار بمخلوق آخر من دون إرادة الله سبحانه، ﴿فَكِيدُونِي... مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾.

٤ ـ الله هو القاهر فوق كلّ شيء وهو العدل، ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ... عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

٥ ـ اتكلوا على مَن هو قادر وعادل، ﴿تَوَكَّلۡتُ... ءَاخِذُۢ... عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

٦ ـ إذا بدأ عناد الكفّار انتهى بغضب الله وعَدله، ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ... عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾

التعاليم:

١ ـ إذا أنجز الأنبياء دعوتهم وإبلاغهم أمر الله تعالى، فقد تمّت الحجّة، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾.

٢ ـ تقتصر مسؤولية المُبلِّغ على بيان المعارف الدينيّة وتفسيرها للناس وليس إجبارهم على قبولها، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾.

٣ ـ لا ينبغي للمُبلِّغ الدينيّ وقائد الأمّة أن يشعر بالضعف أو الهزيمة بمجرّد اعتراض الناس على دعوته أو رفضهم إيّاها، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾.

٤ ـ ليس بقاء الأمم ولا انقراضها أمراً اعتباطياً أو مجرّد صُدفة، بل هو خاضع لقوانين ولسُنن إلٰهيّة مفروضة، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾. (الشّرك والذنوب ومعصية الأنبياء هي عوامل كفيلة بإبادة المجتمعات وحدوث التغييرات التاريخية).

٥ ـ إنّ كُفرنا أو معصيتنا أو هلاكنا أو انقراضنا لا يضير الله سبحانه، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ... وَيَسۡتَخۡلِفُ... غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا﴾.

٦ ـ الله حفيظ على كلّ شيء، ولا يضرّه كُفرنا ولا تؤثّر فيه جِيلُنا، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾

التعاليم:

١ ـ نزول العذاب أو ارتفاعه لا يكون إلّا بأمر من الله وإرادته، ﴿نَجَّيۡنَا﴾.

٢ ـ الأنبياء وأصحابهم وكلّ مَن آمن بهم محفوظون من العذاب وتَبِعاته، ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

٣ ـ لا يكفي الإيمان بالأنبياء وتصديق دعوتهم، بل لا بدّ من حمايتهم والدّفاع عنهم، ﴿مَعَهُۥ﴾.

٤ ـ الله أصل كلّ رَحمة ومصدر كلّ رَأفة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وأمّا غضبه وانتقامه فنحن سببه، فقد قال تعالى: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولَم يقُل: (عَذابٌ مِنّا).

٥ ـ ربّما دلّ تكرار كلمة النّجاة على رمز خلاص أصحاب النبيّ هود عليه السلام من الغضب الإلٰهيّ في الدنيا والآخرة معاً، من الآية: ﴿نَجَّيْنَا... وَنَجَّيْنَٰهُم﴾.

٦ ـ الريح واحدة من جنود الله المُؤتمرة بأمره، ﴿أَمْرُنَا﴾[1].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ هوذا تاريخ الأمم السابقة ماثلٌ أمامكم، فلِمَ لا تَعتبرون يا أصحاب البصائر والعقول؟ ﴿تِلْكَ﴾.

٢ ـ تكذيب دعوة نَبيّ من الأنبياء هو تكذيب لجميع الأنبياء من دون استثناء[2]، ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾.

٣ ـ من بين الأخطار التي تُهدّد المجتمع ما يلي:

أ) الكُفر بآيات الله والجحد بها، ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

ب) عدم طاعة الأنبياء وأئمّة الحقّ، ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾.

ج) اتّباع الطغاة ومؤازرتهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾.

---

(١) والأمر الإلٰهيّ في قصّة هلاك قوم (عاد) هي الرّيح الصّرصر كما ورد في سورة فُصّلت: الآية ١٦، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾.

(٢) قال صاحب تفسير الميزان: «وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإنّ عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلّهم يدعون إلى دين واحد فهم إنّما عصوا شخص هود وعصوا بعصيانه سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾. سورة الشعراء: الآيتان ١٢٣ و١٢٤. الميزان في تفسير القرآن، ج١٠.

٤ ـ لا شكّ في أنّ مَن يعصي الأنبياء المعصومين ﷺ لن يجد مكاناً إلّا في مُعسكر الظالمين والطغاة المُعاندين، ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ... وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٥ ـ تَجبُّر الطّغاة على شعوبهم يهدف إلى إخضاعها وإذلالها، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ... جَبَّارٍ﴾.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾

إشارات:

- تتعلّق الآيات من «٥٠» إلى «٦٠» من سورة هود بقوم عاد؛ وهؤلاء قوم من العرب عاشوا في ما قبل التاريخ المدوّن وكانوا يسكنون الجزيرة [العربية] فانقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم ولا يحفظ التاريخ من حياتهم إلّا أقاصيص لا يُطمَأنُّ إليها، وليس في التوراة الموجودة كذلك ذكر عنهم. واستناداً إلى بعض الآيات القرآنية في سورة القمر والحاقّة والأعراف والسّجدة والشُّعراء، فقد كانت لهم قامات طويلة[١] وكانوا ذوي بسطة في الخلق[٢] وأولي قوة وبطش شديد[٣] وكانوا متقدّمين في مجال المدنيّة والعُمران، ولهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم، ناهيك عن رقيّهم وعظيم مدنيتهم، فقد قال تعالى في وصفهم: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾[٤][٥].

على كل حال كان هؤلاء القوم يعيشون في نعمة وترف، ولكن كما هي طريقة أغلب المتنعمين الغافلين والسكارى من أثر النعمة، استغلّوا قدرتهم لظلم

---

(١) ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، سورة القمر: الآية ٢٠؛ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، سورة الحاقّة: الآية ٧.

(٢) ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾، سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٣) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

(٤) سورة الفجر: الآيتان ٧ و٨.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، الجزء العاشر.

الآخرين واستثمارهم واستعمارهم واتبعوا أمر كلّ جبّار عنيد، وأقروا بعبادة الأوثان. وحين دعاهم نبيّهم هود ﷺ بكلّ ما أوتي من جهد لينير أفكارهم بنصحه ووعظه ويتمّ الحجّة عليهم، [عصوه وكذّبوه] فأخذهم إعصار شديد استمرّ سبعَ ليال وستة أيّام حسوماً.

ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ كلمة (عاد) تُطلق على قبيلتين، إحداهما كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثمّ زالت مع آثارها، والتعبير الوارد في القرآن ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[1] إشارة إلى هذه القبيلة. ولكن في حدود ٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح ﷺ كُشِف عن قوم آخرين باسم عاد أيضاً كانوا يقطنون الأحقاف أو اليمن كذلك[2].

التعاليم:

١ ـ مَن يُنكر الآيات الإلٰهيّة ويعصي رُسُل ربّه ويتّبع الطاغوت، بعيد كلّ البُعد عن رحمة الله، ﴿وَأُتْبِعُوا... لَعْنَةً﴾.

٢ ـ اللّعنة في هذه الدنيا هي نوع من العقوبة الإلٰهيّة، ﴿وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

٣ ـ **«الموت للظالمين»!** شعار من شعارات القرآن الكريم، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾[3].

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- سيّدنا صالح ﷺ هو ثالث نبيّ مُرسَل بعد نوح وهود.

---

(١) سورة النّجم: الآية ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الميزان؛ الأمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل.

(٣) وهناك الكثير من هذه الشعارات ذكرها القرآن الكريم مثل: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ سورة هود: الآية ٦٨ و﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ سورة هود: الآية ٩٥ و﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة المؤمنون: الآية ٤١ و﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة المومنون: الآية ٤٤.

التعاليم:

١ ـ كانت علاقة الأنبياء عليهم السلام بأقوامهم علاقة وديّة وأخويّة، ﴿أَخَاهُمْ﴾.

٢ ـ من الأفضل أن يكون المُبلّغ والداعية من أبناء المنطقة التي يريد التبليغ فيها، ﴿أَخَاهُمْ﴾.

٣ ـ عبادة الله سبحانه هي هدف الأنبياء جميعاً، ﴿أَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

٤ ـ تكمن فلسفة عبادة الله سبحانه في لُطفه اللّامحدود على الإنسان، ﴿أَعْبُدُوا۟... أَنشَأَكُم﴾.

٥ ـ الإنسان مخلوق من الطين، ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ الإسلام دينٌ يجمع بين عالم الدّنيا وعالم الآخرة؛ فهو يدعو إلى عمارة الأرض وإصلاحها كما يدعو إلى الاستغفار والتوبة، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾.

٧ ـ عمارة الأرض وإصلاحها هي إرادة الله سبحانه، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

٨ ـ ينبغي أن يكون إله الموحّدين ومعبودهم إلهاً عارفاً ومُدركاً، وعالماً وقديراً وسميعاً بصيراً، وقريباً مُجيباً، وهذه صفات تفتقدها الأصنام والأوثان، ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

٩ ـ الرّجوع إلى الله والإنابة إليه سهلة ويسيرة، والتوبة هي وسيلة التقرّب إليه تعالى، ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

١٠ ـ لو أنّ الأمم السابقة استغفرت ربّها وتابت إليه لوجدته قريباً منها قابلاً لتوبتها، ﴿تُوبُوٓا۟... قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

١١ ـ الله تعالى قريب من كلّ شيء، لكنّ أفكارنا المريضة وتصرّفاتنا الخاطئة هي ما يُبعدنا عنه، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾

إشارات:

□ في البداية قال الكفّار لصالح عليه السلام: «لقد كنتَ يا صالح مُحترماً بيننا وكنّا نحبّك ونعزّك»، أملاً منهم على ما يبدو في أن يكفّ عن دعوتهم إلى التوحيد من أجل الحفاظ على علاقاته الطيبة بهم والإبقاء على ما كان بينهم من الوشائج والمودّة.

التعاليم:

١ ـ على المُبلّغ أن يكون حسن السيرة والسلوك بين قومه، ﴿مَرْجُوًّا﴾.

٢ ـ حذار من أن يكون مديح الضالّين وإطراؤهم مدعاة لضعفكم وتساهلكم في الدّعوة إلى الحقّ، ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾. (انتبهوا، فإنّ مديح الأعداء وإطراءهم لا يخلو من أغراض دنيئة وأهداف مشؤومة).

٣ ـ الأنبياء روّاد محاربة المُعتقدات الخرافية والقضاء عليها، ﴿أَتَنْهَانَا﴾.

٤ ـ لا يجب أن يتّخذ الإنسان سيرة آبائه وأجداده مصدراً وحيداً لعقائده، ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

٥ ـ من الواضح أنّ الثقافة الإنسانيّة مرتبطة بعضها ببعض على مرّ العصور، ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

٦ ـ ليس من السّهل على بعض الناس ترك مُعتقداتهم والكفّ عن سلوكهم الذي ورثوه عن آبائهم (أي، أنّنا لا يجب أن نتوقّع إصلاحاً جذريّاً وسريعاً)، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾.

٧ ـ من الطبيعيّ أن يرتاب الناس في أيّ حديث أو برنامج جديد لم يعهدوه من قبل، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾.

٨ ـ لا بأس من أن يكون الشكّ مقدّمة وأساساً للبحث والإرشاد، وإلّا فإنّه سيصبح بالتأكيد أكبر عامل للسقوط، ﴿شَكٍّ... مُرِيبٍ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ليس من شيمة الأديان السماوية والقادة الدّينيّين دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده بالقوّة والتهديد والجهل، بل بالبيّنة والمُعجزة والأدلّة الواضحة الدامغة، ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

٢ ـ النبوّة هي رحمة استثنائية يُفيضها الله سبحانه على عباده المُخلصين، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

٣ ـ حتى الأنبياء عليهم السلام يمكن أن يبوؤوا بغضب من الله إذا ما تساهلوا في رسالتهم أو تهاونوا في دعوتهم، ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

٤ ـ لا يُنسينّكم الشيطان ذِكر الله والابتعاد عن طريقه لما يقدّمه لكم الناس من إغراءات أو ادّعائهم حمايتكم، فالأفراد المُنحرفون لا يقدّمون لنا سوى الخسران المُبين، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

٥ ـ مخالفة الحقّ هي الخُسران المُبين، ﴿تَخْسِيرٍ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

☐ كانت ناقة صالح عليه السلام متميّزة واستثنائية من نواح عدّة[1]، منها: (١) أنّها أُخرِجَت

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى قصّة ناقة صالح في آيات أخرى وفي سور شتّى كذلك، كالآيات ١٥٥ و١٥٨ من سورة الشّعراء؛ و٢٧ و٣١ من سورة القمر.

أمام أعين قوم صالح من قلب الصخرة؛ (٢) كانت تحمل في بطنها جنيناً دون أن يلمسها فَحل من جنسها؛ (٣) كانت قادرة على شُرب ماء القرية كلّه وحدها في يوم واحد؛ (٤) كانت تُنتج لبناً يكفي أهل القرية جميعاً؛ (٥) لم تكن بحاجة إلى أيّ رعاية أو حماية أو تغذية من أيّ فرد من أفراد تلك القرية.

❑ قال النبيّ صالح عليه السلام للمشركين من قومه: «سأطلب من أصنامكم شيئاً واطلبوا أنتم كذلك من ربّي شيئاً، فأيّ منهما يستجيب لنا سنتّبعه جميعاً». فوافق المشركون على عَرضه. فأمّا ما طلبه المشركون من الله سبحانه فهو خروج ناقة حاملة من قلب صخرة في جبل كان قريباً من القرية في الحال. فاستجاب الله لهم وخرجت الناقة الحاملة بكلّ تفاصيلها التي طلبوها من بطن الصخرة[1].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أن تكون مُعجزة مَن يدّعي أنّه نبيّ الله ملموسة للناس ومفهومة ومرئيّة، ﴿هَٰذِهِۦ﴾.

٢ ـ قدرة الله سبحانه غير محدودة وهو مُسبّب الأسباب، وقد أخرج الناقة من الجبل كمعجزة على صِدق نبيّه صالح عليه السلام، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا جَرم أنّ ناقة صالح كانت مُعجزة عظيمة، ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً﴾.

٤ ـ ينبغي احترام المُقدّسات أيّاً كانت، ﴿فَذَرُوهَا... تَمَسُّوهَا﴾.

٥ ـ إهانة المُقدّسات تستوجب عذاب الله السريع، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ
أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝٦٥﴾

إشارات:

❑ تُحدّثنا الروايات عن أنّ الذي قتل ناقة صالح عليه السلام لم يكن سوى رجل واحد

(١) انظر: تفسير أطيب البيان.

ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ومعناه أنّ جميع القوم اشتركوا في الواقع في قَتل الناقة؛ لأنّ الجميع كانوا راضين عن هذه الفِعلة الشنيعة ومؤيّدين لها، وهذا هو قانون الشريعة الإسلاميّة حيث يُحَمّل جميع المؤيّدين لفكرة أو عقيدة ما إثم ما يرتكبه أحد أفرادهم[1].

❑ **سؤال**: ما هي العلّة في مَنح قوم صالح عليه السلام مهلة ثلاثة أيام؟

الجواب:

(أ) ربّما كانت تلك فرصة للقوم لعلّهم يرجعون ويتوبون!

(ب) أو وسيلة للضغط النفسيّ على الكافرين إمعاناً في تعذيبهم. فلو قيل لشخص: إنّك ستهلك بعد ثلاثة أيام! لا شكّ في أنّ ذلك سيكون له وقع كبير وأثر سيّئ على نفسيّته.

(ج) قد يكون دليلاً آخر على صِدق نبوءة صالح عليه السلام لأنّ تعيين وقت مُحدّد يعني بحدّ ذاته إخباراً عن الغيب.

التعاليم:

١ ـ الساكت عن الجريمة شريك فيها[2]، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٢ ـ لا تستهينوا بالتحذيرات الإلٰهيّة، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

٣ ـ إهانة المُقدّسات تستوجب العذاب الحتميّ، ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

❑ «الخزي» هو العَيب الذي إذا ظهر فضح صاحبَه.

---

(١) انظر: وسائل الشيعة، ج١١، ص ٤٠٩ ـ ٤١١.

(٢) أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام كذلك إلى هذا المعنى في نهج البلاغة. انظر: من كلامه عليه السلام ١٢ و٢٠.

□ قد تشمل البلايا الطبيعية في الحالات الاعتيادية ـ كالزلازل والفيضانات والأمراض الخطيرة ـ كلاً من المؤمنين والكافرين معاً لعدم اتّخاذ البعض الحيطة والحَذر اللازميْن فتسري آثارها إلى الجميع من دون استثناء. لكن عندما يتعلّق الأمر بغضب الله سبحانه، فإنّ المؤمنين سيكونون في مأمن من ذلك بكلّ تأكيد باستثناء مَن استحقّ العذاب لسكوته على الظلم أو تركه النّهي عن المُنكر، ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

التعاليم:

١ ـ يُنجي الله تعالى الأنبياء ومن آمن معهم من غضبه وعذابه، ﴿نَجَّيْنَا﴾.

٢ ـ يُعتبر الإيمان بالنّبيّ وطاعته واتّباعه من بين الشروط الكفيلة بالنّجاة من غضب الله وعذابه، ﴿نَجَّيْنَا... ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

٣ ـ اتّباع الرّسول يُوجِب العزّة والرّفعة، ﴿نَجَّيْنَا... ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾.

٤ ـ ما أسهل أن يُنجّي الله سبحانه ثلّة قليلة من المؤمنين من بين كلّ أولئك الكافرين، ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٥ ـ يُطمئن الله ﷻ في هذه الآية نبيّه ﷺ بأنّه قادر على أن يفعل الشيء نفسه بالمُشركين من قومه لأنّه هو القويّ العزيز، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ ﴿جَٰثِمِينَ﴾: (جَثَمَ) بمعنى جَلَسَ على رُكبتَيْه أو سقط على وَجهه، أو حالة تعتري الإنسان إذا صعقه البرق (الكهرباء) فيَتَيبّس مكانه ويعجز عن الحركة، ﴿يَغْنَوْا۟﴾ من (غَنى) بمعنى أقام ومكث في المكان.

□ أُغلِقَ ملفّ قوم (ثمود) المُعاندين في هذه الآية الشريفة.

□ كان النبيّ صالح ﷺ عربيًّا من بيت شريف في (ثمود) وكان معروفاً بالعقل

والكفاية[١]، أمّا (ثمود) فهم قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام؛ نشأوا بعد قوم (عاد) وكانت لهم حضارة ومدنيّة، يعمّرون الأرض ويتّخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمنين[٢]. ومن شغلهم الفلاحة وحفر العيون وإنشاء الجنان والنخيل والحرث[٣]. هذا، ولم يرد للنبي الصالح عليه السلام أيّ ذِكر في التوراة الحاضرة[٤].

□ من المعروف في الوقت الحاضر أنّه عندما تمرّ طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت بالقرب من المناطق السكنية، فإنّ الصوت الهائل الناجم عن تلك السرعة يتسبّب في تحطّم زجاج الأبنية وربّما أجهضت الحوامل من النساء وتسارعت ضربات القلب لدى الكثير من الأشخاص القريبين. وقد قيل: إنّ نهاية العالم ستكون بواسطة صوت مدوٍّ يتداعى له كلّ شيء ويتراكم على بعضه البعض ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[٥]، وكذلك القيامة وأحداثها فإنّها ستقوم بصيحة تُبعث على أثرها الأجساد ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٦].

التعاليم:

١ ـ نزول العذاب والغضب الإلهيّ على قوم صالح عليه السلام كان نتيجة طبيعية لظلمهم وطغيانهم، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٢ ـ لا يقتصر العقاب الإلهيّ على الآخرة فقط، بل يُحاسب الظالمون والمجرمون في هذه الدنيا كذلك، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

(٢) ﴿...تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا...﴾ سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٣) سورة الشعراء: الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٩.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

(٥) سورة يس: الآية ٤٩.

(٦) السورة نفسها: الآية ٥٣.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ باستطاعة ملائكة الله سبحانه أن يظهروا بأشكال وهيئات آدمية، ﴿جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾.

٢ ـ استهِلّوا حديثكم بالسلام أوّلاً، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

٣ ـ السلام شعار سماويّ وتهذيب ملكوتيّ، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

٤ ـ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾[1]، (وكلمة «سلام» هي في الواقع جملة اسميّة أقوى صدىً من الجملة الفعلية ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾).

٥ ـ عَجّلوا في إكرام الضيف ورفادته، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾.

٦ ـ إكرام الضيف ـ وإن كان غريباً ـ من شيَم الكرماء، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

٧ ـ كان خليل الله إبراهيم ﷺ يُكرم ضيوفه حقّ الضيافة والإكرام، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

٨ ـ تجنّبوا سؤال الضيف حول الطعام أو الأكل، فلا تقولوا له مثلاً: هل تناولتَ طعامك؟ أو هل ترغب في أن أحضر لك شيئاً من الطعام أو غير ذلك، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.

٩ ـ ليكن صاحب المنزل هو المُضيف شخصياً، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.

١٠ ـ حاولوا أن تأتوا بالطعام إلى حيث يجلس الضيف وليس العكس، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.

١١ ـ لتكن ضيافتكم للضيف متميّزة وخاصّة[2]، ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٢) وفي الآية ٢٦ من سورة الذاريات، يُخبرنا القرآن الكريم بأنّ إبراهيم ﷺ حمل إلى ضَيْفَيْه عجلاً مشوياً شهياً ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾

إشارات:

- لم يكن إحساس النبيّ إبراهيم عليه السلام بالخطر نتيجة للخوف أو الضّعف الذي نشعر به نحن البشر العاديّون عندما تحدق بنا بعض المخاطر، فهذا هو إبراهيم عليه السلام بطل التاريخ في تحطيم أصنام أعتى الملوك وهو النّمرود؛ بل كان توجّسه خيفةً نابعاً من الاحتراز من هؤلاء الغُرباء لئلّا يعتدوا على حياته، وهو شعور طبيعيّ لدى كلّ إنسان.
- ينبغي مُراعاة سلسلة المراتب، فبما أنّ إبراهيم عليه السلام هو المسؤول عن شأن لوط عليه السلام وقومه باعتباره (أي إبراهيم) من أُولي العزم وصاحب الشريعة الأكبر، كان من المفروض إبلاغه بالقرار الذي اتّخذه الله سبحانه بشأن قوم لوط عليه السلام احتراماً له وليكون على عِلم بما سيحدث.

التعاليم:

١ ـ ليست الملائكة عليهم السلام مخلوقات تتناول الطعام كما نفعل نحن البشر، ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾.

٢ ـ من الواضح أنّ عِلم الأنبياء له حدود، ﴿نَكِرَهُمْ﴾.

٣ ـ كان عدم تناول الضيف طعام مُضيفه يُفهَم كشكل من أشكال العداوة أو الخصومة في زمن النبيّ إبراهيم عليه السلام، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

٤ ـ يكون سبب خوف الإنسان في بعض الأحيان جهله لحقيقة أو ماهيّة ما يخافه، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾.

٥ ـ يُعتبر إنزال العذاب الإلٰهيّ أحد المهامّ التي تُكلَّف بها الملائكة، ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

إشارات:

□ كلمة ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ المذكورة في هذه الآية لا تعني الضّحك المعروف بل تعني (حاضت) من (الحَيْض) وهي العادة الشهرية التي تعتري المرأة قبل سنّ اليأس.

□ يُقال: إنّ زوجة إبراهيم عليه السلام ضحكت (سروراً) بعد أن علمت أنّ امتناع الضيفيْن عن تناول الطعام ليس سببه خصومة أو شيء من هذا القبيل. وقيل: بل لمّا كانت سارة (زوجة إبراهيم عليه السلام عجوزاً وانقطعت عنها عادة النساء من الحيض، وبشّرتها الملائكة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، ضحكت، يعني تعجبت من قولهم، وقالت: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾. فعلمت سارة أنّ إرادة الله تعالى شاءت أن تَلد وهي كما هي عجوز وزوجها شيخ مسنّ. وعن أبي عبد الله عليه السلام في معنى قول الله عزّ وجلّ ﴿فَضَحِكَتۡ﴾، قال: «حاضَتْ»[1].

التعاليم:

١ ـ يكون حضور المرأة ضروريًا في بعض الأحيان، ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ مشاعر المرأة أرقّ من مشاعر الرّجل (فقد سمع كلّ من إبراهيم عليه السلام وامرأته حديث المَلَكيْن، لكنّ سارة هي التي ضحكت)، ﴿فَضَحِكَتۡ﴾.

٣ ـ لا تخلو حالات القلق أحياناً من الأخبار السارّة، ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ... فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾.

٤ ـ النّعمة الدائمة هي أفضل النّعم والبشارات، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾[2].

---

(١) تفسير نور الثقليْن.

(٢) «في هذا التعبير: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ إشارة إلى وجه تسمية يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، وهو أنّه =

٥ ـ لاحِظ أنّ أسماء الأنبياء عليهم السلام تُوضَع حتى قبل ولادتهم، ﴿إِسْحَٰقَ... يَعْقُوبَ﴾.

٦ ـ على الرّغم من أنّ كلّ مجموعة من ملائكة الله سبحانه تُكَلَّف بأمر مُعيّن، إلّا أنّ المسؤولية التي أُوكِلَتْ إلى هذيْن المَلكيْن ـ كما يبدو ـ هي مسؤولية مُتعددة الجوانب والغايات. فقد أُرسلا لإنزال العذاب على قوم لوط عليه السلام وذلك باقتلاع مدينتهم من جذورها وقَلْبِها رأساً على عَقب، ولتبشير إبراهيم عليه السلام بالمولوديْن (إسحاق ويعقوب عليهما السلام)، ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ... فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- في الواقع، كانت زوجة إبراهيم عليه السلام على حقّ في تعجّبها من أمر البشارة بالمولود؛ لأنّها كما قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1] أي أنّه بالإضافة إلى كونها عجوزاً إذ يُقال إنّها كانت قد جاوزت التسعين آنذاك وزوجها عليه السلام بلغ من العُمر مئة عام تقريباً، فقد كانت (سارة) عقيماً وعاقراً في شبابها كذلك.
- قال العلّامة الطباطبائي في (الميزان): «البَعْلُ زوج المرأة والأصل في معناه القائِم بالأمر، المُستغني عن الغير. يُقال للنّخل الذي يَستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون (بَعْل)، ويُقال للصّاحب وللرّبّ: بَعْل»[2].

التعاليم:

١ ـ المرأة قادرة على إيصال نفسها إلى مرتبة يمكنها فيها التحدّث حتى مع الملائكة، ﴿قَالَتْ﴾.

= كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنّه وراءه». الميزان في تفسير القرآن، ج١٠.

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٠.

٢ ـ لا تتعارض حالة التعجّب إزاء الأمور الإعجازية إطلاقاً مع الإيمان بالله سبحانه، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

٣ ـ ليس من المنطقي حَصر قدرة الله سبحانه ضمن إطار تصوّراتنا وإمكاناتنا المحدودة، ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ... بَعْلِي شَيْخًا﴾، فليست كلّ الأسباب والعِلل الظاهرية فعّالة ومصيرية.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

- رُوي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مَرّ بقوم فسَلّم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ومغفرته ورضوانه. فقال عليه السلام لهم: «**لا تجاوزوا بِنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، بل قولوا: وَرَحمَةُ اللهِ وَبَركاتُه**»[١].

- **سؤال**: بالنّظر إلى أنّ الملائكة في الآية المذكورة تُخاطب زوجة النبيّ إبراهيم عليه السلام باسم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، ومن الطبيعيّ أن تكون زوجة الرّجل أحد أفراد بيته، لماذا لا تُعتبر زوجات الرّسول صلى الله عليه وآله أفراداً من آل بيته عليهم السلام في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢]؟

الجواب: إذا استندنا إلى المعنى اللغويّ البحت لعبارة ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فممّا لا شكّ فيه أنّ هذه العبارة تُطلَق على زوجات الرّجل كذلك. لكنّ الحالة تختلف مع آية التطهير هذه، وذلك لوجود أدلّة تُخرِج الشخص أحياناً من شمول تلك العبارة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٣] إذ استُثنِي ابن نوح عليه السلام من

(١) الطبرسيّ، تفسير مَجمع البيان، ج٥، ص ٣٠٩.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٣) سورة هود: الآية ٤٦.

أهل النبيّ. أو أنَّ أدلة أخرى قد تشمل الفرد وتُدرجه ضمن معنى تلك العبارة فيُصبح من أهل بيت الرّجل كما حدث مع سلمان الفارسيّ عندما احتجّ المهاجرون والأنصار في أمره. فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: بل سلمان منّا، فقال النبي ﷺ: «**سلمانٌ مِنّا أهلَ البَيْت**»[1].

وأمّا ما يخصّ آية التطهير فلدينا الكثير من الأدلّة التي تشير بوضوح إلى أنّ النبيّ ﷺ سمّى الذين دخلوا معه تحت الكساء (في حديث الكساء المشهور) فقط بأهل بيته وأنّه ﷺ لم يسمح حتى لزوجته السيّدة (أمّ سَلَمة) بالانضمام إلى تلك العصبة التي اختارها النبيّ ﷺ وسمّاها: «**أهْلَ بَيْتي**».

التعاليم:

١ ـ يُسمَح للملائكة أحياناً بالتحدّث كذلك إلى بَني البشر من غير الأنبياء، ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾.

٢ ـ يمكن للمرأة أيضاً التحدّث إلى الملأ الأعلى، ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾. (نَهى الملائكة زوجة إبراهيم ﷺ عن التعجّب وعدم التصديق لما قالوه).

٣ ـ ليس لنا أن نيأس أو نقنط من العون الإلهيّ الغيبيّ، ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾.

٤ ـ تذكّروا نِعَم الله سبحانه التي لا تُحصى وآلاءه التي لا تُعَدّ لتطردوا من أذهانكم كلّ عَجب وغرابة في أيّ أمر، ﴿أَتَعۡجَبِينَ... رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾. (أليس الإله الذي جعل النّار مِن قَبل برداً وسلاماً على عبده إبراهيم ﷺ ونصَره على عَبدة الطاغوت بقادرٍ على أن يهب الأولاد لعجوز عَقيم وبَعل شيخ)؟

٥ ـ الوَلد الصالح رَحمة من عند الله وبركات، ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص ١٩.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

- قد يكون جِدال إبراهيم عليه السلام ومناقشته الملائكة هو ما ورد في الآية (٣٢) من سورة (العنكبوت) إذ استفسر منهم كيفيّة قَلب قرية قوم لوط عليه السلام رأساً على عَقب وفيها نبيّ الله لوط عليه السلام[1]. فأجابته الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾.

التعاليم:

١ ـ العِلم يمهّد للطمأنينة؛ فلمّا اطمأنّ إبراهيم عليه السلام لأمر الملائكة وعَلِمَ ما جاءوا من أجله، ذهب عنه الخوف وزال القلق والرّوع، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾.

٢ ـ الخوف والقلق الذي يعتري الأنبياء عليهم السلام في بعض الأحيان إنّما هو عارض زائل وليس صِفة أو خِصلة ذاتيّة، ﴿ذَهَبَ﴾.

٣ ـ دَفعُ الضّر أوّلاً ثمّ الاستعداد لاستقبال البشارة، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾.

٤ ـ الراحة النفسية تؤدّي إلى الاهتمام بالآخرين والتفكير بهم، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾.

٥ ـ تجنّبوا اتّخاذ المواقف أثناء الخوف أو الغضب، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ... يُجَادِلُنَا﴾.

٦ ـ إذا بُشِّرَ أحدكم بالنّعمة فليتذكّر الآخرين، ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

٧ ـ الأنبياء عليهم السلام لا ينسونَ مَن هُم أدنى منهم أبداً، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

٨ ـ لا يقتصرنّ اهتمامنا وتفكيرنا على قومنا وعشيرتنا فقط، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

---

(١) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾.

٩ ـ يتجلّى تأثير الإلحاح والشفاعة والدّعاء والتوسّل بوضوح عندما لا تكون المُقدّرات الإلٰهيّة حتميّة ومَقضيّة، ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾.

١٠ ـ لا ريبَ في أنّ مُجادلة ملائكة الله هي مُجادلة الله تعالى نفسه، ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

□ دخل خليل الله إبراهيم عليه السلام في جدال مع الملائكة بشأن العذاب المُقرّر نزوله على قوم لوط عليه السلام في الآية (٧٤) من هذه السورة، وفي الآية (٧٦) من السورة نفسها يأمر الله تعالى نبيّه عليه السلام بالكفّ عن المجادلة والإلحاح. وحفاظاً على هيبة رسوله وإبقاءً على منزلته الكريمة ومقامه الشامخ عنده، بيّن الله عزّ وجلّ في الآية (٧٥) ـ التي اعترضت الآيتيْن (٧٤) حيث جادل إبراهيم عليه السلام في أمر العذاب الإلٰهيّ والآية (٧٦) عندما نبّهه الله سبحانه على ضرورة سَدّ باب الجدال والمناقشة في هذا الأمر ـ أنّ خليله عليه السلام إنّما جادل وتوسّل لرأفته بالأُمّة وحرصه عليها، وليس استنكاراً لأمر التعذيب أو اعتراضاً عليه، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء عليهم السلام أكثر الناس حرصاً على أفراد البشر، وأكثرهم سعياً لتخليصهم من عذاب الله ولو بالحلم والدّعاء والتضرّع والتوسّل، ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

٢ ـ يكون التذكير والتنبيه مع حفظ كرامة الأشخاص ومنزلتهم، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

٣ ـ كانت شفاعة إبراهيم لقوم لوط عليه السلام والتوسّط بينهم وبين الله سبحانه قبل معرفته بحتميّة العذاب، ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

٤ ـ حتى العذاب الإلٰهيّ يندرج ضمن برنامج تربية الإنسان وتقويمه، ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

٥ ـ لاحظ كيف تُرفَض شفاعة الأنبياء عليهم السلام في بعض الحالات، فعندما يصدر الأمر الإلٰهيّ الحاسم لن يستطيع أيّ مخلوق الاعتراض عليه أو منعه من الوقوع والتنفيذ مهما ارتفعت منزلته وسَمَت مكانته، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- ورد رُسُل الله تعالى على لوط عليه السلام وهو في قريته بهيئة شباب كأجمل ما يكون ونزلوا عنده ضيوفاً في ذلك اليوم. وعلى الرّغم من ترحيبه الحارّ بهم كعادته إلّا أنّ الدنيا ضاقت في عين لوط عليه السلام بسبب خوفه من تعرّض ضيوفه إلى اعتداء أبناء قريته الفاسدين.
- جملة ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بمعنى ضاقَ صدره وتألّم أو شَقّ عليه الأمر لئلا يُخجله قومه أمام هؤلاء الضيوف.

التعاليم:

١ ـ عِلم الأنبياء له حدود، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ فسيّدنا لوط عليه السلام لم يكن يعلم أنّ هؤلاء الضيوف هم في الحقيقة ملائكة متشكّلون بهيئة بشرية.
٢ ـ المرحلة القلبية هي أُولى مراحل محاربة المُنكر، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾.
٣ ـ من مسؤولية المُضيف حماية ضيفه والدّفاع عنه، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

- ﴿يُهْرَعُونَ﴾: أهرعَ الرّجلُ إهراعاً، أسرعَ في رِعدة؛ إذ كانت شدّة شهوتهم

الدنيئة تجرّهم جرّاً نحو بيت لوط عليه السلام وضيوفه.

□ ليس المُراد بصيغة التفضيل ﴿أَطْهَرُ﴾ أنّ اللّواط طاهر أيضاً؛ لكنّ الزّواج أطهر[1]، بل هو مماشاة للفاسد لإقناعه بالزّواج الحلال والطاهر إذا كان يقصد الشّهوة من تصرّفاته تلك[2].

□ تتعاظم القدرات وتتعالى المعنويّات خصوصاً في خِضمّ المشاكل والمُعاناة وحالات القلق والخوف والاضطرابات. فلو عرّف الملائكة أنفسهم للوط عليه السلام وكشفوا له عن شخصيّتهم الحقيقيّة منذ البداية، ما كان لوط ليستنجد أو يقلق أو يخاف أو يستجدي المعروف من بَني قومه الفاسدين، بل ما كان ليعرض عليهم الزواج ببناته دفعاً للإساءة عن ضيوفه.

□ **سؤال**: ما هو المبرّر الذي استند إليه النبيّ لوط عليه السلام في عرضه تزويج ابنته المؤمنة من رَجل كافر؟

الجواب: ربّما كان في نيّة النبيّ لوط عليه السلام اشتراط إيمان ذلك الكافر عند عقد النكاح ليُصبح ذلك وسيلة لإيمانه، أو ربّما كان المراد من قوله عليه السلام بـ ﴿بَنَاتِي﴾ هو بنات قومه اللّاتي يُعتبرنَ بنات للوط عليه السلام باعتباره نبيّ هذه الملّة، أو ربّما كان مثل هذا النوع من الزواج (بين المؤمنة والكافر وبالعكس) مسموحاً به في ذلك الزمان.

التعاليم:

١ ـ تتسارع حركة بعض المجتمعات الإنسانيّة أحياناً إلى السقوط في الهاوية والفساد فيُهرع أبناؤها إلى الانحراف كما فعل قوم لوط، ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

٢ ـ النّفس العاصية الفاسدة تُصبح فرساً دون عنان للإنسان تقوده مسرعة نحو الذنوب، ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

---

(١) بل مثل كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ﴾، سورة الجمعة: الآية ١١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٠.

٣ ـ المعاصي كالسلسلة، تقود إحداها الأخرى، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٤ ـ من أجل مَنع ارتكاب المُنكرات لا بدّ أوّلاً من فَتح أبواب المعروف على مصراعيها لتكون واضحة للناس، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى... وَلَا تُخْزُونِ﴾.

٥ ـ ليس معنى العفّة والطهارة الانزواء، بل مُراعاة الأدب والعفاف بشكل طبيعيّ وعاديّ، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾، (أشارَ النبيّ لوط عليه السلام إلى بناته بحضور الرّجال).

٦ ـ لا تكفي الموعظة والإرشاد لهداية المجتمع، بل لا بدّ من التضحية بالغالي والنفيس أحياناً، ﴿بَنَاتِى﴾.

٧ ـ لا مانع أبداً من عَرض الوالد بناته للزواج، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾.

٨ ـ الزواج هو الطريق الوحيدة لإشباع الغريزة الجنسية، وأمّا ما سواها فهي سُبُل فاسدة ومنحرفة، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

٩ ـ عندما يُصبح ارتكاب المعاصي أمراً عادياً فإنّ ذلك لا يعني ترك النّهي عن المُنكر، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٠ ـ من الواضح أنّ اشتهاء المماثل كان عادة ممقوتة ومحرّمة في الأديان السابقة، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١١ ـ لا ضَير من النّهي عن المُنكر وإن بدا تأثيره ضعيفاً، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٢ ـ إهانة الضيف أو إيذاؤه تُمثّل إهانة للمُضيف وإيذاءً له كذلك، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾.

١٣ ـ تكمن قيمة الضيافة في حجم المُعاناة العظيمة التي يواجهها الإنسان الشريف أكثر من غيره، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾.

١٤ ـ حماية الضيف والدفاع عنه هو حقّ إنسانيّ، والتخلّي عنه يُعدّ عملاً لا يمتّ إلى الشهامة والغَيرة بأيّ صِلة، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾.

١٥ ـ استنجدوا بالعواطف والمشاعر والإحساسات عند إرشادكم الجاهلَ، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

١٦ ـ لا مكان للرّشد والغيرة والرجولة مع اشتهاء المماثل، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

- يُعبّر النبيّ لوط ﷺ عن مُعاناته وألمه وهو يخاطب قومه الذين تجمّعوا عند باب داره قائلاً: «لو كان لي أتباع وأصحاب مؤمنون لاستطعت مواجهتكم أيّها الحُقراء ولتمكّنت من الدّفاع عن ضيوفي، أو على الأقلّ لاستطعتُ أخذهم إلى منطقة آمنة لحمايتهم من شرّكم وأذاكم».
- يُقال: إنّ رسول الله ﷺ عندما تلا هذه الآية ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال: **«رحمةُ اللهِ على لوط، لقد كانَ يأوي إلى رُكنٍ شَديد»**[١]. يبدو أنّ الرسول الأعظم ﷺ كان يعني أنّ لوطاً ﷺ بوفاته ومُغادرته هذه الدنيا أوى إلى الرّكن الشديد وهو الله تعالى شأنه وتخلّص بذلك من شرّ قومه الفاسدين.
- تُعتبر عمليّة اشتهاء المماثل من الكبائر وجزاء مُرتكبها هو الإعدام والجَلد إذ يُقام عليه الحدّ بشهادة العدول أو اعترافه.

قُبح جريمة اللواط في القرآن والحديث

عَبّر القرآن الكريم عن العمل القبيح والفعل الشنيع الذي كان قوم لوط ﷺ يرتكبونه بعبارات عدّة في مُختلف آياته التي تحدّث فيها عن قصّة لوط ﷺ مع قومه، وكلّها تشير إلى عِظَم تلك المعصية وشدّة حُرمتها، مثل وصفه تعالى إياها بأنّها:

١ ـ فَحشاء ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾[٢].

---

(١) انظر: تفسير في ظلال القرآن.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٠.

٢ ـ إسراف ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[(١)].

٣ ـ جريمة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[(٢)].

٤ ـ ظلم ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[(٣)].

٥ ـ خبائث ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾[(٤)].

٦ ـ جَهل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[(٥)].

٧ ـ فِسْق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[(٦)].

وقد حذّرت الروايات كذلك بشدّة من ارتكاب هذا الفعل القبيح، كالقول إنّه ما جامعَ رجل رجلاً إلّا اهتزّ له عرش الله ﷻ من شدّة ذلك ولم يكلّمهما الله يوم القيامة[(٧)]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«لَو كانَ يَنبغي لأحدٍ أن يُرْجَم مَرّتيْن لرُجِمَ اللّوطيّ مَرّتيْن»**[(٨)]. وقال رسول الله ﷺ: **«مَن ألَحَّ في وطيِ الرّجالِ لَم يَمُت حتى يَدعو الرّجال إلى نَفْسِه»**[(٩)]. وتجدر الإشارة إلى أنّ الفاعل والمفعول به في اللّواط يُعدمان، حيث أشارت الروايات إلى أنّ السبب في حرمته هو الفساد وانقطاع النّسل[(١٠)]، فيما أشارت روايات أخرى إلى قُبح تشبّه النساء بالرجال والرّجال بالنساء؛ لأنّ من شأن ذلك أن يشجّع على شيوع فاحشة اللواط والسّحاق[(١١)].

---

(١) السورة نفسها: الآية ٨١.

(٢) السورة نفسها: الآية ٨٤.

(٣) سورة هود: الآية ٨٣.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٤.

(٥) سورة النّمل: الآية ٥٥.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٧٤.

(٧) انظر: بحار الأنوار، ج٧٦، ص ٦٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(١٠) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٢.

(١١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لعنَ الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال». وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٥، نقلاً عن تفسير الأمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج٧، ص ٢٨. [المترجم]

التعاليم:

١ ـ يعتاد بعض الأشخاص على ارتكاب الذنوب والمعاصي بحيث يرى الشيء الطبيعيّ قبيحاً والشيء القبيح جميلاً وطبيعيّاً، بل وحقّاً كذلك، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ...﴾.

٢ ـ إنّ أيّ نبيّ أو مُصلِح هو أحوج ما يكون إلى القدرات والإمكانات وحماية الناس أثناء قيامه بإرشاد الجهلاء، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

٣ ـ إذا لم تكن آنذاك قدرة أو حكومة أو أجهزة حماية أو قوى مسلّحة، فلن يكون بمقدرة الأنبياء أنفسهم الوقوف بوَجه الكثير من المُنكرات[1]، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

٤ ـ علينا الابتعاد عن البيئة الفاسدة قدر المُستطاع إذا لم نستطع الوقوف في وجه الفساد وقطع دابره، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ...﴾.

٥ ـ عاش الكثير من الأنبياء كالغرباء بين قومهم، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ...﴾.

٦ ـ لا بدّ من اتّخاذ جميع الإجراءات الممكنة للدّفاع عن الضيف وحمايته وعدم إهانته، ﴿ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

□ ﴿أَسْرِ﴾ مُشتقّ من «الإسراء» وهو المسير ليلاً.

□ وعبارة ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ إمّا أن تكون مُستثناة من كلمة ﴿أَهْلِكَ﴾ فيكون معناها:

(١) لا شكّ في أنّنا اليوم نمتلك بحمد الله كلّ ما كان يتمنّاه النبيّ لوط أو بقيّة الأنبياء ﷺ من الإمكانات والقدرات، فهلّا انتهينا عن ارتكاب المعاصي والمُنكرات؟

أسرِ بأهلك جميعاً في خلال الليل ما عدا امرأتك؛ أو أن تكون العبارة المذكورة مُستثناة من ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾، وعندئذٍ سيكون المقصود من كلام الملائكة هو: حذار أن يلتفت أحد منكم خلفه عند السّير، لكنّ زوجته هي الوحيدة التي نظرت إلى الخلف لخشيتها على قومها الفاسدين، وهكذا تخلّفت عن رَكب السائرين في تلك الليلة وأصابها ما أصاب قومها.

التعاليم:

١ ـ جَرت العادة أن يُعلِم الله سبحانه أنبياءه بهلاك قومهم قبل وقوعه، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ...﴾.

٢ ـ على المؤمن أن يكون حاضراً ومستعداً حتى من الناحية النفسية للتفاعل مع الحدث بسرعة لكي يتمكّن من الانتقال والتنقّل في أقصر مدّة ممكنة (ليلة واحدة أو جُزء منها)، ﴿فَأَسْرِ... بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾.

٣ ـ لا بدّ من تجاهل الجزئيّات كالمال والأثاث عند القيام بثورة وتغيير شامل في منطقة فاسدة، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

٤ ـ حتى قرابة النبيّ ليست وسيلة من وسائل النجاة، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾.

٥ ـ لا بدّ من أن يستند أيّ نظام للقِيم على القواعد والقوانين وليس على أساس العلاقات والروابط، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾.

٦ ـ الإنسان حُرّ في اختيار الطريق التي يريد، وها هي امرأة أحد الأنبياء تختار طريق الانحراف والفساد، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ (ما يدلّ على أنّ المرأة حُرة كالرّجل في تقرير مصيرها).

٧ ـ علينا أن نُفرّق بين المؤمنين الحقيقيين وبين أفراد الأُسرة والأقارب، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾.

٨ ـ لكلّ فعل من أفعال الله تعالى أجل مُسمّى ووقت مُعيّن، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾.

٩ ـ لا ينبغي الاستعجال حتى ولو كان الأمر يتعلّق بعذاب الله سبحانه، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ الـ ﴿سِجِّيلٍ﴾ كتلة من الطّين، وهو شيء بين الطين والحجارة، و﴿مَّنضُودٍ﴾ مُتراكم فوق بعضه البعض. والمُراد بـ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ إمّا أن كلّ حجارة من تلك الأحجار كانت مُسمّاة باسم شخص في مدينة لوط عليه السلام أو أن يكون المعنى هو اختلاف تلك الحجارة عن الأحجار المعروفة على الأرض.

□ تشير هذه الآية إلى وضع نهاية لقوم لوط عليه السلام؛ فقد كان نبيّاً مُرسلاً إلى هؤلاء القوم، يعيش في عصر النبيّ إبراهيم عليه السلام ويُبلّغ دينه كذلك. وقد هاجر سيّدنا لوط عليه السلام مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ثم أُرسِلَ إلى منطقة تسمّى بـ (المُؤتَفِكات) حيث كان سكّانها يعبدون الأصنام ويمارسون اللّواط علناً. فبدأ النبيّ لوط عليه السلام مشواره وكفاحه ضدّ تلك العادات الفاسدة والدّاء الأكبر، لكنّ نُصحه وتبليغه لم يُجديا نفعاً. ووصل الأمر بقومه إلى تهديده بالطرد من مدينتهم وإخراجه منها عُنوة إن لم يكفّ عن تأنيبهم ولومهم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[1]. حتى جاء أمر الله تعالى وأُرسِلَ الملائكة لإنزال العذاب بقومه، وبعد إخبار خليل الله إبراهيم عليه السلام ثمّ النبيّ لوط عليه السلام بأمر الله، نفّذ الملائكة ما أُرسِلوا من أجله وذلك بقَلب تلك القرى رأساً على عقب.

□ ورد في الآية (٧٣) من سورة الحِجر أنّ الصّيحة أخذت قوم لوط فأُهْلِكوا[2]. وقد كان هناك قلب وصيحة وإمطار بالحجارة، ومن الممكن أن يكون ذلك بحدوث بركان من البراكين القريبة من بلادهم وحدوث زلزلة في أرضهم

(١) سورة الشّعراء: الآية ١٦٧.
(٢) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

وانفجار أرضي بصيحة توجب قَلْبَ مُدنهم، وإمطار الموادّ المُذابة والمُنصهرة عليهم من قطع الحجارة التي يقذفها البركان[١].

التعاليم:

١ ـ جزاء مَن يقلب الفطرة الإنسانيّة ويحوّرها أن تُقلَب عليه داره رأساً على عَقِب، ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

٢ ـ إنّ الله قادر على إمطار الحجر والسجّيل بدلاً من المطر، ﴿وَأَمْطَرْنَا... حِجَارَةً﴾.

٣ ـ الانحراف الأخلاقيّ والشذوذ الجنسيّ نوعان من أنواع الظّلم، ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤ ـ مَن يرضى عن ممارسة اللّواط والسّحاق كما هو شائع في العالم الغربيّ فلا بدّ إذاً من أن يتوقّع نزول عذاب الله تعالى وغضبه عليه وانقلاب داره رأساً على عقب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ
إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

□ تقع مدينة «مدين» ـ التي تسمّى اليوم «مَعان» والتي سمّتها التوراة باسم «مَديان» ـ إلى الشّرق من خليج العقبة في الأردن، وأهلها من بَني إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وكانت لهذه المدينة علاقات تجارية مع كلّ من مصر ولبنان وفلسطين. وذكر بعضهم أنّ مَدين هي اسم قبيلة وليست اسم مدينة وأنّهم كانوا يسكنون بالقرب من طور سيناء في شِبه جزيرة سيناء.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

□ كان فساد بعض الأُمم وانحطاطها متفاوتاً وفي فترات وعصور مختلفة تجب دراستها بدقّة، ففساد قوم لوط عليه‌السلام كما رأينا تمثّل في انحرافهم جنسياً وممارسة اللواط، أمّا قوم شُعَيب عليه‌السلام فكان التطفيف في الكيل والوزن عندهم، أو ما يُسمّى في الوقت الحاضر بـ (الفساد الاقتصاديّ).

التعاليم:

١ ـ إرسال الرّسل والأنبياء عليهم‌السلام هو سُنّة إلهيّة وتيّار تاريخيّ مُستمرّ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾.

٢ ـ كانت رسالة النبيّ شُعَيب عليه‌السلام ـ كما هو معلوم ـ مُقتصرة على مدينته (مَدْيَن)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾.

٣ ـ التوحيد قائم على أساس الإيمان بالإله الواحد، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

٤ ـ لا تكفي عبادة الله تعالى وحدها بل لا بدّ من البراءة من المشركين كذلك، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

٥ ـ لم تقتصر مسؤولية الأنبياء عليهم‌السلام على المسائل العقائدية والأخلاقيّة فحسب، بل شملت أيضاً الشؤون الاقتصاديّة وعوامل الفساد المرتبطة بها، ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾.

٦ ـ قد لا تكون الرفاهية ومستوى الدّخل العامل الوحيد الذي يمكنه أن يمنع الفساد والغشّ، ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ... إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾. وفي ما يتعلّق بتفسير جملة ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «**كانَ سِعرهُم رَخِيصاً**»[(١)].

٧ ـ عند النّهي عن المُنكر لا بدّ من احترام شخصيّة الآخرين وطمأنتهم، ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٨ ـ كانت الإشارة إلى مسألتيِ المَبدأ والمَعاد على رأس لائحة دعوة الأنبياء عليهم السلام، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ... أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾.

٩ ـ الإيمان بيوم الحساب هو أساس التقوى في كلّ الأمور الحياتية، ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ... عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

١٠ ـ لا يمكن الفِرار من عذاب الله وغضبه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ كلمة ﴿تَبْخَسُوا﴾ من مادّة (بَخس) بمعنى قلّل، أمّا عبارة ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ فمعناها (لا تُفسِدوا).

التعاليم:

١ ـ إقامة العدل والقسط هو إنجاز خلّفه لنا الأنبياء عليهم السلام، ﴿أَوْفُوا... بِالْقِسْطِ﴾.

٢ ـ عندما تُصبح المعصية أمراً عادياً في المجتمع يتوجّب علينا التذكير باستمرار وبشكل متواصل حتى يتمّ استئصال تلك المعصية. لاحِظوا أنّ هذه الآية كرّرت موضوع مُراعاة الوزن وعدم البخس بالميزان، ﴿أَوْفُوا... وَلَا تَبْخَسُوا﴾.

٣ ـ لا بدّ من مراقبة النشاطات التجارية والشؤون الاقتصاديّة، ﴿أَوْفُوا... وَلَا تَبْخَسُوا﴾.

٤ ـ ينبغي التعامل مع جميع الأفراد بالقسط والعدل وليس مع المؤمنين فقط، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾.

٥ ـ لا تقتصر عمليّة البخس في حقّ الناس على المواد الوزنية أو المكيالية، بل تشمل جميع ما يتعامل به الناس، حتى الأمانات، ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾.

٦ ـ تضييع حقوق الناس في المسائل الاقتصاديّة يُعدّ نموذجاً بارزاً للفساد؛ لأنّ

الاقتصاد الفاسد والمريض يقود المجتمع إلى الدّمار، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا... مُفْسِدِينَ﴾.

٧ ـ تقليد المُفسدين ومُحاكاة تصرّفاتهم أكبر من الفساد نفسه، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا... مُفْسِدِينَ﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

□ جملة ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية تعني الدّخل والمنفعة (أو الرّبح) الذي يتبقّى للشخص من رأسماله الحلال الذي يُرضي الله سبحانه، وهي (أي بَقيّة الله) مورد ومَكسب حلال مئة في المئة؛ لكنّنا نطالع في الروايات أنّ عبارة (**بَقيّة الله**) تُطلَق على كلّ وجود مُبارك يظلّ للبشرية جمعاء بإذن الله تعالى، ومن ذلك الجنود الأشاوس المؤمنون العائدون من الجبهة لبقائهم أحياءً بإذن الله. ويُطلَق هذا الاسم (**بَقِيّة الله**) كذلك على إمام الزّمان (عَجّل الله تعالى فرجه الشّريف)؛ وذلك لأنّ إرادة الله شاءت أن تبقي وجوده الشريف ذخراً لهداية البشرية [في آخر الزّمان]. وتُخبرنا الروايات بأنّ (**بَقِيّة الله**) هو أحد أسماء إمام العصر والزمان (صلوات الله وسلامه عليه)[1]، وقد عُلِّمنا السلام عليه هكذا: «السّلامُ عَليكَ يا بَقيّةَ اللهِ في أرضِه». ويُقال إنّه عندما يُؤذَن للإمام بالظهور في مكّة فإنّه سيتلو هذه الآية ثمّ يقول: «**أنا بَقيّة الله**». ولكن بالطّبع فإنّ (**بَقِيّة الله**) تُطلَق كذلك على الأئمّة المعصومين عليهم السلام[2].

التعاليم:

١ ـ رزق حلال طاهر وإن قَلّ أفضل من دَخل حرام وإن كَثر، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٥٩.
(٢) تفسير كنز الدقائق.

٢ ـ الدنيا فانية والآخرة باقية، فطَلب الآخرة إذاً خيرٌ من طَلب الدّنيا، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٣ ـ تجنّبوا البخس والتطفيف يكثر عُملاؤكم ويزداد ربحكم الحلال في المستقبل، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٤ ـ إذا استساغ أحدكم الحرام فإيمانه مشكوك فيه، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥ ـ الإنسان حُرّ في ما يعتقد، وليس للأنبياء إرغامه على شيء، ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

٦ ـ إذا ضاعت أموالكم ودُمّرت حياتكم بسبب الحرام فلستُ عليكم بحفيظ، ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ جميع الأنبياء ﷺ كان لديهم مُعارضون ومناوئون، ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ...﴾.

٢ ـ من الواضح أنّ الصلاة كانت موجودة في الأديان السابقة، ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾.

٣ ـ ومن الواضح كذلك أنّ الصلاة كانت الشعيرة البارزة في دين شُعيب ﷺ، ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾.

٤ ـ الصلاة الحقيقيّة تأمر الإنسان بالقيام بالمعروف ونهي الآخرين عن المُنكر، ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ...﴾.

٥ ـ يُعتبر تقليد الأبناء آباءهم في مُقابل الدليل والنصّ سبب كثيرٍ من الانحرافات، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾.

٦ ـ ليس الدّين مُنفصلاً عن السياسة أو الاقتصاد (كما يدّعي البعض)، ﴿أَصَلَوٰتُكَ... نَّتْرُكَ... فِىٓ أَمْوَٰلِنَا﴾.

٧ ـ دعوة الأنبياء تتنافى مع الحريّة غير المُقيّدة، ﴿نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾.

٨ ـ امتلاك الإنسان الشيء لا يعني تصرّفه به كيفما شاء، ﴿أَن نَّتْرُكَ... أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾. (يبدو أنّ قانون ترشيد الاستهلاك كان موجوداً كذلك في شريعة النبيّ شُعيب ﷺ).

٩ ـ يكون مديح مُعارضينا لنا أحياناً ثمناً يُراد به شراء سكوتنا وتغاضينا عن الحقّ، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

١٠ ـ قد يقصد المادِح الاستهزاء أحياناً، ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

□ كان اعتراض الكفّار في الآية السابقة يدور حول السبب وراء كونهم غير أحرار في التصرّف بأموالهم، وفي هذه الآية يُجيبهم النبيّ شُعيب ﷺ أنّه إنّما يحذّرهم من التصرّف بتلك الأموال بغير قيود ولا حدود من أجل إصلاح الحياة والمُجتمع وليس لعداوة بينه وبينهم أو حسد لأموالهم أو قصر نظر منه أو أيّ شيء آخر؛ لأنّ مصلحة الفرد لا يجب أن تكون على حساب المصالح العامّة.

التعاليم:

١ ـ المُعجزة والبيّنة هما أساس النبوّة، ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي أنّ القوانين قائمة على أساس الدليل.

٢ ـ يعتبر الأنبياء ﷺ أنّ كلّ شيء إنّما هو موهوب من عند الله تعالى، ﴿رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾.

٣ ـ خابَ من ظنّ أنّ الرفاهية تأتي من التطفيف والحرام، فالأنبياء ﷺ والأولياء كانوا في عيشة راضية من دون أن يلوّثوا أنفسهم بتلك الأفعال، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ

رِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾؛ بل العيش الهانئ والرّزق الحَسن لا يجتمع التطفيف والظّلم.

٤ ـ لا شكّ في أنّ رزق الإنسان هو من عند الله وبلطفه وليس بالمهارة أو الشطارة، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ﴾.

٥ ـ لاحِظ أنّ الكُفّار كانوا يقولون: ﴿أَمۡوَٰلِنَا﴾، بينما كان النبيّ شُعيب ﷺ يردّد قائلاً: «رَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنًا»؛ أي لا تظنّوا أنّني أعاني ضائقةً ماليةً أبداً.

٦ ـ لا بدّ من أن يكون الآمِر بالمعروف والنّاهي عن المُنكر هو العامِل بهما قبل الآخرين، فلم يكن الأنبياء مُصمّمين أو قادة فحسب، بل كانوا أُسوة للعاملين ومثالاً صادقاً لهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾.

٧ ـ لم يسمح أيّ نَبيّ لنفسه حتى بالتفكير خلاف ما يأمر به، فما بالك بمُخالفته لأوامر الله وتعاليمه؟ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ...﴾.

٨ ـ إصلاح الفرد والمُجتمع هو الهدف الأساس لدعوة الأنبياء ﷺ، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾.

٩ ـ كان الأنبياء يعملون ضمن إطار طاقاتهم وقدرتهم وليس على أساس الساعات والأيام أو الأشهر والسنين، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾.

١٠ ـ الإرادة في العمل تكون منّا، أمّا التوفيق ومقداره فمن الله تعالى، ﴿إِنۡ أُرِيدُ... وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

١١ ـ ابذلوا كلّ ما في وُسعكم في العمل، لكن اعلموا أنّ التوفيق لا يكون إلّا من عند الله، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

١٢ ـ لا يُجدي التوكّل إلّا مع السّعي والمثابرة، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ... تَوَكَّلۡتُ﴾.

١٣ ـ من صفات المُصلِح أن يكون هو نفسه صالحاً، ومؤمناً، ومُتوكّلاً، ومُنيباً وحريصاً، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ... عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

١٤ ـ تضمّ هذه الآية الشريفة كذلك بعض الوصايا لِمَن يُريد الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، منها:

أ)أن يكون عاملاً بما يدعو إليه، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾.

ب) أن يهدف إلى إصلاح المُجتمع، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾.

ج) أن يكون مؤمناً بأنّ توفيقه لا يكون إلّا بالله، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

د)

أن يتوكّل دائماً على الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

هـ) أن يُنيب إلى الله في المُعضلات، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ليكن كلامنا ليّناً حتى مع أعدائنا أو المُعارضين لنا، ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٢ ـ ليس من المنطقيّ تعريض سعادة مجتمع بأكمله للخطر لمُجرّد العداوة مع شخص واحد، ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾.

٣ ـ إنّ أوجه الشّبه كثيرة بين تواريخ الأقوام البشرية، لذلك يجب على الأجيال التالية أخذ العِبر والدّروس منها، ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾.

٤ ـ لا ينبغي التقليل من شأن العواقب السيّئة التي وصلت إليها الأقوام السابقة أو اعتبارها موسمية أو شخصيّة أو صدفة محضة، ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ...﴾؛ عاش كلّ من نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام قبل سيّدنا شُعيب عليه السلام.

٥ ـ إنّ الله سبحانه قادر على إنزال العذاب بأيّ قوم وبأيّ صورة يشاء وفي أيّ منطقة كانت وفي أيّ وقت يريد؛ فقد غضب على قوم نوح عليه السلام فأغرقهم بالطوفان وأرسل الرّيح الصّرصر على قوم هود عليه السلام، وأصاب قوم صالح بالصّيحة، ودمّر مُدن قوم لوط عليه السلام رأساً على عقب، ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ أفضل حدث يمكن أخذ الدروس والعِبر منه هو ما كان أقرب من حيث الفترة الزمنية، فقوم شُعيب عليه السلام جاءوا بعد قوم لوط عليه السلام بوقت

قريب وفي منطقة قريبة كذلك من مناطق مُدن قوم لوط، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

□ ال «وُدّ» صيغة مبالغة معناها المحبّة المستمرّة الباقية التأثير.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من بيان طريق للعودة والإنابة كذلك للمُعارضين إلى جانب تحذيرهم وتخويفهم، ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟...﴾.

٢ ـ طلب الرّحمة والمغفرة وترك المَعصية يُمثّل مقدّمة للعودة إلى طريق الحقّ، ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

٣ ـ إذا استغفر العبد وتاب إلى ربّه [بإخلاص] فإنّ الله سيقبل توبته لا محالة، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟... إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

٤ ـ عندما نعرف الله سبحانه حقّ معرفته ستسهل إنابتنا إليه، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

٥ ـ رَحمة الله تعالى ليست مرحلية أو موقّتة، بل هي مستمرّة ودائمة، لها تأثيرات وبركات متتالية، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾؛ فهذه الجملة هي جملة اسمية إضافة إلى أنّ كلمة «رحيم» هي صيغة مبالغة أيضاً.

٦ ـ ليس الله سبحانه توّاباً فحسب، بل ويحبّ التوّابين كذلك، ﴿وَدُودٌ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

□ قال الكفّار لشُعيب عليه السلام: «إنّنا لا نَفهم ما تقوله لنا حقّ الفهم»؛ فما الذي قاله لهم ولم يستطيعوا فَهمه؟ لم يقُل لهم سوى:

١ ـ إنّ لديه مُعجزة وبيّنة على ما يدّعي، ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾.
٢ ـ إنّه لا يُعاني أيَّ ضائقة مالية وأنّه ليس بحاجة إليهم ولا إلى أموالهم، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.
٣ ـ إنّه هو نَفسه مُلتَزم وعامِل بما يدعوهم إليه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾.
٤ ـ إنّ هَدفه هو إصلاح مجتمعهم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾.
٥ ـ إنّه سيحاول معهم ويُعاود الكرّة في نُصحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾.
٦ ـ إنّه لا يتوكّل سوى على الله وإليه يُنيب، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.
٧ ـ وإنّه يُحذّرهم من أن تكون عاقبتهم كعاقبة مَن سَبقهم، ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ و....﴾.

وما كان جواب الكفّار على ما قاله شُعيب سوى تجاهلهم له ﴿مَا نَفْقَهُ﴾، وتصغيره ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾، وإهانة أُسرته وعشيرته ﴿رَهْطُكَ﴾، وتهديده بالتعذيب والتنكيل إن لم يكفّ عن دعوته ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾، والاستهانة بمكانته ومنزلته، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ تحمّل الأنبياء ﷺ ومُبلّغي الأديان أكبر الإهانات في خلال دعوتهم الناس إلى الصراط المستقيم، ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾.
٢ ـ من الواضح أنّ مُخالفي الأنبياء لا يمتلكون أيّ دليل بيّن أو منطقاً جليّاً، فمنطقهم الإهانة ودليلهم التعذيب والتنكيل، ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي مُراعاة حقوق الناس أو الجماعات أو الأحزاب ولا حتى الحقوق

الدولية على حساب الحقّ الإلٰهيّ. حذار من تهميش صراط الله سبحانه والتقليل من تأثيراته في المحافل السياسيّة والاجتماعية، ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ﴾.

٢ ـ المُعاندون هم أحوج ما يكونون إلى التحذير والتنبيه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كان اليأس يُصيب الأنبياء عليهم السلام في بعض الأحيان لعدم تأثير كلامهم على قومهم، ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾.

٢ ـ إذا يئستم من هداية الآخرين فلا أقلّ من تصمدوا أنتم على مواقفكم، ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾.

٣ ـ عندما لا يكون للموعظة أيّ أثر يُذكَر، فلا مناص حينئذٍ من استخدام لغة التهديد والوعيد، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٤ ـ لا بدّ من مُقابلة التهديد بالتهديد أيضاً، ﴿لَرَجَمْنَٰكَ... عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٥ ـ يبدو أنّ قوم شُعيب عليه السلام كانوا يظنّونه كاذباً، ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾.

٦ ـ علينا أن نقوم بواجبنا، ثمّ ننتظر معونة الله، ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ... وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ قد يتأخّر عذاب الله وغضبه عن الظالمين أو يتقدّم؛ ولكنّه نازل بهم إن عاجلاً أم آجلاً، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾.

٢ ـ ليست الصواعق أحداثاً اعتباطية، بل هي أمور تحدث بإذن الله وأمره، ﴿أَمْرُنَا﴾.

٣ ـ إنّ الله كفيل بتخليص المؤمنين، ﴿نَجَّيْنَا﴾.

٤ ـ لا بدّ من أن يقترن الإيمان بالأنبياء بحمايتهم والدّفاع عنهم، فقد قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقُل: (الذينَ آمنوا بِه).

٥ ـ الإيمان سرّ النجاة، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

٦ ـ تجاهل دعوة الأنبياء ﷺ يُعدّ ظلماً كبيراً، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٧ ـ الهلاك عاقبة الظلم والظالم، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٨ ـ لقد كان نزول العذاب بقوم شُعيب سريعاً ومُفاجئاً بحيث لم يتمكن أحد منهم من الخروج حتى من منزله، ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾، ويبدو أنّ نزول العذاب كان في الليل.

٩ ـ ينزل غضب الله على الظالمين بشكل يسلبهم معه أيّ فرصة للفرار أو الهروب، ﴿جَاثِمِينَ﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ غضب الله سبحانه يفوق كلّ قنبلة قوّة وبطشاً؛ إذ قد تتوفر لبعض الأفراد مثلاً فرصة للهروب من خطر القنابل أو الموت تحت الأنقاض، أو التعافي والنجاة بعد توقّف القصف المُعادي، لكن عندما يحلّ غضب الله وعذابه على قوم ما فإنّه يقتلع جذورهم وكأنّهم لم يكونوا موجودين أصلاً في تلك المنطقة.

التعاليم:

١ ـ لا مَفرّ لأحد ولا خلاص له من غضب الله، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾.

٢ ـ جَرت السُّنّة الإلٰهيّة والقرآنية على البراءة من الظالمين ولَعنهم والدّعاء عليهم، ﴿بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

- إنّ ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدّث عن النبيّ موسى عليه السلام وقومه بَني إسرائيل، لم يرد مثله حول أيّ نَبيّ أو أمّة أخرى، إذ ذُكِر اسم موسى عليه السلام في القرآن أكثر من (١٣٠) مرّة في أكثر من ثلاثين سورة، وقد ورد مُلخّص ذلك كلّه في هذه السورة بالذات.
- كلمة ﴿سُلْطَـٰنٍ﴾ تعني هنا السّلطة والقدرة، فقد تُطلَق أحياناً على السلطة الظاهرية وأحياناً أخرى يُراد بها السلطة أو القدرة المنطقية والاستدلالية.

التعاليم:

١ ـ من الطبيعي أن يمتلك مَن يدّعي أنّه سفير الله أدلّة وعلامات على مُدّعاه، ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٢ ـ يجب أن يكون منطق الأنبياء عليهم السلام ومُعجزاتهم من النوع الذي يفهمه الناس، ﴿مُّبِينٍ﴾.

٣ ـ ترتكز فلسفة إرسال الرّسل عليهم السلام على أُسس، أهمّها: (أ) القضاء على الطاغوت، (ب) تحرير الناس من العبودية، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾.

٤ ـ ممّا يُؤسَف له أنّ مُعظم الناس كانوا من الموالين للطواغيت، ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

٥ ـ من الضروريّ إجهاض الشعارات الإعلامية للطواغيت، فهوذا فرعون كان يدّعي زوراً أنّه يهدي قومه إلى الرّشاد ويقول لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1]، وتجيب هذه الآية عن ادّعائه، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

(١) سورة غافر: الآية ٢٩.

٦ ـ لا يكفي العلم والمعرفة في بعض الأحيان لتجنّب الانحراف، فقد بيّن موسى عليه السلام للناس الحقّ بالأدلّة والبراهين بشكل واضح ومفهوم، بينما كان فرعون يدعو قومه إلى الانحراف، وكان قومه يتّبعونه عن غير هدى أو بصيرة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾

إشارات:

□ ﴿ٱلْوِرْدُ﴾ هو الماء الذي يَرِده العطشان من الحيوان والإنسان للشرب، والورود أصله قصد الماء ثم استُعمل في غيره.

التعاليم:

١ ـ إنّ علامة الرُّشد هي أن تكون قوانينه وبرامجه سبباً للورود إلى الجنّة لا إلى النار، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ... يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾.

٢ ـ أئمّة الناس ومُقتداهم في هذه الدنيا سيكونون قادتهم كذلك إمّا إلى الجنّة أو إلى النار، فإمام النور (العادل) سيقود قومه إلى الجنّة وإمام النار (الظالِم) سيقود قومه إلى النار لا محالة، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ مَن اتّبع ويتّبع فرعون والطواغيت الآخرين سيُتبَع في هذه الدنيا لعنة وفي الآخرة كذلك، ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ... وَأُتْبِعُوا۟... لَعْنَةً﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون مقصود الآية هو أنّ الله سبحانه أهلك بعض الأقوام لكنّه أبقى على

آثارهم وأطلالهم، فيما أهلك البعض الآخر ولم يُبق شيئاً من آثارهم أبداً.

□ إنّ لاستخدام القرآن الكريم الأسلوب القصصيّ في آياته مزايا وتأثيرات إيجابية، منها:

١ ـ الأسلوب القصصيّ ممتع وجذّاب؛

٢ ـ ويُمهّد لوَقْع وتأثير الدلائل العقليّة والبرهان بشكل واسع؛

٣ ـ ويُمثّل دليلاً آخر على إعجاز النبيّ ﷺ كونه أتى بكلّ تلك الأخبار الغيبيّة وهو إنسان لا يعرف القراءة والكتابة؛

٤ ـ ويدخل ضمن العِبَر التي يكتسبها السامع (أو القارئ).

التعاليم:

١ ـ يكفي بيان جانب مُعيّن من التاريخ ليكون مَدعاة للرّشد وسبباً للاعتبار والحذر؛ أي جزء من تاريخ الأمم السابقة وليس كلّه، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾.

٢ ـ سيرة النبيّ نوح وهود وصالح ولوط وشُعيب وموسى صلوات الله عليهم أجمعين تُعدّ جزءاً مُهمّاً من التاريخ البشريّ ﴿أَنۢبَآءِ﴾، وبما أنّ الشيء بالشيء يذكر، فإنّ كلمة «النّبأ» تَعني الخبر الهامّ.

٣ ـ القرآن الكريم أفضل مَصدر وأصدق مَرجع للتعرّف على التاريخ القديم ومصائر الأُمم السالفة.

٤ ـ لن تتّصف أيّ قصّة بالحقيقة والميزة الوثائقية والتعليمية إلّا إذا كان القاصّ هو الله سبحانه، إذاً، لا يجب أن نغفل عن ذلك، ﴿نَقُصُّهُۥ﴾.

٥ ـ القصص القرآنية هي أصدق القصص؛ لأنّ القاصّ هو الله تعالى، ﴿نَقُصُّهُۥ﴾.

٦ ـ يجب أن نُفرّق بين تاريخ الأُمم وبين آثارها وبقاياها؛ لأنّ التاريخ هو موضوع باق وثابت وإن كنّا لا نمتلك أحياناً أيّ أخبار عنها، ﴿وَحَصِيدٌ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

□ «التتبيب» كلمة مشتقّة من (تَبَّ) ومعناها الاستمرار في الضرر والإمعان فيه، وقد تأتي بمعنى الهلاك أيضاً.

التعاليم:

١ ـ تنبيه الظالم أو مُعاقبته ليس ظلماً بل هو عين العَدل، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

٢ ـ مَصير كلّ إنسان رَهن بأعماله وسلوكه، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

٣ ـ ما مِن مُنقذ للإنسان سوى الله سبحانه، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾.

٤ ـ ليس باستطاعة أيّ مخلوق الوقوف بوَجه الإرادة الإلٰهيّة، ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يستند غضب الله سبحانه ولُطفه إلى سُنّة إلهيّة ثابتة وقوانين لا تتغيّر، لا إلى أمور دفعية أو عَرضية، ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ لتَعلم الأُمم الظالمة أنّها مُعرّضة في أيّ لحظة إلى غضب الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾.

٣ ـ يُمثّل التهديد في الوقت المناسب عاملاً من العوامل التربويّة المؤثّرة والرادعة، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾.

٤ ـ غضب الله سبحانه شأن من شؤون ربوبيّته، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾.

٥ ـ الإنسان هو السّبب في شقائه ونزول العذاب الإلٰهيّ عليه، ﴿أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

٦ ـ لا ينزل عذاب الله على قوم حتى تغطّي سُحُب الظُّلم سماءَها، ﴿أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾.
٧ ـ حذار من الاستهانة بغضب الله سبحانه، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أن تكون القصّة هادفة وذات مغزى، ﴿لَآيَةً﴾.
٢ ـ المؤمنون بالآخرة هم وَحدهم الذين يتّخذون من قصص القرآن دروساً لهم، ﴿لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.
٣ ـ قد يكون الخوف من يوم القيامة وأهواله سبباً للاعتبار والذّكرى (وإن لم يكن ذلك الخوف عن يقين بل على أساس احتمال وارد لوقوع تلك الأخطار)، ﴿لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.
٤ ـ من المعروف أنّ إحضار الناس وجَمعهم يوم القيامة هو أمر إجباريّ لا اختياريّ، فالله سبحانه يقول: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾، ولم يقُل: (يومَ يجتمع الناس).

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ «السّعادة» هي توفّر جميع أسباب النِّعَم، أمّا الشّقاء فهو توفّر أسباب البلاء.

التعاليم:

١ ـ لقد حدّد الله سبحانه من قَبل بداية ليوم القيامة ونهاية لهذا العالم، ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

٢ ـ لا شكّ في وجود هدف ما من وراء الأجل الموضوع حتى قيام الساعة، فالله سبحانه يقول: ﴿لِأَجَلٍ﴾ ولم يقُل: (إلى أجَل).

٣ ـ كلّ مخلوق يوم القيامة ممنوع من الكلام [حتى الملائكة إلّا مَن أذِنَ له الله سبحانه]، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

- ال ﴿زَفِيرٌ﴾ هو إخراج الهواء من الصّدر يرفقه صوت والـ﴿وَشَهِيقٌ﴾ إدخال النّفس إلى الرّئتيْن يصحبه أنين طويل. وقال بعضهم: إنّ الزّفير أوّل نهاق الحمار والشّهيق آخر نهاقه[١].
- تختلف مُدَد الداخلين إلى جهنّم، فمنهم مَن سيُخرَج منها بعد قضائه فترة مُعيّنة فيها، ومنهم [والعياذ بالله] خالدون فيها ولا يُخرَجون منها أبداً.
- تُشير كلمة «الخُلود» إلى الدّوام والبقاء إلى الأبد وليس إلى مدّة طويلة، لا سيّما عندما تأتي مع كلمة ﴿أَبَدًا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[٢]. وفي هذه الآية تعني كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الأبدية والاستمرار كذلك على الرغم من أنّها مقرونة ببقاء السموات والأرض وعلى الرّغم من أنّ القرآن الكريم عيّن لها في الظاهر مُدّة محدودة[٣]، لأنّ عبارة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تُستعمل في اللغة العربيّة والأدب العربي كناية عن الأبدية والخلود وإن كانت السموات غير خالدة.

التعاليم:

١ ـ الإنسان هو الذي يختار طريق الشقاء أو السعادة ولا يُجبَر عليه، فالله سبحانه يقول: ﴿شَقُواْ﴾ ولم يقُل: (شُقُوا).

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٩؛ سورة الجنّ: الآية ٢٣.

(٣) انظر: سورة إبراهيم: الآية ٤٨؛ والأنبياء: الآية ١٠٤.

٢ ـ لله سبحانه أن يُخرج بعض أهل جهنّم (لقلّة معاصيهم أو استحقاقهم للعفو أو أيّ سَبب آخر)، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان هو الذي يختار سبيل السعادة أو الشّقاء من دون أن يُفرَض عليه أيّ منهما، لكن تبقى سعادته مرهونة بتوفيق من الله. ولذلك استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿شَقُواْ﴾ للشّقاء وكلمة ﴿سُعِدُواْ﴾ للسعادة.

٢ ـ على الرغم من أنّ الله سبحانه فعّال لما يُريد، بما في ذلك إخراج أهل الجنّة بعد حين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾، لكن، بعد أخذ الجزء الأخير من هذه الآية بالاعتبار ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ والوعود التي قطعها سبحانه في آيات أُخر، فإنّه تعالى لا يفعل ذلك، فمَن أدخله الجنّة فإنّه لن يُخرجه منها أبداً.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾

التعاليم:

١ ـ على القائد أن يكون حاسماً وثابتاً على المضيّ صوب أهدافه حتى لو كانت الأُمّة كلّها منحرفة، ﴿فَلَا تَكُ﴾.

٢ ـ لمُعاتبة بعض الشخصيّات ومُخاطبتها تأثيره الكبير على بقيّة الأفراد العاديين، ﴿فَلَا تَكُ﴾.

٣ ـ خُلوّ عقول المشركين من أيّ منطق أو استدلال، ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾.

٤ ـ لاحِظ التأثير الذي يخلّفه الآباء والأجداد في الأجيال التي تليهم، ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾.

٥ ـ لا يجوز اتّباع سُنَن الأوّلين من الأجداد أو مُعتقداتهم في كلّ شيء، ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾.

٦ ـ إنّ الله لا يظلم أحداً من عباده مثقال ذرّة، حتى الكفّار والمشركين منهم، ﴿لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾

التعاليم:

١ ـ لم يكن جميع أفراد ملّة ما يوماً منذ فَجر التاريخ يحملون الفكر أو المُعتقد نفسه، ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾.

٢ ـ لا تنزعجوا من اختلاف الناس في الدّين، أو إيمان بعضهم وكُفر بعضهم الآخر، فذلك ليس بالأمر الجديد، ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾.

٣ ـ على الرّغم من تسمية القرآن الكريم للتوراة في بعض آياته بـ (**الهُدى**) و(**النّور**)[1]، فإنّ ذلك لم يَحُل دون اختلاف الناس فيها، ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾.

٤ ـ الله سبحانه خَير مَن يتّبع سُنَنه ويُوفي بعهوده، لأنّ المُقنّن هو أوّل مَن يجب عليه الالتزام بالقانون واحترامه، ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾، فالله سبحانه لم يجعل الدّنيا مكاناً للحكم أو القضاء.

٥ ـ السّنن الإلٰهيّة موضوعة وفقاً لمقام ربوبيّة الله سبحانه، ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦ ـ إمهال المُختلفين في الكتاب السماويّ هو واحد من السّنن الإلٰهيّة كذلك، ﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤؛ سورة الأنعام: الآية ٩١.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾

التعاليم:

١ ـ في الإيديولوجيا الإلٰهيّة، ما مِن عمل إلّا وله أجره وثَمنه، ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

٢ ـ لا نُقصان ولا تطفيف في الثواب أو العقاب الإلٰهيّين، ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

٣ ـ يكون جزاء الله الكامل على أساس عِلمه الكامل بأعمال الخَلق، ﴿خَبِيرٌ﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات أنّ النبيّ ﷺ قال: «**شَيَّبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ**»[1]. ويقصد هذه الآية بالذات من سورة هود. وعلى الرّغم من مَجيء العبارة نفسها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ في آية أخرى من القرآن الكريم[2]، فإنّ الآية الواردة في سورة (هود) اشتهرت بآية الاستقامة أكثر من تلك. وربّما كان العبء الذي أثقل كاهل النبيّ ﷺ في تلك الآية يتمثّل في أحداث تاريخية أخرى لم تُبيّنها هذه الآية، منها استقامة أصحاب النبيّ ﷺ الذين لم يكونوا جميعاً أوفياء ومُخلصين له، وهذا ما كان يُقلق النبيّ ﷺ ويُؤلمه.

التعاليم:

١ ـ لمّا كان الله سبحانه سيُوَفّي كلّ مخلوق حَقّه، فما عليك [أيّها النبيّ] سوى الاستقامة، ﴿كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ... فَٱسْتَقِمْ﴾.

٢ ـ الاستقامة هي الوَجه الناصع لتاريخ الأنبياء، ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾.

٣ ـ ينبغي أن يكون القائد أسوة في الاستقامة والثبات، ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾؛ فالظروف التي كانت تحيط بالمسلمين في مكّة في صدر الإسلام كانت صعبة للغاية،

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) سورة الشورى: الآية ١٥.

وكان ذلك يقتضي منهم الاستقامة والثبات.

٤ ـ لا قيمة للاستقامة إلّا إذا كانت في الأمور جميعاً؛ في العبادة والإرشاد وتحمّل الصّعاب وما شابه ذلك، ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾.

٥ ـ يجب أن يكون العمل قائماً على أساس النّص والأمر الإلٰهيّ، لا القياس والاستحسان والخيال وغير ذلك، ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

٦ ـ لا تكفي استقامة القائد بل لا بدّ من استقامة أمّته وثباتها، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

٧ ـ إنّ ثمن الإنابة إلى الله سبحانه غالٍ جداً، وهذا الثمن هو الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

٨ ـ لا بدّ من أن يكون كلّ شيء وفقاً للتعليمات، فلا إفراط ولا تفريط، ﴿كَمَآ أُمِرْتَ... وَلَا تَطْغَوْاْ﴾.

٩ ـ على القائد والأمّة أن يتحرّكا معاً على الصراط المستقيم، من دون إفراط أو تفريط، ﴿فَٱسْتَقِمْ... وَلَا تَطْغَوْاْ﴾.

١٠ ـ
الاستقامة في الدّين تُوجِب ثواب الله للمؤمنين، ﴿فَٱسْتَقِمْ... إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تشير مُعظم الروايات إلى أنّ التودّد إلى الظالم أو محبّته وطاعته، هو شكل من أشكال الرّكون إليه. وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«لا تَرْكَن إلى ظالِم وَإنْ كانَ حَمِيمًا قَرِيبًا»**[1]. وورد في أصول الكافي كذلك أنّ أبا عبد الله عليه السلام قال في

(١) تفسير كنز الدقائق.

تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، قال: «**هو الرّجل يأتي السلطانَ فيُحِبّ بقاءه إلى أن يُدْخِلَ يَدَه إلى كِيسه فيُعْطيه**»[(١)].

□ لمّا كانت طاعة أُولي الأمر واجبة والرّكون إلى الظالم مُحرّماً، إذاً لا يمكن أن يكون أُولو الأمر ظالمين بل هم معصومون؛ لأنّ المعصية من الظّلم.

□ إذا كان الرّكون إلى الظالم والاعتماد عليه يُوجِبان النار وغضب الله، فما بالك بالظالم نفسه.

التعاليم:

١ ـ يَحرُم الرّكون إلى الظالم أو الاعتماد عليه، سواء أكان قريباً أم بَعيداً، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾، فالظالمون والطغاة ليسوا أهلاً للرّكون والثقة.

٢ ـ يُعدّ الرّكون إلى الظالم من الكبائر (وكلّ معصية ذَكرها القرآن الكريم وكان جزاؤها النار فهي من الكبائر)، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟... فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٣ ـ لِمَ لا نتّكل على الله سبحانه بدلاً من الرّكون إلى الظالم؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ نهاية الرّكون إلى الظالمين هي الغُربة والعُزلة، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات أنّ المقصود من ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ هو الصّبح والغروب، والمُراد من ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ هي صلاة العِشاء[(٢)]. لكنّ هذه الآية الشريفة لا يُراد بها بالطّبع بيان الصلوات اليومية جميعاً.

---

(١) أصول الكافي، ج٥، ص ١٠٨.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

□ عن أبي إمامة قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن قُعود معه، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبتُ حدّاً فأقِمْه عَلَيَّ. فقال ﷺ: **«هَل شَهدتَ الصلاةَ مَعَنا؟»** قال: نعم يا رسول الله. قال ﷺ: **«فإنَّ الله قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ»**؛ أو قالَ: **«ذَنْبَكَ»**[١].

عن سماعة قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أصابَ مالاً من عمل بني أمية وهو يتصدّق منه ويصل منه قرابَته ويحجّ ليغفر له ما اكتسب وهو يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. فقال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنَّ الخطيئةَ لا تُكَفِّر الخطيئة، ولكنّ الحسنةَ تحطّ الخطيئة»**. ثم قال: **«إنْ كانَ خَلَطَ الحلالَ بالحرامِ فاخْتَلَطا جميعاً فلا يُعْرَف الحلالُ من الحرامِ فلا بَأس»**[٢].

الآية القرآنية المرجوّة:

□ رُوي عن أبي حمزة الثمالي أنّه قال: أقبل عليّ عليه السلام على الناس فقال: **«أيّة آية في كتاب الله أرجى عندكم»**.

- فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[٣]. فقال عليه السلام: **«حَسَنة، وليست إيّاها»**.
- وقال بعضهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤]. قال عليه السلام: **«حَسَنة، وليست إيّاها»**.
- وقال بعضهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٥]. قال: **«حَسَنة، وليست إيّاها»**.
- وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٦]، قال: **«حَسَنة، وليست إيّاها»**.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٥، ص٣٤٥.
(٢) تفسير كنز الدقائق.
(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.
(٤) سورة النساء: الآية ١١٠.
(٥) سورة الزمر: الآية ٥٣.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

قال: ثم أحجم الناس، فقال عليه السلام: «ما لكم يا معشر المسلمين». فقالوا: لا والله ما عندنا شيء. فقال عليه السلام: «سمعتُ حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقرأ الآية كلّها. ثمّ قال ﷺ : يا علي! والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً، إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه، فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه، لم ينفتل وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أمّه. فإن أصابَ شيئاً بين الصلاتين، كان له مِثلُ ذلك، حتى عَدّ الصلوات الخمس، ثم قال ﷺ: يا علي! إنّما منزلة الصلوات الخمس لأمّتي كنهرٍ جارٍ على باب أحدكم فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكانَ يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي»[1].

التعاليم:

١ ـ على القائد أن يكون قدوة للآخرين، ﴿فَٱسْتَقِمْ... أَقِمِ﴾.

٢ ـ ينبغي إقامة الصلوات وفقاً لشروطها وآدابها؛ وتتضمّن كلمة ﴿أَقِمِ﴾ معنى الكمال والتمام كذلك، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣ ـ الصلاة قوّة تفيض على قلوب المؤمنين؛ وقد ذكرت الآيات السابقة أمر الله سبحانه للنبيّ ﷺ والمؤمنين بالاستقامة وعدم الرّكون إلى الظالمين، وهذه هي أمور تتطلّب معنويات عالية لذلك بيّن الله تعالى في هذه الآية الوسيلة التي تكفل تقوية المعنويات وهي الصلاة، ﴿فَٱسْتَقِمْ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤ ـ أساس الصلاة إقامتها في أوقاتها، ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾.

٥ ـ الصلاة أسمى نموذج للحسنات، ﴿أَقِمِ... إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾.

٦ ـ أفعال الإنسان يؤثّر بعضها في بعض، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٧ ـ الأمر بالصلاة أبْلَغ تعاليم الله سبحانه، ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ﴾؛ فالصلاة ذِكرى إلٰهيّة.

---

(١) انظر تفسير مجمع البيان؛ وتفسير كنز الدقائق.

٨ ـ ما ينتفع من الذكرى الإلٰهيّة إلّا الذاكرون، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

٩ ـ إقامة الصلاة تتطلّب المثابرة والصّبر[١]، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ... وَٱصْبِرْ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

- ذُكرت كلمة «بقية» ثلاث مرّات في القرآن الكريم وتعني ما بَقِي من الشّيء، وتُستخدَم في اللغة العربيّة كذلك بمعنى الفضل والقدرة، ربّما لقيام البعض بخزن أشياء ثمينة عنده فسُميت بالبقيّة وهي الفضل والنفائس، أو ربّما كان ذلك إشارة إلى فئة مُعيّنة من الناس ممّن يمتلكون قوّة وقدرة وسلطاناً أكبر.

- ينتقد الله سبحانه في هذه الآية الشريفة بعض الناس ويوبّخهم لعدم تسلّحهم بالعلم والمعرفة من أجل بذل النصائح لقومهم ومجتمعهم. وقد تكرّر هذا النّقد في القرآن الكريم بلفظة ﴿لَوْلَآ﴾ منها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[٢]، و﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾[٣].

- بما أنّ الآية (١١٤) من سورة هود أشارت إلى الصلاة وتطرّقت هذه الآية (أي الآية ١١٦) إلى موضوع النّهي عن المُنكر، فلا بأس هنا من أن نشير إلى الآيات القرآنية التي تناولت كلّاً من مسألتَيْ (الصلاة) و(الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر) والتي جاءت معاً في موضع واحد في كلّ مرّة وتأثير كلّ منهما على الأُخرى. ومن هذه الآيات ما يلي:

أ) ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

---

(١) وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، سورة طه: الآية ١٣٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

ب) ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ[١] يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢].

ج) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٣].

د) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ إنَّ الذين يتغاضون عن الفساد الاجتماعيّ كانوا وما زالوا موضع انتقاد وإدانة، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ...﴾.

٢ ـ تقع المسؤولية الأكبر في النّهي عن المُنكر على العُلماء وأصحاب السلطة، ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾.

٣ ـ غالباً ما يكون المُصلحون والحريصون في أيّ مُجتمع أقليّة ضئيلة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٤ ـ العبث والإهمال وترك فريضة النّهي عن المُنكر هي أسباب رئيسة أدّت إلى اندحار الحضارات القديمة وسقوطها، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾.

٥ ـ النجاة من غضب الله والخلاص منه هما ثمرة جهود المُصلحين في المُجتمع، ﴿أَنجَيْنَا﴾.

٦ ـ الظّلم والتّرف والجريمة، أضلاع المثلّث المشؤوم للسقوط والهلاك، ﴿ظَلَمُوا۟... أُتْرِفُوا۟... مُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ وحول المُراد من «**الإصلاح**»، قال رسول الله ﷺ: «**هُوَ الإنصافُ بَيْنَ الخَلْق**»[٥].

---

(١) كالصلاة مثلاً.

(٢) سورة هود: الآية ١١٤.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٤) سورة الحجّ: الآية ٤١.

(٥) تفسير مَجمع البيان.

وعن رسول الله ﷺ كذلك: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَانْصَحِ الْأُمَّةَ وَارْحَمْهُمْ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ وَغَضِبَ الله عَلَى أَهْلِ بَلْدَةٍ وَأَنْتَ فِيهَا وَأَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ نَظَرَ إِلَيْكَ فَرَحِمَهُمْ بِك**»[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ لغضب الله أسباب ومُسبّبات، ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾.

٢ ـ لا يكفي المرءَ صلاحُه، بل لا بدّ من أن يقوم بالإصلاح كذلك، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ... وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨﴾

إشارات:

- أشار القرآن الكريم مراراً إلى حريّة الإنسان في اختيار دينه ومُعتقده، فعلى الرغم من أنّ الله سبحانه يهدي الناس إليه لكنّه لم يكن ليُجبر أحداً على ذلك، بل ولم يسمح حتى لنبيّه ﷺ بإجبار أحد أو إرغامه على قبول دين الله، إنّما دعاه إلى تذكير الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم وحسب ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾[2]. ولذلك فإنّ الله سبحانه يُلهم الإنسان طريق التقوى والفجور بحيث تتمكّن فطرته من أعماقها إدراك الصالح عن الطالح وتمييزه، ثمّ أرسل الأنبياء عليهم السلام لإرشاده من الخارج، وما على الإنسان إلّا أن يختار بينهما بكامل إرادته واختياره.

التعاليم:

١ ـ اقتضت سُنّة الله سبحانه عند خلق الإنسان مَنحه حريّة اختيار العقيدة والرّأي الذي يريد، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾.

٢ ـ لا رادّ لإرادة الله تعالى، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص ١١١.
(٢) سورة الغاشية: الآيتان ٢١ و٢٢.

٣ ـ لم يكن الناس في يوم من الأيام على رأي واحد، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

٤ ـ الحرّية وحقّ الاختيار أساس اختلاف الناس، ﴿وَلَوْ شَآءَ... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

□ قال بعضهم: إنّ معنى هذه الآية هو أنّ الناس كانوا وما زالوا مُختلفين إلّا الذين شملتهم رحمة الله وعنايته، وأنّ الله سبحانه إنّما خلقهم من أجل وحدة كلمتهم هذه[1].

□ ذُكِرت فلسفة خلق الإنسان في العديد من الآيات القرآنية من خلال عناوين مختلفة:

■ فمرّة يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] وهو ما يشير إلى أنّ علّة خلق الجنّ والإنس هي عبادة الله سبحانه.

■ ومرّة أخرى يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]؛ أي أنّ الله سبحانه خلق الحياة والموت لكي يختبرنا جميعاً.

● وفي هذه الآية من سورة هود عبارة: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وهذا يعني أنّ الله ﷻ خلقنا نحن البَشر ليشملنا برحمته وعطفه.

□ ويبدو أنّ الفلسفة من وراء خلق الإنسان تتراوح بين ثلاثة محاور هي: العبادة والاختبار (أو الابتلاء) والرّحمة. لكن، مع قليل من الدقّة نُدرك أنّ المحاور كلّها تلتقي عند نقطة واحدة تتمثّل في تكامل الإنسان الروحيّ والمعنويّ.

□ جاء في الآية السابقة أنّ الإنسان حرّ، وفي نهاية هذه الآية يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ويُستفاد من الجمع بين

---

(١) تفسير أطيب البيان.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة المُلك: الآية ٢.

الآيتيْن المذكورتيْن أنّ الإنسان حُرّ في اختياره أحدَ السّبيليْن، إلّا أنّه سيُعاقَب بالدخول إلى النار في حال اختار طريق الباطل.

□ وورد في كثير من الروايات أنّ أوضح مثال على اختلاف الناس في ما بينهم هي مسألة ولاية المعصوم؛ إذ انحرف مُعظم الناس عن سبيل الحقّ إلّا فئة قليلة شملتها رحمة الله مِمّن ساروا على خُطى أهل البيت عليهم السلام والأئمّة المعصومين(١).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«خلق الله تعالى ابن آدمَ ليتدبّر ويستحقّ رَحمته»**(٢).

التعاليم:

١ ـ السبيل الوحيد لإنهاء الاختلاف بين الناس هو لطف الله تعالى ورحمته، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾.

٢ ـ عامل الوحدة الرئيس هو العون الإلٰهيّ، أمّا المحاور الدنيوية والمادّية والأمور الفانية والمرحلية، فهي قاصرة وخيالية، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾.

٣ ـ تكمن فلسفة خلق الإنسان في شموله بالرّحمة الإلٰهيّة، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾.

٤ ـ حتى الله سبحانه مُلتزم بالسّنن والقوانين، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٥ ـ يأتي غضب الله تعالى في المرحلة التالية بعد لطفه وإرساله الرّسلَ وإنزال الوَحي وتقديم الموعظة والوعيد والأجل المعلوم، ﴿رَّحِمَ رَبُّكَۚ... لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

٦ ـ أتمّ الله سبحانه حجّته على خلقه بعد وضعه الفطرة والعقل في داخلهم، وإرسال أنبيائه ووحيه في الخارج، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٧ ـ لجهنّم طاقة وسِعَة محدودتان، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

---

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٤٠٣.

٨ ـ الجنّ كالإنس، فهم مُكلّفون كذلك ومُعرّضون للثواب أو العقاب، ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ سَرد بعض الوقائع التاريخية المهمّة والإشارة إليها هو أحد الأساليب التربويّة، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾.

٢ ـ إنّ بيان سيَر الأنبياء عليهم السلام مُفعم بالمادة التربويّة، وكلّ نقطة فيها تحمل مغزى ودليلاً، ﴿وَكُلًّا﴾.

٣ ـ قصص القرآن الكريم هي مُلخّص لسيرة حياة الأنبياء عليهم السلام، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾.

٤ ـ كلّ قصص القرآن الكريم هادفة، وهي ليست وسيلة للتسلية أو الخِداع، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ... مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾.

٥ ـ عند سَرد قصّة ما لا بدّ من التركيز على النقاط القِيَميّة فيها، ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾.

٦ ـ أحسن القصص وأجودها ما بعث منها على الطمأنينة والتثبيت، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

٧ ـ الله هو مُثبّت القلوب، ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

٨ ـ حتى الأنبياء عليهم السلام بحاجة إلى دَعم وتعزيز معنويّ، ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

٩ ـ الباطل لا يقود إلى الطمأنينة الحقيقيّة والثابتة إطلاقاً، ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾.

١٠ ـ لا يفلح المُبلّغ في دعوته وموعظته حتى يكون هو على بيّنة وثِقَة من أمره، ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾.

١١ ـ كلّ قصص القرآن الكريم حقيقيّة وذات براهين وأدلّة مقبولة، ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

١٢ ـ مراحل التبليغ هي: (١) البال المُطمَئِنّ؛ (٢) الكلام المُستَدَلّ؛ ثمّ (٣) الموعظة، ﴿فُؤَادَكَ... ٱلْحَقُّ... مَوْعِظَةٌ﴾.

١٣ ـ لا تأثير لأفضل السّبل التربوية إلّا في الأفراد المُستعدّين لتقبّل الإيمان، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ مسؤولية الأنبياء عليهم السلام هي الإبلاغ والتهديد والبشارة، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ الإنسان مخلوق حُرّ، وليس على الأنبياء عليهم السلام إرغامه على شيء، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ... ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾.

٣ ـ يجب تهديد مَن لا تنفع معه الموعظة ولا يجدي معه التذكير، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾.

٤ ـ على المُبلّغ أن يؤمن هو أوّلاً بسبيله وهدفه، ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ... إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

٥ ـ يكون التبليغ على قدر عقول المُبلَّغين وإدراكهم، أمّا المُعاندون فليس لهم إلّا التهديد والوعيد، ﴿ٱنتَظِرُوٓا۟﴾.

٦ ـ يُثاب الأنبياء والمؤمنون بحسن العاقبة والنجاح، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

□ الـ ﴿غَيْبُ﴾ هو شأن من شؤون الله سبحانه مُطلقاً، وقد يمنح سبحانه شيئاً من

ذلك العلم لأنبيائه كذلك، ولكن بعد إذنه طبعاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ تقتصر معرفة أسرار العالم على الله سبحانه وحده، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ السموات والأرض مليئة بالغيب والأسرار إلى جانب ظاهرها، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣ ـ الله مَلاذ كلّ شيء ومرجعه، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

٤ ـ الإيمان بالغيب أساس العبادة وعين التوكّل على الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ... فَٱعْبُدْهُ﴾.

٥ ـ مَن توكّل على الله فاز بلطفه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ...﴾.

٦ ـ العلم بأفعال الإنسان من شؤون الربوبيّة، ﴿وَمَا رَبُّكَ...﴾.

«والحمد لله رَبّ العالمين»

---

(١) سورة الجنّ: الآيتان ٢٦ و٢٧.

سُورَةُ يُوسُفَ

السورة: ١٢ الجزء: ١٢ ـ ١٣

عدد الآيات: ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمد للهِ رَبّ العالمين
وصلّى الله على سَيّدنا ونَبيّنا محمّد وآله الطاهرين

مقدّمة سورة يوسف عليه السلام

على الرّغم من طبع سورة (يوسف عليه السلام) في **المُجلّد** السادس من تفسير (النور)، لكنّ حلاوة قصّة سيدّنا يوسف عليه السلام وجاذبيّتها، وقناعتنا بأنّ أفضل سبيل لتعريف الجيل الجديد بتفسير النواحي الهامّة فيه وبيانها والإشارة إلى اللطائف المكنونة في هذا الكتاب السماويّ، هي القَصص القرآنية؛ من أجل ذلك كلّه عقدنا العزم على طبع تفسير هذه السورة ونشرها بشكل مستقل لكي لا يُحرَم الذين لا يملكون الوقت الكافي لمطالعة التفسير الكبير بأكمله، من متعة قراءة جزء يسير على الأقلّ من القرآن ويتعرّفون بقراءته على تفسيره ويأنسون بشروحه وتوضيحاته.

لا شكّ في أنّ شبابنا ـ وبعد مُطالعتهم الكُتيّب ـ سيطّلعون على قدرة الله سبحانه في سَرد قصّة تشتمل على آلاف النقاط المهمّة وكذلك توفيق الله لي ومنّه عليّ في توضيح ما يربو على تسعمئة مسألة من تلك المسائل، باليسير ممّا أملك من خزائن المعلومات، وإخراجها في كُتيّب صغير مُبسّط كهذا.

إنني واثق من أنّ مُطالعة هذه السورة المباركة، هي أفضل وسيلة لولوج عالم التفسير، وهو ما حدا بقسم تفسير القرآن الكريم عام (٢٠٠١م) إلى تقديم هذا الكتاب في مسابقة قرآنية فريدة، داعياً المُهتمين بتدبّر آي القرآن الكريم إلى

إرسال ما يخطر ببالهم من نكاتٍ مهمّة ونقاط شيّقة في هذا المجال إلى القسم المذكور والحصول على جوائز مُغرية. وقد تسلّم القسم المذكور ولله الحمد ما يُقارب (٧٠) رسالة تتضمّن آلاف النقاط والملاحظات الجديدة المهمّة، فقام المُختصّون بهذا العمل باختيار ما كان منها منسجماً مع المعايير المطلوبة ومُقارناً للإبداع المنشود، غير مُكرَّر ولا مُمِلّ.

وتشتمل الطبعة الحاليّة لكتاب **(يوسف في القرآن)** على (٣٧٠) إشارة وتعليم مُستخرَجة مما بعث به الإخوة إلى قسم تفسير القرآن الكريم، أُضيفت جميعها إلى الإشارات والتعاليم السابقة البالغة (٩٠٠)، لكي يتمكّن القرّاء أوّلاً من مُطالعة ما استجدّ، وثانياً لتتّضح مسألة مهمّة في هذا المجال وهي أنّ التدبّر في القرآن الكريم يتيح للإنسان الوصول إلى نقاط جديدة لم تَكن لتَخطر على باله قبل هذا.

ولحفظ الحقوق المعنوية فقد ختمنا التعاليم المُقتبسة مما وصل إلينا بالنجمة(*) في آخرها.

وأخيراً، أعبّر عن شُكري وتقديري لجميع الأعزّاء الذين أرسلوا مُقترحاتهم الذين نعتذر عن ذِكر أسمائهم جميعاً، كما أتقدّم بخالص شُكري وامتناني للخدمات التي قدّمها حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ مُجتبى كلباسي وزملاؤه المحترمون في قسم التفسير، الذين بذلوا أقصى جهودهم سواء في إقامة المسابقة أو مُراجعة الكراريس واستخراج النقاط والمسائل المهمّة والحديثة منها، مُتمنياً من الله العلي القدير أن يوفّقهم لما فيه خيرهم وسعادتهم.

ولا ننسى هنا الإشارة إلى أنّ كلًّا من حجّة الإسلام كلباسي وسليماني قد قاما مُجدّداً بمراجعة موضوعات هذا الكتاب وتنقيح ما تطلّب ذلك في المسابقة القرآنية التي أُقيمت سنة ٢٠٠٤م وقد تمّ إدراج آرائهم ومقترحاتهم في هذا الكتاب كذلك.

وكذلك أشكر كلّ الذين تبرز لديهم مسائل جديدة أو نقاط حديثة ومهمّة ونرجو منهم إرسالها إلينا، مع تقديري واحترامي.

محسن قراءتي

٢٠٠٢/٧/٦م

ملامح سورة يوسف عليه السلام

سورة يوسف من السّور المكيّة وعدد آياتها (١١١) آية. تكرّر اسم النبي يوسف عليه السلام في القرآن الكريم (٢٧) مرّة، منها (٢٥) مرّة وردت في هذه السورة. تعرض هذه السورة الشريفة من خلال آياتها المترابطة قصّة حياة النبي يوسف عليه السلام بشكل مُثير وجذّاب وإيجاز مُعجز، وذلك بدءاً من طفولته حتى تصدّيه منصب الحفيظ على خزائن مِصر، مع الإشارة إلى طهره ونزاهته، وفشل الكثير من الدسائس التي حيكت ضدّه، مُبيّنة قدرة الله سبحانه في ذلك كلّه.

والجدير بالذّكر أنّ قصّة النبي يوسف عليه السلام لم تَرد في القرآن الكريم إلّا في هذه السورة المباركة منه، في حين تناول القرآن الكريم قصص أنبياء آخرين في كثير من سوَره. فقصّة أبينا آدم ونبيّ الله نوح عليهما السلام وردت في ١٢ سورة من سوَر القرآن الكريم، وقصّة خليل الله إبراهيم عليه السلام في ١٨ سورة، وقصّة النّبي صالح عليه السلام وردت في ١١ سورة، وقصّة النّبي داود عليه السلام في ٥ سوَر، وقصّة هود وسليمان عليهما السلام في ٤ سوَر، وقصّة عيسى وزكريّا عليهما السلام في ثلاث سوَر[1].

وقد أشارت التوراة إلى قصّة النبي يوسف عليه السلام في سفر التكوين الإصحاح (٣٧ ـ ٥٠) ؛ ولكن عند المقارنة بين ما ورد في التوراة وما رواه القرآن الكريم تتجلى أصالة القرآن مقارنة بهزالة ما ذكرته التوراة من تحريف وزيف. ومن ناحية أخرى تحتل قصّة النبي يوسف عليه السلام مع (زليخا) مكانة متميّزة في الأدب الشعري

(١) تفسير الحدائق.

والقصصي، مثل قصيدة «يوسف وزليخا» التي ألّفها الشاعر الإيرانيّ نظامي كنجوي وقصّة «يوسف وزليخا» لشاعر الفرس الكبير فردوسي.

ويتناول القرآن الكريم شخصيّة النبيّ يوسف عليه السلام أكثر من غيرها في سورة يوسف، حيث يسرد لنا الكثير من الأحداث التي مرّت في حياته عليه السلام بينما ركّزت الآيات التي تحدّثت عن الأنبياء الآخرين على مصير أقوامهم وعنادهم وهلاكهم أكثر من تطرّقها إلى شخصيّة ذلك النبيّ.

وقد ورد في بعض الروايات النهي عن تدريس سورة يوسف عليه السلام للنساء والبنات، إلّا أنّ بعض أصحاب الرّأي السديد لا يرون لتلك الروايات سنداً موثوقاً[١]. ولعلّ معيار النهي هنا هو تسليط الضوء على عناصر الهيام والحبّ الذي مارسته (زليخا) زوجة العزيز ولكن لا نظنّ أنّ ذلك يتضمّن أيّ نقاط سلبيّة إذا ما تمّ طرحه بالكيفيّة والبيان اللذين استخدمهما القرآن الكريم.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ اختلفت الآراء حول الحروف المقطّعة، ومن تلك الآراء ما يأتي:

١ ـ أنّ القرآن الكريم ـ وهو المُعجزة الإلٰهيّة ـ مُكوّن من هذه الحروف المتاحة للجميع.

٢ ـ أنها تُشير إلى اسم سورة تبدأ بتلك الحروف.

٣ ـ أنّها شكل من أشكال القَسَم.

٤ ـ أنّ تلك الحروف تُشير إلى أسرار ورموز لا يَعلمها إلّا الله سبحانه ورسوله ﷺ.

لكن، وبالنظر إلى أنّه من بين (٢٩) سورة في القرآن الكريم تبدأ جميعها بحروف مُقطّعة هناك (٢٤) سورة يبدأ الحديث بعد تلك الحروف عن معجزة القرآن، فإنّ الرّأي الأوّل هو الأقرب إلى الصواب كما يبدو.

□ لا شكّ في أنّ القرآن الكريم لو كان قد نزل بأيّ لغة، كان لا بدّ للآخرين من أن يكونوا مُلمّين بتلك اللغة ومُطّلعين على أسرارها؛ أمّا نزوله باللغة العربيّة فإنّ لذلك ميزات كثيرة، من جملتها:

أ) تتّصف اللغة العربيّة بثراء مُفرداتها ورصانة قواعدها وهو أمر قلّما نجده في اللّغات الأخرى.

ب) إنّها لُغة أهل الجنّة طبقاً لما نصّت عليه روايات عدّة.

ج) لُغة الأقوام التي نزل بين ظهرانيها القرآن الكريم هي العربية، لذلك لم يَكن بالإمكان نزوله بلغة أخرى.

□ عبّر الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم والمَطر بكلمة (نزول)، ولعلّ كثيراً من أوجه الشبه تجمع بين الاثنين، في ما يأتي بعض من تلك الأوجه:

أ) كلاهما ينزل من السّماء، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[١].

ب) كلاهما طاهِر ومُطهِّر؛ فالقرآن الكريم يُطهّر الرّوحَ من الشّرك والجهالة والانحراف، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٢]؛ والمَطر يطهّر الجسم ﴿لِيُطَهِّرَكُم﴾[٣].

ج) القرآن الكريم والمَطر كلاهما عاملان حياتيّان؛ فالمَطر عامل مادّي للحياة وإحياء الأرض الميتة واخضرارها، ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾[٤]، والقرآن الكريم وسيلة لإحياء القلوب الميّتة الغافلة: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٥].

د) كلاهما رمزٌ للبركة، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[٦]، ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾[٧].

هـ) القرآن الكريم يشبه في نزوله المَطر، إذ ينزل شيئاً فشيئاً وآية بعد آية [وهو النزول التدريجيّ].

□ ربما كان التأكيد على عربية القرآن ردا على اتهام النبيّ ﷺ بتعلّمه من أعجمي: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[٨].

التعاليم:

١ ـ يتألّف القرآن الكريم من حروف الألفباء المُشار إليها (ألف، لام، راء...)، فإذا استطعتم أن تؤلّفوا كتاباً مثل القرآن من تلك الحروف فافعلوا، ﴿الر﴾.

٢ ـ للقرآن مقام سام وعظيم، ﴿تِلْكَ﴾.

٣ ـ ينبّه القرآن قارئه أولا، إلى إحكام آياته وبعد ذلك يشرع في بيان مطالبه، ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٩.
(٣) سورة الأنفال: الآية ١١.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٤٩.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٦) سورة الأنعام: الآية ٩٢.
(٧) سورة ق: الآية ٩.
(٨) سورة النحل: الآية ١٠٣.

٤ ـ إنّ نزول القرآن الكريم باللغة العربيّة من جهة، وأمر الله سبحانه بتدبّره والتفكّر في معانيه من جهة أخرى إنّما هما إشارتان إلى ضرورة تعلّم المسلمين اللغة العربية، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٥ ـ ليس الهدف من نزول القرآن الكريم هو تلاوته والتبرّك به فحَسب، بل هو وسيلة لتعقّل البشرية وتطوّرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦ ـ لا بدّ من أن يكون الكتاب، أيّ كتاب، واضحاً وبيّناً، ويَهدف إلى غاية شريفة وهداية قويمة، ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(*).

٧ ـ لا يكفي نزول القرآن للوصول إلى السعادة؛ بل لا بد من التدبّر والتفكّر فيه، ﴿أَنزَلْنَٰهُ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(*).

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

إشارات:

❑ «القَصَص» جَمعُ (القصّة)، وتأتي بمَعنى (سَرد القصّة) أيضاً.

❑ للقصة دَور كبير في تربية الإنسان؛ لأنّها تُجسّد حياة أمّة بأكملها وتجربتها العمليّة في الحياة. فالتاريخ مرآة الأمم، وكلّما اقتربنا منه وتعرّفنا على الأمم والأقوام والحضارات السالفة، أحسسنا وكأنّنا نعيش أعمارهم التي عاشوها ونمرّ بأحداثهم التي مرّوا بها. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ**»[1].

ولعلّ أحد الأسباب التي تَجعل للقصة أو للحكاية أثراً بالغاً في نَفس

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١ ـ من وصيّته عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام كتبها إليه بـ «حاضرين» عند انصرافه من صفّين.

الإنسان هو مَيله إليها وانجذابه نحوها. ولا نَنسى ما للكُتب والمصادر التاريخية من بهاء ورونق مُتميّزين على مرّ تاريخ الحضارة البشرية، وذلك لسهولة فَهمها واستيعابها من قِبل أغلب سامعيها، في حين نرى مثلاً أنّ البحوث الاستدلالية والعقلانيّة لا تَجذب إليها سوى فئة قليلة مُختصّة بهذا المجال.

- يُطلَق على القرآن الكريم كلّه في الروايات اسم (أحسَن القَصص)؛ وهذا لا يتنافى مع كَون القرآن الكريم هو (أحسَن القَصص) مُقارنة بالكُتب الإلٰهيّة الأخرى، أو أن تَكون هذه السورة هي (أحسَن القَصص) من بين سوَر القرآن الكريم[١].

- توجد فروق عدّة بين القصص التي يرويها القرآن الكريم وبين القصص الأخرى التي يرويها البشر، منها:

١ ـ إنّ القاصّ والراوي (في القرآن الكريم) هو الله سبحانه وتعالى، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾.

٢ ـ إنّ القرآن الكريم هادف في كلّ ما ورد فيه، وهدفه سامٍ وعظيم وهو هداية البَشر وإرشادهم بواسطة تجارب الأُمم السابقة، وكَيف أنّ بعض تلك الأمم رفعها إيمانها وصبرها وتقواها إلى مراقي العزّ والشموخ، بينما هوى العناد والغرور والحسد ببعض الأمم إلى حضيض الذلّ والمهانة. ولا شكّ في أنّ تلك القصص والحكايات تَبعث الطمأنينة في نفس الإنسان لكي يَصمد بوَجه الصعوبات والمُعضلات. وفي هذا الصّدد ورد في القرآن الكريم: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٢].

٣ ـ القرآن الكريم كلّه حَقّ وليس فيه خيال ولا أوهام، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[٣].

٤ ـ قوامه العِلم لا الظنّ، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾[٤].

---

(١) تفسير كنز الدقائق.
(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.
(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٧.

٥ ـ كونه مَدعاة للتفكّر والتدبّر لا التخدير، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

٦ ـ يُمثّل حافزاً للاعتبار لا للّهو أو للّعب، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾(٢).

□ تُعدّ قصّة النبي يوسف عليه السلام من أحسن القصص وذلك:

١ ـ لأنّها من كلام الوَحي، ومن أكثر القَصص وثوقاً واعتباراً، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾.

٢ ـ تَطرح القصّة أفضل وأعظم أنواع الجهاد ألا وهو جهاد النّفس.

٣ ـ بَطل القصّة شابّ اتّصف بجميع الكمالات الإنسانية، كالصّبر والإيمان والتقوى والعفّة والأمانة والحكمة والعَفو والإحسان، وهو ما سنشهده عند مُطالعتنا لتاريخ النبي يوسف عليه السلام.

٤ ـ تُختتم حكاية جميع شخصيات القصّة بالسعادة والفَرح؛ فيوسف عليه السلام يتبوّأ منصباً حكومياً رفيعاً، وإخوته يتوبون إلى الله ممّا بَدر منهم في الماضي تجاه يوسف، وأبوه يعقوب عليه السلام يعود إليه بَصره، وتنجو البلاد من القحط والجفاف، ويتحوّل الهمّ والحسد إلى وصال ومحبّة.

٥ ـ طُرحت في هذه القصّة الكثير من الأضداد جَنباً إلى جنب، كالفراق والوصال، والحُزن والفَرح، والجفاف والخصب، والجفاء والإخلاص، والمالك والمَملوك، وغيابة الجُبّ وفخامة البلاط، والغنى والفَقر، والعبوديّة والسيادة، والعَمى والإبصار، والعفّة والتهمة.

□ ليست القَصص والحكايات التي يقصّها الله سبحانه هي الأحسن وحَسب، بل إنّ جميع أفعاله وإراداته هي الأحسن دَوماً، لأنّه:

١ ـ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣).

٢ ـ يمتلك أحسن الكُتب، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾(٤).

---

(١) السورة نفسها: الآية ١٧٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٤.
(٤) سورة الزمر: الآية ٢٣.

٣ ـ أحسنُ المُصوّرين، ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[١].

٤ ـ يَعرض أحسن الأديان، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[٢].

٥ ـ يَمنح أحسن الثواب وأجزله، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾[٣].

وفي مُقابل تلك المحاسن كلها فإنّ الله سبحانه يُطالب الإنسان بالقيام بأحسن الأعمال وأفضلها، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ ذكرنا أنّ الراوي لقصص القرآن الكريم هو الله سبحانه وتعالى، ولا شكّ في أنّه كلّما كان الرّاوي ثقة ومعتبراً، كان لقوله بالغ الأثر في النّفس والرّوح، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾.

٢ ـ التقديم للقصة له تأثير عظيم من الناحية النّفسية والتربويّة (لذلك نرى القرآن الكريم وقبل البَدء بالقصّة، يَضع مُقدّمة يُبيّن فيها أنّه يُريد سَرد حكاية أو قصّة، وأنّها ليست قصّة عادية بل هي أحسن القَصص، كلّ هذا من أجل إثارة حب الاستطلاع لدى الإنسان لسماع هذه القصّة)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[*].

٣ ـ لا رَيب في أنّ أحسن القصص هي تلك التي تستند إلى الوَحي ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾.

٤ ـ كما هو واضح فإنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان قبل نزول الوَحي يَجهل قصّة النبي يوسف عليه السلام، ﴿...لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

٥ ـ يقوم القرآن الكريم بالإخبار وإزالة الغفلة والجَهل بالشيء، ﴿مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٣) سورة النور: الآية ٣٨.

(٤) سورة هود: الآية ٧.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- تبدأ قصّة سيدنا يوسف عليه السلام بالحُلم الذي يُبشّره ويُؤمّله بالمُستقبل الزاهر، ويدعوه لإعداد نَفسه وتقويتها بالصّبر والجَلَد عَبر المسيرة التربويّة الإلٰهيّة المفروضة عليه.
- النبي يعقوب عليه السلام هو ابن النبيّ إسحق عليه السلام وإسحق ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام؛ ويوسف وبنيامين عليهما السلام من أمّ واحدة، وأخوتهما من أمّ ثانية[1].
- تتفاوت أحلام أولياء الله، فبعضها يستلزم التأويل والتّعبير كما هي الحال مع الرّؤيا التي رآها النبي يوسف عليه السلام، بينما لا يحتاج بعضها الآخر إلى أيّ تأويل بل تُمثّل عين الحقيقة والواقع، كالرّؤيا التي رآها خليل الله إبراهيم عليه السلام عندما أُمِرَ بذَبح ولده إسماعيل عليه السلام.

حديث عن الرّؤيا

قال الرّسول ﷺ: **«الرّؤيا ثلاث؛ بُشرى من الله، تَحزينٌ من الشّيطان، والذي يُحدّث به الإنسان نَفسه فيراه في منامه»**[2]. ويعزو بعض المختصّين وعُلماء النّفس رؤية الأحلام إلى الإخفاقات والإحباطات المتراكمة في أعماق اللاوعي، وقد قيل في الأمثال قديماً: «إنّ البعير الجائع يرى حقل القطن في حُلمه مرتعاً ومَرجاً أخضر» في حين فسّر البعض رؤية الأحلام بأنّه ناجمٌ عن مشاعر الخوف والقَلق المختزنة في الإنسان، بينما وَصف البعض الآخر الحُلم بأنّه نتيجة للغرائز المكبوتة والمقموعة.

ومن الطبيعي أنّه في ضوء هذه الآراء يصعب تقديم تفسير واحد لجميع الأحلام.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٤١.

❑ يَنقسم الحالمون إلى فئات عدّة هي:

الفئة الأولى، الذين يمتلكون روحاً شفافة وصافية بصفاء المرآة وبعد أن ترقُد حواسهم يحلّقون في عالم آخر يستقبلون منه الحقائق الصافية والواضحة، (مثل المحطات التلفزيونية الهادفة التي تمتلك هوائيّات خاصّة مُحدّدة تستقبل ترددات الأمواج الفضائيّة من الأماكن البعيدة والنائية). وهذا النوع من الأحلام الصافية والمباشرة لا يحتاج إلى أيّ تأويل أو تعبير.

الفئة الثانية، وهم الأشخاص الذين تتوافر أرواحهم على نقاء متوسّط، وهؤلاء يرونَ الحقائق في عالم الرّؤيا مشوّهة نسبياً، يتخلّلها التشبيه والخيال، (وهنا لا بدّ من وجود مفسّر إلى جانب جهاز الاستقبال ليشرح الفيلم ويوضّح النقاط الغامضة فيه، أو بمَعنى آخر، لا بدّ من وجود شخص عالِم يُفسّر لنا تلك الأحلام ويُعبّرها).

القسم الثالث، وهم أفراد تتلاطم داخلهم الأمواج وتتقاطع الصّوَر، والأحلام التي يراها هؤلاء هي مجرّد أضغاث لا مَعنى لها ولا تفسير، (كما هي الحال عندما تكون الصورة في جهاز التلفزيون مشوّشة يملؤها النّمش ولا يستطيع المُشاهد مشاهدة أي شيء فيها). وهذا النوع من الأحلام التي لا يُمكن تفسيرها يُسمّيها القرآن الكريم بـ ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ﴾.

❑ أشارَ القرآن الكريم في بعض سوره إلى بعض الرّؤى التي تحقّقت بالفعل، ومنها:

أ) رؤيا النبي يوسف ﷺ حول سجود الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر له والتي تمّ تعبيرها بوصوله إلى سُدّة الحُكم وخضوع إخوته وتواضع والديه له.

ب) رؤيا صاحبي السّجن اللذين كانا مسجونين مع يوسف ﷺ وتمّ الإفراج عن أحدِهما بينما أُعدِمَ الآخر، وقد وردت قصّتهما في سورة (يوسف) أيضاً في الآية (٤١) منها.

ج) الرّؤيا التي رآها ملك مصر بشأن البقرات السّبع السّمان والسبع العِجاف والتي تمّ تأويلها بحلول سنوات الجَدب والقحط.

د) الرّؤيا التي رآها الرّسول الأعظم ﷺ حول قلّة عدد المُشركين في معركة (بَدر) وكان تعبيرها هو اندحار المُشركين[١].

هـ) رُؤيا النبيّ ﷺ أيضاً حول دخول المؤمنين المَسجد الحَرام مُحلّقين رؤوسَهم والتي تمّ تعبيرها بفَتح مكّة المُكرّمة وزيارة المُسلمين بيت الله الحَرام[٢].

و) رؤيا أمّ موسى عليه السلام التي أمِرَت فيها بوَضع مولودها (وهو النبي موسى عليه السلام) في التابوت وقَذفه في اليَمّ، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾[٣]، وقد دلّت الروايات على أنّ المُراد بالوَحي هُنا هو الرّؤيا أو الحُلم.

ز) رُؤيا نبيّ الله إبراهيم عليه السلام حول ذَبح ابنه إسماعيل عليه السلام[٤].

وبالإضافة إلى القرآن الكريم فإنّه في حياتنا اليومية كثير من الأفراد الذين اطّلعوا في أحلامهم على بعض الحقائق يَصعب على الأشخاص العاديين الاطلاع عليها.

ومن المناسب أن نذكر في هذا المقام أنّ الحاج الشيخ عباس القميّ، صاحب كتاب (مفاتيح الجِنان)، تراءى لابنه في المنام وقال له: إنّ لديّ كتاباً أُودِعَ عندي من قَبل وأرجو منك أن تُعيده إلى صاحبه لكي ترتاح نفسي وتطيب في عالم البرزخ. فلمّا استيقظ ابنه قصدَ المكان الذي أشارَ إليه والده فوجدَ الكتاب الذي وَصفه له والده، وهمَّ بالذهاب إلى صاحب الكتاب ليسلّمه إياه. وعند باب الدار سقط منه الكتاب فتضرّرت بعض صفحاته، فحمله واستأنف مسيره إلى صاحب الكتاب وسلّمه إيّاه. فعاد أبوه وجاء إليه في منامه وقال له: يا بُنيّ! لِمَ لَم تُخبر صاحب الكتاب بالضرر الذي لحق بكتابه ولو شاء أخذ عن ذلك تعويضاً أو ما يرضى به عن طيب نَفس.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للأبناء من الوثوق بعِلم والدهم ودرايته ومحبّته لهم، واستشارته في أمور حياتهم. ﴿قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾[*].

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٣.
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٧.
(٣) سورة طه: الآيتان ٣٨ و٣٩.
(٤) سورة الصّافات: الآية ١٠٢.

٢ ـ لا تحسن مناداة الأب باسمه، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الوالديْن هما أفضل مَرجع وأوثق مَصدر لحلّ مشاكل الأبناء، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٤ ـ لا بدّ للآباء والأبناء من استخدام لُغة مُهذّبة وأسلوب مؤدّب للتحاور في ما بينهما، لغة تدلّ على المحبّة والرّحمة والشّفقة، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٥ ـ يَجب على الوالديْن الإصغاء إلى الأحلام التي يقصّها عليهم أبناؤهم وأخذها بعَين الجدّ، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٦ ـ لم يكن يعرف النبي يوسف عليه السلام تأويل الأحلام؛ ولذا استعان بأبيه، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٧ ـ أحياناً تكون الرّؤيا إحدى الطُرُق التي يُمكن من خلالها دَرك الحقائق وفَهم الأسرار، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾.

٨ ـ تتحوّل الأشياء في الأحلام والرّؤى إلى رموز تُشير إلى بعض الحقائق (فمثلاً تُشير رؤية الشمس في المنام إلى الأب والقمر إلى الأمّ والكواكب والنجوم إلى الإخوة)، ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾.

٩ ـ رؤية الشمس والقمر والنجوم مجتمعة تثير العجب، ﴿كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾(*).

١٠ ـ لا شكّ في أنّ الأحلام التي تَعرض لأولياء الله هي حقيقة واقعة، ﴿رَأَيْتَ﴾، حيث تكرّرت كلمة (رأيت) في هذه الآية للتأكيد على أنّه عليه السلام قد رأى ذلك بالفعل، فلا يُظَنّ أنّ ذلك إنّما هو خيال أو سراب.

١١ ـ لقد رأى النبي يوسف عليه السلام في منامه وكأنّ الشمس والقمر والكواكب موجودات عاقلة، رآهم ساجدين له، (حيث يُستخدَم الضمير «هُم» في الفعل «رَأَيْتُهُم» للعاقل كذلك)(*).

١٢ ـ يبلغ المُصطفون منازل سامية فيُصبحون معها كعبة الآخرين ومثالاً يُحتذى به، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾(*).

١٣ ـ أحياناً يتمتّع الشابّ بقدرات يَعجز عنها من هم أكبر منه سنًّا وخبرة، ﴿سَٰجِدِينَ﴾.

١٤ ـ لا رَيب في أنّ أسلوب استهلال القصّة بالرّؤيا وإنهائها بتعبيرها هو من أفضل الأساليب لكتابة القصص والسيناريو، ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾(*).

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

إشارات:

- حفظ السرّ وكتمانه هو مبدأ أساس في الحياة؛ ولو عمل المُسلم بمُقتضى هذه الآية الشريفة لَما استقرّت كلّ مخطوطاتنا ومؤلّفاتنا العلمية والفنية والتّحف الثمينة في المتاحف الأجنبية، ولَما اكتشف الأجانب ذخائرنا وثرواتنا وقدراتنا تحت غطاء الخبير والدبلوماسيّ والسّائح، لكنّما هي الخيانة أو السذاجة اللتان أفشتا كلّ أسرارنا في طبق من ذهب إلى أُناس لطالما كادوا لنا وتحايلوا علينا.
- لقد قَصّ النبي يوسف عليه السلام رؤياه على أبيه بعيداً عن أسماع إخوته، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على ذكائه وفطنته.

التعاليم:

١ ـ تحدّثوا إلى أبنائكم بحبّ ورأفة، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾(*).

٢ ـ لا بدّ للوالديْن من بناء علاقة وطيدة مع أبنائهم لكي يتشجّع الأبناء على التحدّث إليهم ومناقشة ما لديهم، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾(*).

٣ ـ يَجب تحذير أبنائنا من خطر الحَسد ومساوئه ضمن الأسرة الواحدة والمُجتمع الواحد، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ...﴾(*).

٤ ـ من الضروريّ تربية الأبناء منذ الصّغر على كتمان الأسرار، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ﴾(*).

٥ ـ لا بدّ من تصنيف المعارف والمعلومات، والفصل بين ما هو سريّ وغير سريّ والتمييز بينهما، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.

٦ ـ لا ينبغي البوح بكلّ ما نعرف لأيّ كان، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.

٧ ـ لا شكّ في أنّ كتمان الفضائل مَخافة الحَسد هو من الأمور الجائزة بل والضروريّة، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾(*).

٨ ـ إذا لمسنا وجود قدرات مُعيّنة لدى أحد الأبناء، يجب عدم إطلاع البقيّة على الأمر، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾(*).

٩ ـ لا بدّ من اتّخاذ الحيطة والحذر عند التعريف بالأشخاص الأذكياء والماهرين، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾(*).

١٠ ـ إذا كان قَصّ الرّؤيا محظوراً في بعض الأحيان، فالأولى ألّا تُذكَر الكثير من مُشاهدات اليقظة، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.

١١ ـ لقد كان النبي يعقوب عليه السلام أيضاً عالماً بتعبير الأحلام، ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾(*).

١٢ ـ لا شكّ في أنّ الوقاية خيرٌ من العِلاج، وعدم قَصّ الرّؤيا على الإخوة هو إجراء وقائيّ لمنع تَحريك بواعث الحَسد، ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟﴾(*).

١٣ ـ حتى في بيوت الأنبياء نجد بعض الرذائل الأخلاقيّة بين أبنائهم كالحَسد والحيلة، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا۟...﴾.

١٤ ـ حَذار من إشعال نار الحَسد، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا۟﴾.

١٥ ـ الحَسد يودي بصاحبه إلى تجاهل حقوق الآخرين ولو كانوا ذوي قُربى، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا۟﴾(*).

١٦ ـ لقد فعل إخوة يوسف عليه السلام به ما فعلوا وهم لم يَعلموا بَعد شيئاً عن رُؤياه ولا عمّا سيكون مَصيره في المستقبل، فكيف بهم إذاً لو كانوا يعلمون ذلك، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا۟﴾(*).

١٧ ـ لا شكّ في أنّ استشراف المُستقبل والتفكّر فيه صفة محمودة، ﴿لَا تَقۡصُصۡ... فَيَكِيدُواْ﴾(*).

١٨ ـ في إفشاء بعض الأسرار والأخبار عواقب سيئة، ﴿لَا تَقۡصُصۡ... فَيَكِيدُواْ﴾؛ فبعض الأسرار غاية في الأهمية؛ إذ إنّ إفشاءها يعرّض حياة الفرد أو الأفراد لخَطر كبير(*).

١٩ ـ لا بدّ في بعض الحالات من التذكير بالخطر قبل وقوعه، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾(*).

٢٠ ـ لقد كان النبي يعقوب عليه السلام واثقاً من كَيد إخوة يوسف له إذا ما علموا شيئاً عن الرّؤيا، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾(*).

٢١ ـ أحياناً لا مفرّ من إساءة الظنّ في المسائل المهمّة، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

٢٢ ـ لا بدّ من أن يكون الوالدان مُطّلعيْن وعارفيْن بمشاعر أبنائهم تجاه بعضهم البعض لكي يتمكّنوا من إدارة البيت بالشكل الصحيح والمطلوب، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

٢٣ ـ الكَيد والتحايل من عَمل الشيطان، ﴿فَيَكِيدُواْ... إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾.

٢٤ ـ يتسلّط الشيطان علينا من خلال استغلال بعض الأسباب الذاتيّة والداخلية، (فحَسد الإخوة كان عاملاً مهماً للشيطان ليظهر عداوته ليوسف)، ﴿فَيَكِيدُواْ... إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

٢٥ ـ مَعروف أنّ الشيطان الرّجيم هو عدوّ الإنسان اللّدود وإن كان هذا الإنسان هو أحد أبناء الأنبياء، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾(*).

٢٦ ـ حاولوا إطلاع أبنائكم منذ نعومة أظفارهم على طبيعة الشيطان وأدواره وأساليبه، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾(*).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

إشارات:

❑ تأويل الأحلام مَعناه العبور من ظاهر الحلم إلى باطنه؛ وكلمة (الأحاديث) هي جَمع (حَديث) وتعني كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه. و(الحديث) ما يحدث به الإنسان في نومه ولذلك سمّي الحلم أو الرؤيا حَديثاً.

❑ يقوم النبي يعقوب عليه السلام بتفسير رُؤيا ابنه يوسف عليه السلام له ويُعلمه بما سيؤول إليه أمره في المُستقبل.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء هم أشخاص يَجتبيهم الله سبحانه من بين خَلقه، ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾.

٢ ـ لما كان يوسف عليه السلام مجتبى و... فقد ابتلاه الله بأنواع من البلاء ليصقل جوهره، ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ (البلاء للولاء)(*).

٣ ـ لا يُقيِّم الإنسان على أساس عُمره أو سنيّ حياته، فقد يكون أحدهم صغير السنّ لكنّه كبير بخصاله وقيَمه وصفاته، (كما هي الحال مع النبي يوسف عليه السلام الذي كان أصغر إخوته)، ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾(*).

٤ ـ بإمكان أولياء الله معرفة مُستقبل الآخرين من خلال الحُلم أو الرّؤيا، (كما تنبّأ النبي يعقوب عليه السلام بمُستقبل ولده يوسف عليه السلام وعلم بذلك من خلال رُؤيا ابنه)، ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾.

٥ ـ لا يحسن تعليم أو تلقين العلوم المهمّة والمعارف الدقيقة والأساسية لأيّ كان؛ إذ لا بدّ من تحديد الأشخاص المُؤهّلين والقادرين على تحمّل مسؤولية تلك العلوم والمعارف ومن ثَمّ تقديم تلك العلوم لهم. (نلاحظ أنّ الله سبحانه

وتعالى ذكر في هذه الآية أوّلاً كلمة «يَجْتَبِيك» ثمّ قال تعالى «يُعَلِّمُك»، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾(*).

٦ ـ لا شكّ في أنّ العلم هو أعظم الآلاء التي يَمنحها الله تعالى لِمَن يَجتبيهم، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾.

٧ ـ إنّ الأنبياء هم تلاميذ الله سبحانه، ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾.

٨ ـ تفسير الأحلام وتعبيرها من جملة الآلاء التي يَهبها الله سبحانه إلى الإنسان، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

٩ ـ الرؤى والأحلام الصادقة من بين الطرق التي يُمكن اعتمادها للاتّصال بالغيب، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾(*).

١٠ ـ لا شكّ في أنّ العِلم الذي أُوحِيَ إلى يوسف عليه السلام كان عِلماً مَحدوداً (فحرف الجَرّ «مِن» في جُملة «مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث» يُشير إلى بعض العِلم الخاصّ بتأويل الأحاديث لا كُلّه كما هو واضح)(*).

١١ ـ يُعتبر مَقام النبوّة والرئاسة (أو الحكومة) غاية النِّعَم، والمُراد بإتمام النّعمة، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾، هو وصول يوسف عليه السلام إلى مَقام النبوّة.

١٢ ـ يُعتبر الأجداد في لُغة القرآن الكَريم بمثابة الآباء، ﴿أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ ـ مع أنّ إبراهيم وإسحاق عليهما السلام هُما من أجداد يوسف عليه السلام، لكنّ الله سبحانه يُخاطب يوسف في هذه الآية قائلاً له: ﴿أَبَوَيْكَ... إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.

١٣ ـ لا شكّ في أنّ كلاً من العِلم والهداية والجدارة وكلّ النِّعم الإلٰهيّة الممنوحة لفَرد ما لا تَقتصر نِعمتها عليه وَحده بَل تَشمل كذلك أقاربه وأسرته، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾(*).

١٤ ـ ولا شكّ كذلك في أنّ إتمام النّعمة على آل يعقوب تَعني أنّ إخوة يوسف عليه السلام سيتوبون إلى الله وستكون بذلك عاقبتهم خَيراً من دون رَيب، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾(*).

١٥ ـ إنّ اختيار الأنبياء واصطفاءهم إنّما يكون على أساس العِلم والحِكمة الإلٰهيّتَين؛ لأنّ الله سبحانه يقول في بداية الآية ﴿يَجْتَبِيكَ﴾، ثمّ يقول في آخرها ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

إشارات:

□ تَلوح في قصّة حياة النبي يوسف عليه السلام الكثير من الآيات الدّالة على قُدرة الله سبحانه وتعالى، وكلّ منها تُمثّل عِبرة لأولي الألباب. ومن جُملة تلك الآيات:

١ ـ الرّؤيا المليئة بالأسرار والرّموز التي رآها النبي يوسف عليه السلام.

٢ ـ عِلم تأويل الأحاديث.

٣ ـ علم يعقوب عليه السلام بمستقبل ولده.

٤ ـ سقوط يوسف عليه السلام في الجبّ وعدم إصابته بأيّ أذى.

٥ ـ فُقدان يعقوب عليه السلام بَصره ورجوعه إليه ثانية.

٦ ـ من أعماق البئر إلى ذرى القدرة والسلطة.

٧ ـ الدُخول إلى السّجن والخروج منه إلى سدّة الحكم.

٨ ـ عفّته وطهارته واتّهامه بالرذيلة.

٩ ـ الفِراق والوصال.

١٠ ـ العبودية والسلطة.

١١ ـ ترجيحه السّجن للفرار من الإثم.

١٢ ـ شهامته وعفوه عن الإخوة الظالمين، إضافة إلى العشرات من النقاط المهمّة التي سنلحظها في الآيات الآتية.

وإلى جانب تلك الآيات توجد الكثير من الأسئلة التي تَطرح نَفسها والجواب عن كلّ واحدة من تلك الأسئلة يُنير لنا مشعلاً في طريق الحياة:

١ ـ أنّى للحَسد أن يؤدّي بالإنسان إلى قَتل أخيه والفَتك به؟

٢ ـ كيف جَمع القَدر عشرة أشخاص على ارتكاب الخيانة؟

٣ ـ كيف عفا يوسف عليه السلام بشهامة ونبل عن إخوته الذين آذوه؟

٤ ـ كيف يُمكن لأحد ترجيح السّجن على لذة المعصية من خلال ذِكر الله سبحانه؟

□ لقد نزلت هذه السورة المباركة في وقت كان فيه الرّسول الأعظم ﷺ وأصحابه مُحاصرون اقتصادياً واجتماعياً، فكانت تلك القصّة كالبلسم على جروح النبيّ والمسلمين. وكأنّ الله سبحانه أراد أن يقول لنبيّه الكريم: إذا لَم يُؤمن بعض أقاربك بهذا الدّين، فلا تبتئس؛ ألَم تَرَ كيف قام إخوة يوسف برَميه في غيابة الجبّ؛ لكنّنا أبينا إلّا أن نَجعل العزّة والسلطان من نصيب يوسف؟ إنّ المُستقبل الزاهر أمامك يا محمّد لا مَحالة.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ الحَسد ينتهك حدود الأسرة وعواطف القرابة. فهؤلاء إخوة يوسف عليه السلام، داسوا على كلّ القيَم وتآمروا على أخيهم الصغير، وكلّ ذلك بسبب الحَسد ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾.

٢ ـ لا بدّ أوّلاً من تهيئة السّامع نفسياً قبل توضيح القصّة وبيان مَقاصدها ليتمكّن من أخذ العِبرة منها، إذ تُشير الآية الشريفة إلى احتواء قصّة يوسف عليه السلام على الكثير من الآيات المهمّة والنقاط البارزة التي قد تكون جواباً على ما يَستفسر عنه السائلون ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾.

٣ ـ يُعتبر أسلوب السؤال والجواب واحداً من السّبل المهمة للوصول إلى الحقيقة، ﴿آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾(*).

٤ ـ إذا لَم نَكُن متعطشين للتعليم فلَن نَصل إلى الغاية المرجوّة من دروس القرآن، ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّ قَصص القرآن الكريم تتضمّن أجوبة للكثير من الأسئلة المطروحة في حياة الناس، ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

إشارات:

- تُطلَق كلمة (العُصبة) على الجماعة المتعصبة المتعاضدة حيث شُبّهت بالأعصاب داخل الجسد الواحد والتي يَحمي بعضها بعضها الآخر.

- اثنان من أبناء يعقوب عليه السلام ـ وهما يوسف وبنيامين ـ كانا من أمّ واحدة وبقيّة أبنائه من أمّ أخرى. أشعلَ حُبّ يعقوب لولده (يوسف)، بسبب صِغر سنّه أو بسبب ما كان يتّصف به من الخصال الحميدة، نار الحَسد في إخوته. ويُضاف إلى حَسدهم إيّاه، قَولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وهي إشارة إلى أنّهم وقعوا في الغرور والتكبّر، الأمر الذي حدا بهم إلى نَعت أبيهم بالضلال والجَنف في ما يخصّ تقسيم مودّته وحبّه على أولاده بالتساوي.

- يُحاول البعض التقليل من شأن العِظام، فبدلاً من السعي للارتقاء بأنفسهم إلى مرتبتهم، يحاولون بشتى السبل الحطّ من قدر هؤلاء، وذلك لأنّهم مكروهون والمَكروه يَحاول النيل من المَحبوب.

- ثمّة فَرق بين (التمييز) و(التفريق)؛ فالأوّل معناه التفضيل من دون وَجه حَقّ أو سَبب، بينما يَعني الثاني التفضيل على أساس الجدارة. فمثلاً يَمنح المُعلّم علامات مختلفة لتلاميذه، وهذا الاختلاف في العلامات له تبريره المنطقي ولم يصدر عن ظلم. وهكذا هي الرابطة التي تربط بين الأب يعقوب والابن يوسف فهي رابطة حكيمة لا ظالمة، لكنّ إخوة يوسف عليه السلام لم يَجدوا مُبرّراً لتلك العلاقة، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

- تتسبّب المحبّة المُفرطة أحياناً بحدوث المشاكل؛ فهذا النبي يعقوب عليه السلام كان يُحبّ ابنه يوسف عليه السلام حبّاً شديداً أدّى إلى إثارة الحَسد في نفوس إخوته، فتآمروا على إلقائه في الجبّ. والشيء نفسه يُقال عن حبّ (زليخا) ليوسف، والذي أودى به إلى السّجن. والطريف هنا أنّه قيل: إنّ السجّان الذي كان

مسؤولاً عن يوسف عليه السلام ـ وبسبب ما رآه من حُسن أخلاقه وخُلقه ـ قال له مرّة: إنّي أحبّك يا يوسف! فأجابه يوسف عليه السلام: أخشى أن يُنزل هذا الحبّ بي بلاءً آخر[1]. فما أصابني إلّا من الحبّ؛ إن كانت خالتي أحبّتني سرقتني، وإن كان أبي أحبّني حَسدني إخوتي، وإن كانت امراة العزيز أحبّتني حَبَسَتْني.

التعاليم:

١ ـ يؤدّي الحَسد لدى كبار السنّ إلى تجاهلهم أعمارَهم ونسيانهم شخصيّاتهم، فينحدرون إلى الحضيض ويُزاحمون من هم أصغر منهم سنًّا. (فيوسف كان أصغر أبناء يعقوب سنّاً لكنّ إخوته وهم أكبر منه سنّاً حَسدوه على ما هو عليه على الرغم من كِبَر سنّهم)، ﴿لَيُوسُفُ... إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾[*].

٢ ـ إذا شعرَ الأبناء بوجود تَمييز في ما بينهم، اتّقدت فيهم نار الحَسد والتهبت لظاها في قلوبهم، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾.

٣ ـ إنّ رغبة كلّ منّا في أن يكون محبوباً لدى الآخرين هي رغبة فطريّة موجودة داخل كلّ إنسان؛ ولهذا يُعاني الذي يُعامَلون بشيء من الجفاء وعدم الاهتمام، الأمرّيْن من هذا الوَضع، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، (وهنا، تصوّر إخوة أنّ حُبّ أبيهم ليوسف يُقابله تجاهله لهم).

٤ ـ لقد كان النبي يعقوب عليه السلام يُحبّ جميع أبنائه من دون استثناء، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، (كان إخوة يوسف يقولون إنَّ يوسف أحبّ إلى أبيهم منهم، وهذا يَعني أنّهم هُم أيضاً كانوا مَحبوبين لدى أبيهم)[*].

٥ ـ لا شكّ في أنّ المحبّة لا تتأتّى بالإكراه والجَبر، (لقد كان إخوة يوسف أقوى منه لكنّهم لم يكونوا محبوبين أكثر منه)، ﴿لَيُوسُفُ... أَحَبُّ... وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

٦ ـ الاتّحاد والوحدة من عوامل الإحساس بالقوّة والقُدرة، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[*].

٧ ـ إنّ من شأن النّزعة والمَيل نحو التعصّب والاتّحاد أن تؤدي إلى تسريع عامل

---

(١) تفسير السنّين الجامع.

الانحطاط إذا افتقدت إلى القيادة الصحيحة المؤمنة، (تدلّ عبارة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ على الانسجام؛ لكنّه انسجام تَعوزه القيادة الصحيحة المؤمنة)(*).

٨ ـ عندما يُريد شَخص ما ارتكاب خطأ أو مَعصية، تراه يُحاول تَبرير فعلته ثمّ يقوم بالتنظير والتفلسف لها. (فمن جهة كان إخوة يوسف يعتقدون بأنّهم أقوياء ومُتّحدون، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ومن جهة أخرى كانوا يظنّون أنّ أباهم مُنحرف وضالّ ـ والعياذ بالله ـ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ﴾، وبهذه الذريعة برّروا حَسدهم أخاهم)(*).

٩ ـ وكذلك الحال مع الكثير من الشّباب؛ إذ يظنّون أنّهم هم وحدهم الحُكماء لذلك نراهم لا يُعيرون آباءهم أيّ أهميّة تُذكَر، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(*).

١٠ ـ إنّ الإحساس بالقوّة والقُدرة يُشلّان العَقلَ ويمنعانه من العَمل، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(*).

١١ ـ لا شكّ في أنّ المعايير الخاطئة تؤدي إلى استنتاجات خاطئة، (فعندما يكون المعيار الوحيد هو القوّة والعُدّة والعَدد، فإنّ نتيجة ذلك ستكون وصم الأقليّة بالانحراف والضلال)، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(*).

١٢ ـ الفرد الأنانيّ يبحث عن أسباب إخفاقه عند الآخرين بدلاً من البَحث عنها في داخله، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، (فبدلاً من أن يقول إخوة يوسف: نحن حَسَدة؛ اتّهموا أباهم بالضلال)(*).

١٣ ـ كما قُلنا: ليس للحَسد حدود، فهو يكسر كلّ الحدود، بما فيها حدود النبوّة والأبوّة، وبعد هذا كلّه فليس غريباً أن يَنعت الأبناءُ أباهم ـ وهو نبيّ مُرسَل ـ بالانحراف والظّلم، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٤ ـ قد تؤدي الغفلة بصاحبها إلى وَصف الآخرين بالضلال واتّهامهم بالخطأ، بينما هو من يَرزح تحت الإنحراف والضلال معاً. (فبدلاً من أن يَعترف إخوة يوسف بحَسدهم ومؤامرتهم، فقد اتّهموا أباهم بالانحراف والضلال)، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(*).

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

إشارات:

- عندما يصيب الإنسان نعمة تَعتريه إحدى الحالات الأربع الآتية: الحَسد أو البُخل أو الإيثار (الكَرم) أو الحَسرة. فإذا قال في نَفسه: الآن وقد حُرِمنا من النّعمة الفلانية، ليت الجميع يُحرَم منها أيضاً؛ فهذا هو الحَسد. وإذا قال: عسى أن تكون هذه النّعمة من نصيبنا نحن فقط؛ فهذا هو البُخل. وإذا قال: عسى أن يَنعم الآخرون بالنّعمة وإن كان ذلك على حساب حرماننا منها؛ فهذا هو الإيثار والكَرم. أمّا إذا قال: عسى أن يُنعَم علينا كما أُنعِمَ على غيرنا؛ فهذا هو التحسّر أو الحَسرة.
- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه كان أحياناً يظهر حبَّه لبعض أولاده فيضعهم على منكبيه وما كانوا يستحقّون تلك المحبّة؛ لكنّه كان اتّقاء منهم لكي لا يَحسدوا إخوتهم فتتكرّر قصّة يوسف»[1].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ الأفكار الخطيرة تدفع بالإنسان إلى الأعمال الخطيرة، ﴿لَيُوسُفُ... أَحَبُّ... ٱقۡتُلُواْ﴾.

٢ ـ إنّ شعور الأبناء بوجود التمييز في محبّة أبيهم لهم قد يُغريهم بالاقتتال بينهم. (فعلى الرّغم من أنّ محبّة يعقوب ابنَه يوسف وتعلّقه به إلى درجة كبيرة، كان لها ما يُبرّرها ـ كالكمالات التي كان يوسف يتّصف بها دون إخوته ـ إلّا أنّ ذلك لم يَمنع إخوته من الشعور بالتمييز ظانّين أنّ تلك المحبّة الزائدة تجاه يوسف ليس لها أيّ تبرير منطقيّ؛ وهذا الشعور بالذات هو الذي قادهم إلى الكَيد والمؤامرة)، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا... ٱقۡتُلُواْ﴾[*].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٧٨.

٣ ـ يَعتقد البعض ممّن ابتُلِيَ بقلّة البَصيرة أو التمييز أنّ تصفية مُنافسه جسديّاً أو قَتله هي أفضل طريقة للتخلّص منه، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾(*).

٤ ـ قد يودي الحَسد بالإنسان إلى قَتل أخيه، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

٥ ـ يقوم المذنبون والمجرمون بوسوسة بعضهم إلى بعض، فتقوى شوكتهم من خلال تعاضدهم. (كان إخوة يوسف يصرخون قائلين: اقتلوه أو اطرحوه أرضاً)، ﴿اقْتُلُوا... أَوِ اطْرَحُوهُ﴾(*).

٦ ـ كلّ إنسان يتمنّى أن يكون محبوباً، وإذا شعر بنَقص في محبّة الآخرين له فإنّ ذلك سيفتح الباب أمام الأخطار والانحرافات، (قال إخوة يوسف: إذا تخلّصنا من يوسف سيخلو لنا وَجه أبينا)، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

٧ ـ يظنّ الحسود أنّ البعيد عن العَين بعيد عن القلب أيضاً، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾. (كان إخوة يوسف يعتقدون خطأً أنّه إذا لم يَر أبوهم يوسف فإنّه سينساه وستتحوّل مشاعره نحوهم)(*).

٨ ـ يقرر القرآن الكريم أنّ السبيل الوحيد الذي يجعل الإنسان محبوباً هو الإيمان والعَمل الصالح، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[1]، لكنّ الشيطان يستزلّ البعض ويُصوّر لهم أنّ الطريق الوحيد لذلك هو قَتل الأخ، ﴿اقْتُلُوا... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

٩ ـ يَعتقد الحسود أنّه بقَتل الآخرين تزداد نعمته ويَكثر خيره، ﴿اقْتُلُوا... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

١٠ ـ يَعمد الشيطان إلى إقناع البعض وخداعهم مسوّغاً لهم عمل الشرّ وارتكاب الخطيئة والرهان على التوبة لاحقاً، ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

١١ ـ لا يُمكن دوماً اعتبار العلم أو المعرفة عامليْن لصدّ الانحراف، بل الأهمّ منهما هو الإيمان والتقوى؛ فعلى الرغم من علم إخوة يوسف عليه السلام بسوء

(١) سورة مريم: الآية ٩٦.

فعلتهم وقبحها بقَتل يوسف أو إبعاده ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، فإنّهم مع ذلك نفّذوا خطّتهم.

١٢ ـ أن يضمر الإنسان التوبة قبل الذنب لتبرير ارتكابه ما هو إلّا خديعة للضمير وفَتح لباب المعصية على مِصراعيه. (كان إخوة يوسف يقولون: اقتلوا يوسف ثمّ بعد ذلك توبوا وكونوا عباداً صالحين)، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(*).

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- «الجُبّ» بئر لم تطو، و«الغيابة» الرّفوف الموجودة في جدار البئر بالقُرب من القعر لا تُرى من فوق.

- لا شكّ في أنّ النّهي عن المُنكر له تأثيرات إيجابيّة وبركات كثيرة تتّضح معالمها في المُستقبل. وفي قصّة النبي يوسف عليه السلام قام أحد إخوته بالنّهي عن المُنكر قائلاً: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾؛ وتمكّن بذلك من إقناع الإخوة بتغيير رأيهم في هذا الموضوع وإنقاذ حياة أخيه من الموت. وعندما أصبح يوسف عليه السلام بعد سنوات حاكماً أنقذ بلاد مصر من القَحط والمجاعة. وهذا يُذكّرنا أيضاً بإنقاذ (آسية) امرأة فرعون لحياة موسى عليه السلام بنَهيها عن المُنكر إذ قالت: «**لَا تَقْتُلُوه**»؛ وأدّى ذلك إلى عدول فرعون عن قَتل موسى عليه السلام. ثمّ قام موسى عليه السلام بعد سنوات من ذلك بتخليص بَني إسرائيل من شرّ فرعون وظُلمه.

وهذا نموذج حيّ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

التعاليم:

١ ـ قد يؤدّي النّهي عن المُنكر الذي يقوم به شَخص ما أحياناً إلى تخلّي جماعة عن إصرارها وعدولها عن رأيها، بل قد يؤثّر فيهم أيضاً، (قال أحدهم: لا تَقتلوا؛ وهي كلمة واحدة فقط لكنّها استطاعت التأثير على جَمع من الأشخاص وتغيير رأيهم)، ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾(*).

٢ ـ ليس اسم القائل مهمّاً بل فحوى كلامه وقَوله، (فالآية الشريفة تجاوزت ذِكر اسم الشخص القائل إلى قَوله)، ﴿قَالَ قَآئِلٌ...﴾(*).

٣ ـ عند قول الحقّ يَجب أن لا نخشى الجماعة ونسلّم لرأيها، (فالأخ الذي نَهى البقيّة عن ارتكاب المُنكر كان واحداً، لكنّ ذلك لم يَمنعه من عدم التسليم للجماعة، فاستطاع بمُفرده تغيير رأيها)، ﴿قَالَ قَآئِلٌ... لَا تَقْتُلُوا۟﴾(*).

٤ ـ إذا لم نتمكّن من الوقوف بوَجه المُنكر بشكل كامل، فلا أقلّ من أن نَمنع بعضاً منه. فالأخ القائل «لَا تَقْتُلُوا» تمكّن من تغيير عزم الأكثريّة في قَتل يوسف وإقناعهم بالاستعاضة عن القتل بالرّمي في الجُبّ، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟... وَأَلْقُوهُ﴾. نعم، لا بدّ أحياناً من دَفع الأفسد بالفاسد عند محاربة الفساد، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾(*).

٥ ـ المشورة حتى في الأمور السيّئة قد تقلل من سوئها، فكيف بها إذا كانت في الخير؟ ﴿لَا تَقْتُلُوا۟﴾(*).

٦ ـ عندما ننهى عن المنكر من المناسب تقديم البدائل، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟﴾؛ بعدها يأتي السؤال ولكن ماذا نفعل؟ فالجواب ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾(*).

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

☐ بعد تصميم إخوة يوسف عليه السلام على التخلّص منه، جاءوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح ليوسف بالخروج معهم؛ لكنّ الأبّ رفض ذلك وتحجّج بشتى الحُجَج. فقالوا له: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا﴾.

التعاليم:

١ ـ الإناء الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ﴾.

٢ ـ ليس كل أخ موضع ثقة، (إذ كان يعقوب عليه السلام قبل هذا يُمانع في خروج يوسف مع إخوته بدليل أنّ الإخوة بدأوا يتذمرون من ذلك وينتقدون أباهم على تصرّفه هذا بقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾.

٣ ـ يَجب الحذر من الجَري وراء أيّ شعار والاحتراس من الأسماء التي لا تدلّ على أيّ مُسَمّىً، (فقد يُسمّي الخائن نَفسه أحياناً بالناصِح)، ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾.

٤ ـ يُحاول العدوّ دائماً تقديم ضمانات من شأنها أن تُبعِد أيّ شُبهة عنه، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ﴾.

٥ ـ يَعمد الخائن غالباً إلى اتّهام الآخرين بالتقصير، مُدّعياً أنّ سَبب هذا التقصير هو عدم ثقة الآخرين به، ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾.

٦ ـ لقد خُدِعَ الإنسان باسم النصيحة وطَلب الخَير منذ اليوم الأوّل لخَلقه، فلا نَنسى أنّ الشيطان ـ عندما أراد أن يستزلّ آدم وحواء عليهما السلام ـ قال لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1]؛ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ﴾.

٧ ـ لا شكّ في أنّ الحَسد يُرغم صاحبه على ارتكاب بعض المعاصي كالكَذب والحيلة حتى مع أعزّ الناس لديه، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾

إشارات:

□ إنّ الأطفال والأحداث، بل الإنسان بشكل عام، بحاجة إلى الاستراحة والرياضة والتسلية؛ فهذه الآية الشريفة تُبيّن أنّ السبب المنطقي الذي حدا

(١) سورة الأعراف: الآية ٢١.

بيعقوب عليه السلام إلى القبول بخروج ابنه يوسف عليه السلام مع إخوته، هو حاجة يوسف إلى اللعب واللهو والتسلية.

وقد ذكرت الروايات أنّه لا بدّ للمؤمن من أن يخصّص جزءاً من وقته للراحة والترفيه والتمتّع بما أحلّ الله له من الملذات لكي يقوى على أداء سائر أعماله الأخرى[1].

- ما زال الشباب يُصرَفون عن أهدافهم الحقيقيّة ويُحرَص على إبقائهم غافلين عن واجباتهم، باسم الرياضة واللّعب واللّهو، سواء في الماضي أو الحاضر أو المُستقبل. لا بدّ لنا من التعامل مع اللّعب والرياضة بجدّ لكي نَحصل على كلّ ما هو جدّي منها كذلك.

يحاول المُستكبرون والمتآمرون تنفيذ أغراضهم الدنيئة باستغلال اسم الرياضة أو مسمّى جميل آخر، وباسم الدبلوماسية يُرسلون إلينا الجواسيس الخطرين، ويحيكون الدسائس لمعرفة أسرارنا العسكرية تحت مسمّى المستشار العسكري، وباسم حقوق الإنسان يُدافعون عن عملائهم وأزلامهم؛ وباسم الطبّ والدواء يَشحنون الأسلحة الفتّاكة إلى صنائعهم وعُملائهم؛ وباسم المختصين الاقتصاديين يَعملون على إبقاء الدول الضعيفة على ضعفها ويعملون على إنهاكها؛ وباسم رَشّ المبيدات يَفتكون بالمزارع ويستأصلون الغابات والأحراش؛ وباسم الدراسات الإسلاميّة يُحاولون تشويه الإسلام وتقديمه بشكل مُغاير.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للابن، إذا أراد السّفر، من أن يستأذن والده، ﴿أَرْسِلْهُ﴾.

٢ ـ لقد استخدم إخوة يوسف عليه السلام عُذراً مُشروعاً ومنطقياً لخداع أبيهم، ﴿أَرْسِلْهُ... يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

٣ ـ إذا كان لدى الآباء والمُعلّمين الحريصين والمُخلصين برنامج مُناسب لأوقات الفراغ واللّعب والتسلية خاصّ بالأطفال والشّباب، فلن يكون باستطاعة

---

(١) انظر: نهج البلاغة، الحكمة رقم ٣٩٠.

الآخرين الاصطياد في الماء العكر. (فإخوة يوسف استغلّوا حاجة أخيهم إلى اللّعب والرياضة)، ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾(*).

٤ ـ علينا مُراقبة أطفالنا في أثناء لَعِبهم ومَرَحهم، ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾(*).

٥ ـ يشعر المرء أحياناً بوجود خطة أو مؤامرة عند الإلحاح على موضوع ما، من خلال طرح الشعارات الرّنانة وادّعاء الحماية والمُراقبة. (لاحِظ الآية السابقة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾، وفي هذه الآية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾)(*).

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الالتزام بشؤون الوَلد ورعايته من خِصال الأنبياء، ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ... أَخَافُ﴾.

٢ ـ الأنبياء أيضاً يَحزنون بسبب الفراق والافتراق، ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾(*).

٣ ـ لاحِظ أنّ الابتلاء الإلٰهيّ يكون في الأمور التي تهمّ الإنسان، (فيعقوب عليه السلام كان مهتمّاً جداً بابنه يوسف ولا يقوى على فراقه، فكانت هذه وسيلة لابتلائه وامتحانه مِن قِبل الله سبحانه وتعالى)؛ ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ... أَخَافُ﴾(*).

٤ ـ حذار أن تكشفوا ما في داخلكم وما يجول في خاطركم، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾. (كان يعقوب الأب عالماً بحَسد أبنائه، لذلك قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؛ لكنّه لا يُبيّن لأبنائه في هذه الآية الغَرض ـ وهو الحَسد ـ من وراء استدراجهم يوسف إلى اللّعب، بل يَستخدم مَعاذير أخرى كمخافة أن يأكل الذّئبُ يوسفَ وهم في غفلة عنه).

٥ ـ لا بدّ لنا من مَنح أبنائنا الحريّة والاستقلاليّة. (إنّ حُبّ الوالد لوَلده وحمايته من الأخطار هما مَبدآن ثابتان، لكن لا ينبغي أن ننسى أنّ استقلاليّة الوَلد هي أيضاً مبدأ مهم. وهكذا فعل يعقوب عليه السلام عندما أرسل ابنه يوسف مع إخوته؛ لأنّه كان يعرف بأنّه لا بدّ للشابّ يوماً من أن يمارس استقلاليّته وأنّه في النهاية سينفصل عن أبيه، ليختار أصدقاءه وتُتاح له فرصة التفكير والتدبير في

أموره، والوقوف على قَدميه بثبات ووثوق، وإن كان ذلك سيورّث أباه الهمّ والحُزن وتحمّل ألم فراقه والمشاكل الأخرى).

٦ ـ لا ينبغي ذِكر هواجسنا لأيّ كان، إذ ربّما يؤدّي ذلك إلى استغلالنا من حيث لا نَعلم. وهنا قال الأب يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾(*).

٧ ـ الغفلة تؤدّي إلى الضّرر؛ فقد قال النبي يعقوب عليه السلام: ﴿يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾(*).

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ قد يرى الكبار بعض الأخطار التي لا يراها الصغار وذلك لخبرتهم وتجاربهم المكتسبة في الحياة؛ لكنّنا نرى بعض الشباب يَغترّ بقدرته ولا ينظر إلى الخطر بعين الجدّ، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ (فالأب قَلِق بينما أولاده مَغرورون بقوّتهم وبعصبتهم).

٢ ـ ليست القوّة ـ كما نَعلم ـ دليلاً على الأمانة، (فإخوة يوسف كانوا أقوياء فعلاً ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لكنّهم لَم يكونوا أُمناء)(*).

٣ ـ لم يَكُن الإخوة قَلقين أو خائفين من احتمال هجوم الذّئب على يوسف عليه السلام وافتراسه، فما كان قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ إلّا من باب استرداد كرامتهم وعدم السّماح لأحد بالشكّ في قوّتهم أو قُدرتهم(*).

٤ ـ إذا قَبل أحدنا مسؤوليّة أو أودع أمانة ولم يَكن أهلاً لتحمّلها، فهو بذلك يُخاطر برأسماله وشخصيّته وسُمعته وكرامته، وبالتالي يُصبح من الخاسرين لا مَحالة، ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾.

٥ ـ من صِفات المُنافق التظاهر بالأحاسيس والمشاعر الكاذبة والخادعة؛ (قال الإخوة لأبيهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾).

يَسعى البعض إلى تحقيق أهدافه الدنيئة حتى وإن كان ذلك على حساب

سمعته وكرامته. قال الإخوة: إذا هجمَ الذّئب على أخينا أمام أعيننا ونحن عُصبة قويّة وجماعة جَلدة، فلن تبقى لدينا كرامة ولا اعتبار بين أهلنا، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾(*).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾

إشارات:

□ لمّا كانت إرادة الله سُبحانه قد قضت بجَعل يوسف عليه السلام حاكماً وسيّداً، كان لا بدّ له من دُخول دورة استثنائيّة تؤهّله لذلك؛ فيُصبح بادئ ذي بِدء عَبداً لكي يَرأف على العبيد في ما بَعد؛ ويُرمى في الجبّ ويُلقى في السّجن لكي يَرحم السجناء المظلومين؛ وهذا يُذكّرنا بما قاله الله جلّ وعلا لرسوله الأكرم: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا... فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ اتّفاق جماعة ما على أمر معيّن لا يَعني بالضرورة أنّهم على حَقّ. (فإخوة يوسف هنا أجمعوا كلّهم على أمرهم، بيد أنّ نيّتهم تلك كانت سيّئة تماماً) ؛ ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾.

٢ ـ قد يكون بين الخطة والتطبيق تفاوتاً كبيراً، كانت الخطة ﴿وَأَلۡقُوهُ﴾، وفي مقام العمل أجمعوا على ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾.

٣ ـ تَجدر الإشارة هنا إلى أنّ يوسف عليه السلام لم يَتَلقّ الوَحي إلّا بعد أن فارق والديه وأصابه من إخوته الذي أصابه؛ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ... وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾(*).

٤ ـ لاحِظ أنّ المَدد الإلٰهيّ يَصيب أولياء الله في الأوقات الحَرجة واللّحظات الحسّاسة، ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾.

---

(١) سورة الضحى، الآيات: ٦ ـ ١١.

٥ ـ لا رَيب في أنّ أفضل وأكرم أنيس ليوسف عليه السلام وهو قابع في غيابة الجبّ هو وَحي الله سبحانه إليه وإعلامه بمُستقبله المُشرِق، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾.

٦ ـ لقد كان يوسف عليه السلام بلا شكّ جَديراً بالوَحي الإلهيّ حتى عندما كان غلاماً يافعاً، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾.

٧ ـ إنّ الله سبحانه أبى إلّا أن يَبتلي عباده الصالحين بأشدّ البلاء ليَهديهم ويزكّيهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾(*).

٨ ـ لا شَكّ في أنّ اطلاع الإنسان على مُستقبله وما سيكون عليه مَدعاة للطمأنينة والأمان. (إنّ الذي هدّأ من روع يوسف عليه السلام في الجبّ وأشعره بالسكينة والأمان هو الوَحي والبشارة بما سيؤول إليه أمره في المُستقبل)، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾(*).

٩ ـ الأمل هو أعظم رأسمال لمواصلة الحياة. فقد أوحينا إلى يوسف بأنّه سيَنجو من البئر ويَخرج منها سالماً، وسوف يُخبر إخوته عن عَملهم الشنيع هذا، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾(*).

١٠ ـ لمّا كانت الفضيحة هي النهاية الحتميّة للأعمال السيئة فلا بدّ للإنسان العاقل، إذاً، من أن يتحلّى بالصّبر ويُسيطر على نَفسه، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ...﴾(*).

١١ ـ تعوّدوا على التحدّث عن الأفعال السيّئة والأعمال الشنيعة بالكناية من دون التّصريح. (لاحِظوا كيف تمّت الإشارة إلى مؤامرة قَتل يوسف عليه السلام بالكناية)، ﴿بِأَمْرِهِمْ...﴾(*).

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

☐ يُشير القرآن الكريم إلى وجود أربعة أنواع من البُكاء (أو الدّموع)، وهي:

١ ـ **دُموع الشّوق**: كما حدث مع جماعة من النصارى حين فاضت أعينهم من

الدّمع عند سماعهم بعض آي القرآن الكريم، ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾(١).

٢ ـ **دُموع الحُزن والحَسرة**: كان بعض المُسلمين الصّادقين يذرفون الدّموع ساخنة لمُجرّد مَعرفتهم بأنّ الرّسول ﷺ لا يَستطيع إرسالهم إلى جبهات القتال بسبب قلّة السّلاح والعتاد، ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾(٢).

٣ ـ **دُموع الخَوف والخشوع**: كان أولياء الله يَخرّون سجّداً ويبكون بمُجرّد أن تُتلى عليهم آيات الله سبحانه، ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾(٣)، و﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾(٤).

٤ ـ **الدّموع الزائفة (دموع التماسيح)**: وهي الدّموع التي كان إخوة يوسف عليه السلام يذرفونها عندما جاءوا إلى أبيهم وأخبروه بأنّ الذّئب قد افترس أخاهم يوسف، ﴿يَبۡكُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ يأخذ المتآمر بعَين بالاعتبار عاملَيْ التوقيت والمشاعر معاً لتنفيذ دسائسهم، فإخوة يوسف عليه السلام جاءوا إلى أبيهم ليلاً مُستغلّين عَتَمَته، يَبكون ويَصرخون، آملين في أن تَنطلي حيلتهم ومَكرهم على أبيهم بتلك الأحاسيس، ﴿عِشَآءٗ﴾.

٢ ـ لا يُمكن الوثوق دائماً بالبكاء كعلامة على صِدق الباكي؛ ولا يَنبغي الوثوق بأيّ بُكاء، ﴿يَبۡكُونَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

التعاليم:

١ ـ الكَذب يَجرّ وراءه أكاذيب؛ فإخوة يوسف عليه السلام كَذبوا ثلاث مرّات متتالية

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣.
(٢) سورة التوبة: الآية ٩٢.
(٣) سورة مريم: الآية ٥٨.
(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٩.

لتبرير خطئهم: أوّلها قولهم ﴿ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾، والثانية ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، والكذبة الثالثة ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾، ﴿نَسۡتَبِقُ... تَرَكۡنَا... فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾.

٢ ـ الكذّاب نسّاء؛ فعلى الرّغم من قول إخوة يوسف (في بداية الأمر): إنّهم يُريدون اصطحاب يوسف ليَلعب معهم، لكنّهم ذكروا في تقريرهم أنّهم تركوه عند متاعهم، ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾(*).

٣ ـ إجراء السباقات لها تاريخ طويل بين الشعوب، ﴿نَسۡتَبِقُ﴾.

٤ ـ الخائن جبان، والكاذب يخشى افتضاح كذبه، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

٥ ـ يصرّ الكذّاب على تصديق الناس إياه، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾(*).

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

إشارات:

□ **سؤال:** لا رَيب في أنّ الصّبر والجَلد على الأقدار الإلٰهيّة أمر مُستحبّ وجميل، لكن ما وجه الاستحباب أو الجَمال في الصّبر على ظُلمٍ بحَقّ طِفل بريء، ليقول يعقوب ﷺ بعد هذا كلّه: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾.

الجواب: أوّلاً، كان يعقوب ﷺ يَعلم بطريق الوَحي أنّ ابنه يوسف ﷺ لا يزال حيّاً يُرزَق؛ وثانياً، لو أنّ يعقوب ﷺ حاول التصرّف بغير ما تصرّف به لأدّى ذلك بالتأكيد إلى تجرّؤ أبنائه ولبيّنوا ردود أفعال أكثر جُرأة ووقاحة، ولدعاهم ذلك إلى الذّهاب إلى البئر والتخلّص من يوسف ﷺ إلى الأبد. أمّا الأمر الثالث فهو أنّ يعقوب لم يشأ التصرّف بشكل تُسدّ معه أبواب التوبة على أبنائه تماماً، ولو كانوا ظالمين.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لنا من اليقظة والاحتراس من المُناورة والتضليل؛ (مجيء إخوة يوسف إلى أبيهم بقميص ملطّخ بدَم كَذب هو نَوع من التضليل)، ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

٢ ـ حذار من الانخداع بأساليب دعوى البراءة والتظلّم الخداعة. (إنّ يعقوب عليه السلام لم يُخدَع بالقميص المُضمّخ بالدّم ولا بدموع أبنائه، بل قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾).

٣ ـ يُحاول الشيطان والنّفس تزيين المعصية في عين الإنسان وتَبريرها، ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾.

٤ ـ كان يعقوب عليه السلام على علم بأنّ ابنه يوسف لم يأكله الذئب، والدّليل على ذلك أنّه لم يُطالب أبناءه بتقديم الأدلة على ادّعائهم كعظام يوسف أو بقايا من جَسده، ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾(*).

٥ ـ للحوادث التي تعرض للإنسان وجهان: البلاء والشّقاء ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، والصّبر والجَمال، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(*).

٦ ـ ما أجمل رَدّ الفِعل الذي يُبديه أنبياء الله عليهم السلام في مواجهة الأحداث الصّعبة، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(*).

٧ ـ لا بدّ لنا من استمداد العَون من الله سبحانه عند وقوع الحوادث، إلى جانب تحلّينا بالصّبر والثبات والقدرة الذاتية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾.

٨ ـ لا بدّ من طَلب الصبر والتحمّل من الله تعالى، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾(*).

٩ ـ أفضل الصّبر هو أن لا ينسى العبد ربّه على الرغم من حرقة قلبه وذَرْفه الدّموع، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾.

١٠ ـ لا شكّ في أنّ تحمّل مؤامرة الأبناء ضدّ أخيهم أمرٌ شاقّ ومؤلِم؛ لذلك يتوجّب في هذه المواقف الاستعانة بالله وطلب الصبر، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾(*).

١١ ـ قول النبي يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بدلاً من أن يقول لهم (على ما فَعلتُم)، إنّما أرادَ به إخبارهم بأنّ ادّعاءهم لا يُصدّق(*).

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩﴾

إشارات:

- لا جَرَم أنّ الله جلّ شأنه لا يَترك عبادَه المُخلصين وشأنهم، بل يمدّهم بمدد من عنده في الشّدائد لينجيهم من البلايا؛ فمن نجّى نوحاً عليه السلام وهو على أمواج الماء المُتلاطم، ويونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، ويوسف عليه السلام من أعماق البِئر المظلمة؟ أم مَن خلّص إبراهيم عليه السلام من النّار المُلتهبة، وموسى عليه السلام وهو في وسط البَحر، ومحمّداً صلى الله عليه وآله عندما كان في بَطن الغار، وعليّاً عليه السلام وهو على فِراش النبيّ يَفتديه بنَفسه؟
- شاءت قُدرة الله سبحانه أن يكون الحَبل الذي أُدليَ في البئر سَبباً لنَجاة يوسف عليه السلام من قَعر تلك البئر المُظلمة، ليَصلَ بَعدها إلى القَصر ويجلس على عرش المُلك. إذن، تأمّلوا فِعل حَبل الله تعالى، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ...﴾[1].

التعاليم:

١ ـ أحياناً يَتسبّب الأقربون بوقوع الشّخص في البئر؛ لكنّ الله سبحانه وبقدرته يقيّض الأبعدين لإنقاذه، ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[2].

٢ ـ يُعتبر تقسيم العَمل واحداً من أصول الإدارة في الحياة الجَماعيّة. (﴿وَارِدَهُمْ﴾ بمَعنى الشّخص المسؤول عن الماء، ما يدلّ على أنّ أصحاب القوافل يُقسّمون الأعمال بينهم، والوارِد هو واحد من المسؤولين في تلك القافلة).

٣ ـ يَنظر البعض إلى الآخرين وكأنّهم سلعة أو بضاعة، ﴿بِضَـٰعَةً﴾.

---

(١) سورة آل عِمران: الآية ١٠٣.

(٢) قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الأَبْعَد». نَهج البلاغة، الحكمة ١٤. [المترجم]

٤ ـ قد يكون بإمكاننا كِتمان الحقيقة عن الآخرين؛ ولكن، ماذا عن الله سبحانه وهو العالِم بكلّ شيء؟ ﴿وَأَسَرُّوهُ... وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ إنّ مَن يَبيع يُوسُفَ وجوده وكيانه بهذا الرّخص، لا جَرَم أنّه سيندم. فالعُمر والشّباب والعزّة والاستقلال والطهارة، كلّ واحد من تلك الأمور هي بمثابة (يوسف) فلا بدّ من الاحتراس من بَيعها رَخيصةً.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ ما يَحصل عليه الإنسان بسهولة يكون تركه والاستغناء عنه أسهل. ولأنّ السيّارة حَصلت على يوسف عليه السلام من دون عناء أو مشقّة فقد هانَ عليهم بَيعه بثمن زهيد، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾.

٢ ـ لاحِظ أنّ سوق النّخاسة كان رائجاً منذ أقدم العصور، فقد باعت السيّارة يوسف عليه السلام كعَبد، ﴿وَشَرَوْهُ﴾.

٣ ـ سُبحان الله، اللحظة التي استغنت فيها السيّارة عن يوسف عليه السلام وزَهدت فيه، كانت لحظة مصيرية غيّرت حياته كليًّا، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ...﴾(*)، (نعم، يَجب ألّا ييأس أمثال يوسف في أيّ زمان ومكان بسبب تجاهل الناس لهم).

٤ ـ مَن لا يَقدّر الشيء حقّ قدره سيَهون عليه الاستغناء عنه، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، (لمّا كانت السيّارة تَجهل قيمة يوسف ولا تَعرف قَدره هانَ عليها بَيعه بثَمن بَخس).

٥ ـ سيعرف الناس قيمة النوابغ ولو بَعد حين، وإن جار عليهم الزمان. (فإن كانت السيارة زهدت في يوسف وبيع كعبد، فقد فتح له الزمان باباً واسعاً إلى سدّة الحُكم)، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾(*).

٦ ـ لاحظ أنّ تداول العُملة له خلفيّة تاريخية تعود إلى آلاف السنين، ﴿دَرَٰهِمَ﴾.

٧ ـ لقد باعَ الجُهلاء الغافلون يوسفَ عليه السلام بثَمن بَخس، لكن ثمّة نساء عالمات ومحبّات رأين فيه ملكاً كريماً، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. قال الإمام الصّادق عليه السلام: «رُبَّ امرأةٍ أفْقَهُ مِن رَجُل»(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ وردت عبارة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ مرّتين في القرآن الكريم؛ مرّة في حقّ النّبي موسى عليه السلام عندما التقط آل فرعون وجنوده الصّندوق الذي كان يَحمل موسى من الماء، فقالت امرأة فرعون له: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(٢). ومرّة ههنا، عندما خاطبَ عزيز مِصر زوجته قائلاً لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. نعم، لقد شاءت قُدرة الله سبحانه أن يَغمر حُبّ الطّفل الرّضيع والعَبد المسكين الغريب قلوب حكام مِصر لتهيّأ بذلك الأرضيّة المناسبة ليصبحا (الطّفل والعَبد) حاكمي المستقبل.

التعاليم:

١ ـ لقد تجلّت العَظمة والهيبة على مُحيّا النبي يوسف عليه السلام، ما حَدا بعَزيز مِصر أن يوصي زوجته بالاعتناء به، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

٢ ـ تَمتلك المرأة دَوراً محورياً وأساساً في المنزل، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾(*).

٣ ـ افعلوا ما بوسعكم لدَعوة الأقارب والأصدقاء للتعامل مع الآخرين بالحُسنى، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

٤ ـ انظروا إلى المستقبل في مُعاملاتكم، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾(*).

(١) أصول الكافي، ج٤: ص٣٠٦. (٢) سورة القَصص: الآية ٩.

٥ ـ إذا تعاملنا مع الآخرين على أساس الاحترام، فلن يَخيبوا أملنا في طَلب المساعدة والعون، ﴿أَكْرِمِي... يَنفَعَنَآ﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ الله سبحانه هو الممسِك بأزِمّة القلوب، فهو الذي أدخلَ حُبّ يوسف في قَلب من اشتراه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾.

٧ ـ يَجب علينا اتّخاذ القرار المناسب بَعد التّقييم المطلوب. (في البداية كان الهدف من يوسف هو إعانتهما في أمور المنزل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، ثمّ بعد ذلك تمنّيا اتّخاذه ولداً ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾(*).

٨ ـ يبدو أنّ تَبنّي الأطفال كان معروفاً مُنذ القِدَم، ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

٩ ـ من الواضح أنّ عزيز مِصر لم يَكن لديه أولاد، ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾(*).

١٠ ـ رُبّ ضارّة نافعة؛ (فقد ألقى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في الجبّ، ليخرج منه إلى قَصر الملوك)، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾(*).

١١ ـ لا تَستخفوا بمُستخدَميكم فقد يُصبحون في المُستقبل حُكّاماً أو من ذوي الشأن، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(*).

١٢ ـ العِلم شرط من شروط إناطة المسؤوليّة، ﴿مَكَّنَّا... وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾.

١٣ ـ إنّ بَعد العُسر يُسراً؛ فالذي بيعَ بالأمس كعَبد بأبخس الأثمان، أصبحَ اليوم يَسكن قَصراً ستَحكي قصّته الأزمان، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ... مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

١٤ ـ قَضَت إرادة الله القاهرة إخراج يوسفَ من غيابة الجُبّ وإجلاسه على كُرسيّ الحُكم، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

١٥ ـ سُنّة الله تعالى هي في غلبة الخير على الشرّ، ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾(*).

١٦ ـ ما نَعتبره حادثة إنّما هو في الواقع خُطّة إلهيّة مُحكَمَة لتَنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

١٧ ـ وعَسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. (فظاهر الأمر هو رمي يوسف عليه السلام في الجبّ المُظلِم؛ لكنّ الحقيقة أنّ إرادة الله كانت تخطّط لشيء آخر)، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ... أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(*).

١٨ ـ لا يَرى الناس إلّا ظاهراً من الأمر والأحداث وهم يَجهلون مَقاصد الله سبحانه وأهدافه الحقيقيّة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ «الأشُدّ، من شَدَّ، بمَعنى العُقدة القويّة أو المُحكَمة»، في إشارة إلى اشتداد الجِسم والرّوح.

التعاليم:

١ ـ العِلم والحِكمة متوقفان على الأهلية والاستعداد، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢ ـ ليست الحكمة كالعِلم، ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(*)، (العِلم هو اليَقين والمَعرفة، بينما الحِكمة هي البصيرة التي تسوق الإنسان إلى الحقّ. فقد يكون الفَرد مُتعلّماً ومُثقّفاً؛ لكنّه مع ذلك قد يزلّ في بعض قراراته ويُخطئ حسابها، وهذا يدلّ على فُقدان البصيرة اللازمة لإنقاذه من الجَنَف والانحراف. وهكذا، فقد مَنحَ الله سبحانه يوسف عليه السلام العِلمَ والحِكمة معاً).

٣ ـ علوم الأنبياء ليست مُكتسبة بل هي لدنية؛ فالله سبحانه يقول: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ وجود العِلم والحِكمة جَنباً إلى جَنب أمرٌ ضروريّ ولازم، وفاعل أيضاً، ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(*).

٥ ـ يَجب تبيين أسباب تنصيب المسؤولين وعزلهم. (ولأنّ يوسف عليه السلام كان من المُحسنين فقد أوتي العِلم والحِكمة). ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا... كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(*). نعم، إن أحسَنّا كُنا جَديرين بالثواب الإلٰهيّ الخالِص، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ المُحسنين هُم المفلحون في هذه الدّنيا، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ ـ ليس كلّ مَن يَمتلك القدرة العِلمية أو البَدنية مشمولاً بلُطف الله سبحانه، بل لا بدّ من أن يكون مُحسناً كذلك، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ فُسرّت عبارة ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ﴾ على وجهين اثنين:

أ) أعوذ بالله رَبّي الذي أحسنَ مَنزلتي.

ب) إنّ عزيز مِصر هو مالِكي وسيّدي، ولا زلتُ أعيش في مَنزله وألتمس فضله، وهو الذي أوصاكِ بي قائلاً: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ فكيفَ أخونه إذاً؟

ولكلا الاحتمالَيْن أنصار يُقدّمون الشواهد والدّلائل على مُدّعاهم؛ أمّا نحن فنَميل إلى الاحتمال الأوّل، فيوسف عليه السلام لَم يَرتكب الإثم فقط بسبب تَقواه وخَوفه من الله عزّ وجلّ؛ ولم يمتنع عن الخيانة احتراماً منه للعزيز، فمثل يوسف يتصرف بدافع التقوى قبل أي شيء آخر.

وتَجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمة «رَبّك» استعملت في موارد من هذه السورة المُباركة في إشارة إلى عزيز مِصر، وأما كلمة «رَبّي» فالمراد منها هو الله سُبحانه دون غيره كما هو واضح.

لأنه من البعيد على يوسف عليه السلام أن يَهبط إلى هذا المُستوى ويصغر من شأنه ـ والعياذ بالله ـ فيسمّيَ (عزيز مِصر) «رَبّاً».

التعاليم:

١ ـ تَبدأ المَعاصي والآثام الكبيرة دَوماً بالرّفق والمُراودة، ﴿رَٰوَدَتْهُ﴾.

٢ ـ لا يَكفي أن يكون المَرء طاهراً وعَفيفاً، فقد تكون النّساء أحياناً هُنّ اللائي يتوددن ويُراودنَ الرّجال، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾.

٣ ـ لقد بَلغت الشّهوة أقصى حدودها لدى زوجة المَلك حتى أحالتها إلى أسيرة لغلام من غِلمانها، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي﴾.

٤ ـ حاولوا أن لا تُصرّحوا باسم المُسيء، بل اذكروه تلميحاً. لاحِظوا أنّ القرآن الكريم لَم يُسمّ أو يُصرّح باسم زوجة العَزيز التي عَشقَت يوسف عليه السلام، بل كَنّى عنها بقوله: ﴿ٱلَّتِي﴾.

٥ ـ لا تَتركوا الشّباب في البيوت مع النّساء من غير المَحارم، لاحتمال انفتاح باب المُراودة، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾.

٦ ـ عادة ما ينمو الحُبّ أو العِشق تَدريجيّاً في أحضان المُراودة، فوجود يوسف عليه السلام بشكل دائم ومُستمرّ في البيت هو الذي أثارَ الحُبّ والغَرام، ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾.

٧ ـ حاولوا طَرح المواضيع المُتعلّقة بالمفاسد الأخلاقيّة بشكل مؤدّب وتلميحي، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾(*).

٨ ـ لا شكّ في أنّ وجود رَجل وامرأة من غير المَحارم في مكان مستقل يُهيّئ الأجواء لارتكاب المَعصية، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

٩ ـ من الواضح أنّ «الزّنا» كان عَملاً ممقوتاً منذ القِدَم، لذلك قامت (زليخا) بإحكام غَلق الأبواب كُلّها، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾.

١٠ ـ صَحيح أنّ (زليخا) سدّت جميع الأبواب وغلّقتها، لكنّ باب اللّجوء إلى الله سبحانه مفتوح على مِصراعيه على الدّوام، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ... مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ تَختلف ظروف الابتلاء الإلٰهيّ وأوقاته، فأحياناً يَقع البلاء في غيابة الجُبّ وأحياناً أخرى في القصور، ﴿رَٰوَدتُّهُۥ... مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

١٢ ـ بإمكان التّقوى أن تتغلّب على عوامل الانحراف وبُذور الخطيئة، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾.

١٣ ـ الاعتصام بالله سُبحانه يحول بين المَرء والإثم أو الزّلل، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ إذا أمرَكم رئيسكم أو كبيركم بارتكاب الإثم، لا تَجب عليكم الطاعة، ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾. (لا تَجوز مَعصية الله لأجل طاعة غيره، «لَا طَاعَةَ لِمخْلُوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِق»)[1].

١٥ ـ استعينوا بالله قبل الوقوع في حِبال المَعصية، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

١٦ ـ بإمكان الفَرد أن يَبقى طاهراً وعفيفاً وصادقاً حتى في قصر الملك، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

١٧ ـ إنّ خَطر الغريزة الجنسيّة كبير، فلا مناص إذاً من الاستعانة بالله للنجاة منها، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

١٨ ـ عادة ما يَخشى الفَرد المُنغَمس في الملذّات والعابد للشهوات، الفضيحة الظاهريّة، (لذلك قامت زليخا بغَلق الأبواب بإحكام) أمّا الإنسان المُتّقي الذي لا يَخشى إلّا رَبّه فتراه لا يَخاف الفضيحة بقَدر ما يَخاف من الله سبحانه، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

١٩ ـ إنّ أفضل أشكال التّقوى هو أن لا نَرتكب الإثم من أجل الحقّ ومن أجل مَحبّتنا لله تعالى وإحساسنا بلُطفه، وليست التّقوى أن نَخاف الفضيحة في هذه الدّنيا أو النّار في الآخرة، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾.

٢٠ ـ لا رَيب في أنّ تذكّر الألطاف الإلٰهيّة يدعو إلى تَرك المَعصية، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾(*).

٢١ ـ ذكر عاقبة المَعصية يحول دون ارتكابها، ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢٢ ـ لا جَرَم أنّ التّشجيع على الزّنا أو تهيئة ظروفه للشباب الطاهر ـ وهو ما فعلته (زليخا) هنا ـ إنّما هو ظُلم بحقّ النّفس والزّوج والمُجتَمع ككلّ، ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج١٠، ص٢٢٧.

٢٣ ـ قد يكون ارتكاب المَعصية في لحظة ما سَبباً في حرمان مُرتَكِبها من الفلاح إلى الأبد، ﴿لَا يُفْلِحُ﴾.

٢٤ ـ لا شكّ في أنّ ارتكاب المَعاصي هو نوع من أنواع الكُفر بنَعِم الله وآلائه، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢٥ ـ لا بدّ من التفكير في عاقبة العَمل قبل الشّروع به، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(*).

٢٦ ـ لَم يَنسَ يوسف عليه السلام الفلاحَ حتى وهو في خِضَمّ مواجهته مخلوقاً مثل (زليخا)، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(*).

٢٧ ـ إنّ الشخص الذي يَعرف مَنزلته ويُقدّر مكانته لا يُمكن أن يَبيع نَفسه بثَمن رَخيص من أجل لذّة زائلة، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(*).

٢٨ ـ إذا دَخل الظلمُ من باب خرج الفلاحُ من الباب الآخر، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(*).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصّادق عليه السلام: **«بُرهان الرَّبّ، هو نور العِلم واليَقين والحِكمة التي ذَكرها الله سُبحانه في الآيات السابقة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾»**(١). وأمّا ما أشارت إليه بعض الرّوايات من أنّ المُراد بالبُرهان هو رؤية يوسف عليه السلام صورة أبيه وجبريل عليه السلام، فلا يمكن الوثوق بسندها.

□ أشارَ القرآن الكريم مراراً إلى عَزم أعداء الله على التآمر ضدّ أوليائه، وكيف أنّ الله سبحانه جَعل ما كادوا هَباءً مَنثوراً. فمثلاً، وبُعيد رُجوع النبيّ صلى الله عليه وآله من معركة تَبوك، حاولَ المنافقون تَغيير مَسير الجَمل الذي كان الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله راكباً

(١) تفسير كشف الأسرار.

عليه إلى جهة ليتسنّى لهم الغَدر به وقَتله، لكنّ ذلك لَم يَحدث ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾(١)، أو قيلَ: إنّهم أرادوا مرّة تَضليله ﷺ ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾(٢)، أو عندما استعدّوا لإيذائه ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾(٣)، لكنّ الله خيَّب آمالهم وأفشلَ مَساعيهم.

□ لقد كان يوسف عليه السلام عفيفاً طاهراً، والدّليل على ذلك ما قاله هو نَفسه، وما قاله كلّ مَن عاشرَه. وفي ما يأتي بَعض الشواهد على ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ ـ كان يوسف عليه السلام يُكرّر قول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، وفي مكان آخر قال: ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٣ ـ قَول (زُليخا): ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

٤ ـ قَول عزيز مِصر: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

٥ ـ شهادة الشّاهد من أهل (زُليخا) الذي قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٦ ـ كلام النّسوة في مِصر ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

٧ ـ الوَعد الذي قطعه إبليس اللّعين على نَفسه بإغواء الناس أجمعين واستدراكه قائلاً: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٤).

التعاليم:

١ ـ ليس باستطاعة أحد النّجاة من الزّلل إلّا بلُطف الله سبحانه وتعالى ورَحمته، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.
(٢) سورة النّساء: الآية ١١٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ١١.
(٤) سورة الحِجر: الآية ٤٠.

٢ ـ يُمكن للإنسان أن يرى بُرهاناً ما في أيّ لحظة أو ظَرف يكون سَبباً لنَجاته، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾(*).

٣ ـ يمتلك الأنبياء غرائز إنسانيّة مثلهم مثل بقيّة البشر العاديين، لكن إيمانهم بحضور الله ووجوده في كلّ مكان وزَمان، يمنعهم عن ارتكاب الإثم، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾(*).

٤ ـ الغفلة عن ذِكر الله تعالى تمهّد لارتكاب المعصية، بينما ذكره يصون الإنسان من المعاصي، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾(*).

٥ ـ الإخلاص درع يَحمي الفَرد من الوقوع في المَعصية، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ... إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(*).

٦ ـ إنّ الله سبحانه كَفيل بالمُحافظة على عباده المُخلَصين، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٧ ـ يتولّى الله حفظ عباده المخلصين، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٨ ـ لا يَجتمع الإثم والفَحشاء مع الإخلاص، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(*).

٩ ـ لا يَقتصر الإخلاص على النبي يوسف عليه السلام فقط، فكلّ منّا يُمكنه الوصول إلى مَقام المُخلَصين إذا سلكَ المَنهج نفسَه الذي سَلكه هو عليه السلام، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(*)؛ وعبارة ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ لا تَختصّ بيوسف عليه السلام دون غيره، بل يُمكن لكل واحد منّا أن يكون مثله).

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ «الاستباق»، هو التسابق بين شَخصيْن أو أكثر. لقد فَرّ يوسف عليه السلام نحو الباب هَرباً من الإثم والمَعصية، وكانت (زليخا) تَجري وراءه، وكأنّهما كانا يتسابقان للوصول إلى الباب. و«قَدَّ الشيءَ، قَطعه أو شَقّه طولاً»، و«ألفى إلفاءً، وَجدَ على حين غرّة».

التعاليم:

١ ـ لا يَكفي اللّجوء إلى الله سبحانه والاستعاذة به، بل لا بدّ من الهُروب من الإثم، ﴿وَاسْتَبَقَا﴾.

٢ ـ قد تتشابه أحياناً ظواهر الأعمال، لكنّ البواطن والأهداف تختلف. (سُبحان الله، فأحدهما يَستبق البابَ لكي لا يُلوّث نَفسه بالإثم، بينما يَستبق الثاني للتلويث)، ﴿وَاسْتَبَقَا﴾.

٣ ـ التعلّل بالأبواب المُغلقة للاستسلام للإثم والمَعصية هو حجّة ضعيفة، فلا بدّ من التحرّك نَحو تلك الأبواب؛ من يدري قد يُسعفنا الحظ هذه المرة وتَنفتح، ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾.

٤ ـ لا يَنبغي تَجاهل ساحة الجريمة فقد يترك المُجرم وراءه آثاراً، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾(*).

٥ ـ يتوجّب على المرء أحياناً تَفقّد مَنزله أو مَحلّ عَمله على نَحو مُفاجئ، ﴿وَأَلْفَيَا﴾(*).

٦ ـ قد يكون الشاكي أحياناً هو المُجرم؛ و(زليخا) هنا هي المُجرمة كما هو واضح؛ لكنّها بادرت وشكَت يوسفَ عليه السلام وتظلّمت منه لدى زَوجها، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ...﴾.

٧ ـ يَستغلّ المُخطئ عواطف أقاربه وأحاسيسهم لتَبرئة نَفسه؛ وقد أسرعت (زليخا) في ذلك المَشهد وخاطبت زوجها قائلة: لَقد أرادَ هذا العَبد المَساسَ بشَرفك وعِرضك، ﴿بِأَهْلِكَ﴾.

٨ ـ دَيدَن أصحاب الجاه والنّفوذ اتّهام الآخرين وإن كانوا هم المُقصّرين، ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾(*).

٩ ـ صَدَق أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال: «**كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِل**»، ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾(*).

١٠ ـ لاحِظ أنّ سجن المُجرمين وحبسهم كان متداولا في التاريخ، ﴿أَن يُسْجَنَ﴾.

١١ ـ التلويح بالعِقاب تعبير عن سلطة زوجة العَزيز وجَبروتها، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٢ ـ لم يكن حباً ذلك الذي حرّك (زليخا) بل نزوة عابرة؛ لأنّ من طِباع العاشق الحقيقيّ أن يَفدي نَفسه من أجل مَعشوقه ومَحبوبه وليس اتّهامه ورَميه في السّجن ظلماً، ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾(*).

١٣ ـ تودي النزوة أحياناً بصاحبها إلى أن يكون قاتلاً، ﴿أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٤ ـ يَبدو أنّ (زليخا) كانت تتمتّع بنفوذ كبير في داخل السلطة الحاكمة، لذلك نراها تَقترح هنا أن يُسجَن يوسف عليه السلام أو يُعذّب عذاباً أليماً، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(*).

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- ذُكرت بعض الرّوايات أنّ الشاهد الذي أشارَ إليه القرآن الكَريم في هذه الآيات إنّما هو طِفل رَضيع راقد في مَهده وقد تكلّم بقُدرة الله تعالى كما حَدث للنبي عيسى عليه السلام؛ لكنّه لا يُمكننا الوثوق بتلك الروايات لعَدم وجود سَند يَدعمها. والأفضل أن نُقدّر أنّ الشاهد كان واحداً من مُستشاري العزيز ومن أقارب زوجته ولا شكّ في أنّه كان ذكيًّا وفَطِناً، وكان هذا الشاهد (المُستشار) مُرافقاً للعزيز في تلك الأثناء.

- لاحِظ أنّ يوسف عليه السلام لم يَكن أوّل المُتكلّمين، ولو لَم تَكن امرأة العزيز تكلّمت واتّهمته زوراً لَما اضطُرّ يوسف عليه السلام إلى قَول ما قال وما كان ليَشهرها أو يَفضحها؛ لكنّها هي التي ابتدأت الشرّ فأجاب: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى﴾.

- ما يُؤسَف له أنّ الإنسان الطاهر العَفيف غالباً ما يُتّهَم ظُلماً؛ فلَم يَكن مثلاً

أطهر من السيّدة مريم عليها السلام في عصرها؛ لكنّها لَم تَسلم من اتّهام الجُهلاء لها بالزّنا. والشيء نفسه حَصلَ مع النبي يوسف عليه السلام وهو الطاهر العَفيف، اتّهمته امرأة العزيز بأنّه أراد فِعل المُنكر معها؛ إلَّا أنّ مشيئة الله سبحانه وتعالى أثبتت براءة الاثنيْن وطهارتهما بأحسن الحُجَج والبراهين.

□ يؤدّي «القَميص» دَوراً مُهمّاً في قصّة النبي يوسف عليه السلام:

فهنا كان القَميص الذي قُدّ من دُبُر دَليلاً على براءة يوسف وإثبات التّهمة على امرأة العَزيز. وفي مكان آخر كان بقاء القَميص على حاله دون تمزّق دليلاً على ثَبات التّهمة على إخوته، فبَعدَ إلقائهم يوسف في الجبّ وأخذ قَميصه وتَلطيخه بالدّم وتَقديمه إلى أبيهم قائلين: لقد أكلَ الذّئبُ يوسف؛ سألهم أبوهم: فلماذا لَم يتمزّق قَميصه إذاً. وفي نهاية قصّة يوسف عليه السلام سيكون القَميص سَبباً لرجوع البَصر إلى عَيني أبيه يعقوب عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمُتّهم من الدّفاع عَن نَفسه والتَعريف بالمُجرم الحقيقيّ؛ وهو ما فعله النبي يوسف عليه السلام عندما واجه كلام (زليخا) ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ بقوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾، وكان ذلك جواباً مُناسباً مُشيراً إلى أنّها هي التي همّت بارتكاب المعصية لا هُو(*).

٢ ـ لا بدّ للقاضي من سَماع شَكوى المُشتكي ودِفاع المُتّهم، ثمّ يَبحث في الأدلة والمُستندات ويَدرس الوثائق، لكي يتمكّن بعد ذلك من إبداء وجهة نَظره ورأيه. (ففي هذه القصّة ادّعت زوجة العزيز أنّ يوسف هو الذي أراد بها سوءاً ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، فردّ يوسف عليه السلام عن نفسه التّهمة وقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾؛ أمّا الشّاهد فقد أعطى علائم للكَذب والصّدق وذلك عبر الطريقة التي شُقّ بها القَميص، من الأمام أو من الخَلف)(*).

٣ ـ لا شكّ في أنّ الدّفاع عن الشخص البريء هو واجب إنسانيّ، فليس دائماً السّكوت من ذهب، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾.

٤ ـ تَقديم العَون والمساعدة من أجل الوصول إلى الحقيقة هو عَمل حَسن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾(*).

٥ ـ في القضاء، الشّاهد هو الشخص الذي يتكلّم وفقاً للمستندات ويَدعم كلامه بالقرائن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾(*).

٦ ـ الله سبحانه يَحمي الفَرد من حيث لا يَدري، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٧ ـ عندما تتدخّل مشيئة الله سبحانه، ترى أقارب المُجرم يَشهدون ضدّه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٨ ـ لا يَجوز في الشهادة أو الحُكم مراعاة حسب المتّهم ونسبه أو مَنصبه أو قرابته، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٩ ـ لا رَيب في أنّ شهادة الأقارب على بعضهم البعض تَبعث الطمأنينة والثقة، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾(*).

١٠ ـ لا بدّ من أن يهتمّ القاضي بالوثائق والمُستندات والتركيز عليها أكثر من أقوال المُشتكي أو المُتّهم، ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ... قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى... وَشَهِدَ شَاهِدٌ... إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ...﴾(*).

١١ ـ يَستلزم القضاء والحُكم شَخصاً خبيراً ومُتمرّساً، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ... إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ...﴾(*).

١٢ ـ يُمكن مَعرفة المُجرم والكَشف عن الكثير من الأمور في علم الجرائم من خلال القرائن والآثار المتروكة في مسرح الجريمة، ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ...﴾.

١٣ ـ من الضروريّ الاستعانة بالأساليب الخاصّة بعلم الجرائم لتحديد الجريمة والمُجرم، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ على الرّغم من أنّ القرآن الكريم يَصف كَيد الشيطان بالضّعف ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ

كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]، إلّا أنّه وَصف كَيد النّساء في هذه الآية الشريفة بالعظيم. ويذكر تفسير (الصافي) أنّ سَبب ذلك يعود إلى أنّ وسوسة الشيطان إنّما هي في لحظة ما وبشكل خفيّ وخلسة، لكنّ وسوسة المرأة تتّسم باللّطف والمحبّة، وهي وسوسة حضورية ودائمة.

□ أحياناً نَرى أنّ الله سبحانه يقوم بأفعال جبّارة باستخدام وسائل بسيطة؛ فمثلاً كان هلاك أبرهة على يَد الطيور الأبابيل، وكانت نسيج العنكبوت السبب في إنقاذ الرّسول الكريم ﷺ من أيدي المشركين؛ وعلّم سبحانه الإنسانَ طريقة دَفن الموتى على يَد الغُراب[*]، وبيّنَ طهارة مريم عليها السلام وعفّتها بكلمات الطفل الرّضيع؛ وأثبتَ طهارة يوسف عليه السلام ونزاهته بقَميص مُممزّق، وكان طير الهُدهد سَبباً في إيمان شَعب بأكمله؛ وكَشف أمرَ أصحاب الكَهف بعُملة نقديّة مُتقادمة.

التعاليم:

١ ـ تَقتضي العدالة في القضاء أن يكون مبنيّاً على أساس الأدلّة وبعيداً عن عُنصر الحبّ والكراهية، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ... قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾[*].

٢ ـ الاستدلال المَنطقيّ يُجبر كلّ شَخص مُنصف على الاستسلام والإقرار. (فعزيز مصر مثلاً لَم يَكن أمامه إلّا القبول بكلام الشّاهد)، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ... قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾[*].

٣ ـ تجب مُراجعة الآثار والمُستندات المُتعلّقة بموقع الجريمة والتّدقيق فيها جيّداً، ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾[*].

٤ ـ عندما نَصل إلى نتيجة حَتمية وقاطعة لا بدّ لنا من إعلان الحُكم من دون أيّ تردّد، ﴿فَلَمَّا رَءَا... قَالَ﴾[*].

٥ ـ لاشكّ في أنّ عزيز مِصر كان يتعاطى مع الموضوع بالعدل والإنصاف ولو بشكل نسبيّ (لأنّه ـ كما هو واضح ـ لَم يَشأ اتّهام أيّ شَخص من دون أن

(١) سورة النّساء: الآية ٧٦.

يتحقّق من الأمر أوّلاً، وها هو يُعطي الحَقّ لصاحبه هنا وهو يوسف ﷺ)، ﴿فَلَمَّا رَءَا... إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾(*).

٦ ـ كما لا يمكن إخفاء نور الشمس، فإنّ نور الحَقّ لا ينطفئ؛ ولا بدّ من أن ينكشَف أمر المجرم يوماً ما، ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾.

٧ ـ يَجب علينا قَبول الحقّ ولو كان مُرّاً وتسبّب في إضرارنا. (فعزيز مِصر هنا اعترف بأنّ زَوجته هي المذنبة وليس يوسف ﷺ)، ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾(*).

٨ ـ كونوا على حَذر من مَكر خبائث النّساء فإنّ الخطر، كلّ الخَطر، في حيَلهنّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

٩ ـ مَهما كان نوع المَكر وشَكل الحيلة فإنّهما سَرعان ما سيَفتضحان، ﴿فَلَمَّا رَءَا... قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ
إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كان عزيز مِصر يرغب في إبقاء هذه المسألة (الفضيحة) مَخفيّة، لكن لم يخطر بباله أنّ هذا الموضوع سيُفشى يوماً لجميع مَن في الأرض وإلى الأبد؛ وما ذلك إلّا لإثبات براءة يوسف ﷺ، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

٢ ـ الأعمال القبيحة ينبغي أن تُستر، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾(*).

٣ ـ طَلب عزيز مِصر من يوسف ﷺ إخفاء هذا الموضوع لكي لا تُخدَش سُمعته أو تُوَجّه ضربة إلى مكانته ومَنصبه، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾(*).

٤ ـ من الواضح أنّ عزيز مِصر ـ مَثله في ذلك مَثل الكثير من سكّان القصور ـ قد تغاضى عن مسألة الشّرف والعِرض والغيرة، وامتنع حتى عن توبيخ زوجته أو تأنيبها مُكتفياً بدعوتها إلى الاستغفار، ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾.

٥ ـ واضح كذلك أنّ القادة غير المؤمنين لا يَمتلكون الجرأة على الحسم والحزم ضدّ أقاربهم المُخطئين، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ شروع أيّ امرأة في إقامة علاقة مع غير زَوجها هو أمر غير جائز ولا مَشروع، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.

٧ ـ إقامة العلاقات الجنسيّة غير المشروعة المبنية على الهوى والنزوات عمل غير مقبول حتى من قِبل الذين لا يؤمنون بأي من الأديان الإلٰهيّة، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾(*).

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

□ «الشَّغَف أو الشَّغاف، هو غلاف القَلب المُحيط به». وجُملة «**شَغَفَهَا حُبًّا**» مَعناها أنّ حُبّ يوسف عليه‌السلام علِقَ بشَغاف قَلب زُليخا فأُولِعَت به[1].

□ تذكّروا أنّ فريقيْن من الناس وصفوا العلاقة الشديدة بيوسف بأنّها ضلال؛ الفريق الأوّل إخوته الذين قالوا عن حُبّ أبيهم وولعه بابنه يوسف: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أمّا الفريق الثاني فالنسوة في مِصر اللائي وَصفنَ علاقة (زليخا) بيوسف بقولهنّ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

□ كان الجميع يُريد يوسف لنَفسه وَحده؛ فأبوه كان يَعتبره ابنه الوحيد ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، والسيّارة التي التقطَته من البئر كانت تُريده بضاعة لها ورأسمال تَستفيد منه ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾، وعزيز مِصر كان يَرغب في تَبنّيه كولدٍ له ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وكانت (زليخا) تَعتبره مَعشوقها ومَعبودها في الحبّ ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾، واعتبره أصحابه في السّجن مُعبراً لأحلامهم ومؤوّلاً لها ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ وأمّا الله سبحانه وتعالى فقد اختاره له رَسولاً ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، والحقيقة أنّه لَم يَبقَ

(١) تفسير نمونه (التفسير الأمثل).

ليوسف عليه السلام من حطام هذه الدّنيا إلّا هذا المَقام الرّفيع وهو مَقام النبوّة والرّسالة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

التعاليم:

١ ـ عادة ما تُذاع الأخبار الخاصّة بأسر المسؤولين أسرع من غيرها؛ لذلك لا بدّ لهؤلاء من توخّي الحيطة والحَذر في تصرّفاتهم، ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ... ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾.

٢ ـ يُلاحَظ أنّ غلق الأبواب لا يحول دون الفضيحة، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ... وَقَالَ نِسۡوَةٞ... ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ﴾.

٣ ـ غالباً ما تُنسَب الأخطاء التي يرتكبها أفراد الأسرة إلى ربّ الأسرة، ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾(*).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا
وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ
وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾

إشارات:

- يُمكننا إعطاء تَفسيريْن لجملة ﴿قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾؛ التفسير الأوّل هو أنّ النسوة قطّعن أيديهنّ بدلاً من تقطيع الفاكهة المقدّمة لهنّ، أمّا التفسير الثاني فيُمكن أن يكون مَعناها أنّ النّسوة توقّفن عن تناول الفاكهة.

- و«حاشا» كلمة للاستثناء تُفيد التنزّه والابتعاد؛ وقد جَرت العادة في ذلك الزّمان إذا ما أُريدَ تنزيه شَخص ما عن العيب أن يُنزّهوا الله تعالى أوّلاً ثمّ الشخص المُراد تنزيهه[1].

- يَبدو أنّ زوجة العزيز كان لها حظ من الدهاء والسياسة، فقد استطاعت من

(١) انظر: تفسير الميزان.

خلال دَعوة بَعض النّسوة وضعهنّ أمام الأمر الواقع وأن تفاجئهنّ بِما لَم يَتوقّعنَ.

التعاليم:

١ ـ ليس بالضرورة أن يكون الهَدف من تناول موضوعات الآخرين والتحدّث في شؤونهم الخاصّة، هو التعاطف مع أصحاب تلك الموضوعات، فقد يكون الهَدف أحياناً هو الحَسد أو المؤامرة أو التّخطيط ضدّهم، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾.

٢ ـ ربّما كان الغرض من إفشاء تلك النّسوة وإذاعتهنّ خَبر عِشق (زليخا) ليوسف عليه‌السلام هو إيجاد وسيلة يتمكّنّ من خلالها من رؤية هذا الذي أشعل نار الحب في قلب زوجة العزيز، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾(*).

٣ ـ تَستوجب الظروف أحياناً الردّ على المَكر بالمَكر كذلك. (فالنّسوة في مِصر، ومن خلال إذاعتهنّ لقضيّة زوجة العزيز، كُنّ يُخطّطن لأمر ما، فأرادت امرأة العزيز دَعوتهنّ في بَيتها اعتقاداً منها بأنّ ذلك سيكون الرّد المناسب لِما يُخطّطن له)، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾.

٤ ـ وأملاً منها في السيطرة على الدعاية والشائعات التي بُثّت من قبل بعض النّسوة، عَمدت (زليخا) إلى توضيح الأمر إلى النّساء اللّاتي اعتبرتهنّ الأبواق الدعائية لتلك الشائعات. (من الواضح أنّ المَدعوّات لم يَكنّ كلّ نساء المنطقة)، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾(*).

٥ ـ يُحاول المُجرم في بعض الأحيان إعطاء الآخرين دوراً في الجريمة ليبيّن أنّ المسألة عادية وكذلك لتبرئة نفسه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾(*).

٦ ـ لا شكّ في أنّ تقديم خِدمة خاصّة ومُنفصلة لكلّ واحد من الضيوف هو أمر مَحبوب وله قيمة مَعنويّة كبيرة، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾(*).

٧ ـ لا بدّ من طاعة المَولى وصاحب الأمر إلّا إذا اقترنت هذه الطاعة بالمَعصية، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾.

٨ ـ أين السمع من النظر عياناً، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾(*).

٩ ـ يَستسلم المَرء ويتواضع لا إرادياً أمام عظمة شخصيّة الآخرين وجلالهم، ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

١٠ ـ أرادت (زليخا) من وراء كلّ ذلك إفهام النّسوة بأنّهنّ إنّما رأينَ يوسفَ لحظة واحدة فقط فلَم يُطِقْنَ الكَفّ عن تَفرّسه، فكيف بها التي تعيش معه تحت سَقف واحد وتراه ليل نهار، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾(*).

١١ ـ لا تَتعوّد النقد المتعجّل، ربّما لو كنت مكان الآخر لتصرّفت مثله، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (عندما رأت النسوة يوسف، أُصِبنَ بالذهول مثلما أُصيبت زليخا).

١٢ ـ الإنسان يتبجّح ويصوّر نفسه أكبر من حجمه الحقيقي، ولكن عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾(*).

١٣ ـ حُبّ الشيءَ يُعمِي ويُصِمّ، ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. (لا بدّ من أنّكم قرأتم في الروايات أنّ الإمام علياً عليه السلام في إحدى المرات التي كان يصلّي فيها أخرجوا من رجله سهماً ولم يشعر به! نعم، لا تتعجّبوا؛ فإذا كان الحُبّ الدّنيوي ـ وهو كما تعلمون حُبّ سَطحيّ ـ قد أفقَدَ النّسوة وعيهنّ فقطّعنَ أيديهنّ بدل الفاكهة، تُرى ما الذي يُمكن أن يَفعله الحُبّ المَعنويّ والعَميق للجَمال الحقيقيّ).

١٤ ـ لقد كان النبي يوسف عليه السلام خارق الجَمال؛ لكنّه كان أيضاً قدوة في العفّة والطهارة، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ... قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾(*).

١٥ ـ كان جَمال يوسف عليه السلام سَبباً في نزول المَصائب عليه تترى، لكنّ عِلمه وتقواه ضمِنا له النّجاة من تلك المَصائب. (نعم، فالجمال المَعنويّ أهمّ بكثير من الجَمال الظاهريّ)(*).

١٦ ـ واضح أنّ المصريّين في ذلك الوقت كانوا يُؤمنون بالله عزّ وجَلّ وبوجود الملائكة، ﴿حَٰشَ لِلَّهِ... مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ لا شكّ في أنّ الظروف الاجتماعيّة والحالات النفسيّة للأفراد تؤثّر في طبيعة ردود أفعالهم؛ فامرأة العزيز التي كانت تَخشى ذيوع خَبر العمل القبيح الذي اقترفته ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾، أصبحت جريئة الآن وهي ترى مُناصرة نساء مِصر لها على ما اقترفته من إثم، أصبحت تعلن بوقاحة: «نعم، أنا راودته»، فقد يصبح ارتكاب القبائح والآثام أمراً عاديّاً حينما لا يُبدي المجتمع أيّ اهتمام أو حسّاسية تجاهها. ولعلّ دُعاء «كُميل» الشهير يُشير إلى التصدّي لهذه الظاهرة عندما يقول: «أللّهمّ اغفِر ليَ الذّنوبَ التي تَهْتِكُ العِصَم»؛ وذلك لأنّ ارتكاب أيّ إثم أو مَعصية يكون صَعباً في البداية، ولكن ما أن يَسقط بُرقع الحياء عن مُرتكِبه حتى يُصبح عادة مُزمنة لديه.

التعاليم:

١ ـ الأيام دوائر، فلا تَلومنّ الآخرين فقد تدور الدائرة عليك وتقع في ما وقعوا فيه، ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.

٢ ـ الحُبّ الخطيئة عاقبته الفضيحة، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ﴾.

٣ ـ سَرعان ما يُفتَضَح أمر الكذّاب؛ فالشخص الذي كان يَدّعي بالأمس أنّ يوسف هو الذي كان يُريد به سوءاً ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، يَعترف اليوم ويقول: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ﴾.

٤ ـ العفّة والطهارة كفيلتان بفَضح الفاسدين، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾(*).

٥ ـ حتى الخصم قد يَعترف أحياناً بطهارة خصمه وعفّته ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾. (وهذا يَدلّ على أنّ ضمير المُجرم أيضاً قد يَصحو يوماً ما).

٦ ـ لا رَيب في أنّ العفّة والطهارة من ضروريّات النبوّة، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ... فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

٧ ـ من الطاهرين من يدفعون ثَمن أنانيّة غيرهم ويدَخلون السّجن، ﴿فَٱسْتَعْصَمَ... لَيُسْجَنَنَّ﴾.

٨ ـ العاشق الآثم لا يهمّه سوى تحقيق هدفه ولا يتورّع عن استخدام كلّ الوسائل للوصول إلى ذلك الهَدف، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾(*).

٩ ـ إذا لم تَكُن السلطة مقترنة بالإيمان والتّقوى فقد تُستَخدَم لتحقيق الأهواء النّفسيّة، ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾(*).

١٠ ـ كما ذَكرنا سابقاً كان لزليخا نفوذاً ومنزلة في حكومة مِصر آنذاك، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾(*).

١١ ـ استغلال السلطة والنّفوذ هو الحَربة التي يَستخدمها الطغاة، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾.

١٢ ـ التّهديد والوعيد بالسّجن والإذلال هي الوسيلة التي دأب الطغاة على استخدامها دائماً، ﴿لَيُسْجَنَنَّ... ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

١٣ ـ لاحِظ سلطة هوى النّفس بحيث إنّ زليخا تستمرّ في غيّها حتى بَعد افتضاح أمرها، ﴿رَٰوَدتُّهُۥ... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ...﴾(*).

١٤ ـ يتحوّل العاشق الفاشل إلى ألدّ الخِصام، ﴿قَالَتْ... لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ... لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

١٥ ـ لاحِظ أنّ العَيش داخل القصور يقتل النخوة والغيرة؛ (فعلى الرّغم من أنّ العزيز اكتشف خيانة زوجته وطلب منها أن تتوب عن عَملها، فإنَّ ذلك لَم يَمنع زليخا من مُعاودة فِعلها السابق).

١٦ ـ يعتبر أصحاب الهوى والنزوات والطّغاة أنّ تقوى النّفس وصدّها عن الهوى أسلوب مهين ومذلّ، ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(*).

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾

إشارات:

□ لقد كان يوسف عليه السلام رَجلاً بكلّ ما للكَلمة من مَعنى؛ فقد كان ذات مرة ضحيّة حَسد إخوته له؛ لكنّه مع ذلك لَم يُبدِ أيّ كراهية أو عداوة ضدّهم. ثمّ في المرّة الثانية هَدفاً لعِشق (زُليخا) لكنّه لَم يَسمح لنَفسه بارتكاب المَعصية. وفي الثالثة لمّا وصل إلى ما وَصل إليه من الجاه والنّفوذ لَم يُفكّر أبداً في الانتقام من إخوته مُقابل ما جَنوه بحقّه. وفي المرّة الرابعة ما أن رأى خطر المجاعة والقحط يتهدّد مصر آثر البقاء على العودة إلى وطنه وعرض المساعدة لتدبير شؤون البلد وتخليصه من محنته.

□ لكلّ فَرد مَحبوب ومَعشوق؛ ومَحبوب يوسف عليه السلام هو السّجن حيث فَضّله على ما يُدعى إليه من الإثم والمَعصية. ومن الناس مَن يُفضّل الدنيا ولَهوها ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا...﴾[1]؛ لكنّ المؤمن ليس لديه ما هو أحبّ إليه من الله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ من آداب الدّعاء التوجّه إلى ربوبيّة الله سبحانه، ﴿رَبِّ﴾.

٢ ـ يُفضّل أولياء الله شظف العَيش الشريف على رفاهية الحياة في ظِلّ المَعصية، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾.

٣ ـ ليس كلّ حُرّ شريفاً ولا كلّ سَجين فاسداً، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ﴾.

٤ ـ إذا استمدّ الشّخص العَون من الله سبحانه، فسيكون قادراً على تجنّب المَعصية مهما كانت الظروف، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ﴾. (المُهمّ هو الابتعاد عن مناخ الإثم والمَعصية).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣. (٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

٥ ـ لا يُمكن للمُعاناة والشّقاء أن يكونا مُبرّرين لارتكاب المَعصية، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ...﴾.

٦ ـ لا شكّ في أنّ الدّعاء والابتهال واستمداد العَون من الله سبحانه هي من الأساليب التي تصون الفَرد من المَعاصي والانحرافات الجنسيّة، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ...﴾.

٧ ـ تَرتبط شَخصيّة الإنسان إلى حَدّ كبير بروحه ونفسيّته وليس جِسمه أو صورته. فإذا كانت روحه حُرّة عفيفة، فإنّها تُحيل سِجنه إلى جَنّة خضراء نَضرة، أمّا إذا كانت روحه تُعاني ضغوطاً مُختلفة فإنّ القَصر بالنسبة إليه سِجن كبير، ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ﴾.

٨ ـ ما أروع أن يَبتعد الإنسان عن الأوساط الموبوءة من أجل أن يَبقى بَعيداً عن المَعصية. (كان يوسف عليه السلام يُطالب بالانفصال عن بيئته حتى وإن كلّفه ذلك السّجن) (*).

٩ ـ لا بدّ من تَقديم رِضا الله على رِضا مَن سواه، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (*).

١٠ ـ لا سلامة مع غياب لُطف الله سبحانه ورَحمته، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى...﴾. لا شكّ في أنّ السّبيل الوحيد للخلاص في الظروف الحَرجة هو الاتّكال على الله تعالى.

١١ ـ تَشتدّ البلايا الإلٰهيّة أحياناً لحظة بَعد أخرى. (فيوسف عليه السلام كان قبل هذا تَحت وطأة امرأة واحدة، أمّا الآن فهو مُحاط بالعَديد من أشباه تلك المرأة)، ﴿كَيْدَهُنَّ... إِلَيْهِنَّ﴾.

١٢ ـ لاحِظ أنّ يوسف عليه السلام وَصفَ المَعصية بكلمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ لكنّه وَصفَ السّجنَ قائلاً «أَحَبُّ إِلَيَّ»، وهو ما يدلّ على أنّ الطهارة والعِصمة متأصّلتان في أعماقه، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ... أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ (*).

١٣ ـ لا شكّ في أنّ المَيل نَحو المَعصية والجَري وراء الغرائز الفاسدة هو نوع من الجَهل، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

١٤ ـ يَتسبّب ارتكاب الإثم والمَعصية في سَلب العلوم والمواهب التي مَنحها الله سبحانه. (تذكّر أنّه ورد في الآيات السابقة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهنا يقول يوسف عليه السلام: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

١٥ ـ لا يَقتصر الجَهل على الأميّة فحَسب، بل يَشمل كذلك تقديم الملّذات الموقّتة وتأخير رِضا الله سبحانه، وهذا هو عين الجَهل، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

١٦ ـ عدم عمل الإنسان بِما يَعلم هو جهل، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(*).

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ دُعاء أولياء الله مستجاب، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ﴾.

٢ ـ أحياناً تكون الشّدائد والمَصاعب سَبباً لنزول رَحمة الله والنّجاة، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ... فَٱسْتَجَابَ﴾(*).

٣ ـ الطهارة والعَفاف من أهمّ العوامل المؤثرة في استجابة الدّعاء، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ... فَٱسْتَجَابَ﴾(*).

٤ ـ خلوص الدّعاء لله، أحد العوامل التي تُعجّل في استجابته ونزول رَحمة الله، ﴿رَبِّ... فَٱسْتَجَابَ﴾(*).

٥ ـ لقد استجاب الله بسرعة لدُعاء يوسف عليه السلام عندما سأله أن يَصرِف عنه كَيد نساء مِصر، (يُشير حرف الفاء في كلمة «فاستجابَ» إلى سرعة الاستجابة)(*).

٦ ـ يَتصرّف العدوّ أحياناً بشكل يكون في صالح المؤمن. (على الرّغم من وصول عدوّ يوسف عليه السلام إلى هَدفه في إلقائه في السجن فإنّ ذلك كان موجباً لخلاص يوسف من زليخا وصويحباتها)، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾(*).

٧ ـ ليس بالضرورة أن يكون الشخص نبيّاً ليُصبح مَعصوماً. (فيوسف عليه السلام كان مَعصوماً من المَعاصي قبل أن يُصبح نبيّاً)، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾(*).

٨ ـ لا رَيب في أنّ استجابة الدّعاء دَليل على أنّ الله سبحانه سميعٌ بَصيرٌ وعليم، ﴿فَٱسۡتَجَابَ... هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

٩ ـ الشخص الذي يَعود إليه الآخرون في مسائلهم، لا بدّ من أن يكون سَمعه جيّداً لكي يستطيع حَلّ مشاكل الناس والفَصل في أمورهم بعِلمه، وهكذا هو الله سبحانه عندما يَستجيب للدّعاء، ﴿فَٱسۡتَجَابَ... هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(*).

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

التعاليم:

١ ـ قيلَ في الأمثال: ألقى مجنون حَجراً في البئر فتعذّر على مئة رَجل إخراجه. ووَقعت امرأة في حُبّ رَجل فلم يتمكّن رجال الدولة برّمتهم من درء الفضيحة، ﴿بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ﴾.

٢ ـ غالباً ما يتميّز فضاء القصور بالجرأة والوقاحة، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾، فعلى الرّغم من الأدلّة الدامغة على عِفّة يوسف عليه السلام وطهارته، فإنّهم لَم يَروا بُدّاً من سَجنه.

٣ ـ «ومنَ الحُسن ما قَتل». لا يكون الجمال سَبباً للسعادة دائماً فكثيراً ما يَجلب المَصائب والمشاكل لصاحبه، ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم... لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾.

٤ ـ غالباً ما تكون المُحاكمات في قصور الطّغاة غيابيّة وصوريّة، والهدف منها إدانة الأبرياء، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾.

٥ ـ في المُجتمعات الفاسدة، نرى الفاسدين أحراراً بينما يقبع المتّقون في غياهب السّجون، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾(*).

٦ ـ عادة ما لا يتقبّل الخاطؤون ـ ولا سيّما أصحاب النفوذ والسّلطان ـ تحمّل مسؤولية أخطائهم بل يَسعون إلى تَقديم الآخرين كقرابين عمّا اقترفوه، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾(*).

٧ ـ في الأنظمة الديكتاتورية الأبرياء مظلومون أكثر من غيرهم، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾(*).

٨ ـ ضريبة العفّة والطهارة باهظة جداً، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾(*).

٩ ـ كان هَدف أصحاب النّفوذ والسلطة في مِصر من سَجن يوسف عليه السلام إبعاد الفضيحة عن بَيت العَزيز والحدّ من الشائعات، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾(*).

١٠ ـ إذا كانت قرارات الهيئة القضائية تَنسجم مع أهواء السياسيّين وأصحاب النّفوذ، فلا نسأل عن مُدّة السجن، ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾(*).

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

إشارات:

□ ورد في الأحاديث: أنّ السّبب في وَصف المسجونين يوسفَ عليه السلام بالمُحسن يَعود إلى أنّه عليه السلام كان يَهتمّ بالمَرضى هناك ويُساعد المُحتاجين ويَفسح المكان للآخرين[١].

التعاليم:

١ ـ واضح أنّ السّجن الذي كان فيه يوسف عليه السلام هو سِجن عامّ، ﴿مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ﴾.

٢ ـ ينبغي عدم الاستهانة بالأحلام؛ فقد يشتمل الكثير منها على بعض الأسرار، ﴿أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾. (حتى الأفراد العاديّون قد يَرونَ أحلاماً مُهمّة).

٣ ـ لا شكّ في أنّ الشخص الجَدير والمؤهّل يُمكنه أن يكون مُفيداً أينما كان، حتى في داخل السّجن. فقد كانت ليوسف عليه السلام خدمات جليلة حتى في السّجن، ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾(*).

٤ ـ بإمكان المُحسنين معرفة أمور لا يُدركها الآخرون لصفاء قلوبهم وطهارة أفئدتهم، ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(*).

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ ميزان الحكمة، باب (سَجن).

٥ ـ إذا وثق المرء بأحد أطلعه على أسراره، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٦ ـ الأفراد المُتميّزين يُمكنهم التأثير على الآخرين حتى وهم مُحاطون بجُدران السّجن، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ ـ حتى المُجرمين والمُذنبين يَعترفون بمكانة المُحسنين الراقية، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٨ ـ لقد كان إحسان يوسف عليه السلام إلى مَن حوله الخطوة الأولى لجذبهم نَحوه والتبليغ عن دينه. (فقد استطاع يوسف عليه السلام وبسبب إحسانه مع السّجناء وخدمته لهم، كَسب ودّهم ومحبّتهم فاستحقّ بذلك لَقب المُحسن عن جدارة)(*).

٩ ـ يُمكن للفَرد أن يكون مُحسناً حتى وإن لم يملك المالَ أو الحريّة. (فلم يَكن يوسف عليه السلام يَملك مالاً أو ثروة أو حُريّة وهو في السّجن)، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(*).

١٠ ـ لا بدّ لنا أوّلاً من إثبات إحساننا، ليتسنّى لنا بعد ذلك التبليغ عن ديننا. (فيوسف الذي عُرِف بين الناس بالمُحسن قامَ بالتبليغ وبإرشاد أصحابه السجناء ودَعوتهم إلى التوحيد قبل أن يقوم بتأويل أحلامهم)(*).

١١ ـ تقديم المعرفة الصحيحة هي من أمثلة الإحسان. (قال السّجناء: نَبّئنا بتأويل أحلامنا وما تشتمل عليه من أسرار ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾)(*).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ في ما يَخصّ تفسير الجزء الأوّل من الآية الشريفة، يُحتَمل أن يكون المعنى كالآتي: إنّي أعلم، بقُدرة الله سبحانه، ما سيأتيكم من طَعام؛ إذاً فأنا قادر بإذنه كذلك على أن أفسّر أحلامكم. وهذا يَعني أنّ يوسف عليه السلام كان يُخبِر عن أشياء أخرى إضافة إلى مَقدرته في تفسير الأحلام، مثل النبي عيسى عليه السلام عندما

كان يُخبر الناس عمّا يَدّخرونه من طعام وشراب في منازلهم أو ما يأكلونه أيضاً.

□ **سؤال:** لماذا لَم يَقُم يوسف عليه السلام بتَفسير أحلام مَن سألوه على الفَور، وأجّلَ ذلك إلى وقت آخر؟

الجواب: ذكر الفَخر الرازي أسباباً عدّة لذلك في تفسيره الكبير، منها:

١ ـ أراد يوسف عليه السلام بذلك جَعلهم ينتظرون لكي يتمكّن من التبليغ والإرشاد، فلعلّ الشخص المحكوم بالإعدام يُؤمن قبل إعدامه.

٢ ـ أراد أن تزداد ثقتهم فيه في ما يتعلّق بذِكر الطعام الذي سيأتيهما.

٣ ـ أراد بذلك ترغيبهم أكثر لكي يُنصتوا إلى حديثه ويستمعوا إليه بجدّ.

٤ ـ بما أنّ «الإعدام» كان تأويل حُلم أحد المسجونيْن فإنّه عليه السلام أراد أن يَهبه بعض الوقت لكي لا يُفاجأ بالخَبر المشؤوم.

التعاليم:

١ ـ يتطلّب التأثير بشكل أكبر على الآخرين بيان الشخص بعض قُدراته العلمية وكمالاته لهم، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

٢ ـ يَجب علينا مُساعدة الآخرين بالاعتماد على ما نَعلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾(*).

٣ ـ كل ما نعلم هو من الله سبحانه وفَضله، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ أحد أهداف التعليم هو التربية كذلك، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

٥ ـ إنّ الله سبحانه عليم حَكيم فهو لا يَفتح أيّ باب أمام الإنسان من دون غَرض أو سَبب مُعيّن. نعم، إنّ مَن يَهرب من ظُلُمات الكُفر لا بدّ من أن يَصل إلى نور العِلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ﴾. (السّبب في اكتسابي هذا العِلم هو تَركي الكُفر).

٦ ـ علينا الاستفادة من الفُرَص بأفضل السُّبُل، ﴿نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾. (لقد بدأ يوسف بالاشتغال في الثقافة والعقيدة قبل تأويله الأحلام).

٧ ـ إنّ أساس الإيمان هو البراءة والتولّي. لاحِظ أنّ هذه الآية تُشير إلى البراءة من الكُفّار ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾، بينما أشارت الآية التالية إلى الولاية الإلٰهيّة ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾.

٨ ـ يَجب أن لا ننسب الأفراد إلى الانحراف بشكل مُباشر بل أن نتّبع أسلوباً غير مُباشر في التبليغ. (فيوسف لم يَقُل: اتركوا الكُفرَ؛ بل قال: أنا تركتُ سبيل الكُفر)، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾(*).

٩ ـ في الأديان جميعاً كانت العقيدة بالتوحيد موجودة إلى جانب الإيمان بالمَعاد، ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ لا شكّ في أنّ أصالة الأسرة تُؤثّر في بناء شخصيّة الأفراد، وفي تقبّل الناس أيضاً. ولهذا، ولتعريف نَفسه، أشار يوسف إلى آبائه باعتبارهم أنبياء الله سبحانه، قاصداً بذلك بيان أصالة أسرته وطهارة مولده من جهة، وقداسة دعوته من جهة أخرى، وهو الأسلوب نفسه الذي اتّبعه الرسول الأعظم ﷺ؛ إذ كان يقول: أنا ذلك النبيّ الأمّي المذكور اسمه في التوراة والإنجيل. وهكذا عرّف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء أيضاً، والإمام السّجاد عليه السلام أمام أهل الشام عندما قال: «أَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام»(١).

□ وردت كلمة «مِلّة» في القرآن الكريم وهي الدين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، وقد وُصِفَ دين إبراهيم عليه السلام ـ مِلّة إبراهيم ـ على النّحو التالي:

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٩.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[١].

التعاليم:

١ ـ الوصول إلى الحقّ مَرهونٌ بمعرفة الباطل وتَركه، ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.

٢ ـ يُعتبر (جَدّ) الشخص أحد آبائه، وتُطلَق عليه كلمة «أب» أيضاً، ﴿مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٣ ـ لا بدّ من أن يكون الأنبياء من أُسَر كريمة طاهرة، ﴿آبَائِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ هَدف الأنبياء جميعاً واحد، ﴿مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٥ ـ يَبدو أنّ يوسف قام بتعريف نَسبه لأوّل مرّة في السّجن، ﴿آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[*].

٦ ـ يَجب علينا بيان الطرق الإيجابيّة إلى جانب إشارتنا إلى الطرق السلبيّة، ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.

٧ ـ عندما يكون الآباء ممّن ساروا على نَهج التوحيد والحقّ فلا أفضل من الافتخار بهم واتّباعهم، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾[*].

٨ ـ لَم يَكن آباء أو أجداد الأنبياء مُشركين، ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ﴾[*].

٩ ـ الابتعاد عن الشّرك ومحاربته هو الأساس الذي ترتكز عليه الأديان الإلٰهيّة، ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ﴾[*]

١٠ ـ لا رَيب في أنّ الشرك مرفوض بكلّ أشكاله؛ إذ لا بدّ من الإيمان بوحدة الذات الإلٰهيّة المقدّسة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وتوجيه العبادة إليه وَحده ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢]، إضافة إلى عدم الاعتقاد بمُشاركة أحد له سبحانه

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٧٨.
(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

في الصّفات أو الكمالات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١]، والخلاصة، أن يكون التوحيد في الذات والصفات والعبادة معاً، ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

١١ ـ الابتعاد عن الشّرك والتمسّك بالتوحيد وتعاليم الأنبياء واتّباع أوامرهم، إنّما هو توفيق إلهيّ، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ لا تُمثّل الأكثرية مِعياراً للحق، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٣ ـ مَن يُولِّ دُبره لسبيل الأنبياء يكفر بنعمة الله سبحانه، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- البشر ثلاث فئات: فئة تتقبّل التشكّل والصياغة كالماء والهواء اللذين ليس لهما شكل محدد؛ بل يأخذان شَكل الإناء أو الحيّز الذي يشغلانه. وفئة تكون صلبة ومُقاومة مَثلها مَثل الحديد والفولاذ اللذيْن يَصمدان أمام أيّ ضغط خارجيّ. أمّا الفئة الثالثة فهي الأئمة والقادة الذين ليس فقط لا يتغيّرون بل يقومون بتغيير الآخرين ومَنحهم لوناً خاصّاً هو لون الحقّ. ويُعتبر يوسف من الفئة الثالثة حيث استطاعَ تحويل شرك السّجن إلى توحيد.

- دأب القرآن الكريم وعبر آيات كثيرة على استخدام أسلوب المُقارنة والسؤال، وفي ما يَلي نُشير إلى بعض تلك النماذج المُتعلّقة بالله سبحانه:

١ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٢].

٢ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[٣].

٣ ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٤].

٤ ـ ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٤.

(٣) السورة نفسها: الآية ٣٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٥) سورة النّمل: الآية ٥٩.

التعاليم:

١ ـ يَجب مُناداة الأشخاص بأسلوب مفعم بالحب والعاطفة، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾.

٢ ـ لكي نتمكّن من استنهاض الفطرة وإيقاظها لا بدّ لنا من المحاولة بمحبة وإحسان، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ...﴾(*).

٣ ـ الإنسان مسؤول عن أصحابه ورفاقه، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾(*).

٤ ـ علينا استغلال الأماكن والأوقات الحسّاسة للتبليغ، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ...﴾. (لمّا أحسّ يوسف بحاجة المسجونين إلى تأويله أحلامهم، استغلّ الفرصة وبدأ بالتبليغ والدعوة).

٥ ـ يُعتبر أسلوب السؤال والمقارنة واحداً من أساليب الإرشاد والهداية، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ...﴾.

٦ ـ عقيدة التوحيد هي أساس الإيمان. (ابتدأ يوسف دَعوته بالتوحيد أوّلاً)، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ...﴾(*).

٧ ـ لا رَيب في أنّ تَعدّد الآلهة هو عامل من عوامل الفُرقة والتشتّت، أمّا الإله الواحد فهو سَبب الوحدة، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ...﴾(*).

٨ ـ الإنسان بفطرته ينفر من الفُرقة والتشتّت، وقد استغلّ يوسف الفطرة الإنسانيّة لإثبات التوحيد، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾.

٩ ـ الوحدة والتوحيد هما أساس القُدرة والغلبة، ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾(*).

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾

التعاليم:

١ ـ كلّ إله غير الله سبحانه إنّما هو زيف وباطل بل هو من نسج خيال المُشركين

وآبائهم، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

٢ ـ إنَّ كثيراً من السّلطات والمؤسّسات والدوائر والمؤتمرات والمُعاهدات واللّقاءات وأشكال الحماية والإدانة، وكثيراً من العناوين والألقاب ما هي إلّا أسماء من دون مُسمّيات، وما هي إلّا أوثان وأصنام عصريّة نراها في الوقت الحاضر، وقد اتّبعها الناس من دون الله سبحانه، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

٣ ـ ليست الأسبقيّة ولا الأقدميّة دليلاً على الحقية، فالشّرك قديم إلّا أنّ ذلك ليس دليلاً على حقيته، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾(*).

٤ ـ لا بدّ من استناد العقائد إلى الدّليل والبرهان العقليّ أو النَّقلي، ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

٥ ـ يَجب ألا نطأطئ رؤوسنا إلّا لأوامر الله، فهو وحده له حَقّ إصدار الأوامر، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

٦ ـ العبادة الخالصة (التوحيديّة) هي الصراط المستقيم والثابت، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(*).

٧ ـ أيّ قانون أو شريعة غير شريعة الله هي واهية، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨ ـ لا ينبغي الركون إلّا إلى العقيدة الحقّة والثابتة؛ لأنّ الاستناد إلى أيّ عقيدة تفتقد البرهان رهان خاسر، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(*).

٩ ـ يَجهل مُعظم الناس ثبات دين الله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (إمّا أن يكونوا جُهلاء من النوع البسيط الذي يَعلم بجهالته أو أن يكون جهلهم مُركّباً إذ ظنّوا أنّهم يَعلمون مع أنّهم في الحقيقة لا يَعلمون شيئاً).

١٠ ـ الجَهل أرض خصبة لنمو الشّرك، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

□ تُطلَق كلمة «رَبّ» على الحاكِم والمالِك والسيّد وصاحب الأمر، كقولك «رَبّ الدّار»، فجملة ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ مَعناها أنّه سيَسقي سيّده خمراً.

التعاليم:

١ ـ علينا مُراعاة كرامة الآخرين ومُناداتهم بأدب وإن لم يكونوا يُؤمنون بما نُؤمن، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾.

٢ ـ لا بدّ من مُراعاة الترتيب عند تلبية حاجات المُراجعين، ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾. (فالتأويل الأوّل يتعلّق بالشخص الذي ذكر حُلمه أوّلاً).

٣ ـ لبعض الأحلام تأويلات مهمة وإن جاءت في منام شخص مشرك، ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾.

٤ ـ حاولوا ذِكر الأخبار السارّة أوّلاً، ﴿أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي... وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾(*).

٥ ـ بإمكان مُفسّر الأحلام تأويل الرؤيا وإن كانت رؤيا شؤم، (﴿فَيُصۡلَبُ﴾ مَعناها يُقتل صلباً).

٦ ـ التأويل الذي ذَكره يوسف لم يَكن نبوءة أو حَدساً بل هو خَبر حتميّ، ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ «الظنّ» اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ففي الآية

الشريفة السابقة يُخبر يوسف بصراحة ويقين عن تحرير أحد السّجينيْن وإعدام الآخر، فالظنّ هنا لا يفيد الاعتقاد بالحريّة المقترن بالشكّ أو التردّد.

❑ «البِضع» ما بين الثلاث إلى التّسع، وأشارَ أغلب المُفسّرين إلى بقاء يوسف في السّجن مدّة سبع سنوات، (والله أعلم).

❑ ورد في بعض التفاسير مَعنى ﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾ أنّ الشيطان أنسى يوسف ذِكر ربّه طالباً العون من ساقي الملك بدلاً من الله، وما ذلك بالنسبة إلى يوسف إلّا بمَعنى ترك الأولى لذلك مكث في السجن كلّ تلك السنوات. وأمّا صاحب الميزان فقال: لا شكّ في أنّ مثل تلك الروايات تُخالف القرآن الكريم؛ لأنّ القرآن نَفسه ذكر في الآية الشريفة (٢٤) من هذه السورة أنّ يوسف هو أحد المُخلَصين ونحن نعلم أنّ الشيطان لا سلطان له على المُخلَصين وفقاً لآيات أخرى في القرآن.

إضافة إلى ذلك فقد ورد في الآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾، ما يدلّ على أنّ بقاء يوسف في السجن كان بسبب نسيان الساقي وليس يوسف.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء أيضاً يحلّون مشاكلهم بالطرق المُعتادة، وذلك لا يتنافى مع التوحيد والتوكّل على الله سبحانه، ﴿ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، (يذكّر يوسف عزيز مصر بالظلم والحَيف اللذيْن لحقا به).

٢ ـ ليس كلّ طَلب يَعني الرّشوة، ﴿ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، فلم يطلب يوسف أجراً أو رشوة على تأويله للحُلم، بل قال: أرجو أن توصِل شكايتي إلى المَلك.

٣ ـ لإثبات البراءة والنّزاهة، يُمكن الاستعانة بأيّ وسيلة مشروعة لإيصال الشكوى إلى أسماع المسؤولين، ﴿ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ﴾(*).

٤ ـ لا شكّ في أنّ عيشة القصور والرّفاهية تُنسي كلّ شيء، بما في ذلك الألم والمُعاناة التي يعيشها البؤساء والمظلومون، ﴿نَاجٍ... فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ

رَبِّهِۦ﴾، فعادة ما يَنسى بعض الأشخاص أصدقاءهم وأصحابهم القُدامى بل والكثير من تفاصيل الماضي بمُجرّد خلاصهم من المشاكل والصعوبات ووصولهم إلى شاطئ الرّاحة والأمان والمناصب العالية والرّفاهية التي كانوا يحلمون بها.

٥ ـ لقد كان خروج يوسف من السّجن وإزالة التُّهم عنه يتعارض مع أهداف الشيطان، لذلك قام اللعين بجَعل الساقي يَنسى ما أُوصيَ به، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ لقد ذُكرت في هذه السورة المباركة حتى الآن بعض الأحلام، منها حُلم يوسف نَفسه ثم حُلم صاحبيْه في السّجن، وأخيراً حلم الملك. لقد تسبّب الحُلم الأوّل (الذي رآه يوسف) بمتاعب له كما رأينا، أمّا أحلام الآخرين فكانت سبباً لعزّته.

وورد في التوراة ما يَلي: **«وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَتَيْنِ رَأَى فِرْعَوْنُ حُلْماً، وإِذَا بِهِ وَاقِفٌ بِجُوَارِ نَهْرِ النِّيلِ، وإِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ حِسَانِ الْمَنْظَرِ وسَمِينَاتِ الأَبْدَانِ، صَاعِدَاتٍ مِنَ النَّهْرِ أَخَذَتْ تَرْعَى فِي الْمَرْجِ. ثُمَّ إِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى قَبِيحَاتِ الْمَنْظَرِ وهَزِيلَاتٍ تَصْعَدُ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ وتَقِفُ إِلَى جُوَارِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ. والْتَهَمَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَاتِ الْمَنْظَرِ والسَّمِينَاتِ. وأَفَاقَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ، فَحَلُمَ ثَانِيَةً، وإِذَا بِسَبْعِ سَنَابِلَ نَابِتَةٍ مِنْ سَاقٍ واحِدَةٍ زَاهِيَةٍ ومُمْتَلِئَةٍ. ثُمَّ رَأَى سَبْعَ سَنَابِلَ عَجْفَاءَ قَدْ لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ نَابِتَةً وراءَهَا. فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الْعَجْفَاءُ السَّبْعَ السَّنَابِلَ الزَّاهِيَةَ الْمُمْتَلِئَةَ»**[1].

(١) تفسير الميزان.

□ وجاء في الرّوايات أنّ الأحلام ثلاثة أنواع: النوع الأوّل قد يكون بشارة إلهيّة، والنوع الثاني سَببه الشيطان والهَدف منه إلقاء الرّعب والخَوف، أمّا النوع الثالث فقد تكون أضغاث أحلام كما يقولون[1].

التعاليم:

١ ـ لقد خلّص الله سبحانه شعباً بأكمله من الجوع والقحط عن طريق الحُلم الذي رآه الملك الظالم (لكن شرط أن يكون المؤوّل لذلك الحُلم هو يوسف لا غيره)، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾.

٢ ـ كان مَلك مِصر قد رأى الحُلم المُخيف المذكور مرّات عدّة، ﴿أَرَىٰ﴾؛ (الفعل المضارع يُفيد التكرار).

٣ ـ يَبدو أنّ رؤية الحيوانات والأشياء في الأحلام ترمز إلى أحداث شخصيّة، (كأن تدلّ رؤية بقرة هزيلة مثلاً على القحط والجفاف بينما تدلّ البقرة السمينة على الوفرة والخير)، ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[*].

٤ ـ لاحِظ أنّ المسؤولين وأصحاب النفوذ يَشعرون بالخوف والخطر عند رؤية شيء غير اعتياديّ، ويرجع خوفهم إلى خشيتهم احتمالَ سَلب الجاه والسلطة منهم. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ... أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّ الحكّام أيضاً بحاجة إلى مشورة الخُبراء في مُختلف أمور البلاد وشؤونها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾[*].

٦ ـ لا بدّ من الرّجوع إلى أهل الخبرة لتأويل الحُلم وليس أيّاً كان ﴿أَفْتُونِى...﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ «أضغاث» جَمع «ضِغث» بمَعنى المُختَلَط وقبضة حَشيش يَختلط فيها الرّطب باليابس.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

و«الأحلام» جَمع «حُلُم» ما يَراه النائم في مَنامه من رُؤيا مُشتّتة. و«أضغاث أحلام» هي الأحلام المُختلطة المُلتبسة لا يُمكن للمُعبِّر أن يؤوّلها لاختلاطها.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي خلق الأعذار لتَبرير جَهلنا وعدم مَعرفتنا. (بما أنّ الملأ من حول الملك كانوا عاجزين عن تَعبير رؤيا الملك، فإنّهم قالوا مُبرّرين جَهلهم بذلك: إنّما هي أضغاث أحلام؛ بدلاً من أن يَعترفوا بجَهلهم عن التعبير)، ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ﴾.

٢ ـ ما أكثر الأحلام التي تَبدو أضغاثاً لكن يُمكن تَفسيرها، ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ...﴾[*].

٣ ـ يا باري القوس برياً ليس يصلحه، لا تظلم القوس أعط القوس باريها. (فالخبير بالأحلام يُمكنه تعبيرها لكنّ الجاهل يتعلّل بقوله أضغاث أحلام لا يُمكن تَفسيرها)، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

□ «الأُمّة» كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ لكنّها هنا تُشير إلى اجتماع الأيام والسنين[١].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ تأثير الإحسان وعَمل الخير سيظهر حتماً ولو بَعد حين. تذكّر ساقي البلاط الذي كان مسجوناً مع يوسف، أنّ الأخير يَستطيع تعبير الأحلام، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾.

(١) التفسير الكبير والميزان.

٢ ـ قبيح أن نتذكر الأصدقاء عند الحاجة فقط. (فلم يتذكّر الملأ يوسف إلّا بعد أن احتاجوا إلى مَن يُفسّر لهم الحُلم)، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(*).

٣ ـ يَنسى الإنسان عادة ماضيه بعد تبوئه منصباً رفيعاً أو منزلة مرموقة، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(*).

٤ ـ مَن يَهدي الآخرين إلى فِعل ما، كان شريكاً في ذلك الفعل، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

٥ ـ لقد كان صاحب يوسف عليه السلام في السّجن واثقاً من خبرة يوسف ومَقدرته بحيث قطع للملك وعداً بتأويل حُلمه حتماً، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾(*).

٦ ـ لا بدّ لنا من تَعريف الناس بالعُلماء والخُبراء لكي يَستفيدوا من خبرتهم، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾.

٧ ـ ثمة الكثير من العُلماء والخُبراء المرموقين، فلا يَحقّ أن نَتجاهلهم، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾.

٨ ـ يَجب علينا الاهتمام بالأساتذة وأن نذهب إليهم لا أن يأتونا، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾(*).

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ
لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ «الصّديق» من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لاعتياده الصدق، فصاحب يوسف الذي عرف وخَبَر سلوك يوسف وقوله طيلة حَبسه، لا سيّما بعد أن رأى بعَينه صِدق تعبيره لحُلمه وحُلم زميله الآخر، كلّ ذلك دَعاه إلى مُناداة يوسف بالصِّديق.

□ لقد دَعا الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بالصّديق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾[(١)]، وسمّاه بالخليل أيضاً ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[(٢)]، ودَعا مريم كذلك بالصّديقة ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[(٣)] والصفيّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾[(٤)]، وسمّي يوسف كذلك بالصّديق ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾[(٥)] ومَنحه المكنة والقدرة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[(٦)]، ودَعا إدريس صدّيقاً أيضاً ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾[(٧)] ووهبه مقاماً عالياً ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[(٨)] وكذلك الذين ليسوا في تلك المنزلة لكنّهم مع الصديقين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾[(٩)].

□ و«الصّديق» لَقبٌ أطلقه الرّسول صلى الله عليه وآله على الإمام عليّ عليه السلام[(١٠)].

□ يُحتَمل أن يكون مَعنى الآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هو أن يُدرك الناس قَدر يوسف وقيمة وجوده بينهم؛ أي، لعلّي أرجع إلى الناس فيعلموا أيّ جوهرة ثمينة أنت.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من التذكير بمحامد خصال الشخص قبل تقديم الطلب، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

٢ ـ يَجب طَرح أسئلتنا ومشاكلنا على ذوي الخبرة والصدّيقين والأبرار، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الدّول والحكومات بحاجة إلى آراء العُلماء والنّخبة، ﴿أَفْتِنَا﴾[(*)].

---

(١) سورة مريم: الآية ٤١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤٦.

(٦) السورة نفسها: الآية ٥٦.

(٧) سورة مريم: الآية ٥٦.

(٨) السورة نفسها: الآية ٥٧.

(٩) سورة النساء: الآية ٦٩.

(١٠) تفسير أطيب البيان، والتفسير الكبير، ذَيل الآية: ٢٨ من سورة غافر.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ
فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

- دون أن يعتب يوسف عليه السلام على صاحبه بسبب نسيانه كلّ تلك الفترة، قام بتأويل حلم الملك من دون قَيد أو شَرط، أجابَ يوسف وأخبر بتأويل الحُلم لأنّ كتمان العِلم والبُخل به لا سيّما عندما يكون المُجتمع بأكمله بحاجة إليه لا يتّفق ومنزلة الإنسان الطاهر والمُحسِن.
- وبدلاً من أن يقوم بتأويل الحُلم، عرض يوسف سبيل مواجهة القحط والجفاف من خلال برنامج واضح ليُبيّن للملأ أنّه بالإضافة إلى قُدرته على تأويل الأحلام، فإنّه بإمكانه تقديم البرامج والخطط المتكاملة.

التعاليم:

١ ـ يَجب علينا عَرض برامجنا البنّاءة دون منّة أو مُقابل، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٢ ـ لا بدّ من التغاضي عن المشاكل الشخصيّة عندما يتعلّق الأمر بنجاة مُجتَمع كامل. (فيوسف لم يَتحدّث عن موضوع سَجنه باعتبارها مُشكلة شخصيّة، وفضّلَ أن يُفكّر لإيجاد حل لمُشكلة الناس جميعاً)، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٣ ـ تُعتبر إدارة الأزمات والمُجتَمع في الظروف العصيبة والصعبة من أهمّ واجبات الحكومة، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٤ ـ لا بدّ للحكومات من التنبّؤ بحالات القحط وظروف الجفاف، وتقليص ضغوط المشكلات باستغلال أيّام الرّخاء، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٥ ـ لا بدّ من الاستفادة القصوى من الطاقات كلّها في الظروف الملائمة، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٦ ـ لا بدّ من زيادة الطاقة الإنتاجية والعَمل في أوقات الأزمات، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾(*).

٧ ـ يَجب على أولياء الله تركيز اهتمامهم على رفاهية الناس وسعادتهم، ووضع برامج طويلة وقصيرة الأمد، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾.

٨ ـ لا شكّ في أنّ الوقت يُمثّل عاملاً مُهمّاً للغاية في البرمجة والإدارة، ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.

٩ ـ لا يَكفي وصف الوضع القائم، بل لا بدّ من تقديم برامج مؤثّرة، ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...﴾(*).

١٠ ـ تُعتبر عمليّة البرمجة ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ والاقتصاد والتخزين ﴿فَذَرُوهُ... إِلَّا قَلِيلًا﴾ ضرورة مُهمّة، (هذا في حين أنّ معظم المجتمعات لا يهمّها إلّا الاستهلاك)(*).

١١ ـ تُعتبر سيطرة الحكومة ورقابتها للعمليّة الانتاجيّة والتوزيع في الظروف الاستثنائيّة أمراً ضرورياً، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ﴾.

١٢ ـ لا شكّ في أنّ إبقاء الحنطة في سنابلها أدوَم وأفضل، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

١٣ ـ بإمكان الناس بوسيلة البرمجة والتخطيط الاستعداد لمواجهة الكوارث الطبيعية كالجفاف والقحط والزلازل، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

١٤ ـ لا تتنافى البرمجة والنّظر في العواقب مع التوكّل على الله سبحانه أو التسليم لأمره ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾، (لا بدّ لنا من مواجهة القَدَر بالتدبير).

١٥ ـ لا بدّ من أن تكون الخطط والبرامج قابلة للتنفيذ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾، (لا شكّ في أنّ أفضل تقنيّة كانت موجودة في ذلك الزمان حيث لا تكنولوجيا متقدّمة، تتمثّل في تَرك الحنطة في سنابلها).

١٦ ـ ربّ ضارة نافعة؛ فالجفاف الذي أصاب مِصر لَم يَكن إلّا تمهيداً ومقدّمة لارتقاء يوسف سلّم المَجد والحُكم، إضافة إلى تعرّف المصريّين على أسلوب التقشف والعَمل الدؤوب، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ... إِلَّا قَلِيلًا﴾.

١٧ ـ من الضروريّ أن تَعمد قيادة البلد إلى وَضع البرامج الطويلة الأمد لمواجهة المشاكل الاقتصاديّة التي قد تُصيب المُجتمع، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ... إِلَّا قَلِيلًا﴾.

١٨ ـ ما نوفّره اليوم سيكون ذخراً لنا غداً، وما نبذره اليوم سيؤدي إلى مدّ يدنا إلى الآخرين في المستقبل، ﴿قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

١٩ ـ قد تَحمل أحلام الكافرين كذلك بيانات ومؤشرات مُعيّنة للوقائع والحقائق وتشتمل على تعليمات للحفاظ على المُجتمع. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٢٠ ـ لا بدّ لنا من بَذل الجهود اليوم لضمان غَد أفضل، ﴿تَزْرَعُونَ... ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾(*).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

- جُملة «يُغَاثُ النَّاس» إمّا أن تكون من «الغَوث» ومَعناها أنّ الله سُبحانه سيُغيث الناس، أو هي من «الغَيث» بمعنى أنّه سيكون هناك أمطار وفيرة لتكون خاتمة الأحداث المُرّة[1].

- أوّل يوسف ﷺ البقرات السّبع العِجاف والسّمان والسنابل الخُضر واليابسات بالسنين الأربع عشرة من القحط والنّعمة، وأمّا السنة الخامسة عشرة ـ وهي سنة هطول الأمطار ووفور الخير والنّعمة والتي لَم تأت في حُلم المَلك ـ فهي إخبار من يوسف ﷺ بالغيب أعلمه به الله سبحانه لكي تتهيأ الأرضية المناسبة للدعوة إلى نبوّته، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ...﴾.

- من شروط الإدارة المُتميّزة والفعّالة في المُجتمع:

  ١ ـ ثقة الناس: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

  ٢ ـ الصّدق في القول والعَمل: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

٣ ـ العِلم والدّراية: ﴿عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

٤ ـ التّقدير الصحيح: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

٥ ـ قبول الناس وطاعتهم، وذلك لأنّ الناس وافقوا على برنامج يوسف عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لنا من تنبيه الناس وتحذيرهم من المشاكل والمِحَن المُستقبليّة لكي يستعدّوا لمواجهتها، ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾(*).

٢ ـ الادّخار والبرمجة لمواجهة الأيام الصعبة هي وسائل ناجعة ومهمّة، ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ﴾.

٣ ـ النّظر في العواقب واستشراف المستقبل والبرمجة الصحيحة سبيل مضمون لإنقاذ الشّعب من المهالك والأزمات، ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ﴾(*).

٤ ـ حاول ادّخار مقدار مُعيّن من البذور والذخيرة عند الاستهلاك، (وجُملة ﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تَعني الادّخار في الحصون والأماكن الآمنة).

٥ ـ لا بّد من المحافظة على الأُسس والذخائر الأصليّة في الظروف الصعبة، ﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾(*).

٦ ـ يَجب علينا تعلّم أساليب المحافظة والصيانة وتحويل المواد الغذائية للحفاظ عليها من التلف، ﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾(*).

٧ ـ إنّ بَعد العُسر يُسراً، ﴿ثُمَّ يَأۡتِي... عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾(*).

٨ ـ يتوجّب علينا بَعث روح الأمل بالمستقبل في الناس حتى يتمكّنوا من تحمّل الشّدائد والمصاعب، ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾(*).

٩ ـ النشرات الجوية الخاصة بدرجة الحرارة وكمية الأمطار من الأساليب المُفيدة أيضاً في البرامج الزراعية، ﴿يَأۡتِيَ... عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ﴾(*).

١٠ ـ يُمكن أن تُنبئنا الأحلام باحتمال وقوع أحداث مُعيّنة وقد تكون رموزاً لحلّ مشاكل الإنسان، ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾.

١١ ـ لنحاول دائماً إزالة مشاكل الناس من دون النظر إلى البلد أو المنطقة، (فالبرنامج الذي وَضعه يوسف عليه السلام لم يَكن خاصّاً بوطنه الأُمّ).

١٢ ـ لا شكّ في أنّ العِلم والمَعرفة هما رَمز التقدّم وبقاء الدّول والعامل الأساس في مَنح الأمن والرّفاهية للمُجتمع. (وما البرنامج الذي وَضعه يوسف عليه السلام لمُحاربة القحط ومواجهة الجفاف إلّا دليلاً على عِلمه وذكائه) (*).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾

إشارات:

- لقد أثبتَ يوسف عليه السلام من خلال تأويله حُلمَ المَلك ووَضع برنامج دَقيق ومُنظّم من دون أن يشترط شرطاً أو يَطلب عوضاً، أثبتَ أنّه ليس مُجرماً أو سجيناً عاديّاً، بل هو شَخص مُتميّز وعالِم.

- عندما جاء مَبعوث المَلك إلى يوسف عليه السلام فإنّه لم يَهتمّ بأمر تحريره من السّجن بل طالبَ بالتحقيق بمِلفّ القضيّة السابقة؛ لأنّه لم يَرغب في أن يَشمله العَفو المَلكيّ بقَدر ما كان مُهتمّاً بإثبات براءته وطهارته، وإفهام المَلك عمّا كان يَحدث في النظام السابق من فساد وظُلم.

- ولعلّ يوسف عليه السلام لَم يُصرّح باسم زوجة عزيز مِصر احتراماً له، واكتفى بالإشارة إلى الجلسة النسائية التي أُقيمت آنذاك، ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

- وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في رواية لعجب فيها لصَبر يوسف عندما احتاج إليه عزيز مِصر إذ لم يَشترط إخراجه من السجن مقابل التأويل، ولمّا أرادوا إخراجه من السّجن لَم يَخرج منه حتى رُفِعَت عنه التهمة[1].

---

(١) أطيب البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٢١٠.

التعاليم:

١ ـ يجب على الدولة أن تقوم بتحرير العقول الخلاقة من السّجن ما لم يرتكب أصحابها جناية، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾.

٢ ـ لا يجوز تأخير الانتفاع من العقول النيّرة (لا سيّما في الظروف الاستثنائيّة)، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾(*).

٣ ـ لا شكّ في أنّ الحُكّام بحاجة إلى العُلماء والمُفكّرين الكِبار، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾(*).

٤ ـ أراد الله تعالى جعل حاجة المَلك عند عَبد سَجين، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾(*).

٥ ـ واضح أنّ يوسف عليه السلام لم يَعترف بسلطان المَلك عليه، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾(*).

٦ ـ لا بدّ للغلمان والعاملين لدى القادة والحكّام من احترام قادتهم وحكّامهم وإن كانوا كافرين، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾(*).

٧ ـ الحريّة بأيّ ثَمن لا تُساوي شيئاً، فإثبات البراءة أهمّ منها بكثير، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾.

٨ ـ السّجين الذي يُطالب بالتحقيق في قضيّته قبل تحريره من السّجن، لا رَيب أبداً في أنّه بريء، ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾.

٩ ـ بدأ يوسف عليه السلام أوّلاً بتطهير أذهان الناس، وبعد ذلك قبل بالمسؤوليّة التي أنيطت به، ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾.

١٠ ـ واجب على كلّ شَخص الدّفاع عن سُمعته وكرامته، ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾.

١١ ـ أحياناً يكون الاحتكام إلى الحُكّام الكَفرة أمراً جائزاً، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ...﴾(*).

١٢ ـ في الظروف الحسّاسة (كالتي مرّ بها يوسف عليه السلام مع الملك)، لا يَنبغي إخفاء الحقائق التي تمسّ سُمعة الآخرين، ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ...﴾(*).

١٣ ـ لعلّ قول يوسف عليه السلام: ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يرجع إلى كَون تلك الحادثة كان لها بُعدٌ عامّ غير قابل للإنكار، ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾(*).

١٤ ـ لقد كان لجميع النسوة آنذاك دَورٌ في مؤامرة سَجن يوسف عليه السلام، ﴿كَيْدَهُنَّ﴾.

١٥ ـ لا بأس من ذِكر الذّنوب والمسائل الأخلاقيّة بالرّمز من دون التّصريح، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(*).

١٦ ـ على الرّغم من أنّ كَيد العَدوّ كان لا يُستهان به فإنّ الله سبحانه عليمٌ بالكيد كلّه وكَفيل بتخليص أوليائه منه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(*).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ
أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

- «الخَطْب» الدّعوة لأمر عظيم وخطير، و«الخَطيب» هو مَن يَدعو الناس لهَدف عظيم. و«حَصحَصَ» حَصحَصةً الحقُّ، بانَ عن الباطل بَعد كتمانه[1].
- لقد تحقّقت في هذه الواقعة سنّة من سُنَن الله سبحانه والتي أدّت إلى حلّ المشاكل كلّها بسبب التّقوى الحقّة، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ عندما تَعمى مجموعة وتَغضّ النظر عن أمر ما، يُصبح لزاماً على الشخصيّة الأولى في البلاد بَحث ذلك الأمر بنَفسه وتشكيل مَحكمة تحت إشرافه، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾.

---

(١) المَصدر نفسه.
(٢) سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣.

٢ ـ لا بدّ من استدعاء المُتّهمين للدّفاع عن أنفسهم ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾، وواضح أنّ (زليخا) كانت حاضرة شخصياً في ذلك المَجلس، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الأوقات العصيبة لا تدوم ولا بدّ من أن تعقبها لحظات سعيدة، فبعد كلّ تلك التّهم بأنّ يوسف أراد السوء بامرأة العزيز ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، أقرّ الجميع واعترف أنّه لَم يَصدر عنه أيّ سوء تجاه أحد ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

٤ ـ لَم تَعترف النسوة في مِصر على أنّ يوسف لَم يكن مُخطئاً ولا مُذنباً فحَسب، بل أزالوا عنه أيّ نوع من أنواع الانحراف أو السّوء بالكامل، ﴿مِن سُوٓءٍ﴾(*).

٥ ـ الحَقُّ أبلَجُ والباطلُ لَجلَج وما ضاعَ حَقٌّ وراءه مُطالب، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

٦ ـ لاحِظ أنّ بيان الحقائق في بعض القضايا يَحتاج إلى شيء من الوقت، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾(*).

٧ ـ لا بدّ للضمائر من أن تَصحو ذات يوم وتَعترف بالحقّ، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ كما هي الحال عندما يَزداد ضَغط الشعب ويُجبر الطغاة على الاعتراف بالحقّ. (فعندما رأت امرأة العزيز بأمّ عينها اعتراف جميع النسوة بطهارة يوسف عليه السلام وعفّته، لَم تَجد بُدّاً من الاستسلام والهزيمة).

٨ ـ أراد العزيز إخفاء قضيّة مراودة زوجته (زليخا) يوسف عليه السلام لكنّ الله سبحانه كَشف ذلك الأمر للعالمين وإلى الأبد لتَثبت براءة يوسف عليه السلام وطهارته، ﴿قَالَتِ... أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾(*).

٩ ـ عندما يَشاء الله جلّ وعلا فإنّه يَجعل من العَدوّ نَفسه سَبباً للنجاة ورفعاً للتّهم، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(*).

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا يفكّر الكريم بالانتقام بل باستعادة كرامته والكشف عن الحقيقة ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾.

٢ ـ لنبعد الظن السيء عن أذهاننا، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾.

٣ ـ الكيد بالزوجة، خيانة لزوجها، ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ﴾.

٤ ـ الخيانة في السرّ والخفاء، علامة على الإيمان الحقيقي، ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

٥ ـ عدم الخيانة في السرّ والخفاء، علامة على الإيمان الحقيقي، ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

٦ ـ يكيد الخائن ليبرّر خيانته، ﴿كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

٧ ـ أراد يوسف أن يفهم الملك أن للإرادة الإلٰهيّة دوراً حاسماً في رسم مسار الأحداث، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

٨ ـ كيد الخائن هواء في شبك، وعاقبته سيئة. نعم، إذا كنّا متطهرين ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فلن يدع الله الأشرار بلطخون سمعتنا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

٩ ـ عدم نجاح الخائن وخيبته وافتضاح أمره، سنّة إلهية، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

إشارات:

□ يذكر القرآن الكريم أنواعاً عدّة للنفس، منها:

١ ـ النفس الأمّارة التي تسوق الإنسان نحو الرذائل، وإذا لم تكبح بالعقل، فستودي به إلى الهاوية.

٢ ـ النفس اللوامة، وتتجلى في لوم المذنب نفسه على ما ارتكب، فتدفعه باتجاه التوبة والاعتذار (ورد ذكرها في سورة القيامة).

٣ ـ النفس المطمئنة، ولا يدرك هذه المرتبة إلا الأنبياء والأولياء ومن تربّى على

الفضيلة، وعند كل امتحان يخرجون مرفوعي الرأس وهم أكثر توجهاً إلى الله وتمسكاً به، (ذكرت في سورة الفجر).

- يرى يوسف عليه السلام عدم خيانته وخروجه من الامتحان مرفوع الرأس، لطفاً من الله ورحمة، وهو لا يبرّىء نفسه لأن الطبيعة الإنسانيّة مجبولة على الخطأ. ورد في روايات عدة أحاديث عن أخطار النفس، وأن اغترار النفس علامة على فساد العقل وأكبر مصيدة للشيطان. يذكر الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكين خطراً للنفس، نعتقد أن في تأمّلها فائدة كبيرة.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أبداً أن نغترّ بأنفسنا ونبرئ ساحتها، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

٢ ـ الكمال هو أن لا يغتر الإنسان بنفسه وإن مدحه جميع الناس، كما حدث مع النبي يوسف عليه السلام حيث مدحه إخوته، وزوجة عزيز مصر، والشاهد، والملك، والسجناء ومع ذلك قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

٣ ـ هوى النفس خطر عظيم لا ينبغي الاستهانة به ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ في هذه الآية تم استخدام أربع صيغ توكيدية (إنّ، لام التأكيد، صيغة المبالغة والجملة الاسمية).

٤ ـ الأنبياء معصومون لكنّهم يمتلكون غرائز بشرية يكبحونها بقوة الإيمان، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٥ ـ يجب الدفاع عن طهارة النفس وعفّتها بردّ التّهم عنها ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وفي الوقت ذاته علينا الاعتراف بشرور أنفسنا وأن نستعيذ بالله منها، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٦ ـ لا تزال النفس تمنّي الإنسان حتى توقعه في شرّ أعماله، ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾.

٧ ـ طبيعة الإنسان وغرائزه تدفعانه نحو المعصية إلا ما رحم الله، ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٨ ـ رحمة الله هي حبل النجاة الوحيد، فلو أوكل الله الإنسان إلى نفسه لأصيبت مقاتله، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾.

٩ ـ تربية يوسف هي تربية إلٰهيّة خاصة (لقد تكرر ذكر كلمة ربّي).

١٠ ـ يجب أن يتحلّى المربّي بالرحمة والصفح، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١١ ـ لا يأس من رحمة الله على الرغم من المخاطر جميعاً، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢ ـ العفو، مقدمة لنزول شآبيب الرحمة الإلٰهيّة، إذ يقول أولاً: ﴿غَفُورٌ﴾ ثم ﴿رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ
فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

□ جاء في لسان العرب: إذا أسرّ الإنسان أحداً وأشركه في أموره قيل: استخلصه.

□ عندما أطلق سراح يوسف عليه السلام من السجن أراد أن يصفه ببعض العبارات فكتب على جدرانه: (هذا قبر الأحياء، بيت الأحزان، تجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء).

□ حين يلمس الملك صدق يوسف وأمانته ويتأكد من عدم خيانته يستخلصه لنفسه، فكيف يثيب الله العبد الأمين؟ لا شكّ في أنه يستخلصه ويصطفيه، وفي هذا السّياق ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

□ يعلن الملك بكلمة (لدينا) أن ليوسف مكانة وحظوة في قلبه وليس ذلك فحسب، وإنّما في حكومته أيضاً، ولذا، فإنّ على جميع المسؤولين السمع له والطاعة.

□ توافر القوة والأمانة معاً، أمر ضروري؛ إذ إن الأمين الذي تنقصه الإمكانيات عاجز، والقوي الذي تنقصه الأمانة سيهدر المال العام.

التعاليم:

١ ـ الله قادر (إن شاء) أن يجعل أسير الأمس أمير اليوم، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

٢ ـ خدمات الأفراد تستحق المكافأة والثناء ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، (مكافأةً له على تفسير الحلم أمر الملك بإطلاق سراح يوسف عليه السلام وتكريمه ومنحه منصباً ومنزلة).

٣ ـ حتى المشرك والكافر يأنسان إلى الكمال المعنوي؛ لأن فطرة الإنسان ـ أيَّ إنسان ـ مجبولة على ذلك، ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

٤ ـ إناطة المناصب المهمة والحساسة علاوة على التدبير والخبرة تحتاج إلى القبول والاحترام أيضاً. (بسبب عفّته وتدبيره وتفسيره الأحلامَ وهيبته، اكتسب يوسف قبولاً واحتراماً خاصّين، ولهذا آثر عزيز مصر أن يستخلصه لنفسه)، ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

٥ ـ النزاهة والأمانة والصدق والعفاف كلها صفات تحمل حتى الملوك على التواضع لها، ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾

٦ ـ عند اختيار الأفراد، فإن المقابلة الحضورية مؤثرة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ﴾.

٧ ـ المرء مخبوء تحت لسانه لا تعرف عيوب الفرد أو محاسنه حتى يتكلّم، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ﴾.

٨ ـ أحياناً يلزم عند إناطة المسؤوليات الحسّاسة جداً، أن يقوم الرجل الأول في الدولة بإجراء المقابلة الحضورية، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾.

٩ ـ المسؤوليات المهمة والحسّاسة هي لمن يتوافر على الجدارة والتجربة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾.

١٠ ـ الصادق الأمين يحظى بالقبول والاحترام من لدن الكافرين أيضاً، (﴿لَدَيْنَا﴾ تشير إلى جميع المسؤولين)، ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

١١ ـ نسوة مصر رأين يوسف فدهشن وقطّعن أيديهنّ، والملك وضع مصر تحت

تصرّفه عندما رأى فيه الأمانة والنزاهة، فما هو صنيعهم لو كانت انكشفت للملأ محاسن يوسف كلّها.

١٢ ـ إذا ما سلّمنا بأمانة شخص وقدرته وصدقه، فلا ينبغي أن نتردّد في إناطة المسؤولية به ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، (لقد كان عزيز مصر حازماً في قراره).

١٣ ـ يجب أن يكون المستشارون المقرّبون من المسؤولين من أهل التقوى والتدبير، ومشهوداً لهم بالأمانة وبراعة التخطيط، ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ... لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، (اجتمعت هذه المحامد كلها في يوسف).

١٤ ـ سلّم المسؤولية لمن وثقت بدينه وإيمانه، ﴿لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

١٥ ـ أعطي يوسف سلطة غير مشروطة، (﴿مَكِينٌ﴾، من دون قيد أو شرط).

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال:** لماذا عرض يوسف أن تناط به المسؤولية؟ بعبارة أوضح: لماذا طلب الرئاسة؟

الجواب: لقد توجّس يوسف خيفة من منام الملك لئلا يصيب الناس الضرر، ورأى في نفسه الكفاءة في احتواء العواقب الاقتصاديّة السيّئة، من هنا جاء عرضه بالتصدّي للمسؤولية درءاً للخطر وللضرر عن الناس.

□ **سؤال:** لماذا أطرى يوسف على نفسه وأثنى على قدراته، ألم يأت في القرآن الكريم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾[1]؟

الجواب: كان إطراء يوسف لنفسه وقدراته من أجل الاضطلاع بأعباء المسؤولية، إذ وجد في نفسه القدرة على أن يمنع الآثار السيّئة للمجاعة والقحط، ولم يكن الإطراء بدافع الفخر والاستغلال غير المشروع.

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

❑ **سؤال:** لماذا تعاون يوسف مع الحكومة الكافرة؟ ألم ينه القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[1].

الجواب: لم يكن قبول يوسف بالمسؤولية نصرة للظالم، بل ليجتاز الناس مرحلة المجاعة وشدائدها؛ لذا لم يصدر عن يوسف تصرف ينمّ عن ملق أو محاباة. عادةً ما يقلب رجال السياسة ظهر المجن للشعب عندما يشتدّ الخطر ويتعاظم، لكن يوسف لم يترك موقعه وآثر خدمة الشعب. إذا لم تكن ثمة إمكانية لإسقاط النظام الفاسد، فينبغي على الأقل أن نعمل على دفع ظلمه وانحرافه من داخل النظام وذلك بالاضطلاع ببعض المسؤوليات وخدمة الناس.

إنّ مسألة مراعاة قاعدة الأهم فالمهم مبدأ أساس من منظار العقل والشرع على سبيل المثال، من المهم ألّا نساعد الحكومة الظالمة بالامتناع عن تَسَنُّم المناصب والمسؤوليات فيها، لكن الأهمّ من ذلك إنقاذ شعب كامل من مخاطر المجاعة لذلك نرى أن يوسف لم يتبوّأ أيّ منصب سياسيّ في الدولة، لئلا يكون ذلك إعانة للظالم وحكومته، ولم يتبوّأ منصباً عسكرياً، حتى لايسفك دماً بغير حق، كل ما فعله أنه تطوّع للاضطلاع بمسؤولية اقتصاديّة وذلك لينقذ الناس من التهلكة والمجاعة. يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«ويحهم! أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً، فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز قال: اجعلني على خزائن الأرض»**[2]. ومثل ذلك علي بن يقطين الذي كان وزيراً في جهاز الخلافة العباسية بتوجيه من الإمام موسى الكاظم عليه السلام، لأن وجود مثل هؤلاء الأخيار في الحكومة الجائرة يعتبر ملجأ للمظلومين والمستضعفين. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الإخوان»**[3].

سئل الإمام الرضا عليه السلام: لماذا قبلت بولاية عهد المأمون؟ فقال يا هذا أيهما أفضل النبي أو الوحي؟ فقال: بل النبي، فقال أيهما أفضل مسلم أو

---

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٣٩.

مشرك؟ قال: بل مسلم؛ فقال الرضا عليه السلام فإن عزيز مصر كان مشركا وكان يوسف نبيّاً، وإن المأمون معلم وأنا وحي، ويوسف سأل العزيز أن يوليه... وأنا أجبرت[1].

- حينما تقلّد يوسف عليه السلام منصباً ومقاماً، لم يطلب اللقاء بوالديه، بل طلب إسناد مسؤولية الخزانة إليه، وذلك لأنّ اللقاء يحمل لمسات عاطفية بينما إنقاذ الناس من المجاعة ينطوي على رسالة اجتماعية.
- يخاطب الإمام الصادق عليه السلام أولئك الذين يشقّون على أنفسهم ويدعون الناس للتأسّي بهم، فيقارن بين حالة النبي يوسف عليه السلام وملكه وسلطته التي وصلت إلى حدود اليمن وبين حالة الذين يدعون الناس إلى الزهد وترك الدنيا[2].
- في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه في السنوات السبع الأولى، كان يوسف عليه السلام يخزن القمح، ومع بدء القحط والمجاعة في السنوات السبع الثانية، كان يوزّع ما اختزنه في السنوات السابقة على الناس قوتهم اليومي بدقة وأمانة فحفظ مصر من البؤس والشقاء. في سنوات القحط العصيبة لم يبت يوسف عليه السلام ليلته شبعاً، تأسيّاً منه بحال الجوعى[3].
- جاء في تفسيري مجمع البيان والميزان، أنّه لما بدأ القحط باع يوسف عليه السلام الناس القمح في السنة الأولى بالذهب والفضة، وفي السنة الثانية بالجواهر والأحجار الكريمة، وفي السنة الثالثة بالدواب والأنعام، وفي السنة الرابعة بالإماء والغلمان، وفي السنة الخامسة بالبيوت، وفي السنة السادسة بالحقول، وفي السنة السابعة باعهم بأنفسهم وأولادهم ولما انتهت السابعة من القحط وتملّك على الناس جميع ما يملكون جاء إلى عزيز مصر وقال له: **«الناس وأموالهم ملك يميني، بيد أنّي أشهد الله وأشهدك أيها الملك أنّي أعتقهم وأردّ إليهم أموالهم كما أردّ إليك القصر والعرش والخاتم، فلم تكن الوزارة إلا وسيلة لإنقاذ الناس، ولم تكن لي مآرب أخرى، فعاملهم بالعدل والإحسان»**.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٤٦. (٢) نور الثقلين.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٧٢.

لما سمع الملك هذا الكلام تصاغر أمام عظمة يوسف وجلال قدره، فلم يملك لسانه عن ذكر الشهادتين قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله، لقد أصبحت من المؤمنين، وأصبحت أنت الملك.

□ يجب اختيار الأفراد للمسؤولية طبقاً للمعابير القرآنية، إذا إنه مضافاً إلى ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ثمّة معايير قرآنية أخرى نذكر منها:

١ ـ الإيمان، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[1].

٢ ـ السبق، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[2].

٣ ـ الهجرة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[3].

٤ ـ القدرة البدنية والعلمية، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[4].

٥ ـ الأصالة وكرم المحتد، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾[5].

٦ ـ الجهاد والكفاح، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

التعاليم:

١ ـ يجب التطوّع للتصدّي للمسؤوليات الخطيرة متى اقتضى الأمر، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٢ ـ النبوة تنسجم مع الحكومة والسياسة، كما أن الدين لا ينفصم عن السياسة، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٣ ـ عند استخدام الكفء يجب أخذ رغبته الشخصيّة بعين الاعتبار، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٤ ـ الكفاءة أولاً ثم التصدّي للمسؤولية، ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.
(٢) سورة الواقعة: الآيتان ١٠ ـ ١١.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.
(٥) سورة مريم: الآية ٢٨.
(٦) سورة النساء: الآية ٩٥.

٥ ـ إذا توفرت الخبرة والمهارة، فلنمتلك الجرأة والثقة للتطوّع للمسؤولية، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ﴾.

٦ ـ لا يستغني المسؤول مهما كان موقعه عن استشارة الأدنى المخلص الأمين. (لقد سمع عزيز مصر لاقتراح يوسف، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ واستجاب له).

٧ ـ لا يشترط في تولي المسؤولية «القومية»، فيوسف لم يكن مصرياً، لكنّه تقلّد أرفع المناصب في حكومة مصر (فالتعصّب للقوم أمر مرفوض)، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾.

٨ ـ الكشف عن المواهب والجدارة الذاتيّة عند الضرورة لا يتنافى مع التوكّل والزهد والإخلاص، ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

٩ ـ يمكن استنباط بعض محامد الصفات للمسؤول الكفء، وذلك من خلال الصفتين اللتين ذكرهما العزيز ليوسف ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، بمعنى القدرة والأمانة، والصفتان اللتان خصّ يوسف نفسه بهما وهما (حفيظ وعليم) أي خازن حافظ وذو علم واختصاص.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾
وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ تثني الآيتان على النبي يوسف عليه السلام وتخلع عليه صفات «الإحسان» و«الإيمان» و«التقوى».

□ [تشرح] لنا هذه السورة المقارنة بين إرادة الله وإرادات الناس ورغباتهم، فإخوة [يو]سف عليه السلام أرادوا إذلاله من خلال إلقائه في البئر ومن ثمّ استرقاقه، بينما شاء [الله] أن يكرمه إذ يوصي عزيز مصر امرأته ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، وأرادت امرأة

العزيز أن تلطخ سمعته وتلوّث شرفه، فأبى الله إلّا أن يطهّره من الدنس، أراد بعضهم بسجن يوسف تحطيم معنوياته وإذلاله ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، في مقابل إرادة الله التي شاءت صون كرامته وعزّة نفسه وأن يهبه حكم مصر، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ يوسف عليه السلام كان إنساناً حرّاً أبيّاً، لم يتأثّر بحسد أخوته وإساره في البئر وتألّب شهوة النساء عليه وما تبع ذلك من سجن وافتراء ورئاسة وسلطة[1].

□ ثواب الآخرة خير وأبقى من ثواب الدنيا، وذلك لأنّه:

أ) مطلق لا حدود له، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾[2].

ب) خالد لا يزول، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[3].

ج) غير محدود بحدود وضوابط معيّنة، ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[4].

د) ثواب بلا حساب، ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

هـ) لا تعتريه عوارض أو آفات أو أمراض، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾[6].

التعاليم:

١ ـ سنّة الله تمنح العزّة والكرامة للشرفاء والمتقين، ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ صحيح أنّ ملك مصر قال ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، لكنّها في الحقيقة مكنة الله منحها يوسف، ﴿مَكَّنَّا﴾.

٣ ـ حقّ الاستيلاء شأن للحكومة تستخدمه متى شاءت، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

٤ ـ تمتّع يوسف عليه السلام بصلاحيات واسعة، ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

---

(١) نور الثقلين.
(٢) سورة الزمر: الآية ٣٤.
(٣) سورة الفرقان: الآية: ٧٦.
(٤) سورة الزمر: الآية ٧٤.
(٥) سورة الزمر: الآية١٠.
(٦) سورة الواقعة: الآية ١٩.

٥ ـ السلطة في يد أهلها رحمة وفي يد غيرهم نقمة وعذاب، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾.

٦ ـ لا يضيع أجر أيّ عمل عند الله، ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾.

٧ ـ تضييع حقوق الناس يكون إمّا عن جهل أو بخل أو ضعف أو غير ذلك.، وأيّ منها لا يصدق على الله تعالى، ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾.

٨ ـ استلام السلطة والحكم في الدنيا، لا يتعارض مع مفاهيم الإحسان والإيمان والتقوى، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ... أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٩ ـ مشيئة الله هي في إطار النظام والمنطق، فحين يقول تعالى شأنه: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ ليس معناه أيّاً كان، بل يضيف أنّ مشيئته ليست عبثاً بل ترتبط بالإحسان، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٠ ـ يثاب المحسن على إحسانه في الدنيا وله ثواب أجزل في الآخرة، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾

١١ ـ إن لم يحصل المحسن على ثواب الدنيا فلا ييأس لأنّ الله لن يضيع أجره في الآخرة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

١٢ ـ لا يقاس المُلك والحُكم بثواب الآخرة، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

١٣ ـ الثواب المادّي والسلطة لا يرضيان طموح الربانيين من الرجال؛ لأنّ الآخرة هي مرادهم وغاية أمانيهم، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

١٤ ـ إن تتقوا فسننزل عليكم رحمة من لدنّا، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا... لِلَّذِينَ... وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

١٥ ـ إنّ الإيمان ينفع المؤمن إذا اقترن إيمانه بالتقوى وإلا فستكون عاقبته مجهولة، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

١٦ ـ للتقوى أجر أكبر وأبقى إذا كانت صفة ثابتة لصاحبها، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

١٧ ـ الحصول على الثواب الأخروي رهن بالإيمان والثبات على التقوى، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

□ عاش الناس سبع سنوات مخصبة في نعمة وافرة وأمطار غزيرة، طبقاً لنبوءة يوسف عليه السلام، ثم تلتها السبع الثانية، وكانت عجافاً ابتلوا خلالها بالقحط الذي عمّ مصر كلّها ووصل إلى أجزاء من أرض فلسطين وكنعان. قال يعقوب لبنيه: اذهبوا إلى مصر وابتغوا فيها الميرة، فدخلوها وكانوا من جملة وفود كثيرة حضرت إلى يوسف يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فلما رآهم عرفهم لكنّهم لم يعرفوه، وحقّ لهم ذلك لأنّهم حين فارقوه كان صغيراً حدثاً وألقوا به في غيابة الجبّ ولم يلتقوه ولم يستشعروا في أنفسهم أبداً أن يصل إلى ما وصل إليه من الجاه والرئاسة والسيادة في حكومة مصر، واستغرقت هذه الفترة حوالى ٢٠ إلى ٣٠ سنة. وعندما أنقذ يوسف من الجبّ كان غلاماً يافعاً اشتراه عزيز مصر ليخدم في بيته، بعد ذلك قضى سنوات في السجن، ومن ثمّ أُطلق منه ومضت السبع السنوات الأولى التي توافرت فيها النعم والأمطار، ومع دخول السنوات السبع الثانية وهي سنوات القحط والمجاعة، عند ذاك أُتيح ليوسف اللقاء بإخوته.

التعاليم:

١ ـ في فترات القحط لا مناص من نظام التقنين، وعلى كل فرد مراجعة الجهات المختصة بنفسه لاستلام حصته منعاً لاستغلال الآخرين. كان باستطاعة إخوة يوسف إرسال واحد منهم نيابة عن الجميع إلّا أنّهم ارتأوا الحضور مجتمعين.

٢ ـ إذا استغاثت المناطق الأخرى بنا لتقديم المساعدة في فترة اشتداد القحط، علينا الاستجابة لطلبها، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾(*).

٣ ـ لا ينبغي الاستكانة والكسل في أوقات الشدّة والعوز، حتى وإن دعت الحاجة إلى طلب العون من البلدان الأخرى، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾.

٤ ـ ربّما احتاج الظالم يوماً إلى عون المظلوم، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾(*).

٥ ـ مقابلة الوفود ليوسف كانت سهلة وميسّرة حتى لغير المصريين، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟﴾؛ (ينبغي للحاكم أن يتّخذ التدابير التي تسهّل لقاءاته بالناس للاطلاع على أحوالهم).

٦ ـ ذكريات الطفولة لا تمحى من ذاكرة الإنسان، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ (التقى إخوة يوسف بأخيهم في كبره، أمّا هو فله ذكريات طفولة معهم، ولهذا السبب عرفهم ولم يعرفوه)(*).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

- قال يوسف ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ﴾ أي أخيكم من أبيكم ولم يقل: شقيقي، وفي ذلك إشارة إلى أنّ يوسف خاطبهم كالمنكر عليهم، وهم بدورهم كشفوا له عن نسبهم بأنّهم أبناء يعقوب حفيد إبراهيم عليه السلام (كما ذكرت التفاسير)، وأنّ أباهم شيخ كبير أقعده الحزن وفتك به الجزع بسبب افتراس الذئب ولدَه، وهو يبكيه سنوات طويلة، وإنّنا قد تركنا أحد إخوتنا عنده ليقوم برعايته وخدمته، فإذا رأيت أن تعطينا حصتهما (يعقوب وابنه) لنرجع إليهم مستبشرين، وأوفى لهم يوسف كيلهم وحمل إليهم أحمالهم بمقدار عشرة إبل بالإضافة إلى حملين آخرين هما حصة أبيه يعقوب وأخيه.

- ومن أجل ترغيب إخوته المذنبين بالرجوع إليه قال يوسف: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، أي خير من يقري الضيف، فقالوا: سنحرص على مجيئه إليك، وكان هذا ترغيباً من يوسف إليهم، أمّا الله تعالى فله تعابير أخرى في الترغيب حيث يقول جل وعلا:

ـ ﴿...خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(١)،

(١) سورة الجمعة: الآية ١١.

- ﴿...خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[1]،
- ﴿...خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[2]،
- ﴿...خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[3]،
- ﴿...خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[4]،
- ﴿...خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[5]،

ومع ذلك يغفل معظم الناس عن ذكره.

التعاليم:

١ ـ توزيع الميرة المختزنة في مصر كان بإشراف مباشر من النبي يوسف ﷺ، ﴿جَهَّزَهُم﴾.

٢ ـ بفضل تدبير يوسف وحكمته تجاوز شعب مصر سنوات القحط، بل قدّم المساعدات لباقي الأقاليم المجاورة، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾(*).

٣ ـ حفظ الأسرار والصدق كلاهما صفتان لازمتان للإنسان، قال يوسف: ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾، ولم يقل: أخي، فقد قال الصدق وحافظ على السرّ في آن معاً.

٤ ـ باستطاعة الذين يقدّمون العون الاقتصادي سواء أكانوا أشخاصاً أو مؤسّسات أو بلداناً أن يوظّفوا هذا العون لتحقيق النمو أو مصالح أخرى، ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ...﴾.

٥ ـ التطفيف والإجحاف ممنوعان حتى في أوقات الأزمات والقحط، ﴿أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾.

٦ ـ عند الكيل يجب أن يكون المكيل محدّداً، ﴿ٱلْكَيْلُ﴾.

٧ ـ لنقابل الإساءة بالإحسان (لقد أوفى يوسف الكيل لإخوته ولم يمنعه عن ذلك الظلم الذي مارسوه ضدّه)، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ... أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾(*).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.
(٥) سورة يونس: الآية ١٠٩.

٨ ـ ينظر إلى أي تطفيف أو عدالة تصدر عن المسؤول (العامل والمعاون) على أنّها صادرة من المسؤول الأعلى، ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾.

٩ ـ كان التعامل بالغلات في مصر في أيّام يوسف عليه السلام بالكيل، ﴿أُوفِي الْكَيْلَ﴾(*).

١٠ ـ يجب أن يتّصف المسؤول عن توزيع الأرزاق العامة بالعدل، ﴿أُوفِي الْكَيْلَ﴾(*).

١١ ـ لا ينبغي أن نجعل من السلطة وسيلة لتصفية الحساب، ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾(*).

١٢ ـ قري الضيف من صفات الأنبياء، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

١٣ ـ لنحترم المسافرين والقوافل التي تدخل مناطقنا، حتى في فترات القحط والعوز، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أسلوب الإدارة الناجح يقتضي استخدام اللين والشدّة معاً، يبدأ أولاً بإبداء اللين واللطف، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، وإن لم ينفع، يلجأ إلى الشدّة وتوجيه الإنذار، ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي﴾.

٢ ـ لنرفع عوامل الاستغلال ونقضِ على مسبّباته (إذا تعوّد الحاضر أن يستأثر بحصة الغائب فسنفتح الباب أمام الاستغلال)، ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾(*).

٣ ـ يجب تطبيق القانون على الجميع من دون تمييز بين قريب أو غريب، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾؛ (لكلٍّ حصة يجب أن يستوفيها بنفسه).

٤ ـ ليس من الضروري أن ينفذ المسؤول تهديداته بحذافيرها، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾؛ (إذ لم يكن يوسف ليسمح أن يهلك إخوته من الجوع).

٥ ـ الحزم في تطبيق البرامج، من صفات القائد الناجح، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ «المراودة» أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، ويكون ذلك مشفوعاً بالتوسل والحيلة.

□ يستشم من كلام إخوة يوسف رائحة الحسد، عندما قالوا ﴿أَبَاهُ﴾ بدلاً من ﴿أَبَانَا﴾، كما أنّ الحديث الذي دار بين الإخوة في بداية السورة هو ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾.

التعاليم:

١ ـ سفر الابن الصغير يجب أن يكون بإذن الأب وموافقته، ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾(*).

٢ ـ كان إخوة يوسف على علم برفض أبيهم طلبهم اصطحاب أخيهم بنيامين، (﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ بمعنى منازعة إرادة الغير مع التخطيط والتدبير)(*).

٣ ـ بعدما فجع يعقوب بمصيبة فقد ولده يوسف، لم يكن يفارق ابنه بنيامين لذلك فإنّ فصل الابن عن أبيه كان أمراً عسيراً، ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾(*).

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ
إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

□ لقد وصفت الآيات السابقة النبي يوسف بصفات مثل «الصادق، المحسن، المخلص»، ويقيناً أنّ من كانت صفاته هذه لا يستأثر ببيت المال لصالح أبيه وأخوته، ولعلّه كان يقصد أن يمنحهم الميرة من حصته الخاصة.

□ لقد أعاد إليهم أموالهم حتى لا تحول قلّة المال دون سفرهم الثاني، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، فضلاً عن أنّ إعادة المال دليل على مودّته وإخلاصه وعدم وجود

سوء نيّة في إصراره على إحضار أخيه، وفي دسّه المال خفية في بضاعتهم دليل آخر على أنّه لم يشأ تحميلهم منّة وكذلك حفظها من عيون السارقين.

□ بالأمس كان يوسف غلاماً وخادماً، واليوم أصبح يمتلك الغلمان والخدم، ﴿لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ بيد أنّ ذلك لم يدفعه إلى الانتقام أو الثأر أو إضمار الحقد والضغينة لإخوته حينما التقى بهم، بل أراد بإرجاع أموالهم أن يشعرهم أنّه لا يزال يحبّهم.

التعاليم:

١ ـ القائد الكفوء هو من تتضمّن خططه ومشاريعه عامل الابتكار والتجديد، ﴿ٱجْعَلُوا﴾.

٢ ـ لنقابل الإساءة بالإحسان، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ﴾.

٣ ـ صلة الرحم تعني المساعدة لا عقد الصفقات، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ﴾.

٤ ـ أخذ المال من الوالد الطاعن في السنّ ومن الإخوة يتعارض مع مبدأ الكرامة الإنسانية، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾.

٥ ـ أناط يوسف مسؤولية إرجاع أموال إخوته إلى أشخاص عدّة، ربّما كان يهدف من وراء ذلك إلى إنجاز المهمة بسرعة، من دون علم إخوته، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾(*).

٦ ـ ينبغي أن تكون مساعدة الآخرين سرّاً قدر الإمكان، ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾(*).

٧ ـ لا انتقام ولا حقد بل هدية لضمان التواصل في المستقبل، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٨ ـ من أجل كسب قلوب البشر يجب أن نضحّي بالمال، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٩ ـ الإحسان والعمل الصالح أفضل وسيلتين لكسب قلوب الناس، ﴿ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(*).

١٠ ـ ينبغي للمسؤولين توضيح النقاط المتعلقة بالبرامج أو المشاريع لمرؤوسيهم

حتى يكونوا مدراء أكفاء؛ (لقد أطلع يوسف الجميع بأنّ هدفه من هذا العمل هو ضمان عودة القافلة)، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(*).

١١ ـ لا يوجد يقين تامّ بتطبيق المشاريع والخطط كما خطّط لها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كان يعقوب يتمتع بسلطة تامّة ونافذة على زوجته وأبنائه بحيث إنّ جميع التحركات كانت خاضعة لإشرافه، ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ﴾.

٢ ـ ما كان لبنيامين أن يسافر من دون موافقة أبيه، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾.

٣ ـ توظيف العواطف أسلوب ناجع لتحقيق الأهداف أو كسب ثقة الآخرين، ﴿أَخَانَا﴾.

٤ ـ يلجأ المذنب دائماً إلى أسلوب التأكيد والتكرار بسبب الهواجس التي تسكنه، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾؛ (الضمير إنّا و«لام» التوكيد والجملة الاسمية كلها تدل على التوكيد).

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال**: كيف وثق يعقوب ببنيه وبعث أخاهم بنيامين معهم على الرغم من تجربته المريرة السابقة معهم؟

الجواب: يطرح الفخر الرازي في تفسير ذلك احتمالات عدّة تشرح هذا القبول من يعقوب، وهي:

أولاً: لم يحقّق إخوة يوسف من فعلتهم الأولى هدفهم وهو (حبّ أبيهم لهم).

ثانياً: حسد الإخوة لبنيامين كان أقل من حسد يوسف.

ثالثاً: ربّما أسفر القحط والمجاعة عن ظروف استثنائية كانت تستدعي السفر ثانيةً.

رابعاً: قد يكون النسيان طوى الحادثة الأولى وذلك لتعاقب السنين عليها.

خامساً: أو يكون الله تعالى قد بشّره بحفظ ولده.

□ في الآية ١٢، وثق يعقوب بوعد أبنائه بالمحافظة على يوسف، فابتلى بفراقه وفقد بصره، لكنه بالنسبة لبنيامين أوكل أمره إلى الله قائلاً: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾؛ فعادت إليه قوته وبصره وولده.

التعاليم:

١ ـ لا يجوز الوثوق سريعاً بمن له سوء سابقة، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾.

٢ ـ استذكار الذكريات المؤلمة تحصّن الإنسان ضدّ أحداث المستقبل، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ... أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾؛ (لقد آمنتكم على أخيه قبل ذلك وكانت النتيجة ما تعلمون).

٣ ـ لا ينبغي أن نستسلم لليأس في أول فشل يصادفنا، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾؛ لقد أسلم يعقوب ابنه إلى إخوته للمرة الثانية ولكن بعد التوكل على الله.

٤ ـ ظنّ إخوة يوسف أنّهم حافظون لأخيهم، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ فذكّرهم أبوهم يعقوب أنّ الحافظ هو الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.

٥ ـ لا تغرّنا الأمور المادّية الظاهرة مهما كثرت ويجب أن نتوكّل على الله، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.

٦ ـ بالاطمئنان إلى رحمة الله الواسعة وبعد التوكّل عليه نذهب في استقبال الحوادث، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٧ ـ رعاية الله وحفظه تجليات رحمته، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

❑ ربّما كان معنى الآية الكريمة هو: الكيل الذي أعطينا قليل وليس به كفافنا، فلولا نذهب مرة أخرى، لنصيب حصة إضافية.

❑ «نمير» من «مير» أي القمح، والمقصود بـ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نرجع إليهم بالقمح.

❑ يستفاد من ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أنّ حصة كل فرد كانت كيل بعير واحد يستلمها شخصياً.

التعاليم:

١ ـ لا تقتصر عظمة يوسف على إنسانيته بل في تربيته للإنسان ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾؛ (فقد أغدق الهدايا على إخوته الحسّاد الجاحدين سراً ليترك الباب لعودتهم مفتوحاً، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾).

٢ ـ عدم استيفاء مبلغ البضاعة ينطوي على نوع من الإهانة للمشتري، فإن كانت النية هي الإهداء فالأحسن أولاً استيفاء المبلغ، ومن ثمّ إهدائه بأسلوب حكيم، ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ رجل الأسرة مسؤول عن تهيئة طعام أسرته، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾.

٤ ـ استخدام نظام التقنين والحصص في الأزمات تدبير ناجع ومطلوب، ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

❑ موثق هو ما كان فيه ثقة وطمأنينة إلى الوعود والأقوال من قبيل العهد، والقسم، والنذر، ﴿...مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ ينبغي توثيق العقود وعدم الاكتفاء برابطة القرابة، ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الإيمان بالله والقسم والنذر والعهد كانت ولا تزال تمثّل أقوى المواثيق، ﴿مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ من نكث عهداً أو أساء فعلاً ينبغي أن نحكم المواثيق معه في المستقبل، ﴿مَوْثِقًا﴾.

٤ ـ يجب ألّا نسمح بمرافقة أبنائنا للآخرين، إلا بعد نظر وتمحيص، ﴿تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ يجب أن تتضمن العقود فقرة خاصة بالحوادث والطوارئ غير المحسوبة ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ (بمعنى إذا أصابنا طارئ يكون التكليف في هذه الحالة مرفوعاً).

٦ ـ لا ينبغي أن يُنسينا توكيد المواثيق التوكّل على الله، ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ
وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ حنان الأبوة يسع الأبناء جميعاً حتى المخطئين منهم، ﴿يَٰبَنِيَّ﴾.

٢ ـ من الضروري التدبّر وتحرّي سبل المحافظة على سلامة الأبناء، ﴿يَٰبَنِيَّ﴾.

٣ ـ إذا صدر الأمر عن عالم وحكيم فليس ثمّة ضرورة لأن يسأل المأمور عن دوافع الأمر، (﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾؛ تعني نفّذ ولا تناقش عن السبب).

٤ ـ لحظات السفر هي الفرصة الأنسب لإسداء النصائح، فقد قال يعقوب وهو ينصح أولاده عند سفرهم: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾.

٥ ـ لنبتعد عن إثارة الحساسية وإساءة الظن والنظرات الغريبة؛ إذ إنّ دخول

مجموعة من الشباب إلى منطقة غريبة يبعث بلا شك على سوء الظنّ والوشاية، ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾.

٦ ـ لا نكتفِ بالنهي والمنع، بل علينا تقديم الحلول المناسبة، ﴿لَا تَدْخُلُوا۟... وَٱدْخُلُوا۟﴾.

٧ ـ تحقيق الهدف يتطلب طرق جميع الأبواب، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

٨ ـ المدير الكفء يحتاج إلى أن يلاحظ جميع الاحتمالات مضافاً إلى التخطيط، ذلك أنّ الإنسان غير مستقل في إدارة شؤونه، لأنّ إرادة الله تعالى قد تتدخّل في أي لحظة، على الرغم من اتّخاذ الإنسان جميع الاحتياطات والتدابير، إذاً لا ضمانة لتحقّق جميع خطط الإنسان، ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

٩ ـ لا يملك الإنسان إلا التسليم أمام قضاء الله المحتوم، ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

١٠ ـ الله هو حاكم الكون المطلق، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

١١ ـ الاحتياط والمحاسبة لازمان ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾، وكذلك التوكّل على الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعقِل وتوكّل.

١٢ ـ لا يصحّ التوكّل إلّا على الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لأنّه هو الكافي ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهو ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١٣ ـ لقد توكّل يعقوب على الله وحثّ الآخرين على التوكّل، ﴿تَوَكَّلْتُ... فَلْيَتَوَكَّلِ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ
لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ يطرح المفسّرون أقوالاً عدّة حول ما هي الحاجة التي كانت تعتمل في نفس يعقوب ‹ ومما قيل في ذلك:

١ ـ لمّ شمل الأخوين يوسف وبنيامين وخروج الأول من وحدته، حتى لو كان ذلك عبر رميه بالسرقة.

٢ ـ التسريع بلمّ شمل الأب بولده والذي سنفصّله في الصفحات القادمة.

٣ ـ تنفيذ الأمر من دون ضمان العواقب، حاجة يعقوب تمثلت في تنفيذ هذه الوصايا بحذافيرها عبر الدخول من أبواب متعدّدة، والعواقب عند الله.

التعاليم:

١ ـ التجارب المريرة تصقل معدن الإنسان وتهذّبه فينصاع لأقوال الكبار، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾.

٢ ـ طاعة الأب واجبة ومفيدة، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾(*).

٣ ـ إذا تحدّثنا عن سوء أدب الفرد وصفاته الذميمة، فلا ننس أن نذكر إيجابياته أيضاً، ﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ (إذا كان أبناء يعقوب قد وصفوا أباهم بالضلال، فهم اليوم يكفّرون عن ذلك بامتثالهم أوامره).

٤ ـ التخطيط والدقة واتّخاذ الاحتياطات اللازمة نافعة في ظلّ إرادة الله ومشيئته، وما لم يشأ فلا أثر لكل ذلك، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

٥ ـ كان يعقوب يعلم أسراراً وأموراً لم ير مصلحة في الإعلان عنها، ﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾.

٦ ـ إنّ الله يسمع لدعاء الأولياء ويستجيب لحاجاتهم، ﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

٧ ـ علم الأنبياء هو من علم الله، ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾.

٨ ـ لا يعلم معظم الناس من هو العالم الحقيقي، ﴿عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(*).

٩ ـ يهتمّ أكثر الناس بالأسباب وينسون حكمة الله ووجوب التوكّل عليه، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ رأي الأكثريّة ليس معياراً للتمييز بين الحقّ والباطل، ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(*).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

□ تذكر التفاسير أنّه عندما دخل أبناء يعقوب مصرَ، حلّوا ضيوفاً على يوسف، فجعل يوسف طبق غذاء لكل اثنين منهم، وبقي بنيامين وحيداً فأجلسه إلى جانبه، ثمّ أمر بغرفة لكل اثنين وخصّ بنيامين بغرفته، وعندما أصبحا وحدهما طفق بنيامين يشكو ليوسف ما فعله إخوته بحقّهما من إساءات طيلة السنوات الماضية ولا سيّما جريمتهم بحقّ يوسف، وهنا طفح الكيل بيوسف فقال مهدئاً من روع أخيه: لا تحزن، إنّي ما زلت يوسف الذي عرفت لم أتغيّر ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ وذلك لزيادة التأكيد ولم يقل له: (إنّي مثل أخيك).

□ تحتمل الآية ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تفسيرين: الأول، لا تحزن ممّا فعله بك إخوتك، أو لا تهتم بمسألة مكوثك هنا والكيل الذي سيضعوه في متاعك طيلة وجودك عندي.

التعاليم:

١ ـ كان إخوة يوسف حتى الأمس يتباهون بقوّتهم ويقولون: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والآن جاؤوا إلى يوسف وهم صاغرون يلتمسون منه الميرة، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾.

٢ ـ الكلام قسمان: سري وعلني، لقد أسرّ يوسف أخاه بنيامين بقوله: (إنّي أنا أخوك) ؛ (إذاً لكل مقام مقال).

٣ ـ بعض الأمور ينبغي ألّا يُسرّ بها إلّا للخواص، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾.

٤ ـ إذا أصاب الإنسان نعمة فليضع الذكريات المؤلمة وراء ظهره، (لقد التأم شمل يوسف وأخيه وكان شكره هذه النعم نسيان الماضي)، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

- يجب إعداد البريء نفسياً قبل ترتيب أيّ خطة معه (قيل لبنيامين: إنّك ستبقى هنا بحجة السرقة فلا تحزن)، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

- «السقاية» هي الإناء الذي يسقى منه، و﴿ٱلْعِيرُ﴾ القوم الذين معهم أحمال الميرة.
- ليست المرة الأولى التي يطرح فيها يوسف أفكاراً جديدة، فقد وضع حمل بعير في متاع إخوته ليضمن رجوعهم، وهذه المرة وضع سقاية ثمينة في رحل أخيه ليستبقيه عنده.
- في الرحلة السابقة أمر يوسف غلمانه بوضع البضاعة في رحل إخوته، ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾، وفي الرحلة الثانية وضع السقاية بيده في رحل بنيامين (لسرية الأمر هذه المرة)، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.
- ذكرت التفاسير أنّ يوسف اختلى بأخيه بنيامين وسأله البقاء عنده، فوافق بيد أنّه ذكر له ما كان من أمر أبيه وأخذه الموثق من إخوته بإعادته، فقال يوسف: سأتدبّر أمر بقائك فخطّطا معاً لتحقيق ذلك، وهذا الشيء أشبه بما يحصل في الأفلام والمشاهد التمثيلية إذ يؤتى بالشخص ويتظاهر بأنّه مجرم فيقوم المسؤول باستجوابه وحتى تعذيبه، وكل هذا بالاتفاق مع الشخص المعني ورضاه بغية تحقيق مصلحة أسمى.
- **سؤال:** لماذا تمّ توجيه تهمة السرقة في هذه القصة إلى الأبرياء؟

الجواب: لقد اطّلع بنيامين على هذه الخطة والتهمة التي ستلفق، وأعطى موافقته وكامل رضاه للبقاء عند يوسف، وإخوته وإن تعرّضوا للمضايقة والمساءلة إلّا أنّه رفع الاتّهام عنهم وبرّئت ساحتهم في نهاية المطاف، هذا فضلاً عن أنّ

يوسف هو الذي وضع السقاية بنفسه في رحل إخوته ﴿جَعَلَ﴾ من دون علم المسؤولين لذلك كان من الطبيعي أن يصرخ هؤلاء: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

❑ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «الْمُصْلِحُ لَيْسَ بِكَاذِبٍ»[1].

التعاليم:

١ ـ أحياناً، لا مناص من فبركة بعض الأحداث للكشف عن أسرار حادثة ما، لذا، فإنّ توجيه تهمة السرقة إلى البريء (موقّتاً) لدواعي المصلحة العامة، أمر قد تفرضه الظروف، ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

٢ ـ في العادة إذا ظهر مجرم في جماعة ما، باءت الجماعة بإثمه وجريرته، ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات

❑ استعملت كلمتا «صواع»، «سقاية» في شيء واحد، فالسقاية هي إناء للشرب ويمكن استخدامه للكيل، وفي هذا إشارة إلى الاقتصاد واستعمال إناء واحد لأمرين. والصواع أو الصاع هو كيل يسع ما زنته حوالى ٣ كلغ.

❑ «حِمْل» هو ما يحمل، و«حَمْل» مثله ولكن في حالات فيها شيء من الخفاء، كما في الجنين في بطن الأم فهو حَمْل.

❑ وقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، هو ما يعرف في الفقه بالجعالة، وهذا يكشف عن وجود مثل هذا الأمر عند الأمم السابقة.

التعاليم:

١ ـ بادر الإخوة إلى إطلاق عبارة: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ إشارة منهم إلى عدم جواز

(١) الكافي، ج٢، ص ٢١٠.

إلقاء التهم جزافاً قبل التأكّد من الموضوع(*).

٢ ـ رصد الجوائز أسلوب قديم متّبع، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾.

٣ ـ الجوائز ترصد بحسب الأشخاص والظرف الزمني، ويقيناً فإنّ حمل بعير من الميرة أثمن جائزة في ظروف القحط والمجاعة.

٤ ـ الضامن يجب أن يكون شخصاً معيّناً ومحدّداً، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾(*).

٥ ـ وأن يحظى بالاعتبار، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾(*).

٦ ـ اللّجوء إلى الضمان لتوكيد الثقة، أسلوب له سابقة في التاريخ، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾

إشارات:

❏ قال إخوة يوسف: تعلمون أنّنا لم نأت إلى أرضكم لنفسد أو نسرق، أما من أين للمخاطبين هذا العلم (أنّهم لم يأتوا للسرقة)؟ ففي ذلك أقوال عدّة: لعلّ ذلك كان عن طريق تنزيه يوسف إياهم، وقد يكونون مُحّصوا عند دخولهم أرض مصر. إذاً، يجب تفتيش الوفود القادمة والخارجة ـ لا سيّما في أوقات الأزمات ـ للتأكّد من سلامة نواياهم وأهدافهم.

التعاليم:

١ ـ نظافة السيرة، شهادة على البراءة، ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾.

٢ ـ كانت مصر آنذاك تتمتع بجهاز أمني صارم ومتمرّس، وقد تأكّد هذا الجهاز من خلال خبرته أنّ هذه القافلة لم تأت بهدف الإفساد، ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾(*).

٣ ـ السرقة إحدى مصاديق الفساد في الأرض، ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾

إشارات:

❏ أغلب الظنّ أنّ السائل هنا هو النبي يوسف، لعلمه أنّ جواب إخوته سيكون طبقاً لقوانين أرض كنعان وشرعة النبي يعقوب عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ استثارة ضمير المجرم من أجل تحديد العقوبة، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾

التعاليم:

١ ـ عقوبة السرقة في بعض الشرائع السابقة هي استرقاق السارق، ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، وفي تفسير مجمع البيان جاء أنّ الاسترقاق كان لمدة عام واحد.

٢ ـ لم تتضمّن تلك الشرائع أي استثناء أو تمييز، فعقوبة الرق كانت تشمل كل سارق، ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾.

٣ ـ لا بدّ من إطلاع المتّهم على جريمته والقوانين والعقوبات المتعلقة بها وذلك لتبديد اعتراضه أو التقليل منه، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ...﴾(*).

٤ ـ يجب أن تتوافر الأدلة على الوضوح لتكون مقنعة للمتّهم، ﴿مَن وُجِدَ﴾(*).

٥ ـ وجود متّهم وسط جماعة لا يعني تعميم التّهمة على الجماعة بأكملها، ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾(*).

٦ ـ يمكن للمجرم المدان في البلد الأجنبي أن يُحاكم طبقاً لقوانين بلده وليس البلد المضيف، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٧ ـ السرقة، مثال بارز للظلم (حيث جاءت كلمة «ظالم» بدلاً من «سارق»)، ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ
كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

إشارات:

□ لا تستعمل كلمة «كيد» دائما في المعنى السلبي المذموم، بل جاءت هنا بمعنى الخطة، ﴿كِدۡنَا﴾.

□ كان بنيامين مطمئن البال وغير قلق لعلمه المسبق بتفاصيل الخطة، ويدلّ على ذلك عدم اعتراضه في أي موضع من القصة، ولأجل المحافظة على سرية الخطة وعدم إثارة الشكوك، بدأ التفتيش بمتاع الآخرين، وبعد أن وُجدت السقاية في متاعه، تقرّر بقاؤه في مصر بحسب الاتفاق السابق. لقد كانت القصة تدبيراً إلهيّاً؛ لأنّه بحسب قوانين أرض مصر لم يكن بوسع يوسف أن يبقي السارق عنده كرهينة.

التعاليم:

١ ـ ينبغي لعناصر الأمن التصرّف بشكل لا يثير معه الشبهات والظنون، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ (لم تبدأ هذه العناصر التفتيش في متاع بنيامين أولاً، بل بمتاع إخوته).

٢ ـ جرت العادة أن تلقى تبعات أعمال العناصر على مسؤوليهم، ﴿فَبَدَأَ﴾؛ (لا يبدو أنّ يوسف قد أقدم على تفتيش المتاع بنفسه، إلّا أنّه وفقاً لتعبير القرآن الكريم: ﴿فَبَدَأَ﴾).

٣ ـ تفتيش الحاكم لأموال المتهمين أمر مشروع، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾.

٤ ـ التدبّر والتفكّر وتحرّي الحلول هي من جملة المدد الغيبي، ﴿كِدْنَا﴾.

٥ ـ أفكار يوسف كانت إلهاماً إلهياً، ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

٦ ـ بقاء بنيامين عند يوسف كان لمصلحة الأخير، ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

٧ ـ احترام القوانين حتى في الأنظمة غير الإلٰهيّة أمر لازم أيضاً، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

٨ ـ على القادة أيضاً الالتزام بالقوانين وعدم تخطّيها؛ (فقد التزم يوسف بقوانين مصر، من هنا فقد ارتأى إبقاء أخيه بخطة محكمة)، ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

٩ ـ للمنزلة الروحية والمعنوية درجات ومراتب، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾.

١٠ ـ العلم معيار الفضل والرقي، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

١١ ـ العلم البشريّ محدود، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- من الأسباب التي أوردها يوسف لقوله لأخوته: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾، الحسد لأخيهم، والكذب والافتراء.

التعاليم:

١ ـ ليس أمام المتّهم إلّا الإنكار بقوله: لست سارقاً ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، أو تبرير عمله بالقول: إنّ السرّاق كثيرون ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

٢ ـ الحسود ينفث سمّه ولو بعد عشرات السنين، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

٣ ـ سلوك وأخلاق المرء تترك تأثيراً على أخيه، ﴿أَخٞ لَّهُۥ﴾؛ (كما أنّ أخلاق الأم تترك تأثيراً على أخلاق ابنها، فبنيامين ويوسف كانا شقيقين ومن أم واحدة).

٤ ـ عندما يغيب الحب والمودّة، تُكال التّهم جزافاً، ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ﴾؛ (العثور على السقاية في متاع بنيامين ليس دليلاً على السرقة، وتفوّه إخوته بكلمة السرقة وإصرارهم عليها هو بدافع حسدهم وبغضهم إياه).

٥ ـ عندما تغيب المودّة، يُعمل من الحبة قُبَّة، ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾؛ صيغة المضارع تفيد الاستمرارية وقد استخدمها الإخوة بدلاً من صيغة الفعل الماضي لتبيّن نيتهم في القول إنّ دأب أخيهم كان دوماً السرقة.

٦ ـ في سبيل الوصول إلى الهدف علينا تحمّل الافتراءات ووخز الكلام، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

٧ ـ أحياناً يلجأ المرء إلى اتّهام الآخرين ليدرأ عن سمعته السوء، ﴿سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

٨ ـ المروءة والحلم وسعة الصدر، من خصال القيادة. لقد سمع يوسف من إخوته اتّهام السرقة لأخيه؛ لكنّه أسرّها ولم يكشف عمّا في قلبه لهم، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾.

٩ ـ لا ينبغي التفريط بالأسرار تحت ضغط العواطف، (يوسف سمع اتّهام السرقة من إخوته لكنّه لمصلحة أعلى، لم يبدها لهم)، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾.

١٠ ـ إذاعة السرّ فعل قبيحٌ، ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾.

١١ ـ وحتى لو كان بنيامين قد سرق السقاية، فإخوته شرّ منه، لأنّهم اختطفوا أخاهم يوسف من قبل، ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾.

١٢ ـ الحسد ومحاولة القتل وسوء الظن كلّها من الخصال التي دعت يوسف إلى قول: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا
فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾

إشارات:

□ عندما رأى إخوة يوسف أنّ مسألة بقاء أخيهم بنيامين أضحت حتميّة. وفي ضوء العهد الذي قطعوه لأبيهم، ولا سيّما أنّ ذكرى تجربتهم المشينة مع يوسف لا تزال عالقة في ذهن يعقوب، أحسّوا أنّ الرجوع بدون بنيامين سيكون مفجعاً، فلجأوا إلى أساليب التوسّل واستمالة العواطف وتحريك المشاعر، وأخذوا يكيلون له محامد الأوصاف والخصال من قبيل إنّك عزيز ذو سطوة ومن المحسنين، وإنّ والده شيخ كبير، فخذ أحدنا مكانه، كل ذلك ليستجلبوا عطفه وإحسانه.

التعاليم:

١ ـ القضاء الرباني سيهوي بكل ظالم ومستبدّ يوماً ما إلى هاوية الذل؛ (يستشفّ من عبارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ...﴾ لحن العجز والتوسّل).

٢ ـ الله سيعزّ المتقين الذين استذلّهم أصحاب الأهواء، ﴿قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ...﴾(*).

٣ ـ بقي يوسف على اتصافه بالإحسان، على الرغم من العزّ والسلطة اللذان نالهما، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٤ ـ إنّ صروف الدهر وتقلباته ومسيرة التحوّلات اليومية صعوداً وهبوطاً والضعف والقوة لا يمكن لها أن توجد تغييراً في أحوال المحسنين، فيوسف الصديق كان في كل مكان وفي جميع الظروف محسناً. حيث سمع عبارة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من رفاق السجن عندما كان نزيلاً فيه سنوات العذاب، وكذلك سمعها في أوج عزّه واقتداره(*).

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

- دقّة يوسف في انتقاء الكلمات تشير إلى أنّه لم يشأ اتّهام بنيامين بالسرقة، لذا لم يقل: «وجدناه سارقاً»، بل قال: ﴿وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ﴾.
- لو أراد يوسف أن يبقي أخاً غير بنيامين، لفشلت الخطة، ولتصرّف الإخوة معه على أنّه السارق، ولأذاقوه أنواع العذاب، ولشعر ذلك الأخ البديل بأنّه قد اعتدي عليه ظلماً.

التعاليم:

١ ـ احترام القوانين والمقررات واجب على الجميع، وانتهاكها ممنوع حتى لعزيز مصر، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لا يسمح المحسن لنفسه بخرق القوانين، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ...﴾(*).

٣ ـ لا ينبغي للقاضي أن يتأثّر بالعواطف، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

٤ ـ القضاء مسؤولية خطيرة يجب الاستعاذة بالله من تبعاتها، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

٥ ـ لقد استعاذ النبي يوسف في لحظتين: الأولى في خلوته مع زليخا، والثانية عند القضاء وإصدار الأحكام، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾(*).

٦ ـ مخالفة القوانين ظلم وإجحاف، (لا تجوز مخالفة القوانين تحقيقاً لمآرب شخصيّة)، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾.

٧ ـ يجب ألّا يعاقب البريء بدلاً من المسيء، حتى لو كان ذلك برضاه، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ
قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ
فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

□ «خلصوا» أي انفردوا خالصين عن غيرهم، ﴿نَجِيًّا﴾ وانتجيت فلاناً: استخلصته لسرّي، فيكون معنى ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ اختلوا في نجوة من الأرض لدرس ما يمكن فعله.

التعاليم:

١ ـ لنكن أقوياء وحازمين لكيلا يطمع فينا ضعاف النفوس ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾، لا يثنينا التوسّل والرجاء عن تطبيق أحكام الله أو ممارسة الحزم.

٢ ـ الذنب يؤدي بالآخرين إلى البراءة من المذنب، وتجاهل القرابة بينهم وبينه، ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾(*).

٣ ـ ذات يوم اجتمع إخوة يوسف بدافع من الغرور بالقوة والقدرة للكيد بيوسف والبحث في طريقة للتخلّص منه، ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا... لَا تَقْتُلُوا۟... وَأَلْقُوهُ﴾، واليوم رمتهم الأقدار أمام يوسف مطأطئي الرؤوس يتناجون ويتوسّلون لأخذ بنيامين منه، ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

٤ ـ الابن الأكبر ينوب عن أبيه الغائب في تحمّل أعباء المسؤولية في الأسرة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾(*).

■ ـ ضرورة مراعاة التسلسل العمري في الأسرة والمجتمع، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾(*).

٦ ـ ينوء ثقل المسؤولية بالعضو الأكبر في الأزمات واللحظات الحرجة أكثر من غيره، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾(*).

٧ ـ الالتزام بالعهود والمواثيق واجب، ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾.

٨ ـ العقود والمواثيق المحكمة تقطع الطريق على التحايل والالتفاف، ﴿أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾.

٩ ـ الخيانة والجريمة تؤرقان أصحاب الضمائر الحيّة طوال حياتهم، ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾.

١٠ ـ الاعتصام، من الأساليب القديمة المتبعة للوصول إلى الأهداف المنشودة، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾.

١١ ـ الغربة أفضل من الخزي، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾.

١٢ ـ لنحسنْ الظنّ بالله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان مخلوق أناني، فعندما أراد إخوة يوسف الحصول على حصة أكبر من الميرة قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾، أمّا عندما جرى الحديث عن الاتّهامات قالوا: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ ولم يقولوا أخانا.

٢ ـ يجب أن تستند الشهادة إلى العلم واليقين، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

٣ ـ ينبغي تضمين المواثيق والعهود مذكرات إيضاحية تتعلق بالطوارئ والحوادث، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾.

٤ ـ يجب الاعتذار بكلمات صريحة وواضحة، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

- «القرية» بالإضافة إلى معناها المتعارف، تعني أيضاً المناطق الآهلة بالسكان، سواء أكانت مدينة أم ريفاً، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾؛ تعني اسأل أهل القرية.
- «والعير» القوم الذين معهم أحمال الميرة.
- في قصة يوسف مع الذئب لم يكن لدى إخوته أدلة يطرحونها، لكنّهم هنا في هذه الحادثة يعضدون حديثهم بدليلين، الأول سؤال أهل مصر، والثاني سؤال العير الذين كانوا معهم. في حين أنهم في حادثة يوسف قالوا: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، و«لو» تفيد الشك والضعف والاضطراب، في حين أنّهم هنا يذكرون عبارة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، ومعلوم ما في هذه الكلمة من توكيد على صدقهم.

التعاليم:

١ ـ سوابق الكذب والشرّ تضفي ظلالاً من الشك على قول صاحبها ما دام حيّاً، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾.

٢ ـ الشهادة العينيّة أسلوب معتبر في إثبات الادّعاء، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ... وَالْعِيرَ...﴾.

٣ ـ تواطؤ مجموعة كبيرة على الكذب أمر بعيد، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(*).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ
أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

- عندما جاء إخوة يوسف بقميصه المضمّخ بالدم إلى أبيهم متظاهرين بالحزن والبكاء، وقالوا: أكل الذئب يوسف، أجابهم يعقوب: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي زيّنت لكم أنفسكم هذا الفعل وسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي

اتفقتم عليه، وفي هذه الحادثة أيضاً (عندما يفارق ولديه بنيامين وولده الأكبر) يعود يعقوب فيكرّر عبارته السابقة نفسها، وهنا ربّما يطرح هذا السؤال وهو: أنّ حادثة يوسف كانت نتيجة مؤامرة خطّط لها ونفذّها إخوته، في حين أنّه في حادثة بنيامين لا وجود لمؤامرة، إذاً لماذا كرّر يعقوب العبارة نفسها وباللهجة نفسها: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾.

يعلّق صاحب الميزان على الموضوع بقوله: أراد النبي يعقوب بقوله هذا أن يبيّن لأبنائه أنّ افتراق هذين الأخوين هو من آثار صنيعهم الأول تجاه يوسف.

- أحياناً يكون الصبر من قلة الحيلة والعجز، على سبيل المثال كلام أهل جهنّم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾؛ أي لن يكون لصبرنا أو جزعنا تأثير في خلاصنا، وأحياناً أخرى يكون الصبر عن وعي ودراية وطواعية وتسليماً لأمر الله، وينطبع هذا الصبر في كل حالة بطابعه الخاص، من قبيل أن يكون الصبر في ساحة الجهاد ضرباً من الشجاعة، والصبر عن الدنيا زهداً، والصبر إزاء المعاصي تقوى، والصبر على الشهوة عفة، والصبر عن المال الحرام ورعاً.

- تزيين الشرور والقبائح تارة يتمّ بواسطة الشيطان ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[(١)]، وتارة أخرى عن طريق زخارف الدنيا وبهرجها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾[(٢)]، وأخيراً بفعل الإنسان نفسه ﴿سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾.

التعاليم:

١ ـ تقوم نفس الإنسان بتزيين القبائح لتبرّر المعاصي، ﴿سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾.

٢ ـ الصبر ديدن المؤمن والصبر الجميل هو عندما لا يتفوّه الإنسان بما يخدش تسليمه لقضاء الله ورضاه، ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾[(٣)].

٣ ـ ليكن أملنا بالله، ولا نيأس من رحمته، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٨.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٤.

(٣) انظر: نور الثقلين.

٤ ـ كان إيمان يعقوب قوياً بأنّ أبناءه الثلاثة (يوسف وبنيامين والابن الأكبر) أحياء، وأنّه سيلتقيهم يوماً ما، ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

٥ ـ حلّ المشاكل قديمها وجديدها ليس بعسير على الله، فهو قادر على أن يجمع شمل يوسف وأخيه في مكان واحد، ﴿جَمِيعًا﴾.

٦ ـ يرى المؤمن ببصيرته أنّ الشدائد والمحن هي تجسيد لحكمة الله، ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٧ ـ إيقان المرء بحكمة الأفعال الإلٰهيّة يعينه على التصبّر والتجلّد في المحن والمصاعب، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

- «الأسف» الحزن والغضب معاً، كان يعقوب دمع العين، وعلى لسانه لفظة، ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ ويعتصر قلبه الحزن.
- في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه بكى علي بن الحسين عليه السلام عشرين سنة، وما وُضِع بين يديه طعام إلّا بكى.. حتى قال له مولى له...: أما آن لحزنك أن ينقضي؟! فقال له: **«ويحك إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر إبنا فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه... وأنا إلى أبي وأخي وعمي... مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني»**[1].

التعاليم:

١ ـ الحسد يورث الذل دهراً كاملاً، لقد رغب يعقوب عن أبنائه الحاسدين، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٢ ـ كان هؤلاء الأبناء يتمنّون بزوال يوسف أن يأخذوا مكانه في قلب والدهم،

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ١٠٨.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ لكنّهم بحسدهم جلبوا على أنفسهم غضب أبيهم، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٣ ـ كان يعقوب على علم بأنّ الظلم لم يقع على ابن آخر بل وقع الظلم على يوسف وحده، ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

٤ ـ فرط الكرب والبكاء قد يؤديّان أحياناً إلى العمى، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

٥ ـ الندب والبكاء والآهات والحب كلها نابعة من شعور راقٍ بالمعرفة (عمي يعقوب لأنّه كان يعرف من يبكي).

٦ ـ تعظم المصائب بعظمة الأفراد (الإساءة والظلم إلى يوسف تختلف عن الظلم إلى الآخرين، يذكر يعقوب اسم يوسف ولا يذكر اسم أخويه).

٧ ـ الحزن وذرف الدمع على فراق الأحبة جائز، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

٨ ـ لصبر الإنسان حدود وقد يفيض به، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾(*).

٩ ـ كظم الغيظ من صفات المؤمنين وهو أمر محمود، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾(*).

١٠ ـ النحيب والحزن لا يتعارضان مع الصبر وكظم الغيظ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ «حرض» تقال لمن أشرف على الهلاك من شدّة الوجد أو الحزن.

التعاليم:

١ ـ حقّ ليوسف وأمثاله أن يخلد في الذاكرة ولا يمحى منها، ﴿تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ (ما فتئ أولياء الله في دعاء الندبة ينادون يوسف عصرهم ويبكونه).

٢ ـ إن أردت أن تختبر حبك لعزيز عليك، فقس مدى ذكرك له، ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾(*).

٣ ـ في قلب من عرف حقيقة يوسف نار لا يدرك لوعتها غيره، ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾.

٤ ـ المشاكل النفسية تترك تأثيراً على الجسم، ﴿حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، إنّ من الفراق ما قتل، فما بالك بالمصيبة والموت.

٥ ـ عاطفة الأبوة لا ترقى إليها عاطفة، ﴿تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

- «البثّ» فرط الحزن وشدّته ممّا لا يقدر صاحبه على التعبير عنه.
- وردت في القرآن الكريم أمثلة عن إنابة الأنبياء نذكر منها:

أناب سيدنا آدم عليه السلام إلى الله من ذنبه ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[1]، والنبي أيّوب من مرضه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[2]، والنبي موسى من الفقر والحاجة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[3]، والنبي يعقوب من فراق الأبناء، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾.

التعاليم:

١ ـ كتم المصيبة وكبتها يؤثّران على قلب الإنسان وحالته النفسية ويعرّضان سلامته للخطر، وكذلك الصياح والعويل وشقّ الجيوب ما يضرّ بسمعة الإنسان وشأنه، كلا الحالين مذموم. العقل كل العقل في الإنابة إلى الله وبثّ الشكوى إليه، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأنبياء: الآية٨٣.
(٣) سورة القصص: الآية ٢٤.

٢ ـ المؤمن لا يشكو همّه إلّا لخالقه، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ... إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الشخص السطحي يمرّ على الأحداث غافلا، بينما ثاقب البصيرة يرى وراء الأحداث وعمقها حتى يوم القيامة، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ كان النبي يعقوب على علم بحياة يوسف ونهاية فراقهما فضلاً عن علمه بحقائق أخرى عن الله وصفاته؛ الأمر الذي كان خافياً على الآخرين، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٥ ـ ربّما كانت عبارة: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هي تأويل يعقوب لرؤيا يوسف.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

- «التحسّس» هو طلب الشيء بالحواس ويستعمل في الخير، بينما «التجسّس» في الشرّ.
- جعل الراغب «الرَّوْح» و«الروح» اسمين للنفس، بيد أنّ الأخير يقال في مواضع الفرج والرحمة، وكأنّه بحلّ العقد والمشكلات، تنفخ روح جديدة في الإنسان. جاء في تفسير التبيان: «الروح» من «الريح» وهو ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، وكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح، وتلك الراحة نفسها يشعر بها مع هبوب نسمات الرحمة الإلٰهيّة.
- جاء في الروايات، أنّ اليأس يندرج في عداد الكبائر[1].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للوالد قطع صلته نهائياً بأبنائه (على الرغم من أنّ الوالد قد رغب عن أبنائه بحسب الآية الكريمة، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ لكنّه عاد في هذه الآية ليغمرهم بعطفه بقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾.

(١) من لا يحضره الفقيه، باب معرفة الكبائر.

٢ ـ المعرفة بحاجة إلى النشاط والحركة، ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾.

٣ ـ لا يمكن بلوغ اللطف الإلٰهيّ بالكسل، ﴿ٱذْهَبُواْ... وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾.

٤ ـ أولياء لا ييأسون ويحولون دون يأس الآخرين، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾.

٥ ـ اليأس، سمة الكفر ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ ذلك أنّ اليائس يصوّر لنفسه بأنّ قدرة الله قد انتهت.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

- «بضاعة» قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة، و«مزجاة» من الإزجاء وهو: السوق بدفع. والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار.
- يقول بعض المفسّرين: المراد من ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ طلبهم استرداد أخيهم بنيامين.
- وتقول الروايات: حمّل يعقوب أبناءه رسالة إلى يوسف يثني فيها عليه ويشرح أحوال كنعان والقحط الذي حلّ بها مع طلب إطلاق بنيامين وتبرئة إخوته من السرقة وأن يعيدهم جميعاً إليه، وعندما تلا يوسف الرسالة أمام إخوته قبّلها ومسحها على عينيه ثم بكى حتى ابتلّت ثيابه. تعجّب إخوته من هذا الاحترام والتبجيل لأبيهم، إذ لم يكونوا قد اطّلعوا على هويته بعد، فبدأ بريق الأمل يتوهّج في عيونهم رويداً رويداً، ولا سيّما عندما رأوا ضحكات يوسف فقالوا: هوذا يوسف[1].

التعاليم:

١ ـ كان همّ يعقوب هو يوسف ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾، بينما كانت الميرة الشغل الشاغل لإخوة يوسف، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله...

٢ ـ من يحتقر سيُحتقر يوماً، فالإخوة الذين كانوا يتبجّحون بالقول ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ و﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾، و﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، جاؤوا اليوم وكلّهم ذلّ وحقارة ليقولوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

٣ ـ طلب المساعدة والعون يحتاج إلى أدب خاص يتلخص في:

أ ـ الثناء على المعين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾.

ب ـ شرح الحالة وطرح الحاجة: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

ج ـ نقص المؤونة (الفقر المالي): ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾

د ـ خلق الدافع لدى المعين لترغيبه في المساعدة، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٤ ـ كفى بالفقر ذلاً، ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ ربّما تضمّن السؤال الواحد مجموعة من الأهداف، سواء أكانت إيجابية بنّاءة أو سلبية مزعجة، فسؤال يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قد يكون أراد من خلاله القول إنّه كان يعلم بمجريات الحدث، أو يكون الهدف أن يبيّن لهم سوء فعلهم ليتوبوا، أو لعلّه أراد أن يشفي غليل أخيه بنيامين الذي كان حاضراً في المجلس، أو التوبيخ والتقريع، أو إظهار ما أنعم الله عليه من عزّ ومنعة، أو التعجّب من صلفهم في التماس التصدّق مع كل ما صدر عنهم من جرائم.....

من الأسباب المذكورة أعلاه، نعتقد أنّ الثلاثة الأولى تنسجم مع منزلة يوسف وشأنه، بينما البقيّة تتناقض مع ما تذكره الآيات التالية من شهامته وكرامته؛ إذ إنّه على الرغم من اتهامه بالسرقة سكت عن ذلك ولم يردّ عليهم بل وقال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

□ لا يقتصر لفظ الجهل على المعنى المشهور له، بل يفيد أيضاً غلبة الشهوات على لبّ الإنسان، وهو نوع من الغفلة، والمذنب جاهل وإن كان عالماً ذلك لأنّه بغفلته يشتري لنفسه جهنّم.

التعاليم:

١ ـ يوماً ما ستنتشر صحيفة أعمال الإنسان وسوف يُسأل عمّا فعل، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾.

٢ ـ الشهامة هي في تجاهل صغائر الخلافات؛ لهذا نرى يوسف يسأل بشكل مجمل، ﴿مَّا فَعَلْتُم﴾.

٣ ـ إذا حظيت بالقدرة والسطوة فلا تنس المظلومين، ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

٤ ـ الشهامة هي في التماس العذر للمذنب، (قال يوسف لإخوته: الذي بدر منكم كان في زمن الجهل وليس الآن)، ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

□ مع مضيّ الوقت، كانت حيرة الإخوة تزداد بسبب بكاء ملك مصر وهو يتلو رسالة يعقوب، فكيف عرف بقصة يوسف؟ أما وإنّه يشبه إلى حدّ كبير يوسف، أفهل يكون هو يوسف نفسه؟ أليس الأفضل أن نسأله مباشرة، وماذا إن لم يكن يوسف، أفلن يتصوّر عند ذاك أنّنا مجانين؟ وإذا كان هو، فكيف سنغطي خجلنا ممّا فعلنا به؟ وهكذا كان إخوة يوسف بين شدّ وجذب مع الأفكار حتى كسروا صمتهم بسؤال العزيز: أنّك لأنت يوسف؟

والآن، ماذا كان المشهد التالي، بالله عليك أيّ رسام يستطيع أن يعبّر عمّا يختلج في صدور الإخوة من أحاسيس مختلطة من الخوف والخجل والغبطة

والفرح والبكاء الذي انتهى إلى العناق الحارّ، لا يمكن لأحد أن يتصوّر روعة المشهد وعظمته.

- لا بدّ من توفير الأجواء المناسبة للناس لطرح الأسئلة والاستفسار من أجل ترغيبهم في الصلاح وتربيتهم. كانت علامات الاستفهام والسؤال تكبر في أذهان إخوة يوسف، وكانوا يقولون في أنفسهم: لماذا أصرّ العزيز على أن نصطحب بنيامين معنا؟ ما سرّ العثور على السقاية في رحلنا؟ لماذا أعاد إلينا أموالنا في المرة الأولى؟ من أين له العلم بقصة يوسف؟ هل سيستمرّ في إعطائنا الميرة؟ وهكذا، أسئلة وهواجس عدّة كانت تتصارع في داخلهم حتى قرّروا كسر صمتهم بالسؤال: أإنّك لأنت يوسف؟ فأجابهم: بلى، فما كان للناس أن يعرفوه ما لم يأذن الله له بتعريف نفسه.

- عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إنّ في القائم (عجل الله فرجه) سنّة من يوسف عليه السلام... وهم لا يعرفونه حتى يأذن الله عز وجل له أن يعرفهم نفسه...**»[1].

التعاليم:

١ ـ تمرّ السنوات وتتوالى الحوادث المريرة والسارة، فتترك أثرها العميق على العلاقات والمعارف لدرجة لا يمكن معها للأخ أن يتعرّف إلى أخيه، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾.

٢ ـ أولياء الله يرون أنّ جميع النعم هي من عند الله، ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾.

٣ ـ يثاب الإنسان على صبره وتقواه في الدار الدنيا أيضاً، ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ...﴾(*).

٤ ـ الجدير بالقيادة والحكم هو من صمد أمام رياح الحوادث والحسد وأمسك على نفسه شهوتها وصبر على الذل والسجن ودعاية السوء، ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾.

٥ ـ الدعوة لها فرصها الخاصة فجدّ في اغتنامها (فعندما أدرك إخوة يوسف قبيح فعالهم وكانوا مهيّئين لسماع نصائح يوسف، قال لهم: ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾).

---

(١) بحار الأنوار، ج١٢، ص٢٨٣.

٦ ـ اللطف الإلهيّ يخضع لمعايير الحكمة الإلهيّة، ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ الصبر والتقوى مصدر العزّة والكرامة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾.

٨ ـ الصبر والتقوى من خصال المحسنين، ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(*).

٩ ـ من السنن الإلهية أن يحكم الصالحون، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

❑ «الإيثار» هو التفضّل وتفضيل الآخرين على النفس في شيء من حظوظ الدنيا، إخوة يوسف غرّتهم عصبتهم، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، وخططوا لفعلتهم الشنيعة وقالوا: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، ثم ابتلاهم الله بمضائق البلاء فاضطرهم إلى التوسّل والرجاء من أجل سدّ رمقهم، ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، بعد ذلك اعترفوا بجريرتهم، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، ليتحوّل ذلك النهج الخاطئ إلى قبولهم بحقيقة أنّ الله تعالى قد رفع يوسف وأذلّهم، ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

❑ استخدم إخوة يوسف صيغة القسم «تالله» عدّة مرات:

١ ـ قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾.

٢ ـ قالوا لأبيهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾.

٣ ـ قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

٤ ـ وقالوا أخيراً: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

التعاليم:

١ ـ إذا منعنا الحسد من الإقرار بفضل الآخرين وكمالهم، فسنرغم على فعل ذلك تحت وقع الذلّة والإكراه، ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

٢ ـ لا يمكن الوقوف بوجه إرادة الله، ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

٣ ـ لنتصرّف في أوقات اليسر بشكل لا نندم معه في أوقات العسر، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ... وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾(*).

٤ ـ الاعتراف بالخطأ سبيل العفو، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

❑ «التثريب» التقريع والتقرير بالذنب.

لمّا كان يوم فتح مكة، تحصّن المشركون بالكعبة، وقال عمر بن الخطاب: اليوم سننتقم منهم، فقال الرسول الكريم ﷺ: **«اليوم يوم المرحمة»**، ثم قال للمشركين: **«ما تظنون أنّي فاعل بكم»**؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **«أقول لكم ما قاله يوسف لأخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء»**، فقال عمر: إنّي لأستحي ممّا قلت[1].

❑ يقول الإمام علي عليه السلام: **«إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»**[2].

❑ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن تأخير يعقوب عليه السلام الاستغفار لأبنائه ومبادرة يوسف عليه السلام إلى ذلك، فقال: **«لأن قلب الشاب أرقّ من قلب الشيخ...»**[3].

التعاليم:

١ ـ آلة الرئاسة سعة الصدر، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾. بلى، من يغفر خطايا إخوته دفعة واحدة جدير بالرئاسة.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١١.

(٣) بحار الأنوار، ج١٢، ص٢٨٠.

٢ ـ لنقبل اعتذار المخطئ كي لا نخيّب أمله فينا، ﴿كُنَّا لَخَاطِئِينَ... قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

٣ ـ ليكن صفحنا على رؤوس الأشهاد حتى يتعلّم الآخرون الصفح أيضاً، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

٤ ـ أخذ يوسف يداوي جرح إخوته النفسيّ، لنفعل نحن ذلك أيضاً، ﴿لَا تَثْرِيبَ...﴾.

٥ ـ ينبغي أن نبادر إلى العفو ولا نؤجله، ﴿...ٱلْيَوْمَ﴾.

٦ ـ العفو عند المقدرة من شيم أولياء الله، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

٧ ـ لنتعلّم الشهامة من يوسف عندما تنازل عن حقّه وسأل ربّه العفو والمغفرة، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ... يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

٨ ـ إذا كان العبد يصفح لأخيه العبد فهل ننتظر من الله غير العفو، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

٩ ـ الصفح عن المنيبين، سيرة إلٰهيّة دائمة، (جاء الفعل يغفر في صيغة المضارع).

١٠ ـ يشمل الله بعفوه حتى الذين أساؤوا إلى النبيين (يعقوب ويوسف) لسنوات، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؟

١١ ـ العفو والصفح عن المسيء، يستجلب المغفرة الإلٰهيّة، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ... يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

١٢ ـ من آداب الدعاء والاستغفار نسبة المغفرة والرحمة إلى الله، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

☐ ذكر قميص يوسف في هذه القصة في مواضع عدّة هي:

أ - ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

ب - ﴿قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾.

ج - ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾.

□ إن كان قميص يوسف يلقى على الأعمى فيرتدّ بصيراً، فأيّ ضير في التبرّك بمراقد الأولياء وأبوابهم وبالطرق المؤدّية إليهم، والقماش الذي يحمل عبق عطرهم.

□ إلى هنا انطوت صفحة التعرّف على يوسف والاعتذار منه وصفح يوسف عنهم ثم طلب المغفرة والعفو من الله، إلَّا أنّه بقي أثر واحد للجراح التي سبّبها إخوة يوسف وهو عمى أبيهم يعقوب؛ إذ تعرض الآية المرهم الذي قدّمه يوسف لهذا الجرح، فقال لهم: ليلقي القميص على أبي من ألقاه عليه أول مرة مضمّخاً بالدم، حتى يدخل على قلبه السرور بالقميص نفسه الذي كان سبب ألمه من قبل.

□ ورد في الروايات: كان يوسف يُجلِسُ إخوته إلى مائدته كل يوم وليلة، حتى أحسّوا بالتصاغر والخجل من فعلتهم، فطلبوا أن يستقلّوا بمائدتهم لأنّ نظراته كانت تثير فيهم مشاعر الاحتقار لأنفسهم، فأجابهم يوسف: لكنّي أحسّ بالفخر بمجاورتكم والجلوس على مائدة واحدة معكم، ذات يوم كان الناس يقولون حين يرونني: «سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ.»، أمّا اليوم فإنّ وجودكم إلى جانبي هو مصدر فخر واعتزاز لي، ليعلم الناس أنّي لست عبداً لا أصل له ولا نسب، فأنا كنت غريباً على الرغم من أنّكم إخوتي وأنّ يعقوب أبي[1]، (يا لشهامة الفتى ورجولته).

□ يُروى أنّ آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري كان في سفر إلى طهران للمعالجة فبات ليلة في مدينة قم، فزاره عدد من الناس وحضّوه على نقل الحوزة العلمية من مدينة أراك إلى قم، لفضلها ولأنّها تضمّ مرقد كريمة أهل البيت عليهم السلام السيدة

(١) التفسير الكبير.

فاطمة بنت موسى الكاظم عليه السلام، فآثر أن يستخير الله قبل أن يجيبهم فجاءت الآية الكريمة ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ يجوز التبرّك بالأشياء المتعلّقة بأولياء الله، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾؛ (لقد ردّ قميص يوسف إلى أبيه بصره).

٢ ـ من يحارب الأهواء، حتى لباسه يصبح من المقدّسات، ﴿بِقَمِيصِي﴾.

٣ ـ رؤية المقدّسات فقط لا تكفي بل ينبغي لمسها، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾.

٤ ـ لكل من الحزن والسرور آثره على العين، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ... يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ ربّما لهذا السبب يطلق على الولد الصالح «قرة العين»، (هذا إذا لم نكن نريد النظر إلى المسألة على أنّها معجزة).

٥ ـ أحيا الوصال الأمل في روح الوالد العجوز وأضاء النور في عينيه، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾

٦ ـ لا تعرف المعجزة والكرامة عمراً محدداً، (لقد أبصر الوالد بإلقاء الثوب عليه).

٧ ـ يبدو أن يوسف كان يعلم شيئاً من الغيب، وإلا كيف عرف أن أباه سوف يرتدّ بصيراً، ﴿...يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

٨ ـ لقد داوى الله تعالى يعقوب بالتي كانت هي الداء، فقلب حزنه سروراً وفرحاً، (كان القميص يوماً فاتحة الأحزان واليوم أصبح بشرى خير ومسرّة)(*).

٩ ـ يجب على الأبناء الميسورين أن يشملوا برعايتهم ومساعدتهم المعدمين من الأقارب ولا سيّما الوالدين، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٠ ـ الظروف الاجتماعيّة تؤدي دوراً في قيام المرء بمسؤولياته ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ (الفترة التي وصل يوسف بها رحمه حتّمت عليه أن يأتي بأهله إلى مصر).

١١ ـ مساعدة الأقربين واجبة مع الحفاظ على حقوق سائر الناس، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾.

١٢ ـ في الهجرة وتغيير محل السكن آثار كثيرة منها أنّها تعالج الذكريات المؤلمة، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٣ ـ من الأفضل للأسرة والأقارب أن يتجاوروا في السكن، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٤ ـ لم يتحمّل إخوة يوسف وجوده فألقوا به في الجبّ، ولكن مروءته اقتضت دعوة إخوته وجميع أفراد أسرته إلى مصر، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(*).

١٥ ـ مهما بدر من الأقارب فلا ينبغي قطع صلة الرحم، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٦ ـ آن الأوان لمن عانى الأمرّين أن يرتاح أخيراً ﴿أَجْمَعِينَ﴾، ما عاد يعقوب يصبر على الفراق.

١٧ ـ اللطف كل اللطف هو عندما يكون شاملاً للجميع من دون استثناء، ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾

إشارات:

□ «الفصل» إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، و﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ خرجت القافلة من مصر، ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ مشتقة من (فند) وهو ضعف الرأي والسفه.

□ خشي يعقوب أن ينسبه أهله إلى السفه والفند، فقال: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، وللأسف، الشيء نفسه حصل مع صحابة نبينا الكريم محمد ﷺ ومن حوله عند احتضاره حين طلب دواة وصحيفة ليكتب لهم كتاباً لن يضلّوا بعده أبداً، فقال بعض من كان عنده: «إنّ الرجل ليهجر»[1]، فحالوا بينه وبين الصحيفة.

---

(١) الصوارم المهرقة، ص ٢٢٤.

□ **سؤال**: كيف يتسنّى ليعقوب وحده أن يشعر بريح يوسف؟ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

الجواب: وما المانع في ذلك؟ أليس الوحي مختصّاً بالأنبياء دون سواهم، كذلك الأمر في سائر القضايا الأخرى. في معركة الخندق، كان النبي يشارك المؤمنين في حفر الخندق فضرب بمعوله على الصخرة فخرج منها شرارة ضخمة وصاح الرسول ﷺ: «**الله أكبر فتحت فارس، الله أكبر فتحت الروم**»، لكنّ بعض ضعيفي الإيمان كانوا يسخرون ويقولون: إنّ النبي يحفر الخندق لشدّة خوفه من الأعداء، ومع ذلك يبشر بالفتح بلاد فارس والروم.

□ لعلّ المراد من ريح يوسف وصول أخبار جديدة سارة عن يوسف، وتعرف هذه الفكرة في علم النفس بـ«التخاطر» أو (Telepathie) وهو اتصال الأفكار بين شخصين ويتمّ من بعيد بغير طريق الحواس، كأن يقع حادث معيّن للشخص الأول في زاوية من العالم، ويشعر بها الشخص الثاني.

سأل أحدهم الإمام الباقر عليه السلام: أحياناً يغمرني شعور عميق بالحزن لدرجة ينتبه إليه جميع من حولي، فأجاب بأنه: خُلق المسلمون من طينة واحدة وحقيقة واحدة، فما أن يقع لأحدهم سوء في بقعة ما حتى ينتقل شعور الحزن إلى البقيّة في سائر البقاع[(١)].

□ إذا ربطنا مسألة استشمام ريح يوسف بحاسة الشمّ، فينبغي أن يكون هذا الأمر معجزة خصّ الله بها يعقوب.

مثل هذه الحالات كثيراً ما قرأنا عنها في صفحات التاريخ الإسلامي الخالد إذ كان المجاهدون الذين شرّفهم الله بالشهادة، يشمّون ريح الجنّة عندما يشتد أوار الحرب ويحمى وطيس المعركة، وهو ما يعجز فهمنا القاصر عن إدراك كنهه، ومن هؤلاء: الصحابي الجليل عمّار بن ياسر الذي ذرّف على التسعين وكان يقاتل عن إيمان ويقين ويشمّ عبق الجنّة، فثبت في القتال حتى رزق الشهادة. قد يكون المراد من ريح الجنّة في الحالة الروحية والمعنوية التي تتهيّأ

---

(١) تفسير نمونه.

للإنسان، والتي تضفي على الدعاء والابتهال عذوبة وحلاوة معنوية، أو ربّما كانت الريح حقيقيّة واقعية لكنّ عبقها لا يصيب إلا من كان ذا حظ عظيم.

التعاليم:

١ ـ نقاء السريرة يتيح للإنسان بلوغ كنه الحقائق المعنوية، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾؛ لكن في نطاق محدود وليس بصورة مطلقة ومتى أراد، لذا فإنّه شمّ ريح القميص بعد ابتعاد القافلة ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾.

٢ ـ إذا كنّا لا ندرك كنه الحقائق، فعلى الأقل لا نشكّك في منزلة الآخرين، ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

٣ ـ أكثر الناس للحقّ كارهون لذلك يصمون أهل الحق بالسفه، ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾(*).

٤ ـ صعب على العالم أن يعاشر الجاهل، ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

▫ تقدّم في الآية الثامنة من هذه السورة أنّ إخوة يوسف قالوا عن أبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذه الآية يقولون: ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي لا زلت تتخبّط في ضلالك السابق.

▫ لا يستطيع الفرد العادي أن ينظر إلى أولياء الله من منظار فهمه هو ويحكم إن كان هذا الشيء ممكناً أم لا، يقول الإمام علي عليه السلام: **«الناس أعداء ما جهلوا»**.

التعاليم:

١ ـ لا نجعل من أنفسنا ميزاناً نحكم من خلاله على أعمال الصالحين، ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ﴾؛ (نعت إخوة يوسف أباهم بالضلال ناجم عن مقارنتهم فهمه مع فهمهم هم).

٢ ـ ظلّ يعقوب مؤمناً بحياة يوسف طيلة فراقه وكان يعلن ذلك لمن حوله؛ رغم أنهم كانوا يرمونه بالضلال والسفه، ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

- ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ تعبير عن ذهاب بصره، في مقابل ﴿بَصِيرًا﴾ أي عاد إليه بصره، ويدلّ ذلك على تأثير الحزن والفرح الشديدين على البصر، وربّما كان المراد العمى التامّ كما يدلّ على ذلك ظاهر الآية ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ فذلك يكون بمثابة معجزة يبرهن عليها القرآن الكريم.
- يوم لك ويوم عليك، في يوم ينقل أبناء يعقوب خبر أكل الذئب ليوسف وفي يوم آخر ينقلون إليه خبر وجود يوسف على رأس السلطة في مصر.

التعاليم:

١ ـ العلم الإلٰهيّ هو مصدر إلهام الأنبياء، ﴿أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ قلوب الأنبياء مطمئنة لتحقّق الوعد الإلٰهيّ، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾؛ (أي ألم أقل لكم ألّا تيأسوا من رحمة الله واذهبوا إلى مصر وتحسّسوا يوسف).

٣ ـ على عكس أبنائه، كان يعقوب واثقاً من حياة يوسف ولقائه مجدداً وانتهاء أمد فراقهما، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾.

٤ ـ الابن الضالّ يذهب ببصر أبيه، والابن البار يعيده إليه، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ... فَٱرْتَدَّ﴾.

٥ ـ قوانين الطبيعة تحكمها إرادة الله ومشيئته، ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

٦ ـ ربّما كان لباس أولياء الله وأشياؤهم ذات قيمة وأهميّة، ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

٧ ـ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، كان القحط قاسياً لكنّه كان سبباً في إطلاق سراح بريء مثل يوسف ووصوله إلى رأس هرم السلطة، ووصاله بأبيه يعقوب وانتهاء القحط، ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

إشارات:

□ كان أبناء يعقوب موحدين ومؤمنين بالله وعلى علم بمنزلة أبيهم ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وبالتالي نعتهم أباهم بالضلال ليس المراد منه فساد العقيدة، بل ضلاله في حبه ليوسف.

□ للظالم ثلاثة أيام: يوم للقدرة، ويوم للمهلة، ويوم للندم.

وللمظلوم أيضاً أيام ثلاثة: يوم الحسرة يُظلَم فيه، ويوم الحيرة يتدبّر لنفسه، ويوم النصرة في هذه الدنيا أو في الآخرة.

□ أولئك الذين قالوا بعد خطئهم الأول: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، قالوا بعد أن أدركوا خطأهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

□ ورد في تفسير مجمع البيان وأطيب البيان أنّ النبي يعقوب عندما وعد أبناءه بأن يستغفر لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾، كان ينتظر ليلة الجمعة أو السحر للدعاء.

التعاليم:

١ ـ الظلم مرتعه وخيم، شتّان بين يوم إلقاء أبناء يعقوب يوسف في الجبّ، ويوم ندمهم وطلبهم المغفرة، ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

٢ ـ يجوز التوسّل بأولياء الله للصفح عن الذنوب، ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

٣ ـ لدعاء الوالد أثر خاص، ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

٤ ـ الوقت مناسب دائماً للتوبة، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

٥ ـ الاعتراف بالخطأ يفتح الباب على الصفح، ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

٦ ـ للدعاء أوقات خاصة، ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.

٧ ـ ليس من خصال الوالد الحقد أو أن يحفظ إساءة الأبناء في ذاكرته، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.

٨ ـ إذا اعترف المخطئ، فلنكف عن إيلامه، فعندما قال الأبناء: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، قال الأب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾.

٩ ـ لنذكّر المخطئ بمغفرة الله، ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾.

١٠ ـ دعاء الأولياء وتوسّلاتهم مثمرة مع الصبر، ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾.

١١ ـ لقد تجاوز النبي يعقوب عن حقّه، وبالنسبة إلى الحق الإلٰهيّ وعد أبناءه بالاستغفار، ﴿أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾.

١٢ ـ إنّ الله يشمل برحمته أعظم الذنوب والمذنبين، ﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ على الرغم من أنّ الأذى قد طال لسنوات مديدة اثنين من أنبياء الله، فلا يأس من مغفرته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ
وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾

إشارات:

- لا أدري كيف أدوّن هذا الجزء من القصة! لقد خرج يوسف إلى خارج المدينة لاستقبال والديه فنصب الخيام هناك ووقف ينتظر قدومهم ليدخلهم إلى أرض مصر معززين ومكرمين ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ... ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، وبديهي أنّهم عندما أرادوا السفر إلى مصر خرجت كنعان عن بكرة أبيها في توديع يعقوب وأسرته.

لقد سمع الناس بعد سنوات طويلة خبر حياة يوسف وسلامته وكيف عاد ليعقوب بصره ولهفته للقاء ولده يوسف، لقد سمعوا بذلك وشاركوا الأب والابن فرحتهما بنهاية الأحزان، لا سيّما وأنّ يوسف قد أصبح المسؤول عن خزائن مصر، وهو الذي لم ينسهم أبداً في سنوات القحط المريرة عندما كان يرسل الميرة إلى كنعان. كيف لليراع أن يصف هذه الأشواق والمشاعر الجياشة ويكتب نهايتها.

- نستشف من كلمة ﴿أَبَوَيْهِ﴾ في الآية بأنّ والدة النبي يوسف كانت على قيد الحياة؛ لكن السؤال الذي لم أعثر له على جواب هو: لماذا لم تأت القصة على ذكر بكاء الأم ومعاناتها وردود فعلها إزاء ما حصل لولدها طيلة هذه السنوات؟
- ورد في الأخبار أنّ يعقوب ألحّ على يوسف وأقسم عليه أن يعيد عليه ذكر قصته، فما أن شرع يوسف يسرد قصته وكيف أنّ إخوته اقتادوه إلى البئر وقاموا بتهديده ونزع ثيابه، حتى خرّ يعقوب على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق طلب من يوسف مواصلة سرد القصة وألحّ عليه، ولم يكفّ حتى أقسم يوسف عليه بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يعفيه من سردها فوافق يعقوب[1].

التعاليم:

١ ـ الخروج إلى أطراف المدينة لاستقبال الضيوف عادة حميدة، يستفاد من الآية ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أنّ مراسم استقبال يوسف ليعقوب تمّت خارج المدينة، حيث نصب يوسف ورهطه الخيام هناك، وما أن وصلت القافلة حتى قال لهم يوسف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن يحول المنصب والجاه دون إقامة فروض الطاعة للوالدين، ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾.

٣ ـ عند الحديث عن الأمن في البلاد، يجب على المسؤول الأول في البلاد أن لا ينسى ألطاف الله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ إذ لن يستتب الأمن إلا بمشيئة الله وإرادته، كالذين جعلوا من الجبال مساكن لهم ليأمنوا من عذاب الله، فلمّا جاءتهم الصيحة قلبت عالي بلادهم سافلها، ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[2].

٤ ـ الأمن معيار مهم لاختيار السكن، ﴿ءَامِنِينَ﴾.

٥ ـ عندما يحكم يوسف وأمثاله، لا بد من استتباب الأمن، ﴿ءَامِنِينَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير...؛ ومجمع البيان.
(٢) سورة الحجر: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

إشارات:

- «العرش» سرير الملك، «الخرّ» السقوط الذي يسمع منه الصوت، «البدو» البادية والصحراء، و«النزع» الدخول في أمر لإفساده.
- ﴿لَطِيفٌ﴾ من أسماء الله الحسنى، بمعنى أنّ قدرته تنفذ إلى ثنايا الأعمال المعقدة، ووجه استخدام اللفظ هو أنّ سيرة يوسف كانت مليئة بالعقد التي نفذت إليها قدرة الله وقامت بحلّها.
- أضحى يوسف كعبة، وخرّ أبواه وإخوته أمامه ساجدين لله تكريماً له وشكراً لله، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾؛ ولو كانت هذه السجدة لغير الله شركاً لما قام يعقوب ويوسف (وهما نبيان) بالسماح بهذا، ربّما كانت هذه السجدة علامة على تواضع وليست عبادة، وفي هذه الحالة تكون سجدة ليوسف وبالتالي لا غبار عليها.
- كما قال النبي يعقوب لولده يوسف في أول القصة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أعاد يوسف العبارة بصيغة أخرى فقال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.
- من الملفت أن نرى النبي يعقوب يقول ليوسف في بداية القصة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآية ٦، وفي ختام القصة، قال عبارة بالمعنى نفسه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

التعاليم:

١ ـ اعلم أنّك مهما بلغت من منزلة فوالداك فوقك، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ الفضل على قدر المشقة.

٢ ـ الأنبياء أيضاً جلسوا على أريكة الحكم، ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

٣ ـ تقديم الاحترام إلى حكام العدل والتواضع أمامهم أمر واجب، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

٤ ـ سجود يعقوب وأبناءه ليوسف كان تأويلاً لرؤيا يوسف، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

٥ ـ سبحان الله الحليم، أحياناً قد تستغرق إجابة دعاء أو تأويل رؤيا سنوات مديدة، ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾.

٦ ـ الآمال والأحلام تتحقّق بمشيئة الله وإرادته، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، لم يقل يوسف شيئاً عن صبره وجلده بل نسب ذلك كلّه إلى فضل الله.

٧ ـ رؤيا أولياء الله حقّ، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

٨ ـ في تعاطينا مع الأسباب والوسائط ليكن هدفنا الله تعالى فهو الرقيب، لقد تضافرت أسباب وعوامل عدّة وأدّت إلى وصول يوسف إلى المقام الذي وصل إليه، لكنّه مع ذلك يقول: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾.

٩ ـ لنسعَ عند اللقاء تحاشي ذكر آلام الماضي، أوّل ما تفوّه به يوسف عند لقاء أبيه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم ينبس ببنت شفة عمّا جرى عليه من مآسٍ في البئر والسجن والتهم والافتراءات، بل تحدّث عن خلاصه من السجن.

١٠ ـ لنتحلّ بالشهامة والرجولة ولا نؤذي ضيفنا (في الآية الكريمة يطرح يوسف مسألة خروجه من السجن؛ لكنّه لا يذكر شيئاً عن خروجه من البئر لئلا يجرح مشاعر إخوته)، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾.

١١ ـ لنكن من أهل الشهامة والفتوة لا من أهل العقد والثأر. يقول يوسف: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾، إنّه فعل الشيطان، وإلّا فإنّ إخوتي ليسوا بأشرار.

١٢ ـ ينظر أولياء الله إلى دخول السجن وإلى الخروج منه في إطار التوحيد والربوبيّة، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ (الآيات السابقة) ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾.

١٣ ـ عند تناهي الشدّة يكون الفرج، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾.

١٤ ـ حياة البداوة اضطرار وليست قيمة، لذلك تشير الآية إلى نعمة انتقال حياتهم من البداوة إلى المدينة، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ... وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾.

١٥ ـ وجود الوالدين بقرب الأبناء يعدّ من ألطاف الله تعالى، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ... وَجَآءَ بِكُم﴾.

١٦ ـ كانت مصر في عهد النبي يوسف تتمتع بحضارة مدنيّة بينما كانت أرض كنعان تعيش حياة بداوة، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾.

١٧ ـ السفر ضروري لحياة أفضل، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾.

١٨ ـ المؤمن المخلص يعزو كل شيء إلى الله ولا يتبرّم من الحوادث، (كلمات هذه الآية من قبيل «جَعَلَهَا رَبِّي، أَحْسَنَ بِي، أَخْرَجَنِي، وجَاءَ بِكُمْ» تدلّ جميعها على اللطف الإلٰهيّ).

١٩ ـ يجب أن يعلم أعضاء الأسرة الواحدة أنّ الشيطان يتربّص بهم، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

٢٠ ـ لنتجنب النظرة الاستعلائية ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، في هذه الآية لم يقل يوسف: (وسوس لهم الشيطان)، بل قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، أي جعل نفسه بمصافهم.

٢١ ـ أفعال الله مقترنة بالرفق واللطف والإمهال، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾.

٢٢ ـ تقع الأحداث كلّها، حلوها ومرّها، في إطار العلم والحكمة الإلٰهيّين، ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢٣ ـ بعد العفو لا داعي للإحراج وتذكير المذنب بذنبه؛ إذ لم يشر يوسف إلى البئر وقصته.

﴿۞رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

إشارات:

- دأب الأولياء الصالحين أنّهم كلما نظروا إلى قدرتهم وشأنهم تذكّروا قدرة الله عليهم فيقولون: أللهمّ، كل ما نملك هو من عندك، وكذلك قال يوسف، فقد صرف الحديث عن أبيه إلى ربّه.

أعطى الله ملك مصر لاثنين، لفرعون الذي رأى أنّه من عند نفسه إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾، وليوسف الذي رأى أنّه من عند الله ﴿ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

- يطغى فكر إبراهيم على ذرّيته وأبنائه، فقد قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ثم من بعده يعقوب يوصي أبناءه ألّا يموتوا إلّا على الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]، وهنا يسأل ولد يعقوب ربّه أن يتوفّاه مسلماً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، على أيّ حال، فإنّ إبراهيم كان من الصالحين ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، ويسأل يوسف ربّه أن يلحقه به، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

- لقد حفظ الله تعالى يوسفَ من كل سوء ووهبه العلم والحكم وأبعد عنه كل مكروه، ومع ذلك كان قلقاً على عاقبته ومصيره، فكيف بالذين جمعوا ثرواتهم وعلومهم بالخداع والحيلة، ترى أيّ مصير ينتظر أولئك؟

- لقد علّم الله تعالى آدم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾[4]، وعلّم النبي داوود صنعة الدروع، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾[5]، وسليمان منطق الطير ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[6]، ويوسف تأويل الأحلام ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، ونبينا الكريم ﷺ علوم الأولين والآخرين، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٠.
(٤) سورة البقرة: الآية ٣١.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.
(٦) سورة النمل: الآية ١٦.
(٧) سورة النساء: الآية ١١٣.

التعاليم:

١ ـ منح السلطة والقوّة شأن إلهي خاص، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

٢ ـ إرادة الله هي العامل الرئيس وراء قيام الدول وهي لا تأتي بالأفكار والأموال والسطوة وكثرة الأعوان، ﴿ءَاتَيْتَنِي﴾.

٣ ـ إن يهب الله نعمة للصالحين أو يسلبهم إيّاها، فهي لإعدادهم وتقويمهم ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي، رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾.

٤ ـ السلطة والحكم مسؤولية العلماء وليس الجهلة، ﴿ءَاتَيْتَنِي ...وَعَلَّمْتَنِي﴾، علم يوسف كان سبيله إلى الحكم.

٥ ـ فوّض أمرك إلى الله في الأحوال كلّها، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٦ ـ السلطة والحكومة والسياسة كلّها عوامل تخرج المرء من دينه إلّا من رحم الله، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾؛ (في البئر دعا يوسف بدعاء، وفي السجن دعا بدعاء آخر، وبعد أن وصل إلى الحكم قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

٧ ـ المؤمنون لا يغفلون عن ذكر الموت والقيامة وهم في أوج اقتدارهم وعزّهم، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾. (كزوجة فرعون التي كانت تسكن قصر فرعون وتفكّر بالقيامة وتقول: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾).

٨ ـ عظمة الله لا تقتصر على النعم التي ينعم بها علينا، بل لأنّه خالق السموات والأرض، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٩ ـ كان يوسف فخر لا لأنّه أصبح حاكماً؛ بل لأنّ الله حاكم عليه، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

١٠ ـ حسن العاقبة والثبات على فعل الخير، أهمّ من الشروع فيه، كان الأنبياء يرجون حسن العاقبة، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

١١ ـ من آداب الدعاء أن نبدأ أولاً باستذكار نعم الله، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾، ثم نقدّم حاجاتنا بين يديه تعالى، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

١٢ ـ لا تنسكَ قدرتك ذكر الله، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾.

١٣ ـ لم ينس يوسف ذكر ربّه ودعاءه حتى في أسعد الظروف، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى﴾(*).

١٤ ـ العلم والمعرفة يؤدّيان دوراً مهمًّا في إرساء أسس حكم صحيح وعادل، ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى﴾(*).

١٥ ـ ينبغي ألَّا يكون دعاؤنا مقتصراً على جوانب الحياة المادّية، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

١٦ ـ حاكمية الإنسان محدودة وضيّقة ﴿ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، بينما حاكمية الله تغطّي الوجود بأكمله، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٧ ـ الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يفرّج الكرب عن عبده وينجيه من البلايا ويرفعه إلى أعلى الدرجات ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ... فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾(*).

١٨ ـ ينبغي ألا نغترّ بإيماننا، لأنّ المهم هو البقاء على الإيمان حتى النهاية، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾(*).

١٩ ـ غاية الإيمان التسليم لله، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾(*).

٢٠ ـ حسن العاقبة أفضل نعمة ينعم بها الله على عبده، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾.

٢١ ـ لا دوام ولا خلود لأي ملك أو حاكم، ﴿...تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾(*).

٢٢ ـ منية الصالحين أن يموتوا على الإيمان ويلحقوا بالصالحين، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(*).

٢٣ ـ المخلصون ينظرون إلى الحكومة كوسيلة للخدمة والصلاح، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(*).

٢٤ ـ للصالحين أعلى المنازل في الآخرة (كانت أمنية يوسف أن يلحق بهم)، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(*).

خصائص النبي يوسف (شروط القائد الناجح)

□ لا بدّ لنا ونحن ننهي قصة النبي يوسف عليه السلام من أن نرسم بعضاً من ملامحه:

١ ـ التوجّه إلى الله والتمسّك بحبله في الأزمات، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ﴾، وفي المسرّات ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

٢ ـ تركه أيَّ خط منحرف من أي فئة كانت، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٣ ـ اقتفاء صراط السلف المستقيم، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ... وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٤ ـ الثبات في طريق رضا الله حتى آخر رمق، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

٥ ـ الوقار إزاء الغرماء، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾.

٦ ـ الصبر على الحوادث وعوادي الدهر، ﴿يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ... أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾.

٧ ـ العفة وإيثار التقوى على الرفاه، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ... رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ﴾.

٨ ـ كتمان السر عن الغرباء، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾.

٩ ـ العلم الغزير، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

١٠ ـ الفصاحة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾.

١١ ـ الأسرة العريقة، ﴿ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

١٢ ـ التسامح مع من يختلف معه فكرياً، ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾.

١٣ ـ الإخلاص، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

١٤ ـ الرغبة في هداية الآخرين، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

١٥ ـ القدرة على الإبداع، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ، ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم، فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

١٦ ـ التواضع، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

١٧ ـ العفو والصفح، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

١٨ ـ المروءة والشهامة، ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾.

١٩ ـ الأمانة، ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

٢٠ ـ الضيافة، ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يرتبط الأنبياء مع عالم الغيب عن طريق الوحي، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

٢ ـ ليس جميع أنباء الغيب علمها عند الأنبياء، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

٣ ـ ما لم يشأ الله، لن ينفع قرار الناس ﴿أَمْرَهُمْ﴾، ولا إجماعهم ﴿أَجْمَعُوٓا۟﴾ ولا مؤامراتهم ﴿يَمْكُرُونَ﴾.

٤ ـ في غمرة تتابع الحوادث وتتاليها لا يجوز أن ننسى نقطة البداية الأولى والمحور الرئيس الذي تدور حوله القصة ألا وهي مؤامرة القضاء على يوسف، ﴿أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- «الحرص» فرط الشره وفرط الرغبة.

التعاليم:

١ ـ تكرّرت عبارة أكثر الناس في القرآن الكريم مع الانتقاد، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ... بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ يحرص الأنبياء بشدّة على أن يؤمن الناس، ﴿حَرَصْتَ﴾.

٣ ـ ليس كل حرص مذموماً (إذ يحرص الأنبياء على إيمان الناس)، ﴿حَرَصْتَ﴾(*).

٤ ـ ينبغي ألّا يحول عدم إيمان أكثر الناس وعنادهم دون الدعوة إلى الدين وتبيين الحقيقة، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾(*).

٥ ـ عدم إيمان معظم الناس ليس بسبب قصور الأنبياء في واجبهم، بل هو خيار الناس الذين أعرضوا عن الإيمان، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

إشارات:

- لم يطلب نبينا الكريم ﷺ على غرار الأنبياء من قبله أجراً على هداية الناس؛ لأنّ ذلك سيجعل قبول الدعوة ثقيلاً، جاء في الآية ٤٠ من سورة الطور، ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ وإذا ورد في آية أخرى من القرآن الكريم: إنّ أجر الرسالة هو مودّة ذوي القربى ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]، فذلك لأنّ طاعة الناس لأهل البيت عليهم السلام هي لفائدة الناس أنفسهم وليس للنبي الكريم ﷺ؛ لأنّه في موضع آخر يقول: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾[2]، بلى من أحبّ أهل البيت عليهم السلام فليطعهم لأنّ طاعتهم من طاعة النبي والله.

- القرآن الكريم هو ذِكر لأنّه:

ـ ذكر للآيات والنعم والصفات الإلٰهيّة.

ـ ذكر لماضي الإنسان ومستقبله.

ـ ذكر لعوامل سقوط المجتمع ونهوضه.

ـ ذكر لمشاهد القيامة.

ـ ذكر لعظمة الوجود.

ـ ذكر لسيرة الشخصيات الصانعة للتاريخ.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣. (٢) سورة سبأ: الآية ٤٧.

□ لا بدّ من تعلّم معارف القرآن وأحكامه لتكون حاضرة في الذهن، ذلك أنّ كلمة «الذكر» تطلق على العلم والمعرفة التي تعتمل في الذهن في هذه اللحظة وعدم الغفلة عنها.

التعاليم:

١ ـ كما الأنبياء لا يسألون الناس أجراً على الهداية، كذلك ينبغي للداعية ألّا تكون له مطالب من الناس، ﴿وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٢ ـ القبيح أن يطلب الداعية أجراً إزاء هداية الناس، لا أن يتلقاها ﴿تَسْئَلُهُمْ﴾.

٣ ـ معارف القرآن معارف بالفطرة، وهي متاحة للنّاس جميعاً، (كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ هي أن يعلم الإنسان شيئاً في داخله كان قد نسيه).

٤ ـ رسالة الأنبياء هي إيقاظ فطرة الناس، ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥ ـ رسالة نبي الإسلام ﷺ رسالة عالمية، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦ ـ ينبغي للداعية ألّا ييأس لعدم إيمان فريق من الناس وإن كانوا أكثرية، ولينقل مهمته إلى منطقة أخرى، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ نزلت هذه الآية الكريمة لتخفّف عن النبي الكريم ﷺ وعن كل إمام حقّ، ولتقول لهم ألّا يحزنوا لعدم إيمان الناس برسالاتهم، فهم (الناس) يمرّون في كل لحظة على آيات قدرة الله وحكمته في الخلق، من دون أن يتجشّموا عناء التفكّر والتدبّر فيها. آياتٍ من قبيل الظواهر الطبيعية، الكسوف، والخسوف، والصواعق، وحركة الكواكب والمجرات في السماء إلى غير ذلك، يراها الإنسان ويعرض عنها.

□ تنطوي عبارة ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على ثلاثة معانٍ هي:

١ ـ المعنى الأول هو مشاهدتها.

٢ ـ المعنى الثاني حركة الأرض ودورانها فيدور الإنسان معها ويرى كل هذه الأجرام السماوية[١].

٣ ـ المعنى الثالث، التنبؤ باكتشاف الإنسان لأعماق الكون بالسفن الفضائية وسبر أغواره[٢].

□ الإعراض أكثر خطورة من الغفلة، فعلى الرغم من وفرة الآيات ﴿وَكَأَيِّن﴾، وتعاطي الإنسان معها باستمرار ﴿يَمُرُّونَ﴾؛ فإنّه ينساها لا بل أخطر من ذلك، إنّه يعرض عنها في بعض الأحيان.

التعاليم:

١ ـ الوجود برمّته دليل على التوحيد وبرهان، ﴿ءَايَةٍ﴾.

٢ ـ إذا أعمى العناد بصيرة الإنسان فسيعمى عن النظر إلى أيّ آية، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ... يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

٣ ـ النظرة السطحية البعيدة عن أي تأمّل أو فكر لا تفتح درب الهداية والرشاد أمام الإنسان، ﴿يَمُرُّونَ... مُعْرِضُونَ﴾.

٤ ـ العلم وحده لا يكفي، إذ لا بدّ من التسليم للحقّ ليتحقّق الإيمان، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا...﴾.

٥ ـ ليس المهم أحسن القصص بل التهيّؤ لتلقّي الدروس العظيمة من هذه القصص.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

□ في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**إِنَّهُ شِرْكٌ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْكُفْرَ**»[٣].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) آية الله صافي، سفر نامه حج.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٥، ص ٣١٨.

كما ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء**»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أعلاه: «**شرك طاعة وليس شرك عبادة...**»[٢].

كما نقرأ في روايات أخرى أنّ المقصود بالشرك في هذه الآية هو شرك النعمة كأن تقول مثلاً: فلان ساعدني في إنجاز عملي ولولاه لكنت هلكت.

التعاليم:

١ ـ للإيمان درجات ومراتب، والإيمان الخالص هو الذي لا يشوبه أي شرك ولو قليل، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ... إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

علائم المؤمن المخلص:

١ ـ في الإنفاق: لا يرجو جزاءً ولا ثناء من أحد غير الله، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٣].

٢ ـ في العبادة: عبوديته خالصة لله وحده، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٤].

٣ ـ في الدعوة: لا يريد أجراً إلا من عند الله، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[٥].

٤ ـ في الزواج: يضع نصب عينيه الإيمان، ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٦].

٥ ـ في تعامله مع الناس: يطرح كل شيء جانباً عدا رضا الله، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[٧].

---

(١) سفينة البحار، ج١، ص٦٩٧.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢٩٢.
(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.
(٤) سورة الكهف: الآية ١١٠.
(٥) سورة هود: الآية ٢٩.
(٦) سورة النور: الآية ٣٢.
(٧) سورة الأنعام: الآية ٩١.

٦ ـ في حربه الأعداءَ: لا يخشى في الحرب أحداً إلّا الله، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1].

٧ ـ المحبة: حب الله عنده يضاهي أي حبّ آخر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2].

٨ ـ في التجارة والعمل والكسب: لا يلهيهم شيء عن ذكر الله، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3].

علائم المؤمن الذي اختلط إيمانه بالشرك:

١ ـ يرجو العزة من غير الله، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾[4].

٢ ـ في العمل: يخلط العمل السيّئ بالصالح، ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[5].

٣ ـ يتعامل مع الآخرين بالحمية والتعصب الجاهلي، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[6].

٤ ـ في العبادة: يشوب عبادته الاستخفاف والرياء، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[7].

٥ ـ في الحرب: يخاف من الناس، ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[8].

٦ ـ في التجارة وشؤون الدنيا: منغمس في الطمع والحرص، ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[9].

٧ ـ في اختياره الدين والدنيا: يركض وراء الدنيا ويترك النبي ﷺ، ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾[10].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٣) سورة النور: الآية ٣٧.
(٤) سورة النساء: الآية ١٣٩.
(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٢.
(٦) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.
(٧) سورة الماعون: الآيتان ٥ ـ ٦.
(٨) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٩) سورة التكاثر: الآية ١.
(١٠) سورة الجمعة: الآية ١١.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

إشارات:

❑ «الغاشية» النائبة أو العقاب يصيب الفرد أو المجتمع.

التعاليم:

١ ـ لا يأمننّ أحد على نفسه، ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾.

٢ ـ افتراض الغضب الإلٰهيّ يكفي لدفع الإنسان نحو جادة الحقّ والصواب، بيد أنّ المشكلة هي في أنّ البعض لا يحتمل حتى هذا الافتراض، ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾.

٣ ـ عذاب الله شامل ولا مهرب منه، ﴿غَٰشِيَةٞ﴾.

٤ ـ قليل من العذاب يكفي لقلب أمور الإنسان رأساً على عقب، ﴿غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ﴾.

٥ ـ ذكر القيامة يربّي الإنسان ويردعه، ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

إشارات:

❑ الداعية يختلف أمره عن عامة الناس، كما ذكرنا بالنسبة إلى الآيتين السابقتين فإنّ إيمان معظم الناس مشوب بالشرك، ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم﴾ في حين أنّ رسول السماء يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

التعاليم:

١ ـ طريق الأنبياء واضح أمام الجميع، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾.

٢ ـ سالكو طريق الحق يجب أن يعلنوا عن مواقفهم بصراحة من دون مواربة أو خوف، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾(*).

٣ ـ يجب أن يدعوَ القائد إلى الله لا إلى نفسه، ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾.

٤ ـ ينبغي بالقائد أن يتحلّى بالبصيرة، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾،
٥ ـ دعوة الناس إلى فعل ما يجب أن يقترن بالتبصير والتوعية، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(*).
٦ ـ أتباع النبي يجب أن يكون كل منهم داعية يدعو الناس إلى الله بالبصيرة والوعي، ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ... أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.
٧ ـ محور الدعوة تنزيه الله من أي شرك وشراكة، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.
٨ ـ الركن الركين للدين الإسلامي هو التوحيد ونفي الشرك، ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾.
٩ ـ يجب أن يكون الدعاة منزهين مخلصين، ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ
أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

□ كانت حجة المنكرين لدعوة الأنبياء دائماً هي كيف يكون النبي كسائر البشر والحجة نفسها أطلقها الناس على دعوة نبينا الكريم ﷺ إذ جاءت هذه الآية كردّ وإنذار لهم في آن معاً.

التعاليم:

١ ـ جميع الأنبياء كانوا رجالاً ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، وربما كان ذلك لأن الدعوة والهجرة والسعي أسهل على الرجل مقارنة بالمرأة.
٢ ـ علوم الأنبياء هي علوم وحيانية ويصطلح عليها بالعلوم اللدنية، ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾.
٣ ـ الأنبياء بشر ويعيشون مع البشر (ليسوا ملائكة ولا أفراد منعزلين أو مرفّهين)، ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.
٤ ـ يجب أن يكون للسياحة والسفر هدف ومعنى، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٥ ـ المشاهدة العينيّة هي الأسلوب الأكثر تأثيراً في معرفة الحقيقة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ السياحة والسفر في أرجاء المعمورة واستلهام العبر والدروس من التاريخ أمر مؤثّر جداً في الهداية والرشاد، ﴿فَيَنظُرُوا﴾.

٧ ـ المحافظة على الآثار التاريخية مسألة ضرورية من أجل أن يعتبر الآتون، ﴿فَيَنظُرُوا﴾.

٨ ـ إرسال الرسل ونزول الوحي وإهلاك المنكرين المعاندين هو من السنن الإلٰهيّة الثابتة في التاريخ، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٩ ـ لن يجني الكفار جراء إنكارهم دعوة الأنبياء غير العذاب والذل، لكنّ المتقين يتلقّون نصيبهم في الآخرة وهي خير من الدنيا، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

١٠ ـ الهدف من رسالة الأنبياء والقرآن هو أن يتدبر الإنسان ويفكر، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١١ ـ العقل يضع الإنسان على طريق الأنبياء، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد ثبت الأنبياء عبر التاريخ على دعوتهم ومواقفهم ولم يكفوا إلّا عندما يئسوا من هداية الناس وإرشادهم وفي المقابل لم يكف المنكرون عن عنادهم ولجاجتهم، ومن أمثلة ذلك نقرأ في القرآن:

أ) أمثلة على يأس الأنبياء من هداية أقوامهم:

استمرّت دعوة النبي نوح عليه السلام بين قومه قروناً عدّة ولكن مع ذلك لم يؤمن به إلا نفر قليل، ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(١)؛ عند ذاك دعا عليهم بكلمات تنمّ عن اليأس من هدايتهم ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا﴾(٢)، الأمر نفسه نجده في قصص كل من الأنبياء هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام.

---

(١) سورة هود: الآية ٣٦. (٢) سورة نوح: الآية ٢٧.

ب) أمثلة على سوء ظن الناس بالأنبياء:

لم يأخذ الكفار وعيد الأنبياء بالعذاب والثبور على محمل الجدّ وكانوا يرون أنّها كذب وخيال، فقد جاء على لسانهم في الآية السابعة والعشرين من سورة هود ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[1]، أو كما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[2].

ج) أمثلة على النصرة الإلٰهيّة:

لقد بيّن القرآن الكريم أنّ النصر الإلٰهيّ عهد قطعه الله تعالى على نفسه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[4].

وعن العذاب الإلٰهيّ الذي لا يردّ عن المجرمين، يقول القرآن الكريم في الآية الحادية عشر من سورة الرّعد: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

التعاليم:

١ ـ يبلغ الإنسان في عناده وإصراره مبلغاً يجعل النبي مع كل ما يملك من صبر وحلم ييأس من هدايته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾.

٢ ـ للتفاؤل وحسن النية والصبر حدود، ﴿حَتَّىٰٓ﴾.

٣ ـ يجب ألا نهدر طاقاتنا في الأمور التي لا طائل من ورائها، فمن الناس من لا ترجى هدايته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾.

٤ ـ إمهال المجرمين وتأخير العذاب عنهم سنّة إلٰهيّة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي إننا أمهلناهم إلى درجة يئس معها الرسل من هدايتهم.

٥ ـ تأخير العذاب عن المجرمين سبب اجترائهم وتكذيبهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟﴾.

---

(١) سورة هود: الآية ٢٧.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠١.
(٣) سورة الروم: الآية ٤٧.
(٤) سورة هود: الآية ٥٨.

٦ ـ يأس الرسل من هداية الناس شرط نزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾.

٧ ـ المدد الإلٰهيّ للأنبياء له وقت خاص، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾.

٨ ـ العذاب الإلٰهيّ لا يشمل الأنبياء والمؤمنين بهم، ﴿فَنُجِّيَ﴾.

٩ ـ العذاب والعقاب واللطف والمدد جميعها بيد الله، ﴿نَصۡرُنَا... بَأۡسُنَا﴾.

١٠ ـ الإنسان يختار مصيره بنفسه، عذاب أم نجاة، ﴿مَن نَّشَآءُ... ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

١١ ـ إرادة الله تعالى مقننة وليست عبثاً، ﴿مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

١٢ ـ لا يأس من رحمة الله، ﴿إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ﴾؛ (أينما وصل الناس إلى طريق مسدود تجلّت لهم قدرة الله في اللحظات الأخيرة).

١٣ ـ ما من قوة تستطيع أن تمنع عذاب الله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾.

١٤ ـ سنة الله هي في الدفاع عن الأنبياء وإبادة المجرمين، ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا
يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ
كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

إشارات:

- ﴿عِبۡرَةٞ﴾: أصل العبر تجاوز من حال إلى حال، والاعتبار والعبرة: بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والتعبير: مختص بتعبير الرؤيا، وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها، وهو أخص من التأويل.

- ﴿قَصَصِهِمۡ﴾: ربما كانت إشارة إلى قصص الأنبياء جميعاً أو قصة يوسف ويعقوب وإخوته وعزيز مصر والحوادث الكثيرة، حلوها ومرّها، التي توالت في هذه القصة.

التعاليم:

١ ـ عنصر الامتياز في القصة هو القدرة على استيعاب دروسها، بدأت هذه القصة بالآية الكريمة، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وختمت بـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

٢ ـ على الرغم من الدسائس والمؤامرات والعقبات كلّها، كانت عاقبة النبي يوسف عليه السلام العزّة والقدرة وكذا الحال بالنسبة لنبينا الأكرم ﷺ الذي انتصر على جميع أعدائه وبلغ ما بلغ من المجد والقدرة والمنعة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

٣ ـ وحدهم العقلاء يستلهمون الدروس والعبر من القصص، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٤ ـ الاعتبار من قصص القرآن ليس خاصاً بزمانٍ دون آخر، ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٥ ـ في قصص القرآن بيان للحقائق وليست أحداثها من وحي الخيال، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾.

٦ ـ كلمة الحقّ لها تأثير عميق في النفس، ﴿عِبْرَةٌ...﴾.

٧ ـ القرآن الكريم على خط واحد مع الكتب السماوية الأخرى، ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى﴾.

٨ ـ يطرح القرآن الكريم الحاجات والمتطلبات الإنسانية جميعاً، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٩ ـ القرآن كتاب هداية خالصة لا تشوبه ضلالة، ﴿وَهُدًى﴾.

١٠ ـ وحدهم المؤمنون يمتحون من نمير الهداية القرآنية، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١١ ـ العقل شرط التقصّي والاعتبار، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أمّا تلقّي النور والرحمة الإلهيّة فيلزمهما الإيمان، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٢ ـ قصة يوسف آية لطلاب الحقيقة ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وعبرة للعقلاء ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهداية ورحمة للمؤمنين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

«والحمد لله رَبّ العالمين»

سُورَةُ الرَّعْدِ

السورة: ١٣ الجزء: ١٣

عدد الآيات: ٤٣

ملامح سورة الرّعد

نزلت هذه السورة في مكّة المكرّمة وتشتمل على ثلاث وأربعين آية. سُميت بسورة الرّعد لحديثها عن تسبيح الرّعد الذي ورد في الآية ١٣ منها. أهمّ الموضوعات التي وردت في هذه السورة هي عظمة القرآن الكريم، والتوحيد، خَلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وخَلق الفاكهة والنباتات بأنواعها، والمعاد والعدل الإلٰهيّ، ومسؤولية الناس، والوفاء بالعهد وصِلة الرَّحِم، والصّبر، وتجنّب الانتقام، والوصول إلى الرّاحة الحقيقيّة في ضوء الإيمان بالله سبحانه، والمصير الأسود الذي لَحِقَ بمُكَذّبي الأنبياء والرّسُل عليهم السلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم كتاب عظيم، ﴿تِلْكَ﴾.

٢ ـ الهدف من إنزال الكُتُب السماوية تربيةُ الناس، ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣ ـ لا سبيل للباطل إلى القرآن الكريم، ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ... ٱلْحَقُّ﴾.

٤ ـ المحور هو الحق وليس الأغلبية، فعدم إيمان أكثر الناس وجَهلهم لا يعني بطلان الصّراط، ﴿ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ كثير من الناس لا يميلون إلى الحقّ، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٦ ـ على القائد أن يعرف أنّ أكثر الناس قد لا يؤمنون به، لذلك، لا بدّ من الاستعداد بشكل كامل لمواجهة هذا الموقف. (وفق مفهوم الآية ككلّ).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

❑ ثمة عدد من الآيات القرآنية تشير إلى حفظ الله سبحانه للسموات والأرض، منها:

أ) الآية المذكورة أعلاه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

ب) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[(١)].

ج) ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[(٢)].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٤١. (٢) سورة الحجّ: الآية ٦٥.

قال العلّامة الطباطبائي (رَحمه الله) في تفسير الميزان: «المراد بتفصيل الآيات هو تمييز السموات والأرض بعضها من بعض وفَتقها بعد رَتقها»[١]، ولا شكّ في أنّ مشاهدتنا هذا التمييز تُبيّن لنا قدرة الله سبحانه على تمييز الناس يوم القيامة.

❑ ال «عمد»، جَمع (عَمود).

❑ وقال صاحب تفسير مفاتيح الغيب: «يُروى أنّ رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: كيف يُحاسب الله الخلقَ دُفعة واحدة؟ فقال: **«كما يَرزُقُهم الآنَ دُفعة واحدة وكما يَسمَع نِداءَهم ويُجيب دُعاءَهم الآنَ دُفعة واحدة»»**[٢].

التعاليم:

١ ـ السموات مرفوعات على عَمد، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، فعَجزنا عن رؤية الأعمدة لا يَعني عَدم وجودها. قال الإمام الرّضا عليه السلام: **«فثَمّ عَمَدٍ ولكن لا تَرَوْنَها»**[٣].

٢ ـ الشّمس هي الأخرى تَجري لمُستقرّ لها، ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾.

٣ ـ ترتبط الأجرام السماوية في حركتها ومقدار تلك الحركة بزَمن مُقَدَّر ومُعَيَّن، ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٤ ـ الوجود كلّه خاضع لتدبير الله سبحانه، ﴿يُدَبِّرُ﴾.

٥ ـ الله سبحانه وتعالى حُرّ في تفصيل الآيات أنّى يشاء؛ (سواء أكان ذلك تفصيلاً للآيات التشريعية أم الآيات التكوينيّة)، ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.

٦ ـ نظام الوجود هو نظام هادف لا اعتباطيّ، ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ... لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ فخَلْقُ العالَم من دون إنهائه بالمَعاد ليس إلّا لَغواً وباطلاً.

٧ ـ الدليل الدالّ على المَعاد هو نَفسه الدالّ على التوحيد؛ فالربّ الذي يَخلق ويُدير لا ريب أنه سيأتي بالقيامة أيضاً، ﴿رَفَعَ، اسْتَوَى، يُدَبِّرُ، بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآية المذكورة.
(٢) تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٠، ص ٧٩.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

- تناولت الآية السابقة مُعجزة السموات وهذه الآية تشير إلى موضوع الأرض والنِّعَم الموجودة فيها.
- الرَّواسِي من الجبال: الثَّوابتُ الرَّواسخُ؛ «الزَّوْج» و«الزَّوْجان» واحد بمعنى الذَّكَرُ والأنثى.
- لم يكتشف العلم الحديث قانون زوجية النباتات إلّا في القرن الثامن عشر على يَد عالِم النبات (لينيه Linné)، في حين أشار القرآن الكريم إلى ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة. وعلى الرّغم من أنّ الإنسان كان يعرف منذ القِدَم أنّ بعض النباتات والأشجار كالنخيل مثلاً فيها أعضاء ذكرية وأنثوية، إلّا أنّ معرفته لعموميّة هذه الحالة في كلّ شيء مأخوذة من القرآن الكريم.
- قد توجد الأعضاء الذكرية والأنثوية في بعض النباتات في الشجرة نفسها أو النبات معاً وقد تكون منفصلة عن بعضها في نباتات أخرى[١].
- ربّما تعني جملة ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ خروج الأرض ومَدّها من تحت الماء والذي أُشير إليه في الروايات بمعنى (دَحو الأرض). وهذا الاحتمال ينطبق مع النظريّة الجيولوجية الحديثة التي تعتبر أن الأرض كانت موجودة تحت الماء في الماضي، والله أعلم.
- يقوم نظام الخلقة على أساس الزّوجية:

أ) الزوجية في النباتات، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٢].

ب) الزوجيّة في الحيوانات، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[٣].

ج) الزوجية في الإنسان، ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٤].

---

(١) تفسير الفرقان.
(٢) سورة الحجّ: الآية ٥.
(٣) سورة الشورى: الآية ١١.
(٤) سورة الرّوم: الآية ٢١.

د) الزوجية في كلّ شيء، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الأرض ممدودة ومدحوّة بحكمة الله سبحانه وتدبيره، ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾. (يؤدّي مَدّ الأرض ووجود الجبال إلى المحافظة على توازن الأرض وسهولة استفادة الإنسان منها، إذ لو كانت الأرض مسطّحة بشكل كامل أو مليئة بالجبال تماماً لَما أمكن العَيش عليها).

٢ ـ تُعتبر الجبال مصادر لخَزن المياه، والأنهار وسائل لتوزيع تلك المياه، فكلاهما يسهمان في تسهيل عَيش الإنسان على الأرض، ﴿رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾.

٣ ـ تَعاقب الليل والنهار هو الآخر عامل الحياة الأساس، ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾. (ولولا ذلك لاحترق كلّ شيء بسبب الحرارة الدائمة أو غابت الحياة عن كلّ شيء نتيجة عدم وجود الضوء والحرارة).

٤ ـ عالَم الطبيعة دَرس للاعتبار لا الغفلة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

□ ﴿صِنْوَانٌ﴾ جَمع «صِنْو» بمعنى الفَرع الخارج من الشجرة نفسها، وهنا تعني المتشابه والمَثيل.

التعاليم:

١ ـ تتألّف الأرض من قِطَع متجاورة تتميّز كلّ قطعة منها بخصائص مُعيّنة، ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾.

٢ ـ تنوّع الفاكهة من حيث اللّون والطّعم والشّكل هو آية على قدرة الله سبحانه، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾.

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٩.

٣ ـ يستند تنوّع الفاكهة إلى إرادة الله ومشيئته، ولولا ذلك ما اختلف طعم الفاكهة التي تُسقى كلّها بنوع واحد من المياه، ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾.

٤ ـ التجاور لا يعني التشابه، فمعيار الأفضلية هو التنوّع في الإنتاج، ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ... وَنُفَضِّلُ... فِي الْأُكُلِ﴾.

٥ ـ تقوى دوافع الإيمان لدى العُقلاء من خلال تناول الأطعمة، بينما يكتفي غيرهم بمَلء البطون من دون أيّ تفكير في عظمة الخالق، ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- يُخاطب الله سبحانه في هذه الآية الشريفة رسوله الكريم ﷺ قائلاً: **«لا تَعجب من إنكار قومك نبوّتك، بل الأحرى أن تَعجب من إنكارهم قدرتي على إحياء الموتى وصعوبة قبولهم هذا الأمر»**.
- لم يقدّم المُنكرون للمَعاد أيّ دليل على استحالته بل اكتفوا باستبعاد مثل هذا الأمر، بينما قدّم القرآن الكريم أدلّة عدّة على المَعاد بالإضافة إلى إشارته إلى أنّ عدل الله سبحانه وحكمته يستوجبان وجود القيامة. فمرّة يخاطبهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾(١)، ومرّة يقول في آية أخرى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

التعاليم:

١ ـ إنكار المَعاد مَعناه إنكار قدرة الله تعالى وعدله وحكمته، وهذا بحدّ ذاته كُفر، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٢ ـ لمّا كان هدف الذين يُنكرون المَعاد هو هذه الدنيا، فهم إذاً مغلولون بأغلال

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٥. (٢) سورة يس: الآية ٧٩.

المادّيّة وقيود الأهواء والجَهل والخرافة، ومثل هؤلاء سيكونون مغلولين بأغلال العذاب والهوان في الآخرة أيضاً، ﴿ٱلْأَغْلَـٰلُ﴾.

٣ ـ الأغلال التي يُربَط بها المُعاندون يوم القيامة لا يمكنهم نزعها أو التخلّص منها لالتفافها حول أعناقهم بإحكام وقوّة، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾.

٤ ـ يبقى المُنكرون للمَعاد في عذاب مستمرّ؛ لأنّهم لم يدّخروا لآخرتهم ما يُمكّنهم من التخلّص من عذاب الله وغضبه، ﴿خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

❑ ﴿ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ جَمع «المَثُلَة» و«المُثْلة» بمعنى العذاب والعقوبة التي تنزل بالإنسان. فقد يَصل العناد بأحدهم إلى حدّ يتمنّى فيه نزول العذاب وهلاكه بدلاً من قبوله الحقّ. ويشير القرآن الكريم إلى بعض تلك النفوس المريضة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١)، وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾(٣).

❑ ويُعزى تعجيل بعض الناس بنزول العذاب الإلٰهيّ لأسباب عدّة، منها:

أ) غفلتهم ونسيانهم لتاريخ الأُمم الماضية واستبعادهم نزول العذاب الإلٰهيّ، بل ونُكرانهم له.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.
(٢) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٨ و١٩٩.
(٣) سورة النساء: الآية ٥١.

ب) حَسدهم الآخرين على ما يتمتّعون به، كما ورد في كُتب التأريخ أنّه وعند تسلّم أمير المؤمنين علي عليه السلام مقاليد الخلافة، تمنّى أحد المُعاصرين للإمام الموت لنفسه لعدم قدرته على تحمّل رؤية الإمام عليه السلام خليفة على المسلمين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة المعارج.

ج) شعور مثل هؤلاء الأشخاص باليأس والقنوط ووصولهم إلى طريق مسدودة تماماً.

د) الاستهزاء والسّخرية بالأمر ورفضه ونُكرانه وإن كان ذلك يُكلّفه حياته ومصيره.

□ ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾[1]، و﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ يَصل العناد بالبعض حدّاً يُفضّل فيه الموت والهلاك على قبول الحقّ والإذعان له، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾.

٢ ـ يُمثّل تاريخ الأُمم الماضية أفضل نموذج للعِبَر، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾.

٣ ـ لا تستهينوا بغضب الله واعتبروا بالمثلات السابقة، ﴿مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾.

٤ ـ اقتضت سُنة الله تعالى إمهال الناس، وهي لا تتبدل باستعجالهم العذاب، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

٥ ـ طريق التوبة والإنابة مفتوحة حتى للمُعاندين، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ... عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

٦ ـ إنّ الله سبحانه يُحبّ خَلقه على الرغم من ما يصدر عنهم من سيّئات ومعاص، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

٧ ـ سَبق لُطفُ الله ورحمتُه غَضبَه، ﴿مَغْفِرَةٍ... الْعِقَابِ﴾.

---

(١) سورة النّحل: الآية ٦١. (٢) سورة فاطر: الآية ٤٥.

٨ ـ يُعتبر اجتماع الخوف والرّجاء عاملاً من عوامل النموّ والتطوّر، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ... لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.
٩ ـ غَضب الله ورحمته من تجليات ربوبيّته سبحانه، ﴿رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ... رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

إشارات:

▫ روى عبد الله بن عبّاس أنّ النبيّ ﷺ وضع يَده المباركة على صدره وقال: «أنا المُنْذِر»، ثمّ أومأ إلى منكب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «أنْتَ الهادي، بِكَ يَهتَدي المُهْتَدونَ بَعدي»[1].

التعاليم:

١ ـ عادة ما تكون توقّعات الكفّار من الله ورُسُله غير منطقية (فقد يطالبون الرّسول بالإتيان بآيات ومُعجزات بحسب أهوائهم)، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.
٢ ـ الإنسان العنيد لا يَستحقّ أن يُخاطبه الله سبحانه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾، لاحظ كيف أهمل الله تعالى الإجابة عن سؤال الكفّار في هذه الآية وخاطب نبيّه مباشرة.
٣ ـ تحتاج التربية إلى التهديد والإرشاد معاً، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.
٤ ـ التحذير بدلاً من البشارة هو أكثر ما يحتاجه المجتمع الجاهل والغافل، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾[2].
٥ ـ يتضمّن عمل الأنبياء عليهم السلام الإرشاد والإنذار، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾؛ وليس تلبية طلبات الناس غير المنطقية أو الإتيان بالمعجزات في كلّ لحظة ولكلّ شخص، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

---

(١) نقله الرازي في التفسير الكبير، ج١٩، ص ١٤؛ الطبريّ، ابن كثير؛ إحقاق الحقّ، ج٣، ص ٨٧.
(٢) وردت كلمة (إنذار) حوالى (١٢٠) مرّة في القرآن الكريم، مِئة منها نزلت في مكّة وحدها.

٦ ـ على الرغم من أنّه لن يأتي بعد الرسول ﷺ أيّ نبيّ؛ إلّا أنّ الله قد أتمّ حُجّته على الناس ولن تخلو الأرض من الحجّة، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

٧ ـ لم يقتصر وجود الأنبياء ﷺ على الشّرق وحسب، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

٨ ـ لا بدّ من وجود إمام أو هادٍ حَيّ في الوقت الحاضر كذلك، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ⑧﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية في البداية إلى عِلم الله سبحانه بحَمل كلّ أُنثى (سواء منها التي تمتلك الأرحام أو مثل الإنسان والحيوان أو تلك التي لا تمتلك الأرحام كالنبات والجماد) ثمّ تطرّقت إلى الموجودات ذات الأرحام بالخصوص.

□ «**الغَيْض**» هو ابتلاع النّطفة؛ أي أنّ الله سبحانه وتعالى عالِم بمقدار الماء (أو النطفة) الذي يبتلعه الرَّحِم وما تطرأ عليه من تغييرات ونموّ وتطوّرات.

التعاليم:

١ ـ إنّ الله سبحانه يعلم تفاصيل حالات الحَمل جميعاً لدى كلّ الموجودات، ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

٢ ـ يشمل علم الله تعالى الجزئيّات كذلك. (فهو ﷻ يعلم نوع الجنين وصفاته وقدراته وشكله وجنسه، إلى غير ذلك)، ﴿يَعْلَمُ... وَمَا تَغِيضُ... وَمَا تَزْدَادُ﴾.

٣ ـ يؤدي الرَّحِم دوراً كبيراً في اكتمال الجنين أو نقصانه، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

---

(١) جاء في تفسير مَجمع البيان وكنز الدقائق، الحديث ٢٦، أنّ المقصود بـ﴿هَادٍ﴾ هم الأئمّة المعصومون ﷺ.

٤ ـ يستند نظام خلق الموجودات إلى مقدار مُعيّن وميزان دقيق، ﴿بِمِقْدَارٍ﴾؛ (أي أنّ الزيادة والنقصان في مدّة الحَمل وإجهاض الجنين أو خروج توائم عدّة، أو ما إذا كان المولود مشوّهاً بنقص أو بزيادة في عضو من أعضائه، ذلك كلّه محسوب وفق مُعادلة دقيقة ﴿تَغِيضُ... وَمَا تَزْدَادُ﴾).

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾

إشارات:

□ قد تكون مسألة الغيب والشهادة أو السرّ والعَلَن مشكلة بالنسبة إلى الإنسان ذي الحواسّ المحدودة، وهي محدودة بالفعل حتى عند مقارنته بالكثير من الحيوانات، أمّا هذا الأمر فلا مَعنى له إطلاقاً بالنسبة إلى الله سبحانه عالِم الغَيب والشهادة.

□ وحول معنى ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الغَيْبُ مَا لَمْ يَكُن وَالشَّهادَةُ مَا قَدْ كان**»[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ الله كبير من حيث الكَمال، ومُنزّه من حيث النّقص والعيوب، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

إشارات:

□ هذه الآية الشريفة التي هي مُكمّلة للآية التي سبقتها، تُعتبر من بين الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تتناول عِلم الله سبحانه بأصغر الأعمال وأكبرها،

(١) تفسير البرهان.

وظاهرها وباطنها، بل وحتى الأفكار والهواجس والنيّات التي تخطر ببال الإنسان، فإذا آمَن هذا الأخير بامتلاك الله تعالى مثل هذا العِلم، فإنّ ذلك يمكنه أن يكون عامل أساس لحيائه وتقواه ووسيلة من وسائله التربويّة؛ لأنّ من شأن ذلك أن يكون بمثابة تشجيع للصالحين وتهديداً ووعيداً للكافرين. الجدير بالذكر أنّ الله سبحانه يشير في هذه الآية إلى الإسرار في القول والأفعال التي تؤديها مخلوقاته خفية أو ليلاً قبل الإشارة إلى صريح القول والمُعلَن من الأفعال.

- ﴿وَسَارِبٌ﴾ من سَرَب يَسْرُب سُرُوباً، بمعنى خَرَجَ وذَهَبَ، ويُطلَق في الأصل على الماء الجاري؛ لكنّه استُخدِمَ أيضاً للإشارة إلى مَن يبحث عن عمل في النهار.

التعاليم:

١ ـ لا يختلف عِلم الله سبحانه من شيء إلى آخر، بل هو عِلْم واحد. (لكنّ ذلك لا يشبه عِلمنا وإحاطتنا ببعض الأشياء أكثر من غيرها أو عدم وجوده أصلاً بالنسبة إلى أشياء أخرى)، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم...﴾.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ جمع «مُعقّبة» وحَرف التاء في هذه الكلمة ليس للتأنيث وإنما أُنِّثَت لكثرة ذلك منها، نحو نَسّابة وعَلّامةٍ وهو ذَكَرٌ، لذلك وردَ الفعل ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بصيغة المُذكَّر.
- ليس المُراد بكلمة ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ هو مُلاحقة الإنسان وإلّا لتنافى ذلك مع قوله تعالى ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ بل لأنّ ملائكة الليلِ تُعَقِّبُ ملائكةَ النهار، وملائكةُ النهار تُعَقِّبُ ملائكةَ الليل.
- ليس المقصود من ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ هو عذاب الله أو غضبه لأنّ ذلك يتناقض مع قيام

الملائكة بحفظ الإنسان من عقاب الله، بل المقصود به هو حفظه من الحوادث الطبيعية باعتبار هذه الأخيرة مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه كذلك وكلّ ما يحدث فيها هو بأمر الله وإرادته.

- يشير الكثير من آيات القرآن الكريم إلى نوع من الملائكة التي وُكِّلت بالمحافظة على الإنسان وتلك التي تكتب عنه كلّ صغيرة وكبيرة، ونوع آخر مُوَكَّل بأمر الله تعالى بالمحافظة عليه من الحوادث التي لا تدخل ضمن إرادة الله الحتميّة. وبناءً على ما يُستفاد من الروايات فإنّه بمجرّد صدور أوامر الله بالآجال الحتميّة، تتخلّى الملائكة الحفظة عن حماية الإنسان. وعلى هذا، فثمة نوعان من الأوامر الإلٰهيّة: أوامر حتميّة (قطعية) وأخرى غير حتميّة (قضاء وقَدَر)، أمّا الملائكة فليسوا مُوَكّلين بالمحافظة على الإنسان إلّا من الحوادث غير الحتميّة. وبالطّبع فإنّ هذه المحافظة لا تَسلب الإنسان حريّته أو حقّه في الاختيار، بل يبقى مصيره ومصير الأمم بيَدهم لا بيَد الملائكة.

- يشمل حفظ الملائكة للإنسان حياته وأفعاله وسلوكه ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾[1]، ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[2]، بالإضافة إلى حِفظ إيمانه وأفكاره من الانحرافات ووساوس الشيطان لأنّ كلمة ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ تشمل المحافظة على الروح والجسم.

- قال الإمام السجّاد عليه السلام مشيراً إلى هذه الآية: **«الذّنوب التي تُغيّر النّعَم، البَغْيُ على النّاس والزّوال عن العادَة في الخَيْر، واصْطِناع المَعْروف وكُفْران النّعَم وتَرْك الشُّكْر»**[3].

- من المُلاحَظ أنّ هذه الآية تعني المجتمعات الإنسانيّة كلّها وليس الأفراد، أي أنّ المجتمع الصالح يَنعم ببركات الله سبحانه، أمّا المجتمع الفاسد فلا يَلقى إلّا غَضَبه. لكنّ هذه القاعدة لا تشمل الأفراد الصالحين والفاسدين فقد يكون الشخص صالحاً ومع ذلك نراه يقع في الكثير من المشاكل بسبب الابتلاء الإلٰهيّ، أو قد يكون الشخص فاسداً لكنّه يُترَك لحاله ويُمهَل.

---

(١) سورة الانفطار: الآية ١٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٦١.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٤٨٧.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه لا يترك الإنسان وَحده، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾.

٢ ـ وُكِّلَت بعض ملائكة الله بالمحافظة على الإنسان، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾.

٣ ـ يحفظ الله ﷻ الإنسانَ من الحوادث المُفاجئة، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ... يَحْفَظُونَهُۥ﴾ لا الحوادث التي يتسبّب بها هو عن عَمد وعِلم منه بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾.

٤ ـ تحيط بالإنسان الكثير من الحوادث والأخطار، ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

٥ ـ إنّ الله سبحانه لا يسلب نِعمة أنعمها على أحد حتى يَكفر بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾.

٦ ـ لا تنخدعوا بما يُدعى بالحظوظ أو الطّالِع والفأل والنجوم وغير ذلك، فمصير كلّ إنسان بيَده، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٧ ـ تستمرّ محافظة الله سبحانه للإنسان حتى يكفر بنِعَمِه، ولولا ذلك لَما حُرِمَ أحد من ألطاف الله ولتُرِكَ لحاله، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾.

٨ ـ التمتّع بالنِّعَم الظاهرة والخفيّة منوط بالكمالات الذاتيّة والحالات الوجدانية، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾[1].

٩ ـ إرادة الله فوق كلّ إرادة، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

☐ من جهة يثير البَرق والصاعقة خوف الناس ورُعبهم وذلك لهطول الأمطار أحياناً

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

في غير مواسمها وتسبّبها بإيجاد السيول والفيضانات التي تجتاح بعض المناطق والدّمار والحرائق التي تُحدثها. ومن جهة أخرى فإنّ ذلك مَدعاة للسرور والفرح والأمل؛ لأنّ الأمطار تسقي الأشجار والمحاصيل الزراعية وتؤدي إلى تنقية الهواء وتصفيته من الغبار والأتربة وأنواع الدخان.

التعاليم:

١ ـ العوامل الطبيعية هي في الظاهر سبب الرّعد والبرق والمطر، إلّا أنّ مبدأ تلك العوامل ومُوجِدها هو الله سبحانه، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن يؤدي اكتشافنا للقوانين الفيزيائية والكيميائية في الطبيعة إلى إضعاف إيماننا بالله تعالى، بل ينبغي أن نعلم أنّ الطبيعة وقوانينها هي مخلوقات من مخلوقات الله، ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ... وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ
وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ
فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ يؤكّد القرآن والثقافة القرآنية أنّ الوجود كلّه يُسبّح لله تعالى، وهو تسبيح قائم على أساس العلم والإحساس والاختيار. والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يطرح هذه المسألة ويُبيّنها بشكل يَجذب إليه العقول ويغدو ردّاً منطقياً على إنكارها؛ ومن تلك الأساليب ما يأتي:

أ) استخدام كلمات مثل ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿يُسَبِّحُ﴾ وهي كلمات تدلّ صراحة على المعنى المشار إليه.

ب) تكرار ذلك في سوَر عدّة.

ج) ذِكر مسألة تسبيح الموجودات كافة في أوّل السورة وبعد البسملة مباشرة.

د) الإشارة إلى قنوت الوجود وخضوعه بأكمله مثل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[١]، وسجود النجوم والنباتات: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾[٢]، وانقياد السموات والأرض وطاعتها لله سبحانه: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[٣]، وعِلم كلّ الموجودات بتسبيحها وصلاتها لله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾[٤].

هـ) إخبار الإنسان بأنّه يَجهل تسبيح الموجودات الأخرى، ﴿لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[٥].

- ﴿ٱلۡمِحَالِ﴾ أي شديد المُماحَلة والمُكايَدة، ولأنّ المُماحَلة والمُكايَدة يستلزمان العلم والقدرة، فقد قال بعض المفسّرين إنّ معنى ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ هو شديد القوّة والعذاب.

- ورد ذِكر التسبيح والحَمد معاً في بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾؛ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[٦]، وهو ما اعتدنا ذِكره في الرّكوع والسجود كذلك: «سُبْحانَ رَبّيَ العَظيمِ وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحانَ رَبّيَ الأعلَى وَبِحَمْدِهِ».

- جاء في كثير من الروايات عن أهل السنّة أنّ النبيّ ﷺ كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «**سُبْحانَ الّذي يُسَبّحُ الرّعدُ بِحَمْدِهِ وَالملائِكَةُ مِن خِيفَتِه**»؛ ثم يدعو الآخرين أيضاً إلى الدّعاء[٧].

- يعتقد بعض أنّ الصواعق هي عقوبة أو عذاب إلهيّ ينزل على القوم المُذنبين، كما حصل مع ثمود ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٨].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٦.
(٢) سورة الرّحمن: الآية ٦.
(٣) سورة فُصّلت: الآية ١١.
(٤) سورة النور: الآية ٤١.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٧) تفسير الدرّ المنثور، ذيل الآية: ١٣ من سورة الرّعد.
(٨) سورة فُصّلت: الآية ١٧.

التعاليم:

١ ـ يُسبّح الرّعد عن عِلم وشعور منه، شأنه في ذلك شأن الملائكة، لورود كلمة الرّعد والملائكة معاً في الآية، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢ ـ يكون تسبيح الملائكة على أساس خوفهم من الله سبحانه وخشيته، ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

٣ ـ ليست الصاعقة والإصابة بها أمراً اعتباطياً، إنّما هي بإرادة الله ووفقاً للسُّنَن الإلٰهيّة، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٤ ـ حتى الحوادث الخَطِرة كالصواعق مثلاً، لن تُثني المُعاندين عن عنادهم، ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

٥ ـ لا يُفكّرنّ أحدكم بالتحايل أو المُخادعة أو الجدال مع الله سبحانه لأنّكم لن تغلبوه في ذلك، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

٦ ـ ليست كلّ حيلة أو تدبير مذموماً؛ إذ قد يتطلّب الأمر أحياناً الوقوف بوَجه البعض بشدّة واتّباع التدابير الصارمة، ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ
كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- أشار القرآن الكريم في مواضع عدّة من آياته إلى دعوة الناس إلى عبادة الله وترك عبادة غيره واعتباره سبحانه هو المؤثّر الوحيد، مثل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١]، وتحذيره من أنّه إذا توجّه الإنسان إلى الآخرين من دون الله تعالى فإنّهم لن يستطيعوا سماعه ولو سمعوه فلن يجيبوه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[٢].

- لا شكّ في أنّ الإنسان ذا القدرات المحدودة بحاجة إلى ملاذ مُطمئنّ يلجأ إليه

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦. (٢) سورة فاطر: الآية ١٤.

في حياته المليئة بالحوادث. وقد بيّن الأنبياء عليهم السلام ذلك الملاذ الحقّ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، أمّا ما ينتظره الإنسان من مساعدات من الآخرين (الطغاة) فإنّهم لن يقدّموه له إلّا مُقابل الاستعمار أو الاستغلال أو الإعلام الفاسد والمحافظة على قوّتهم وجبروتهم، أمّا الإنسان فليس مهمّاً بالنسبة لهم.

□ الإنسان مُتعطّش إلى معرفة الحقّ والحقيقة بالفطرة ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾؛ لكنّه يضلّ طريقه للوصول إليهما. وهكذا، فإنّه ما مِن شيء يمكنه ريُّ عطشه سوى الإيمان بالله تعالى وحُبّه ودعائه والطّلب منه وحده، ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾؛ لأنّ كلّ ما سوى الله ليس إلّا سراباً ودعاؤه ومُطالبته هما عَبث وباطل.

التعاليم:

١ ـ لا تلجأوا إلى غير الله سبحانه لعَجز أيّ شيء عن الاستجابة لكم، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾.

٢ ـ التصورّات الباطلة والخيال الزائف هو أساس الشّرك، ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ... وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

٣ ـ مَن دعا الله مُخلصاً له الدّين فلن يُخيّب أمله، وما الخيبة التي يُصاب بها البعض إلّا بسبب لجوئه إلى غير الله، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ... وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ تُستَخدَم «مَن» الموصولة لِلعاقل و«ما» لغير العاقل، وثمّة آيات أخرى مشابهة لهذه الآية وردت فيها «ما» مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ولذلك يمكننا أن نستنتج بأنّ المُراد من هذه الآية كذلك هو

---

(١) سورة النّحل: الآية ٤٩.

سجود المخلوقات جميعاً لله تعالى لا سيّما مع الإشارة إلى كلمة «الظِّلال» وهو من غير العاقل.

□ قد يكون المقصود بسجود الظِّلال هو وقوعها على الأرض.

□ ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ جمع «أصيل» بمعنى العَشِيُّ، وهو آخر النهار.

التعاليم:

١ ـ إذا كان الوجود بأكمله مطيعاً لله سبحانه وساجداً له، فلِمَ لا نكون نحن كذلك؟ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن...﴾.

٢ ـ السّجود لا يكون إلّا لله وحده، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾.

٣ ـ يَسجد المؤمنون حبّاً ورغبة في حين يفعل غيرهم ذلك طلباً للحاجة أو الاضطرار إلى التواضع والخضوع، ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾.

٤ ـ إذا أصبح موجود ما تقيّاً مؤمناً فإنّ هاتيْن الصّفتيْن سيشملان كلّ ما يتعلّق به، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾.

٥ ـ سجود الموجودات دائم ومستمرّ، ﴿يَسۡجُدُ... بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ
لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ
أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ
فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ عَرض المسائل على شكل سؤال وجواب هو أحد أساليب التبليغ التربويّ والتعليميّ الذي اهتمّ به القرآن الكريم، ﴿قُلۡ مَن...﴾.

□ ورد في الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أن الشّرك في الإنسان لأخفى من

دبيب النمل على الحجر الصّلد في جوف الليل[١]. المقصود من (شرك النعمة) بهذا المعنى أنّ الله يهب الإنسان شيئاً فيقول: إنّ فلاناً قد جاءني به.

التعاليم:

١ ـ يحجم المشركون عن الإجابة عن أبسط الأسئلة وأوضحها لتعصّبهم الشديد؛ لذلك نرى أنّ النبيّ ﷺ هو الذي يُجيب عن تلك الأسئلة بدلاً منهم، ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... قُلِ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ كان الكُفّار لا يقبلون بشيء سوى خَلق الله سبحانه، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ... لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢]؛ بينما كانوا يعتبرون الآخرين [من الأصنام والأوثان وغير ذلك] مُدبّرين، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ...﴾.

٣ ـ الإنسان الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً لا يجوز له أن يُتَّخذ إلهاً بدلاً من الله سبحانه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

٤ ـ مَن رأى الحقّ ولم يَقبله فإنّ بَصره وبصيرته عَمياوان وكلّ ما حوله هو ظلام، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ...﴾.

٥ ـ ما خلق أحد غير الله سبحانه شيئاً حتى يتشابه ذلك على الكُفّار، ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ تشير الآية إلى مثالَيْن لتعريف الباطل، أوّلهما الزّبَد الذي يطفو على سطح الماء، وثانيهما الزّبَد الذي يظهر على سطح المعادن المنصهرة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٩٣. (٢) سورة العنكبوت: الآية ٦١.

□ مَثَل الباطل كالزَبَد لأنّه: (١) زائل؛ (٢) لا يتجلّى إلّا في ظلّ الحقّ؛ (٣) يُحاول إخفاء الحقّ وتغطيته؛ (٤) قد يكون ظاهراً لكن لا قيمة له، فهو لا يروي عَطش الظمآن ولا يكون سبباً لنموّ النباتات؛ (٥) يزول وينمحي بعد أن يسود السكون والهدوء؛ (٦) قد يكون كبيراً وهائلاً لكنّه يبقى أجوفَ وفارغاً من حيث المضمون. وقد أكّدت الكثير من الآيات على هذا الأمر كذلك، مثل قوله تعالى:

- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[1].
- ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾[2].
- ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[3].
- ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[4].
- ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[5].

□ تساعد عمليّة التشبيه أو التمثيل على جَعل الأمور العقليّة محسوسة وتسهيل سبيل الوصول إلى الهدف وتَعميم المسائل وإسكات المُعاندين، وهو أسلوب كثيراً ما استخدمه القرآن الكريم في آياته.

التعاليم:

١ ـ الفيض الإلهي دائم ومستمرّ، وكلّ مخلوق يمكنه الاستفاضة بمقدار ما يمتلك من القابلية والاستعداد، ﴿أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾.

٢ ـ صناعة الوسائل الضرورية ﴿مَتَٰعٍ﴾ أو الكمالية ﴿حِلْيَةٍ﴾ أمر مطلوب ومرغوب، ﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٣ ـ تتكشّف المعادن النقيّة عن غيرها ويتميّز الحقّ عن الباطل في فُرن الأحداث، ﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ... زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٨.
(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.
(٣) سورة سبأ: الآية ٤٩.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٨١.
(٥) السورة نفسها: الآية ٨١.

٤ ـ لا يقتصر وجود الباطل على مكان أو بيئة مُعيّنة (فالزّبَد يظهر على كلّ من السيول المائية وعلى سطوح الفلزات المنصهرة الذائبة)، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

٥ ـ أساس الباطل هو الشوائب التي ابتُلي بها الحقّ والحقيقة، ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾.

٦ ـ قد يسير الحقّ والباطل معاً، لكن تبقى العاقبة الحَسنة للحقّ، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾.

٧ ـ الحقّ وَحده هو ما ينفع الناس، ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

٨ ـ الحقّ باقٍ وخالد، ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩ ـ كلّ ما ينفع الناس سواء أكان ثروة أو علماً أو أصحاباً أو حكومة وما إلى ذلك فهو باق ودائم، ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٠ ـ كلّ ما ينزل من عند الله سبحانه هو خالص وحقّ كالمطر، لكن بمجرّد اختلاطه بالمادّيّات يصبح مشوباً ويؤدي إلى ظهور الزّبد والباطل، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- يُستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ الناس يوم القيامة يُحاسبون بعدّة أنواع من الحساب:

أ) منهم مَن يُحاسَب حساباً يسيراً: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾[1].

ب) منهم من يكون حسابه عسيراً ودقيقاً: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾[2]، والمراد من ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو الدقّة والتدقيق في المحاسبة بكلّ صغيرها وكبيرها.

---

(١) سورة الانشقاق: الآية ٨.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٨.

ج) منهم مَن يدخل جهنّم من دون حساب أو كتاب: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[١].

د) ومن الناس مَن يدخل الجنّة بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢].

- يُستفاد من بعض الآيات والروايات الكثيرة أنّ الذين يتعاملون مع الناس بالعفو والرّحمة تكون محاسبتهم يسيرة، وأنّ الذين يتصرّفون بغلظة وفظاظة فإنّ حسابهم سيكون غليظاً وفظّاً بما يتناسب مع تصرّفاتهم. ويدخل المشركون جهنّم من دون حساب فيما يدخل الصابرون إلى الجنّة من دون حساب أيضا[٣].

- يُشير القرآن الكريم إلى ضرورة وجود نوع من الاستجابة المتبادلة، فالذين يتوقّعون أن يستجيب لهم الله سبحانه لا بدّ لهم أوّلاً من الاستجابة لدعوته، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٤] و﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾[٥] و﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[٦].

بحث حول الدّعوة

- يمكن النظر في الدّعوة من جوانب عِدّة:

أ) الدُّعاة: *الدُّعاة إلى الحقّ*:

١ ـ الأنبياء: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٧]، و﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾[٨]، و﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾[٩].

٢ ـ المؤمنون: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[١٠].

٣ ـ الجنّ: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[١١].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٥.
(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.
(٣) انظر: موضوع الحساب وأنواعه في كتاب المعاد للمؤلّف.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.
(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٨.
(٨) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.
(٩) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.
(١٠) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.
(١١) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

الدُّعاة إلى الباطل:

١ ـ أئِمّة الكُفر: ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[١].

٢ ـ الشّيطان الرّجيم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾[٢]، و﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾[٣].

٣ ـ المشركون: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[٤].

ب) موضوع الدّعوة:

١ ـ الحياة: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٥].

٢ ـ الصراط المستقيم: ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٦].

٣ ـ المغفرة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾[٧].

٤ ـ الجنّة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾[٨].

٥ ـ النّجاة: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾[٩].

ج) ردود أفعال المُشركين:

١ ـ التّهمة: ساحِر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[١٠]، شاعِر ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[١١]، كاهِن ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾[١٢]، مَجنون ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[١٣]، كَذّاب ﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[١٤]، وصوليّ ﴿يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[١٥].

٢ ـ التّهديد: ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾[١٦]، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾[١٧].

---

(١) سورة القصص: الآية ٤١.
(٢) سورة لُقمان: الآية ٢١.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢١.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٦) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٢١.
(٨) سورة يونس: الآية ٢٥.
(٩) سورة غافر: الآية ٤١.
(١٠) سورة الأعراف: الآية ١٠٩.
(١١) سورة الأنبياء: الآية ٥.
(١٢) سورة الطّور: الآية ٢٩.
(١٣) سورة القلم: الآية ٥١.
(١٤) سورة الأعراف: الآية ٦٦.
(١٥) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.
(١٦) سورة هود: الآية ٩١.
(١٧) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

٣ ـ الازدراء والاستهزاء: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى...﴾[1].

٤ ـ التشكيك: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[2].

٥ ـ التآمر وشنّ الحرب: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾[3].

د) دوافع الرّفض وأسبابه:

١ ـ التقليد.

٢ ـ التعصّب.

٣ ـ التكبُّر.

٤ ـ الأهواء النفسية: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾[4].

هـ) أجر الإيمان:

١ ـ الأجر: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾[5].

٢ ـ الحياة: ﴿دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[6].

٣ ـ الحُسنى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[7].

التعاليم:

١ ـ أفضل الثواب وأجزله ينتظر المؤمن يوم القيامة، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾.

٢ ـ لا وجود للفِدية أو الاستبدال يوم القيامة، ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾.

٣ ـ لا بدّ من قبول دعوة الله سبحانه برغبة صادقة، ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٥.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(٤) سورة القصص: الآية ٥٠.
(٥) سورة النساء: الآية ١٧٣.
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٧) سورة الرّعد: الآية ١٨.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى أولئك الذين تقبّلوا دعوة الأنبياء عليهم السلام لما يُحييهم، أمّا هذه الآية والآيات التي ستليها فتشير إلى نتائج استجابتهم تلك الدعوة.
- يمتلك كلّ من الفطرة والعقل والعِلم في الإنسان لُبّاً غالباً ما يكون مُغطّى بالعادات والتقاليد والخرافات والغرائز؛ ولذلك على الإنسان أن يركّز دوماً على ذلك اللبّ والنواة المركزية[١].

ملامح أُولي الألباب في القرآن

- وردت كلمة ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (١٦) مرّة في القرآن الكريم، وفي كلّ مرّة تقترن بالإشارة إلى صفة كمال، منها:

أ) أنّ أصحاب العقول يعلمون أسرار الأحكام، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

ب) أنّهم بصيرون في عواقب الأمور، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

ج) يؤمنون بأنّ هذه الدنيا إنّما هي مَعبر زائل وليست موقفاً دائماً، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ... ٱلَّذِينَ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[٤].

د) يتّخذون من التاريخ دروساً وعِبَر، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٥].

هـ) يَتقبّلون القول الأفضل والمنطق الأحسن، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ... وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٦].

---

(١) تفسير الفرقان.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.
(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ و١٩١.
(٥) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٦) سورة الزمر: الآية ١٨.

و) هم العابدون المتهجّدون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ يَعتبر القرآن الكريم أنّ الإنسان الذي يجهل الحقّ إنّما هو في الحقيقة أعمى، فقد استخدم عبارة: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ بدلاً من «كَمَن هو لا يَعلَم».

٢ ـ ينسجم الدين مع الفِطرة انسجاماً كاملاً؛ لكنّ الأمر يحتاج إلى تذكير للصحوة لا غير، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ...﴾.

٣ ـ العقل الذي يعجز عن إدراك صدقية الكتاب السماويّ، ليس بعَقل، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ العِلم المفيد هو حاصل التعقّل والتذكّر، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ... يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٥ ـ للوصول إلى العقل السليم والفطرة النقيّة لا بدّ من تجنّب المعاصي والغفلة، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- تشمل عبارة «عهد الله» كلّ العهود الفطريّة كحُبّ الحَقّ والعدالة، والعهود العقليّة مثل إدراك حقائق عالَم الوجود والمبدأ والمَعاد، والعهود الشرعيّة كالعَمل بالواجبات وترك المحرّمات، وكذلك العهود التي يبرمها الناس بينهم؛ إذ أوجب الله احترامها والالتزام بها[2].
- إمامة أولياء الله سبحانه من أهمّ العهود الإلٰهيّة، فبعد أن اجتاز سيّدنا إبراهيم عليه السلام الكثير من الاختبارات حاز مقام الإمامة، فطلب من الله تعالى أن

---

(١) سورة الزّمر: الآية ٩.

(٢) تفسير الأَمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل.

يمنّ على ذرّيته كذلك بهذه المنزلة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾[1]، ولكي يوضّح الله سبحانه لنبيّه معنى مقام الإمامة، أجابه قائلاً: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، بدلاً من قوله تعالى: «لا يَنال الظالمون مقام الإمامة».

- تُطلَق كلمة «ميثاق» على كلّ ما وَثق به قلب الإنسان واطمأنّ إليه، ولمّا كان وجود الإمام سبباً لاطمئنان قلوب الناس وأرواحهم، فهو إذاً أحد أمثلة المواثيق.
- لا يُعتبر الوفاء بالعهد، كاحترام الوالديْن وردّ الأمانات إلى أهلها، من الحقوق الإسلاميّة فقط بل ومن الحقوق الإنسانيّة كذلك؛ ولهذا، يتوجّب على كلّ عاقل وذي لُبّ أن يحترم ذلك.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ العقل السليم يقود صاحبه إلى الوفاء والإخلاص لدين الله، ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ... ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾.

٢ ـ الوفاء بالعهود من ثِمار العقل السليم، ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ... يُوفُونَ...﴾.

٣ ـ احترام العهود والمواثيق الاجتماعيّة من خِصال الإنسان المؤمن العاقل، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- ورد في الروايات أنّ ممّا أمر الله به أن يُوصَل الرَّحِم، أي المحافظة على العلاقات الأُسرية، والعهود الدينيّة ونعني بذلك الاتّصال المستمرّ والمُعَمَّق بالأئمّة والسّير على خطى الولاية[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) راجع: تفسير الصافي.

□ من خلال نظرة عابرة إلى عالمنا المُعاصر يمكننا ملاحظة ما يحظى به أكثر من مليار مسلم من الثروات الطبيعية ومنها النفط الموجود تحت أقدامنا مباشرة، وما وُهِبَ لهم من نقطة التقاء للوحدة والحبّ وهي الكعبة المشرّفة، وما مُنِحوا من منطق سليم ودين قويم، ومع ذلك نراهم يرزحون تحت الكثير من الضغوط بسبب تسلّط القوى العُظمى، وما ذلك إلّا بسبب إهمالهم مسألة القيادة (الإمامة) الدينية. ولذلك، جاءت عبارة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعد عبارة ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ في الآية السابعة والعشرين من سورة البقرة، ما يعني أنّ قطع صِلة الرّحِم وحده ليس هو السبب في الإفساد في الأرض بل وإهمال الإمامة كذلك والذي يؤدّي إلى الوقوع في براثن الطاغوت وحبائل الشيطان والفساد.

□ كثيرة هي العلاقات التي أمر الله بإبرامها، منها:

أ) العلاقة الثقافيّة مع العلماء: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

ب) العلاقات الاجتماعيّة مع الناس: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾(٢).

ج) العلاقة العاطفية مع الوالديْن: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٣).

د) العلاقة المادّية مع المُحتاجين: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٤).

هـ) العلاقة الفكريّة الخاصة بإدارة المجتمع: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(٥).

و) العلاقة السياسيّة مع الوليّ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٦).

ز) العلاقة الشاملة والمُتشعّبة مع المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٧).

ح) العلاقة المعنوية مع أولياء الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٨).

---

(١) سورة النّحل: الآية ٤٣.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ٨٣.
(٤) السورة نفسها: الآية ٢٤٥.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٦) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٧) سورة الحُجرات: الآية ١٠.
(٨) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

صِلة الرّحِم

- لا تقتصر صِلة الرّحِم على اللقاء والتزاور، بل إنّ المساعدات المادّية هي إحدى نماذج صِلة الرّحِم. وفي الكافي والعياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«ومما فرض الله في المال من غير الزكوة قوله تعالى الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل»**[١]. وقد يكون مُراد الإمام عليه السلام من الحقوق الأخرى هو الخُمس.
- يكفي لبيان أهميّة صِلة الرّحم أنّ الله سبحانه ذكرها إلى جانب ذِكره هو بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾[٢].
- ليس المقصود بالرّحم هو أفراد الأُسرة أو الأقرباء بالنّسب فقط، بل والمجتمع الإسلامي الكبير بأكمله الذي يضمّ أفراد الأمة الإسلاميّة كإخوة في الدين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣] وأباهم الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وكذلك أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام. قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«أنا وَعَليّ أبَوا هذِهِ الأُمّة»**[٤].
- عن مولاة لأبي عبد الله الصّادق عليه السلام قالت: كنتُ عند أبي عبد الله حين حضرته الوفاة فأغمِيَ عليه، فلمّا أفاق قال: **«أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا، وفلاناً كذا»**. فقلتُ: أتُعطي رجلاً حَمَلَ عليك بالشفرة؟ فقال عليه السلام: **«ويحك، أما تقرَئين القرآن؟ قلتُ: بلى. قال: أما سمعتِ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[٥]»**، انظر كيف يُعلّمنا أئمّتنا عليهم السلام أنّ صِلة الرّحم ليست مشروطة بثقة الآخرين بنا أو حبّهم لنا.
- وفي ما يتعلّق بتوضيح بعض عبارات هذه الآية الشريفة مثل ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، فإنّه على الرّغم من التشابه الموجود بين كلمة «الخَشية» و«الخَوف» في الكثير من الموارد لكنّ الحقيقة هي أنّ ثمّة فارقاً واضحاً بينهما، وهو أنّ «الخَشية» تعني الخوف والتأثّر الباطني اللذيْن يعتريان

---

(١) انظر: تفسير الصافي.
(٢) سورة النساء: الآية ١.
(٣) سورة الحُجُرات: الآية ١٠.
(٤) بحار الأنوار، ج٢٣، ص ٢٩٥.
(٥) انظر: تفسير نور الثّقلَين، ج٢، ص ٤٩٥.

الإنسان لاحترامه المُقابل وتعظيمه وتبجيله، في حين أنّ «الخَوْف» يتضمّن معنى أوسع من ذلك فهو يشمل أنواع الخوف والاضطراب والقلق كلّها. وبعبارة أخرى: إنّ كلمة «الخَشية» لا تُستَخدَم إطلاقاً في الحوادث المرّة، فما مِن أحد منّا يقول مثلاً: أنا أخشى البَرد أو المَرض أو غير ذلك؛ بينما يكثر استخدام كلمة «الخوف» في مثل هذه الأمور كقولك: أخاف البَرد أو المرض وما شابه ذلك. وهكذا فإنّه لمّا كانت الخشية ناجمة عن علم الإنسان ومعرفته بعظمة المُقابل وهيبته، يمكننا عندها تخصيص هذه الكلمة بالأشخاص العارفين والعُلماء بالتحديد بينما يمكن للجميع استخدام كلمة الخوف. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ المحافظة على العلاقات الدينيّة دليل على العقل السليم، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ... الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾.

٢ ـ علينا أن نوطّد علاقاتنا بأقاربنا؛ لأنّ الله سبحانه أمرنا بذلك، سواء رغب الآخرون أيضاً في فعل ذلك معنا أم لم يرغبوا، ﴿أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

٣ ـ تجنّبوا ارتكاب المعاصي وغضّوا أبصاركم في الزيارات واللقاءات، ﴿يَصِلُونَ... يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

٤ ـ اخشَوا عظمة الله ﴿يَخْشَوْنَ﴾، وخافوا عذابه ﴿يَخَافُونَ﴾.

٥ ـ قطع صِلة الرّحم يؤدّي إلى سوء الحساب، ﴿يَصِلُونَ... وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ لا يعني «الصّبر» تحمّل المشاكل والأعباء وحسب، بل ويشمل كذلك الاستقامة

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

والمواصلة في العبادات ومحاربة المعاصي والصّبر على المصائب والتسليم في الطاعة وتجنّب الغرور والتكبّر في السّراء.

- المُراد بعبارة ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ هو الفوز بعناية الله سبحانه ومرضاته.
- إقامة الصلاة نموذجٌ حيٌّ للعهود الإلٰهيّة وهو ما ورد في الآيات السابقة أيضاً، وذُكِر في الروايات كذلك أنّ **(الصّلاة عَهد الله)**.
- الصّبر والصّلاة يمثّلان علاقة المخلوق بالخالق، أمّا الإنفاق والحَسنة فهما علاقته بأبناء جلدته.
- الإنفاق على مراحل:

المرحلة الأولى: الإحسان والإنفاق من فضل الله سبحانه ونِعَمه، ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾[1].

المرحلة الثانية: الإنفاق من كدّ الفرد وكسبه الحلال، ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[2].

المرحلة الثالثة: الإنفاق ممّا يُحبّه الإنسان ويعزّ عليه، ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3].

المرحلة الرابعة: الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4].

- قال العلّامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان»: «قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبتها المحمودة... وإنّما تُسمّى عاقبة بنحو من التوسّع، ولذلك أطلق في الآية ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ وأريدت بها العاقبة المحمودة»[5].
- تعني عبارة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أنّه إذا تصرّف معنا شخص مؤمن ـ لا ظالم ولا مُفسِد ـ بشكل غير لائق فعلينا أن نتغاضى عن ذلك، بينما يتوجّب علينا مُقابلة تصرّفات الظالمين والمُفسدين بمثلها. وعلى الرّغم من أنّ الإسلام

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٢.
(٤) سورة الحَشر: الآية ٩.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١١.

هو دين التسامح والأخلاق الحميدة والعفو والمغفرة، فإنّه في الوقت نفسه قد أمرنا قائلاً: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾[1].

□ الإسلام دين جامع وشامل، وأولو الألباب هم أفراد يتّسمون بالكمال. فاستخدام بعض الكلمات مثل ﴿يُوفُونَ﴾ و﴿يَصِلُونَ﴾ و﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ و﴿يَخَافُونَ﴾ و﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿أَقَامُواْ﴾ ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ و﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ يدلّ على أنّ الأفراد الكاملين مُلتزمون بعهودهم ومُحافظون على علاقاتهم بالآخرين ويتمتّعون بدرجة عالية من التقوى، مضافاً إلى أنّهم حاضرون وفعّالون في مختلف الأصعدة وليسوا مُنزوين أو مُنعزلين.

التعاليم:

١ ـ إنّ لكلّ من الصّبر والاستقامة والثبات قيمة عالية إذا كانت في سبيل الله (وهذا لا يشمل كلّ تعصّب أو عناد أو تصلّب)، ﴿صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢ ـ لا بدّ من إقامة الصلاة وليس تلاوتها فقط؛ أي، أنّه تجب مُراعاة آدابها وشروطها وحدودها وأوامرها، ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣ ـ لا خير في علاقة الفرد بربّه إذا لم يسعَ إلى مساعدة الآخرين، وليس المُراد بالمساعدة هو المساعدة المالية وحسب، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ﴾.

٤ ـ لا تغترّوا بإنفاقكم فكلّ ذلك من فضل الله ونعمته، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٥ ـ عندما يكون الهدف من فعل البشر هو ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، فلا يهمّ إذا كان أداء ذلك الفعل سرّاً أو علانية، ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾.

٦ ـ تقتضي الحكمة أن يكون أداء بعض الأعمال سرّاً والبعض الآخر علانية، ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾.

٧ ـ تداركوا المعصية بالتوبة، والمُنكر بالمعروف، والظّلم بالعفو، والسّبّ بالسلام، والعذاب بالصّدقة، والجفاء بالتواصل، والاستبداد بالتشاور، وولاية الطاغوت والشيطان بولاية الحقّ الرّحمن، ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

---

(١) سورة النور: الآية ٢.

٨ ـ عُقبى الدّارين لا تكون إلّا من نصيب أولي الألباب، ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ... أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ وردت عبارة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ في (١١) آية من بين (١٢٧) آية ذُكرت فيها كلمة «الجنّات» أو «الجنّة»، و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ ـ كما أشار صاحب الدرّ المنثور[١] ـ هي قصبة الجنّة[٢].

قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَرّهُ أن يَحْيا حَياتي ويَموتَ مَماتي ويَسْكُنَ جَنَّتي التي وَعَدني اللهُ رَبّي، جَنّاتُ عَدْنٍ قَضيبٍ غَرَسَهُ اللهُ بِيَدِهِ ثُمّ قالَ لَه: كُنْ فَكانَ، فَلْيُوالِ عَليّ بن أبي طالِب وذُرّيّته مِن بَعْدِه، فَهُم الأئِمّة وهُم الأوصياءُ أعطاهم اللهُ عِلْمي وفَهمي، لا يُدْخِلونَكم في بابِ ضَلالٍ ولا يُخْرِجونَكم من بابِ هُدى، لا تعلموهم فهُم أعْلم منكم يَزولُ الحقُّ مَعهم أيْنَما زالوا...»**[٣].

□ كثيراً ما ورد في القرآن الكريم أنّ الصالحين في أُسرة واحدة يُدخلون الجنّة كذلك معاً فيتلذّذون بالصحبة فيها؛ لكنّ الإشارة إلى بعض الأفراد في الأُسرة مثل الأب أو الزوجة أو الوَلد في الآية الشريفة أعلاه لا تدلّ على خصوصيّة مُعيّنة بل تشمل كذلك جميع الأفراد الصالحين في الأُسرة الواحدة بما في ذلك الأشخاص المذكورون والأمّهات والأخوات والإخوة. يُضاف إلى ذلك أنّ عدم الإشارة إلى الأمّ قد يكون بسبب كونها زوجة الأبّ وهي بذلك مشمولة بكلمة الزوجات (أو الأزواج) كما هي الحال مع الإخوة والأخوات وأبناء الأب والعَمّ والعَمّة إذ يُعتبرون من ذرّيّة الآباء.

(١) الجزء التاسع، ص ٤١.
(٢) انظر: تفسير الفرقان.
(٣) انظر: تفسير نور الثّقلَين، ج٢، ص٤٩٧.

- يُستفاد من آيات عدة وجود علاقات بين الملائكة والبشر في الدنيا والآخرة (البرزخ والقيامة) وفي جميع الأحوال، فأحياناً تُصلّي الملائكة على البشر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[1]، وأحياناً تستغفر لهم وتطلب لهم الرّحمة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2]، وفي أحيان أخرى يَدعون لهم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[3]، وعند موت الإنسان وأوّل دخوله إلى عالم البرزخ تقبض الملائكة روحه وهي تقول لجميع المؤمنين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾[4] و﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾[5]. وفي الآخرة كذلك تتردّد عليهم الملائكة في كلّ حين قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾.
- ذُكِر أن للجنّة ثمانية أبواب وهي تتناسب مع عدد الأوصاف التي ذُكِرت لأُولي الألباب في الآيات الأخيرة، وكأنّ كلّ صفة من تلك الصفات الثمانية مختصّة بباب مُعيّن من أبواب الجنّة وطريق إلى السعادة الأبدية مفتوح أمام الإنسان على مِصراعيْه.
- لا يجتمع كلّ أب مع ابنه أو كلّ زوجة مع زوجها أو الآباء مع الأبناء والذراري في الجنّة لأنّ الأنساب والأسباب تتقطّع يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[6] و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[7] و﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[8]. إذاً، فزيارة الأقارب بعضهم بعضاً لا يكون إلّا إذا كانوا يستحقون ذلك وجديرين بهذه النّعمة. ويمكننا الإشارة إلى آيات أخرى تشبه في مضمونها هذه الآية، مثل الآية (٧) من سورة غافر، والآية (٢١) من سورة الطور.

التعاليم:

١ ـ الصلاح هو شرط الدّخول إلى الجنّة، ﴿وَمَن صَلَحَ﴾.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.
(٢) سورة غافر: الآية ٧.
(٣) السورة نفسها: الآية ٨.
(٤) سورة فصّلت: الآية ٣٠.
(٥) سورة النّحل: الآية ٣٢.
(٦) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٧) سورة المدّثّر: الآية ٣٨.
(٨) سورة النّجم: الآية ٣٩.

٢ ـ الأسرة الفردوسيّة هي الأسرة التي يتّصف أعضاؤها بالوحدة في صراط الحقّ، ﴿صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾.

٣ ـ يُعدّ الاهتمام بالأمور العاطفية مبدأً من مبادئ الدين الإسلامي، فلا قيمة لعيش الإنسان في أبهى الأماكن وأجملها إذا كان بعيداً عن أسرته وأقاربه، ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ من الخصائص التي يتميّز بها القرآن الكريم بيانه الجذّاب للموضوعات بأبسط الجُمَل وأوجز العبارات. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، وهي جملة مقتضبة للغاية لكنّها مُفعَمة بالمعاني ومليئة بالتعابير، ويرجع تاريخها إلى أنبياء ماضين كإبراهيم ونوح وآدم وغيرهم ﷺ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)] و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

□ «السّلام» هو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو سلام الله تعالى على أنبيائه وتهنئته لأصحاب الجنّة وترنّم الملائكة وابتداء الكلام لدى جميع مُسْلِمي العالم، وشعار أصحاب الجنّة في هذا العالم والعالم الآخر، وهو ذِكر الخالق والمخلوق، والكلمة الطيبة التي تُقال عند دخولنا وخروجنا، وهو بداية الحديث في الرسائل والخطابات، وبيان يُقال للحيّ والميت والصغير والكبير، أمّا رَدّ هذه التحية والسلام فهو واجب في الأحوال كلّها.

□ لا شكّ في أنّ هدف السلام هو الاحترام والتهنئة والدّعاء والأمان من قِبَل الله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[(٢)]، وعندما نختتم صلواتنا بقولنا: (السّلامُ علينا وعَلى عِباد اللهِ الصالحين) فإنّنا بذلك نحطّم كلّ القيود العنصرية والحدود الواهية مثل السنّ والجنس والمال والجاه واللغة والزمان والمكان على مَرّ

(١) سورة الصّافات: الآية ٧٩.
(٢) سورة يس ﷺ: الآية ٥٨.

التاريخ، ونحاول من خلال ذلك السلام بناء علاقة وطيدة مع جميع عِباد الله الصالحين.

□ ورد في بعض الروايات أنّه: «إذا كان يوم القيامة ينادي مُناد: ليقم أهل الصبر. فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنّة. فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنّة. قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم. فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. وعن [الإمام] علي بن الحسين عليه السلام: «**فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين، أو تقول لهم الملائكة:** ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾»[1].

□ رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**نحن صُبَّر وشيعتنا أصبر منّا؛ لأنّا صبرنا بعِلْم وشيعتنا صَبروا على ما لا يَعلمون**»[2].

قالوا في الصّبر:

١ ـ الله سبحانه هو مصدر الصّبر، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[3].

٢ ـ ليَكن هدفنا من الصّبر هو مرضاة الله لا التفاخر ولا أيّ شيء آخر، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[4].

٣ ـ الصّبر من صفات الأنبياء، ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[5].

٤ ـ الصّبر مفتاح الجنّة، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم...﴾[6].

٥ ـ الصّبر على البلايا والاختبارات الإلٰهيّة هو مِحكّ ومعيار لمعرفة سيماء المجاهدين والصابرين، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[7].

---

(١) تفسير القرطبي، ج٩، ص ٣١٣.
(٢) تفسير الصافي، ج٣، ص ٦٨.
(٣) سورة النّحل: الآية ١٢٧.
(٤) سورة المدثّر: الآية ٧.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٤.
(٧) سورة محمّد: الآية ٣١.

٦ ـ الصّبر مَدعاة لنزول صلوات الله على صاحبه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾[١].

٧ ـ قال رسول الله ﷺ: «الصّبرُ مِن الإيمان كالرّأسِ مِن الجَسَد»[٢].

٨ ـ الصّبر ميزان درجات أهل الجنّة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[٣]، ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[٤].

٩ ـ الصّبر درجات، فقد ورد في أحد الروايات: «الصّبر على المصيبة ٣٠٠ درجة والصّبر على الطاعة ٦٠٠ درجة والصّبر على المعصية ٩٠٠»[٥].

١٠ ـ لم يذكر القرآن الكريم أجراً من دون حساب إلّا في ما يتعلّق بالصابرين، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[٦].

١١ ـ ذكر القرآن الكريم الصّبر إلى جانب الشّكر كذلك وهذا يشير إلى أنّ المصائب هي نوع من النِّعم ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[٧].

١٢ ـ الصّبر هو ما وَصّى به الإمام الحسين ولده السجّاد عليه السلام قائلاً: «يا بُنَيَّ اصْبِر عَلى الحَقِّ وَإنْ كانَ مُرّاً»[٨].

١٣ ـ قد يشتمل العمل الواحد أحياناً على أنواع عدّة من الصّبر، مثل تسليم سيّدنا إبراهيم عليه السلام لأمر الله بذَبح ابنه إسماعيل عليه السلام فقد صبرَ على الطاعة والتسليم وصبرَ على المصيبة.

التعاليم:

١ ـ الصّبر أساس الكمالات كلّها، ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾؛ (تمّ بيان الصّبر في آخر علامات أُولي الألباب وكمالاتهم، وسبب سلام الملائكة كذلك يعود إلى صَبر المؤمنين).

٢ ـ من أخلاق الملائكة السلام على أصحاب الجنّة كلّما دخلوا عليهم، ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم... سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٩، ص ٢٠٣.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٥.
(٤) سورة الإنسان: الآية ١٢.
(٥) بحار الأنوار، ج٧١، ص ٩٢.
(٦) سورة الزمر: الآية ١٠.
(٧) سورة إبراهيم: الآية ٥.
(٨) بحار الأنوار، ج٧٠، ص ١٨٤.

٣ ـ الجنّة هي «دار السّلام»؛ لأنّ الملائكة يسلّمون على أصحابها في دخولهم وخروجهم، ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ... سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾.

٤ ـ احترموا الصابرين والمثابرين، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾.

٥ ـ استخدام العبارات والسلام والتحيّة في النظام الإلٰهيّ قائم على أساس مُعيّن وحكمة واضحة (الإيمان والعَمل) لا (التملّق والنفاق). ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- في مُقابل الصفات الحسنة والخصال الطيبة لأولي الألباب ووفائهم بعهودهم ووصلهم ما أمر الله به أن يُوصَل، يشير القرآن الكريم إلى مجموعة أخرى من البشر ممّن يمتلكون عَكس تلك الصفات تماماً، أي نقضهم العهود وقطعهم لما أمر الله به أن يُوصَل، ولذلك، وبدلاً من عُقبى الدار التي وُعِدَ بها الصابرون فإنّ هؤلاء وُعِدوا بـ ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

- أُطلِق معنى «الفساد في الأرض» في القرآن الكريم على بعض الأشخاص والأفعال، ومن هؤلاء الذين تَصدق عليهم كلمة المُفسِد هو فرعون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1]، ومن بين الأفعال الفاسدة هي إهلاك الحَرث والنّسل[2]، وإيجاد الفُرقة وقَتل الأنفس البريئة. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ جزاء المُفسِد في الأرض هو القتل والإعدام وقطع أعضائه أو نَفيه وإبعاده[3]، أمّا الذين يحلو

---

(١) سورة القصص: الآية ٤.

(٢) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾، سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، سورة المائدة: الآية ٣٣.

لهم التشامخ والتعالي والإفساد، فهم محرومون من ألطاف الله يوم القيامة.

□ وممّا أوصى به الإمام السجّاد عليه السلام ولده، قوله: «**إيّاكَ ومُصاحَبَةِ القاطِعِ لرَحِمه فإنّي وَجَدْتُهُ مَلْعوناً في كِتابِ اللهِ**»[1].

التعاليم:

١ ـ يُعَدّ أسلوب المقارنة من الأساليب التربويّة والتبليغية، ﴿يُوفُونَ... عُقۡبَى ٱلدَّارِ... يَنقُضُونَ... سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٢ ـ يُعتبر ابتعاد العَبد عن الله سبحانه نقطة بداية الانحرافات جميعاً وأوجه الفساد، ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ... وَيُفۡسِدُونَ﴾.

٣ ـ قطع صِلة الرّحم من الكبائر؛ لأنّ الله تعالى وَعد مُرتكبيها بالعذاب الشديد، ﴿يَقۡطَعُونَ... وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٤ ـ يُمكن أن يسري فساد المُفسِد إلى كلّ مكان، ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾

إشارات:

□ على الرغم من أنّ هذه الآية الشريفة تُنسب السرّاء والضرّاء في الرّزق إلى الله سبحانه، إلا أنه لا ينبغي أن ننسى أنّ أفعال الله تعالى حكيمة ولا تَصدر إلّا على أساس المصلحة والحكمة. وقد بيّنت بعض الآيات والروايات كذلك بعض علل تلك الأفعال الحكيمة، منها وجود المعصية في شؤون الأفراد وهو ما يؤدّي إلى حدوث التغييرات في أرزاقهم. ولا بدّ من أنّ الكثير منّا قرأ ما ورد في دعاء كُميل: «**أللّهُمَّ اغفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَم**».

□ وأحياناً يكون سَبب الاختلاف في مقدار الرّزق بين فرد وآخر هو الاختبار

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص ١٩٦.

والابتلاء الإلٰهيّ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ... وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾[١]، أو يكون الحرمان من شيء من الرّزق بسبب حرمان صاحب الرّزق الآخرينَ من حقوقهم، كصاحب البستان المذكور في سورة القلم والذي أحرقته النار لأنّ صاحبه كان بخيلاً[٢]، وأحياناً أخرى يكون التقتير في الرّزق ونقصه بسبب تجاهل اليتامى وإهمالهم ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾[٣].

❑ المهمّ هو أن لا نَغترّ بوفرة الرّزق ونعصي الله وننسى كلّ شيء، ولا نيأس أو نفقد الأمل عند قبضه، فالنظام الإلٰهيّ نظام حكيم قائم على الاختبار والابتلاء لا الحظّ والإقبال.

التعاليم:

١ ـ الرّزق ـ كثيره وقليله ـ بيَد الله، وهو لا يتأتّى بالحيلة أو التملّق أو نقض العهود أو قطع العلاقات التي تتطلّب في بعض الأحيان البَذل والإنفاق، ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

٢ ـ الرّزق القليل هو الآخر مُعطى وفقاً لقَدر الفرد وحكمة الله، فقد ورد في الآية الشريفة كلمة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بدلاً من (يُضيّق).

٣ ـ على الرغم من أنّ الدنيا ومتاعها قليلان، إلّا أنّها ـ مع الأسف ـ قادرة على إغراء البعض وخداعهم، ﴿وَفَرِحُوا...﴾.

٤ ـ الدّنيا صغيرة وزائلة ومتاعها قليل، فلا تضعوا فيها آمالكم كلّها، ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

❑ لا بدّ من أن يكون لكلّ نبيّ بيّنة وآية من عند الله تعالى لإثبات نبوّته، وهي ما

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(٢) سورة القلم: الآيات من ١٧ إلى ٣٢. [المترجم]

(٣) سورة الفجر: الآية ١٧.

تُسمّى بـ (**المُعجزة**)، لكنّ المُعجزة لا تكون إلّا في الأمور الخاصّة. أمّا هؤلاء المُعاندين فيطلبون من النبيّ ﷺ الإتيان بالمُعجزة لا لأجل قبول دعوته والإيمان بما جاء به، ولكن لإرضاء أهوائهم واللّعب والعَبث، ولو أنّهم تركوا العناد ولم تَعمَ بصيرتهم لوجدوا أنّ القرآن الكريم بحدّ ذاته هو أعظم مُعجزة.

□ قد يكون الماء والطعام مُضراً لبعض المرضى؛ لكنّ الضّرر لا يكمن في الماء أو الطعام نفسه بل بسبب المَرض الذي يُعانيه ذلك المريض. نعم، فإنّ الأفراد المرضى من الناحية النفسيّة يتوجّعون ويتكدّرون إذا ما اضطرّوا إلى قبول آيات الله الواضحات؛ لأنّهم وبمجرّد مواجهتهم للحقّ ستتحرّك داخلهم عوامل العناد التي ستأمرهم بطرد فكرة الهداية، وهذا ما تُشير إليه كلمة ﴿يُضِلُّ﴾ في الآية الشريفة أعلاه.

بحث حول الهداية والضلال:

□ الهداية الإلٰهيّة على نوعين: (١) هداية ابتدائية؛ و(٢) هداية تكميلية.

فأمّا الهداية الابتدائية فهي تتعلّق بالناس جميعاً، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[١]، وأمّا الهداية التكميلية فتخصّ أفراداً مُعيّنين ممّن قبلوا وأذعنوا للهداية الأولى. كالمعلّم الذي يُلقي دروسه ومواضيعه في الأيام الأولى للدراسة على الطلبة بشكل واحد ونمط مُعيّن، لكن بعد مضيّ فترة نراه يشمل برعايته الطلبة المجتهدين والجادّين في دراستهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[٢].

لكنّ الأفراد الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[٣]، و﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٤]، لم يزدادوا إلّا عناداً وقولهم: هذا سِحر. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾[٥]، فهل يستحقّ مثل هؤلاء بعد ذلك إلّا

(١) سورة الإنسان: الآية ٣.
(٢) سورة محمّد: الآية ١٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٤.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٧.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

أن يُختَم بالضلالة على قلوبهم؟ ومع ذلك فإنّ الله سبحانه حكيم وعادل، وإنّ أفعاله وإراداته كلّها قائمة على أساس قوله ﷻ: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ و﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ و﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، و﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، و﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، و﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فكلّ ذلك لا يمكن تفسيره إلّا وفقاً لعدله وحكمته ولطفه وعنايته.

فعندما يقول الله سبحانه: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، فليست الهداية التي يختارها لشخص ما على غير قاعدة أو معيار ثابت، بل وكما يتبيّن لنا من الآيات الأخرى، فهو يطالب في بعضها بالإيمان كشرط للهداية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾(١)، وفي آية أخرى يشير إلى أنّ الحصول على مرضاته إلى جانب سلوك سبيل السلامة والاستقامة هو أساس الهداية: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾(٢).

أو عندما يقول عزّ وجَلّ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ فإنّه يعتبر في آيات أخرى أنّ الإسراف في الشكّ والارتياب هو سبب وعامل الضلال: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾(٣).

وعلى أيّ حال، إذا كانت فتحة الإناء إلى الأعلى فقد تدخل فيه بعض قطرات المطر، ولكن إذا كان الإناء منكفئاً إلى الأسفل فلن تدخل قطرة واحدة إلى جوفه. وهكذا هو الإنسان، فإذا كانت نفسه متّجهة إلى المادّيّات فمن الطبيعيّ أنّه سيكون محروماً من أيّ قطرة من قطرات المعنويّة الإلٰهيّة، ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٤).

التعاليم:

١ ـ يُطالب الكُفّار المُعاندون بمُعجزة جديدة في كلّ لحظة. لكن، ما من مشكلة في إيجاد المعجزة الخارجيّة، بل إنّ المشكلة موجودة في عنادهم المتأصّل في نفوسهم، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾.

---

(١) سورة التغابن: الآية ١١.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٦.
(٣) سورة غافر: الآية ٣٤.
(٤) سورة النّحل: الآية ١٠٧.

٢ ـ اقتضت السُّنّة الإلٰهيّة هداية الناس جميعاً: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1]؛ ولكن إذا اختار البعض طريق الاعوجاج والضلال فإنّ الله سيجازيه بمثل الذي اختاره وهو الضلال، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾.

٣ ـ الخشوع والإنابة مُقابل الحقّ هما مفتاح الهداية، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ هداية الناس هي بيَد الله وبمشيئته، فإنّ تلك الهداية لا تشمل سوى الذين أوجدوا في داخلهم الاستعداد لتقبّلها، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ
أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- لا يقتصر ذِكر الله سبحانه على اللّسان وحسب، وإن كان ذلك هو أحد الوجوه الشائعة لذِكره تعالى؛ لأنّ المهمّ هو ذِكره ﷻ في كلّ وقت وحين، خصوصاً عند ارتكاب المعاصي.
- لِذِكْر الله سبحانه بركات ونِعَم كثيرة، منها أنّ:

أ) ذِكر نِعَمه سبب للشّكر.

ب) وذِكر قُدرته سبب للتوكّل عليه.

ج) وذِكر ألطافه سبب لمحبّته.

د) وذِكر غضبه وعقابه سبب للخوف منه.

هـ) وذِكر عظمته وهيبته سبب لخَشيته.

و) وذِكر عِلمه بالغيب والشهادة سبب للحياء والعفّة.

ز) وذِكر عَفوه وكَرمه سبب للأمل والتوبة.

---

(١) سورة الليل: الآية ١٢.

ح) وذِكر عَدله سبب للتقوى والزّهد.

❑ طلبات الإنسان لا تنتهي ورغباته ليس لها حَدّ، فهو ينشد الكمال المطلق، ولكن لمّا كان كلّ شيء غير الله محدوداً ووجوداً عارضاً فإنّ قلب الإنسان لا يهدأ ولا يسكن. وفي مقابل الذين تطمئنّ قلوبهم بذِكر الله نَجد مجموعة أخرى تذعن لمتاع الدنيا القليل، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[1].

❑ الصلاة شكل من أشكال ذِكر الله سبحانه وسبب لطمأنينة القلوب، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2]، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

❑ قد يكون معنى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ هو أنّ قلوبكم تطمئنّ بذِكر الله لكم، أي إذا علمنا أنّ الله تعالى يذكرنا وأنّنا حاضرون أمامه على الدوام فإنّ قلوبنا تصبح مطمئنّة ولا نخشى شيئاً أبداً. وهذا ما حصل مع سيّدنا نوح عليه السلام حين اطمأنّ قلبه وهدأ باله بعدما خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[3] وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حين قال: **«هَوَّنَ عَلَيَّ أَنَّهُ بِعَيْنِ الله»** وهو يرى استشهاد ابنه عليّ الأصغر عليه السلام. وما ورد عنه عليه السلام قوله في دعاء عرفة: **«يا ذاكِرَ الذّاكِرين»**.

❑ **سؤال**: تشير هذه الآية إلى أنّ القلوب تطمئنّ بذِكر الله لا سيّما قلوب المؤمنين، لكن تبيّن آيات أخرى أنّ المؤمن إذا ما دعا ربّه ارتعش قلبه ووَجِلَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4]، فهل يمكن اجتماع هذا الوَجَل وتلك الطمأنينة معاً؟ وكيف نُفسّر ذلك؟

الجواب: لكي نستوعب إمكانية اجتماع الطمأنينة والوَجَل في آن واحد ونفهمها حقّ الفهم، نسوق بعض الأمثلة على ذلك:

أ) قد يكون قلب الإنسان أحياناً مطمئنّاً وهادئاً بسبب توفّر جميع العناصر المطلوبة في أمر ما، لكنّنا مع ذلك نراه قلقاً ومضطرباً. كالجرّاح الأخصّائيّ

---

(١) سورة يونس: الآية ٧.
(٢) سورة طه: الآية ١٤.
(٣) سورة هود: الآية ٣٧.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٢.

الذي يَثِق بعِلمه وأدائه في الجراحة، إلّا أنّ القلق والخوف يعتريانه إذا ما أراد القيام بعملية جراحية لشخصيّة مهمّة مثلاً.

ب) أو الأولاد الذين يشعرون بالطمأنينة لوجود الوالدين، ومع هذا فهم يهابونهما ويحسبون لهما كلّ حساب.

ج) أو أحياناً يؤمن بعض الأفراد بأنّ بليّة ما أو مصيبة معيّنة إنّما هي اختبار إلهيّ له يُراد بها تهيئته لخوض المعارك التالية في حياته، لذلك نراه سعيداً ومطمئناً، لكن يبقى ما يُقلقه هو: هل سينجح في أداء مهمّته على أكمل وَجه أم أنّه سيفشل؟

د) عندما يتلو المؤمنون القرآن الكريم ويمرّون على الآيات التي تشير إلى العذاب والنار وغضب الله سبحانه يستولي عليهم الخوف وتأخذهم الرّعدة، بينما يشعرون بطمأنينة كاملة تغمر قلوبهم عند قراءتهم الآيات التي تُذكَر فيها رَحمة الله ورضوانه والجنات التي وعد بها المؤمنون. ويقول الإمام السّجاد عليه السلام في الدعاء المشهور بدعاء أبي حمزة الثماليّ: «**إذا رَأَيْتُ مَوْلايَ ذُنُوبي فَزِعْتُ، وَإذا رَأَيْتُ كَرَمَكَ طَمِعْتُ**». وأمّا صاحب تفسير «الميزان» فقد أورد مثالاً على ذلك من القرآن الكريم نفسه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[١]؛ بمعنى أنّ الإنسان يضطرب في البداية إلّا أنّه سَرعان ما يهدأ ويطمئنّ قلبه.

- إنّ مَن يغفل عن ذِكر الله تعالى لن يذوق طعم الأمن والأمان ولا الراحة والاطمئنان، وما أتعس الحياة التي تخلو من الطمأنينة والهدوء، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٢].

عوامل الطمأنينة والراحة:

- ثمة عوامل عدّة تبعث على الطمأنينة والهدوء، إلّا أنّ العِلم له دوره المُمَيّز في هذا الشأن:

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣. (٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

- فالذي يعلم بأنّ كلّ مثقال ذرّة من أعماله محسوب ومكتوب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[١] سيكون قلبه مطمئناً وباله مرتاحاً بالنسبة لما يقوم به.
- ومَن يعلم أنّه مخلوق بلُطف الله ورحمته: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٢]؛ لا بدّ من أن يكون متفائلاً ومليئاً بالأمل.
- ومَن عَلِمَ أنّ ربّه بالمرصاد للظالمين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٣]؛ فباله مرتاح.
- ومَن يعلم أنّ الله سبحانه حكيم عليم وأنّه لم يخلق شيئاً اعتباطاً أو عبثاً: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٤]؛ سيكون متفائلاً.
- ومَن يعلم أنّ طريقه واضحة وأنّ مستقبله أفضل من ماضيه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٥]؛ يكون قلبه أكثر اطمئناناً.
- ومَن يعلم أنّ إمامه وقائده هو إنسان كامل ومعصوم من كلّ خطأ وأنّه مُختار من قِبَل الله مباشرة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٦] فإنّه لن يكون إلّا هادئاً ومطمئناً.
- ومَن يعلم أنّ عَمله الحَسن سيُجزى من عشرة إلى سبعمئة ضِعف وربّما إلى ما لا نهاية بينما سيُحسَب عَمله السيّئ على أنه زلّة لا غير: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[٧]؛ لا شكّ في أنّه سيكون أسعَد مَن في الوجود.
- ومَن يعلم أنّ الله عزّ وجلّ يُحبّ المُحسنين: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨]؛ سيطمئنّ لإحسانه.

■ وأخيراً، فإنّ مَن يعلم أنّ عَمله الحَسن سيشتهر وينتشر وعمله السيّئ سيظلّ

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.
(٢) سورة هود: الآية ١١٩.
(٣) سورة الفجر: الآية ١٤.
(٤) سورة النساء: الآية ٢٦.
(٥) سورة الأعلى: الآية ١٧.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٦١.
(٨) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

مخفياً بفَضل الله «يا مَنْ اَظْهَرَ الْجَميلَ وَسَتَرَ الْقَبيح»، لا شكّ في أنّه سيَسعد ويفرح.

عوامل الاضطراب والقَلق:

□ القلق والاضطراب النفسيّ من أكثر الأمراض شيوعاً في العصر الحديث، وهو مَرض له أعراضه الكثيرة مثل الانطوائيّة والكآبة وإذلال الذات واحتقارها. ولهذا النوع من المرض أسبابه وعِلله، وهي:

- يُصاب الشخص المريض بالكآبة لاعتقاده بأنّ كلّ ما حوله ليس كما يُحبّ، في حين لا يجب أن نتخلّى حتى عن القليل الممنوح لنا بحجّة أنّنا لم نَصل إلى كلّ ما نُحبّ.
- يتساءل الشخص الكئيب مع نفسه: «لماذا لا يحبّني الناس جميعاً»؟ في حين أنّ ذلك أمر مستحيل فحتى الله ﷻ وجبريل عليه السلام لهما أعداء، فلا يجب على أحد منّا أن يتوقّع حُبّ جميع الناس له.
- يَظنّ الشخص المصاب بالكآبة أنّ جميع الناس سيّئون، وهذا ليس صحيحاً بالطّبع، وقد أجاب الله سبحانه وتعالى على ما كان يتساءل عنه الملائكة عند خَلق أبينا آدم عليه السلام.
- يعتقد الكئيب أنّ كلّ ما يُصيبه من بلاء إنّما هو من خارج ذاته، بينما تكون البلايا الرئيسة والمصائب الكبيرة مُجرّد رَدّ فعل ناتج عن سلوكه وأفعاله الشخصيّة.
- يُصاب الشخص الكئيب بالقلق عند الشروع في أيّ عمل ويشعر بالخوف والوحدة. وقد قدّم الإمام علي عليه السلام علاجاً لهذه الحالة بقوله: «**إذا هبت شَيئاً فَقَعْ فِيه**»(١).
- ويَنتاب الشخص المصاب بالكآبة القلق والخوف ممّا قد يحصل في

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٦٢.

المستقبل، ويمكن لمثل هؤلاء الأفراد إزالة كلّ ذلك القلق والخوف بالتوكّل على الله سبحانه.

- وبسبب فشل المُكتئب في بعض الأمور نراه قلقاً ومتخوّفاً من أن يكون مصيره الفشل في بقيّة أموره.

- لمّا كان الكئيب مُعتمداً على البشر ومستنداً إلى القوى الزائلة، فإنّ حالته تزداد سوءاً مع زوال من يعتمد عليهم وضعف وتلك القوى.

- والخلاصة فإنّ بعض العوامل مثل عدم تقدير الناس لما يقوم به الشخص المُكتئب، وارتكابه المعاصيَ، والخوف من الموت، وما قد تبثّه الأُسرة من انطباعات وتغرسه من أفكار فيه كأن يقولوا له: أنتَ لا تعلم شيئاً؛ أو: أنتَ عاجز عن فعل كذا وكذا؛ والأحكام المسبقة والمطالب غير المنطقية والتصوّرات الخاطئة، هذه العوامل كلّها وغيرها كثير، هي أسباب رئيسة لحالات الكآبة والقلق وكلّها تتحوّل إلى طمأنينة وراحة وسعادة بمجرّد ذِكر الله سبحانه وقدرته وعفوه ولطفه. وها أنا أكتب تفسير الآية الشريفة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ في (٤/ ٦/ ١٩٩٤م) في مدينة (هَمَدان) وذلك بمناسبة الذكرى الخامسة لرحيل الإمام الخمينيّ (رَحمه الله)، الشخص الذي ختمَ وصيّته قائلاً: «وأستأذنكم للرحيل بقلب مطمئنّ وضمير مرتاح ونفس متفائلة بفضل الله».

التعاليم:

١ ـ الإيمان بالله والوثوق به هما علامتان على الإنابة الحقّة، ﴿مَنۡ أَنَابَ... ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ ـ الإيمان من دون اطمئنان القلب ليس إيماناً كاملاً ولا فاعلاً، ﴿ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾.

٣ ـ لا يكفي أن نذكر الله سبحانه بلساننا فقط، بل لا بدّ من أن نطمئنّ قلبياً، ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾.

٤ ـ لا يطمئنّ القلب إلّا بذِكر الله تعالى، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. إنّ الذين يكتنزون الذهب والفضة ويملكون السلطة والاقتدار اليوم هم كُثُر، إلّا أنّهم محرومون من الأمان والطمأنينة تماماً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ الناس أربعة أصناف:

أ) المؤمنون، وهم أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة.

ب) الكُفّار، وهم الذين لا إيمان لهم ولا يؤمنون، لا في الظاهر ولا في الباطن.

ج) الفاسقون، وهم المؤمنون الذين ساءت أعمالهم.

د) المنافقون، وهم الذين لا إيمان لهم لكنّهم يتظاهرون به أمام الناس.

□ ﴿طُوبَىٰ﴾ إمّا مصدر مثل (بُشرى) أو مؤنّث (أطيَب) بمعنى أفضل. لكنّ هذه الآية لم تُشر إلى معيار خاصّ للأفضل حتى يكون ذلك شاملاً لكلّ أفضل. وقد يكون ما ورد في الروايات من أنّ ﴿طُوبَىٰ﴾ هي شجرة أصلها في بيت النبيّ ﷺ وأنّ عليّاً عليه السلام وفروعها يُظلّلون على رؤوس المؤمنين، قد يكون ذلك مثالاً وتجسيماً لكون جميع الطهارات والخيرات مرهونة بالسير على خُطى الأئمة وأولياء الله.

□ عندما أخذ أصحاب العقليّة الساذجة على النبيّ ﷺ إكثاره من تقبيل ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام في كلّ وقت وحين، أجابهم ﷺ قائلاً: «**إنّي لَمّا أُسْرِيَ بي إلى السّماءِ دَخَلْتُ الجَنّةَ فأدْناني جبرئيلَ مِن شَجَرَةِ طُوبى وَناوَلَني مِن ثِمارِها فأكَلْتُه فَحَوّلَ اللهُ ذلكَ ماءً في ظَهْري، فلَمّا هَبَطتُ إلى الأرضِ واقَعْتُ خَديجة فَحَمَلَت بِفاطِمة فَما قَبّلتُها قَطّ إلّا وَجِدتُ رائحَةَ شَجَرة طُوبى مِنها**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨٨.

□ لا استمرار لسعادة غير المؤمنين الذين لا يعملون صالحاً، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «**لا خَيْرَ في لَذّةٍ مِن بَعْدِها النّار**»[1].

التعاليم:

١ ـ الحياة الدنيوية الطيبة والعاقبة الأخروية الحسنة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا... طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

٢ ـ لا قيمة للسعادة الدنيوية ما لم تكن عاقبتها الأخروية حسنة كذلك، لا أن تُصبح عقبة في طريقها، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

□ مع أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان عربيًا إلّا أنّ القرآن الكريم يشير بصراحة إلى أنّه بُعِثَ إلى الأُمم كافة من دون استثناء، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ إرسال الرّسل وبَعث الأنبياء هي سُنّة إلٰهيّة نابعة من لطف الله سبحانه ورحمته، ﴿كَذَٰلِكَ...﴾.

٢ ـ لا بدّ من دراسة تاريخ كلّ قوم من الأقوام قبل دعوتهم وتربيتهم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾.

٣ ـ تكمن مسؤولية الأنبياء في تلاوة وَحي الله على الناس، ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾.

٤ ـ دافعوا عن عقيدتكم ضدّ الكفّار، ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ... قُلْ هُوَ رَبِّى﴾.

٥ ـ التوكّل على الله سبحانه هو أساس مقاومة الكفّار، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى...عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٤١، ص ١٠٤.
(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

٦ ـ إيماننا بالله سبحانه قائم على أساس ربوبيّته ﴿رَبِّى﴾، ووحدانيّته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، والتوكّل عليه ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، ورجوعنا إليه ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾

إشارات:

- تشير هذه الآية إلى قمّة العناد الذي وصل إليه الكفّار وهي تشبه إلى حدّ كبير الآية (١١١) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾.
- القرآن الكريم كتاب استطاع تحريك ما هو أعتى من الجبال وأصعب من إحياء الموتى؛ فقد تمكّن من بعث الحياة في عقول عرب الجاهلية الجامدة وقلوبهم المغلقة. ولو وُجِدَ آنذاك كتاب يمكن بواسطته تحريك الجبال وإحياء الموتى، لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾[١].
- ويتبيّن من كلام الإمام الكاظم عليه السلام وجود الكثير من الرموز والعلوم والأسرار في القرآن الكريم بحيث يمكن التصرّف والتحكّم بالطبيعة من خلالها[٢]، ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ... قُطِّعَتۡ بِهِ... كُلِّمَ بِهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا تتوقّعوا أن يؤمن الناس جميعاً، ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾.

٢ ـ يُعتبر العناد والتعنّت من الأمراض المستعصية في المجتمعات البشرية؛ (فلو أراد شخص ما التوصّل إلى الحقيقة ومعرفتها بصِدق فإنّ معجزة واحدة تكفيه لإثبات ذلك)، ﴿قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ... قُطِّعَتۡ بِهِ... كُلِّمَ بِهِ﴾.

---

(١) تفسير الصافي. (٢) تفسير كنز الدقائق.

٣ ـ يُمثّل الله ﷻ في الأيديولوجيا الدينيّة الفاعل الأوّل والأخير، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾.

٤ ـ ما مِن مُعجزة تحدث إلّا بإذن الله سبحانه وليس بأهواء المُعاندين والكفّار، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾.

٥ ـ تستند إرادة الله تعالى في الهداية إلى اختيار الناس وليس إكراههم على ذلك، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾، وهو ما أكّده قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

٦ ـ على الكفّار في أيّ لحظة أن يتوقّعوا ضربة إلٰهيّة على بلادهم، ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾.

٧ ـ لا يقتصر غضب الله سبحانه على الآخرة وحسب، ﴿تُصِيبُهُم... قَارِعَةٌ﴾.

٨ ـ قد تكون الموعظة والاستدلال غير كافييْن في بعض الموارد، لذلك يتوجّب التعامل بالغضب والشدّة، ﴿تُصِيبُهُم... قَارِعَةٌ﴾.

٩ ـ سبب نزول البلايا على بعض الناس هو أفعالهم، ﴿بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾.

١٠ ـ تكون بعض التحذيرات الإلٰهيّة أحياناً بشكل مباشر فتصيبنا نحن بالذات وأحياناً أخرى تكون بشكل غير مباشر فتصيب الآخرين من حولنا، ﴿تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

١١ ـ علينا أن نأخذ الدروس والعِبَر من عذاب الآخرين، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

١٢ ـ لا تشكّكوا في وعيد الله وتحذيراته إطلاقاً، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ تُعدّ معرفة الأنبياء والاطّلاع على تاريخهم سبباً للصبر والجَلَد أمام المشاكل والمصاعب وتحمّل الأعباء، ﴿ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

٢ ـ مَن يستهزئ برُسُل الله وأنبيائه هو الكافر بعينه، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٣ ـ الإمهال والتأجيل سُنّة إلٰهيّة ثابتة، ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾. فالمؤمن يستفيد من هذه الحالة وينتهز الفرصة للتوبة والإكثار من العمل الصالح، بينما يشجّع ذلك الكافرَ على الإصرار على المعصية والإمعان في الكُفر.

٤ ـ لا تغترّوا بإمهال الله سبحانه وتأخيره العذابَ، فقد يصبّ غضبه فجأة ومن دون إنذار سابق، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.

٥ ـ إذا طلبتم من أيّ شخص القيام بعمل ما فلا بدّ لكم من إخباره بأخطار ذلك العمل ورَفْع معنويّاته، ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ الله سبحانه قائم على كلّ شيء، وهو مُدبّر الأمور جميعاً وهو الكافي والحافظ والمشرف والمُدوّن والمسجّل.

التعاليم:

١ ـ إنّ الله تعالى، ومن خلال السؤال الذي يطرحه، يأمر الإنسان بأن يُحكّم فطرته وعقله؛ لأنهما لا يوافقان على الشّرك، ﴿أَفَمَن... أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾.

٢ ـ مَن يبتعد عن الله العليم الواحد القيّوم سيقع في هاوية الشّرك وتعدّد الآلهة، ﴿شُرَكَاءَ﴾.

٣ ـ تمتاز عبادة الأوثان والشّرك بقدر من السخافة واللامنطق بحيث يتعذّر إطلاق صفة أو تسمية على أيّ منها، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

٤ ـ لا يُستبعد أن يكون المشركون أنفسهم غير راضين عن تهافتهم على عبادة الأوثان من أعماق وجدانهم، ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

٥ ـ الشّرك نوع من أنواع الكُفر، ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ... زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٦ ـ مَن يغرق في بحر الانحراف سيبتعد عن سبيل الحقّ وطريق الهداية، ﴿زُيِّنَ... وَصُدُّوا﴾.

٧ ـ لا تغترّوا بخططكم وتدابيركم، ﴿زُيِّنَ... مَكْرُهُمْ﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ عذاب الآخرة أشدّ وأعظم لأنّه:

أ) تنقطع الأسباب وتنعدم الوسائل جرّاءه، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1].

ب) لا تنفع معه الأنساب ولا تُجدي شجرة العائلة، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[2].

ت) لا تُقبَل من الناس إزاءه أيّ فِدية، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي... بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُـْوِيهِ ۝ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا كَلَّآ﴾[3].

ج) لا تُسمَع الأعذار مهما كانت، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[4].

د) يتفرّق الأصدقاء ويتهرّب الأصدقاء من أصدقائهم، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[5].

هـ) عذابٌ دائم وسرمديّ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾[6].

و) لا يُخَفّف عن أصحابه، ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾[7].

ح) عذاب نفسيّ وجسديّ، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[8].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٦.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٣) سورة المعارج: الآيات ١١ ـ ١٥.
(٤) سورة غافر: الآية ٥٢.
(٥) سورة المعارج: الآية ١٠.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٦٢.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٦٢.
(٨) سورة الدخان: الآية ٤٩.

التعاليم:

١ ـ مَن يَجعل لله شريكاً سيلقى العذاب في الدنيا كذلك، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٢ ـ من المؤكّد أنّ المشركين لا تشملهم أيّ شفاعة، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ من بين الأساليب التي يستخدمها القرآن الكريم في التربية والتعليم أسلوب المقارنة بين الأشخاص والحالات وبالتالي بين الحقّ والباطل. ومن هنا، ولمّا بيّنت الآية السابقة وضع المشركين ومصيرهم، فإنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى العاقبة الحسنة للمتّقين؛ لكي يتمكّن الإنسان من اختيار ما يُمليه عليه عقله وإدراكه بعد عقد المقارنة بينهما.

التعاليم:

١ ـ لا يمكننا إدراك معالم الجنّة أو أوصافها بالكامل إلّا من خلال التشبيه والتمثيل، ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾؛ لأنّ عقولنا المحدودة عاجزة عن إدراك محاسن الجنّة وكلّ ما تتضمّنه من نِعَم.

٢ ـ النِّعَم الفردوسيّة ليست موسمية أو موقّتة أو مُعرّضة للفساد، إنّما هي نِعَم متّصلة متواصلة لا سبيل للفساد أو الآفات إليها، ﴿دَائِمٌ﴾.

٣ ـ الجنّة جائزة أصحاب التقوى وهي لا تُمنَح لأحد جُزافاً؛ فالسعادة الأُخروية السّرمدية هي ثواب التقوى والزّهد الموقّتيْن في الدنيا، ﴿الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ... أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾.

٤ ـ لا تنظروا إلى شكل الأشخاص الظاهريّ؛ لأنّ المهمّ حسن العاقبة لا الأشكال، ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

٥ ـ على المؤمن أن يكون تقياً كذلك، فقد وردت كلمة ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ في مقابل كلمة ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة كغيرها من الآيات الأخرى[1]، إلى الصالحين والمُتّقين من أهل الكتاب الذين يتقبّلون الحقّ، وهؤلاء هم أهل الكتاب الحقيقيّون الذين يتّبعون الحقّ ويتجنّبون التعصّب الأعمى وغير المنطقيّ، وإذا سمعوا بنزول الآيات عليك فَرحوا من أعماق قلوبهم وآمنوا بما أُنزِلَ إليك.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من أنّ الإيمان بالآيات هو أمر مهمّ؛ لكنّ الأهمّ هو الشعور بالفرح والسعادة لذلك، ﴿يَفْرَحُونَ﴾.

٢ ـ لا بدّ من الإيمان بجميع أوامر الله سبحانه، ولا يكفي الإيمان ببعضها، ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾.

٣ ـ التحزّب غير المنطقيّ والتعصّب الأعمى هما آفة وخطر يواجهان الحقّ، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ﴾.

٤ ـ تَجِب مقاومة إنكار الحقّ والتصدّي له بكلّ الوسائل، ﴿مَن يُنكِرُ... قُلْ﴾.

٥ ـ إنّ الذي يستحقّ عبوديتنا المخلصة هو مَن يمتلك عاقبتنا، ومصيرنا بيديه، ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ... وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

٦ ـ التوحيد والنبوّة والمَعاد هي المبادئ الأساس للأديان السماوية: التوحيد ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾؛ النبوّة ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾؛ المَعاد ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٢؛ سورة البقرة: الآية ١٢٠؛ سورة الأعراف: الآية ١٥٩.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ تعني كلمة «الحُكم» في هذه الآية الشريفة أحد المعاني الثلاثة الآتية: (١) الحاكِم والفاصِل بين الحقّ والباطل؛ (٢) الأحكام الإلٰهيّة؛ (٣) الحِكْمة.

التعاليم:

١ ـ بعث الأنبياء عليهم السلام وإنزال الكُتب السماوية سنّة حكيمة من سُنن الله تعالى، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ لا رَيب في أنّ اتّباع أهواء الآخرين هو أخسّ وأحطّ من الانغماس في الأهواء والملذات، ﴿أَهْوَآءَهُم﴾.

٣ ـ ليس بإمكان العِلم وحده أن يمنح السعادة؛ فما أكثر المُتعلّمين الذين ينزلقون إلى مهاوي الخرافات ويقعون في شباك الأهواء الشائعة، ﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٤ ـ من الطبيعيّ أن تكون مسؤولية المتعلّمين أكبر من غيرهم، ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٥ ـ القرآن الكريم هو العِلم الحقيقيّ، ﴿أَنزَلْنَٰهُ... جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٦ ـ لا يَعترف الله سبحانه بأيّ نسب أو حسب، فلو انحرف الأنبياء أنفسهم فإنّهم لن ينجوا من حسابه، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ إرضاء المنحرفين والفاسقين معناه فقدان العون الإلٰهيّ، ﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم... مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ قال الإمام الصادق عليه السلام: **«نَحنُ ذُرّيّةُ مُحمّدٍ صلى الله عليه وآله وأُمُّنا فاطِمَة عليها السلام، وَما آتى الله**

أحَداً مِنَ المُرْسَلينَ شَيْئاً إلّا وَقَد آتاهُ مُحَمّداً ﷺ كَما آتى مَنْ قَبْلَه». ثمّ تَلا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(١).

التعاليم:

١ ـ إرسال الرُّسُل ﷺ هي سنّة من سُنن الله تعالى، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.

٢ ـ كان الأنبياء ﷺ يعيشون كسائر الناس وكان لديهم زوجات وأولاد، ﴿أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

٣ ـ لم تكن المُعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ بناءً على طلبهم هم أو إرضاءً لميول الناس وأهوائهم، بل بإذن الله تعالى ومشيئته، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٤ ـ يؤدي الوقت والزّمن دوراً كبيراً في نزول الأوامر الإلٰهيّة، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

المُقدّرات الإلهيّة

❑ يُستفاد من الآيات القرآنية والروايات أنّ المقدّرات الإلٰهيّة على نوعيْن:

النوع الأوّل: يتضمّن الأمور التي تتّصف بمصلحة دائمة ويكون قانونها دائماً أيضاً، على غرار ما تشير إليه الآيات الشريفة: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾(٢)، و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(٣). فمثل هذه المقدّرات مُثبّتة في اللوح المحفوظ ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(٤) ولا يَعلم ذلك إلّا المقرّبون إلى الله تعالى ولا يعلمه هؤلاء كذلك إلّا بإذنه ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٥).

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٤، ص ٢٦٥..

(٢) سورة ق: الآية ٢٩.

(٣) سورة الرّعد: الآية ٨.

(٤) سورة البروج: الآية ٢٢.

(٥) سورة المطفّفين، الآيتان ٢٠ و٢١.

النوع الثاني: ويشمل الأمور غير الحتميّة بل تتبع مصالحه أعمال وأفعال العباد نَفسها كتوبة الفرد من الذّنب والتي تستوجب بالطّبع مصلحة العفو عنه، أو إعطاء الصّدقة الذي يؤدّي إلى دَفع البلايا، أو الظلم والجَور اللذيْن يقتضيان غضب الله سبحانه لما يُسبّبانه من فساد. وهذا يعني أنّ الله ﷻ ليس محدوداً في العمل أو الفعل في إدارة نظام الخلقة، بل يمكنه تعالى من خلال حكمته وعِلمه غير المتناهيَيْن القيام ببعض التغييرات في نظام الخلق وقوانينه عَبر تغيّر الظروف أو تغييرها. ومن الواضح أنّ تلك التغييرات لا تشير إلى جَهل أو إعادة نَظر أو نَدم (والعياذ بالله) بل هي تغييرات قائمة على أساس الحكمة أو تغيير الظروف الخاصّة بأمر ما أو إنهاء فترته.

وتؤكد آيات قرآنية عدّة هذا الأمر، منها:

أ) ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[١]، وهذا يعني أنّ الإنسان قادر على الوصول إلى ما من شأنه أن يكون مصلحة له وباستطاعته تغيير مصيره بواسطة الدعاء والتضرّع إلى الله سبحانه.

ب) ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾[٢] وهذه إشارة إلى أنّ القوانين الإلٰهيّة ليست ثابتة في كلّ مكان وزمان، فقد يضع الله ﷻ برنامجاً جديداً في حال توفّر الظروف المطلوبة.

ج) ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[٣].

د) ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[٤].

هـ) ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ﴾[٥]، وهذا يعني أنّ غضب الله سبحانه قد يتحوّل إلى رحمة ولطف وبركات وذلك بالإيمان والتّقوى.

و) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[٦].

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.
(٢) سورة الطلاق: الآية ١.
(٣) سورة الرّحمن: الآية ٢٩.
(٤) سورة الصفّ: الآية ٥.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٦) سورة الرّعد: الآية ١١.

ز) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[١].

ح) ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[٢].

□ **سؤال**: إذا كان عِلم الله سبحانه هو عين ذاته وغير قابل للتغيير، أليسَ كلّ ما هو ماضٍ في عِلمه لا بدّ من أن يخرج إلى الواقع، وإلّا اعتُبِر ذلك جَهلاً؟

الجواب: إنّ علم الله ﷻ قائم على أساس نظام العِلل والأسباب، بمعنى أنّه تعالى عالِم بأنّه إذا اعتُمدت وسيلة ما فإنّ النتيجة ستكون كذا وكذا، وإذا استُخدمت وسيلة أخرى فإنّ النتيجة ستكون كذا وكذا. وهكذا، فإنّ عِلمه تعالى ليس منفصلاً عن العِلم بالأسباب والمسبّبات والعِلل.

ما هو البَداء؟

□ من الإشكالات والمآخِذ التي يأخذها أهل السنّة على الشيعة قولهم: «إنّ الشيعة تنسب (البَداء) إلى الله تعالى». ويظنّ أولئك أنّ المقصود بـ (البَداء) هو التغيير في عِلم الله وظهور ما هو خلاف ذلك له. والحقيقة هي أنّ ما يقصده الشيعة من البَداء هو ظهور شيء أو أمر خلافاً لما كان يظنّه الإنسان. والبداء في الخِلق كالنّسخ في التشريع، كأن نتصوّر دوام أمر ما من ظاهر القانون أو الحُكم ثمّ بعد مدّة نرى حدوث التغيير فيه. لكنّ ذلك بالطّبع لا يعني ندَم أو جَهل المُشرِّع إطلاقاً، بل إنّ الظروف هي التي تؤدّي إلى حدوث التغيّر في القانون المذكور. وهذا يشبه تماماً الوصفة التي يكتبها الطبيب لمريضه مُستنداً في ذلك إلى ظروف المريض وحالاته الموجودة بالفعل، لكن بمجرّد حصول التغيير في تلك الظروف أو الحالات يقوم الطبيب بكتابة وصفة أخرى له. فكما أنّ جميع الفِرَق الإسلاميّة، سنّيها وشيعيها، تؤيّد النّسخ في الآيات القرآنية وهو في الحقيقة نوع من البَداء، كان على تلك الفِرَق ـ من غير الشيعة بالطّبع ـ قبول هذا المعنى من البداء أيضاً. والخلاصة، فإنّ البَداء معناه جَهلنا ـ نحن البشر ـ وليس الله (حاشا له).

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨.

نماذج من البَداء

١ ـ ربّما ظنّ أحدنا أنّ الهدف من أمر الله تعالى إلى سيّدنا إبراهيم بذَبح ولده إسماعيل عليه السلام هو قَتله وسَفك دَمه؛ لكن، اتّضح لنا بعد ذلك أنّ ما أراده الله سبحانه من ذلك هو ابتلاء إبراهيم عليه السلام واختباره لا قَتل وَلده.

٢ ـ قد يظنّ كلّ مَن قرأ الآية التي واعد الله تعالى بها نبيّه موسى عليه السلام أنّ مدّة تلك المناجاة التي أرادها الله مع عبده هي ثلاثين ليلة ـ كما هو واضح كذلك من الآية الشريفة: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾[١]، إلّا أنّه تبيّن بأنّ الفترة التي أرادها الله هي أربعون ليلة لا ثلاثين، ولكن، ولغرض الاختبار، فقد أعلن الله تعالى عن ذلك في مرحلتَيْن اثنتَيْن: المرحلة الأولى ثلاثين ليلة، ثمّ المرحلة الثانية وهي إضافة عشر ليال أخرى لتُصبح أربعين ليلة[٢].

٣ ـ كان المسلمون واثقين من أنّ قبلتهم الدائمة هي القدس الشريف (بَيت المَقدس)؛ لكنّ الآيات الخاصة بتغيير اتّجاه القبلة كشفت لنا عن أنّ الكعبة المشرّفة هي قبلة المسلمين.

٤ ـ عند ظهور بوادر نزول العذاب الإلٰهيّ وعلاماته على قوم يونس عليه السلام لم يكن يشكّ للحظة واحدة في أنّ العذاب نازل لا محالة وأنّ قومه سيلقون مصيرهم المحتوم، وهذا ما دفعه إلى الخروج من بينهم واعتزالهم. ثمّ جَرت الرّياح على غير ما تشتهيه السُّفُن، فقد بادر قوم يونس عليه السلام إلى التوبة والاستغفار، وما كان من الله ـ وهو الرّحمن الرحيم ـ إلّا أن عَفا عنهم وأزال معالم الغضب والعذاب، ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾[٣].

ومهما يكن من أمر، فإنّ المقصود بالبَداء ليس جَهل البارئ عزّ وجلّ ـ حاشَ له ـ أو حدوث تغيير في عِلمه، فهو سبحانه عالِم منذ البداية بأنّ دَم إسماعيل عليه السلام

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٢) انظر: سورة البقرة: الآية ٥١؛ سورة الأعراف: الآية ١٤٢. [المترجم]

(٣) سورة يونس: الآية ٩٨.

لن يُهدَر وأنّ مدّة مناجاته مع نبيّه موسى عليه السلام هي أربعون ليلة بدلاً من ثلاثين وأنّ قِبلة المسلمين ستكون الكعبة المشرّفة وأنّ قوم يونس عليه السلام سيُحالفهم الحظّ وينجون من عذاب أليم، ومع ذلك فإنّ ظاهر الأحداث والأوامر الإلٰهيّة كان يشير من وُجهة نَظر البشر إلى غير ذلك. إذاً، فليس هناك من تغيير إطلاقاً في عِلم الله سبحانه، بل التغيير حاصل في وجهات نظرنا نحن البشر وآرائنا المختلفة والمتغيّرة.

□ والبَداء بالمعنى الذي أشرنا إليه، له الكثير من الآثار التربوية كبقاء الإنسان متفائلاً حتى آخر لحظة من عُمره بتغيّر الظروف، وبذلك تنتعش في داخله عوامل التوكّل ولا يعود يخضع للظواهر من الأمور، وهكذا يكبر إيمان الفرد بقدرة الله تعالى وعِلمه بالغيب. كلّ ذلك يدفع الإنسان إلى السّعي والمثابرة لتغيير مجرى الأحداث وتجنّب الغضب الإلٰهيّ وذلك بالتوبة والصّدقة والمناجاة والدّعاء.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«ما بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً قَطّ حَتّى يُقِرَّ لَهُ بِالبَداءِ مَعَ التَّوحِيدِ وَالإيمان»**، وفي حديث آخر نُقِلَ عن الأئمة عليهم السلام قولهم: **«مَن زَعَمَ أنّ اللهَ عزّ وجلّ يَبدو له في شَيءٍ لَم يَعْلَمه أمس فَابْرَؤوا مِنه»**[1].

التعاليم:

١ ـ قدرة الله واسعة في التغيير سواء في نظام التكوين أو التشريع، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

٢ ـ لم يترك الله سبحانه نظام الخلق لحاله، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾.

٣ ـ إنّ مَحو القوانين التي تحكم عالم الوجود بيَد الله سبحانه، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ...﴾.

٤ ـ لا يكون المَحو أو الإثبات الإلٰهيّ إلّا على أساس الحكمة والعِلم، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: سفينة البحار، ج١، ص ٦١.

▪ ـ يشتمل عالم الخلقة على كتاب تمّ تدوين الأحداث وتثبيتها كلّها فيه، ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إنّ ما نشهده من نِعَم الله ولُطفه على المؤمنين أو غضبه على الكافرين ليس سوى جانب بسيط من تحقّق الوعود الإلٰهيّة، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾.

٢ ـ لا يمكن لأيّ شيء ـ حتى وفاة النبيّ الأعظم ﷺ ـ أن يحول دون تحقّق الوعود الإلٰهيّة في الوقت المُحَدَّد لها بالضبط، ﴿نُرِيَنَّكَ... أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

٣ ـ تظهر آثار التبليغ وتأثيرات الدّعوة أحياناً بعد رَحيل المُبلّغ، لهذا، لا يجدر بنا أن نتوقّع نتيجة فورية لقيامنا بمسؤوليّاتنا وواجباتنا لأنّ التأخير لا يعني التعطيل، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

▪ ـ العقوبات الإلٰهيّة ليست عقوبات اعتباطية، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

❑ تشير روايات عدّة إلى أنّ المقصود بنقصان الأرض من أطرافها هو الموت ورحيل العُلماء الكبار[1].

التعاليم:

١ ـ علينا أن نعتبر ونتعلّم الدروس من تاريخ الأُمم الماضية وما آلت إليه عاقبتهم، وأن لا نشكّك في وعود الله سبحانه؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٥٢٠؛ وورد ما يُشبه هذا المعنى في الآية ٤٤ من سورة الأنبياء.

٢ ـ سقوط الحكومات وزوال الأفراد والشخصيّات لا يكون إلّا بمشيئة الله تعالى، ﴿نَأْتِي...﴾.

٣ ـ لا قوّة تحول دون تحقّق حُكم الله سبحانه وتنفيذ أوامره، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.

٤ ـ الناس قاطبة والقوى جميعاً ستزول عن وَجه الأرض أمّا قدرة الله تعالى فهي الباقية والدائمة، ﴿نَنقُصُهَا...﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

- عمدَ القرآن الكريم إلى غَلق الأبواب جميعاً وسَدّ الطُّرُق التي يُمكن أن تَجرّ الإنسان إلى التعلّق أو التمسّك بغير الله سبحانه؛ وذلك ليجلب انتباهه إليه وحده وييأس من سواه. فالله سبحانه مثلاً يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي إذا كان هدفك ـ أيّها الإنسان ـ من الجَري وراء غير الله هو طلب العزّة، فاعلم بأنّ العزّة لله وَحده أيًّا كان نوعها. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وفي الآية أعلاه يقول ﷻ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، وهذا يعني بوضوح أنّ التدبيرات والإجراءات جميعاً هي بيَد الله ولذلك لا يجب على الإنسان السعي وراء الآخرين للحصول على العزّة أو القوّة أو السلطة السياسيّة أو غيرها.

- من أوضح الأمثلة على مَكر الله تعالى هو إمهاله للكافرين وتأخير محاسبتهم حتى يظنّوا أنّهم يسلكون الطريق الصحيح، بينما أشار القرآن الكريم مراراً إلى أنّه لا ينبغي بهم اعتبار إمهالهم وتأخيرهم علامة على أنّ الله يحبّهم، بل يأتي ذلك في إطار إكمال الحجّة عليهم حتى يتمّ غَلق صحيفتهم وختمها.

التعاليم:

١ ـ ليس على أئمّة الدين أن يقلقوا بسبب مَكر المُخالفين؛ لأنّ التاريخ يُخبرنا أنّ الأنبياء عليهم السلام واجهوا المَكر نفسه والحيَل من قِبَل المُعارضين لهم، ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢ ـ ليَكن التاريخ عبرة لنا يُعلّمنا لمَن العاقبة الحسنة، ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

٣ ـ إذا علمتم علم اليقين بأنّ التدابير والإجراءات كلّها هي بيَد الله سبحانه وحده، فلن تجروا وراء الآخرين، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.

٤ ـ لا قيمة أبداً لما يمكره الإنسان أمام مَكر الله ﷻ، فالمَكر لا يؤثّر إلّا في مَن كان غافلاً عنه، ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

- طالعنا في الآية الأولى من هذه السورة المباركة أنّ ما أُنزِلَ إلى النبيّ ﷺ ليس سوى الحقّ وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك، ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وتُخبرنا هذه الآية الأخيرة بإنكار الكفّار نبوّة النبيّ ﷺ ورسالته، وهذا يدلّ على قمّة العناد الذي يسلكه أهل الباطل في تعاملهم مع رسول الله ووحيه الحقّ.
- إذا كان صاحب النبيّ سليمان عليه السلام قد استطاع الإتيان ببلقيس ـ ملكة سبأ ـ وعرشها في أقلّ من طرفة عَين؛ لأنّه كان يملك ذرّة من عِلم الكتاب، فما بالُك في ما يستطيع فعله مَن لديه عِلم الكتاب كلّه.
- تؤكّد الروايات أنّ المقصود بـ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو الإمام علي عليه السلام وآل بيت النبيّ ﷺ[1].

التعاليم:

١ ـ الإيمان بنِعم الله وحمايته أفضل ضمان وإثبات ضدّ التكذيب والاستهزاء، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾.

---

(١) انظر: تفسير كنز الدقائق.

٢ ـ لا شكّ في أنّ العلم بكتاب الله يقود صاحبه إلى منزلة رفيعة تكون معها شهادته مُعادلة لشهادة الله تعالى، ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ... وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣ ـ أحياناً تكون شهادة فَرد واحد أكثر اعتباراً وقيمة من شهادة آلاف من البشر (فالمعيار هو الجدارة لا العدد)، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا... وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

والحمد لله رَبّ العالمين

سُورَةُ ابراهِيمَ

السورة: ١٤ الجزء: ١٣

عدد الآيات: ٥٢

ملامح سورة إبراهيم

تتألّف هذه السورة من اثنين وخمسين آية، وهي من السّور المكيّة في ما عدا الآيتيْن (٢٨) و(٢٩) حيث نزلتا في المدينة المنوّرة وهما بشأن قَتلى مَعركة «بَدْر» من المشركين.

تناولت هذه السورة بعض الموضوعات حول بعثة الأنبياء عليهم السلام ومواعظ النبيّ إبراهيم عليه السلام وبشاراته وأدعيته. وتشير الروايات إلى أنّ من قرأ هذه السورة فإنّه يكون في مأمن من البلايا والفقر والجنون.

وسُميت هذه السورة بسورة إبراهيم؛ لأنّها تضمّنت أموراً كثيرة تتعلّق به عليه السلام خاصّة، وهي كسابقاتها من السّور (يونس، هود، يوسف) تبدأ بالحروف المقطّعة ﴿الٓرۚ﴾. وتشتمل الآيات الأولى من هذه السورة والسور المذكورة ـ كما أشرنا سابقاً ـ على وَصف للقرآن الكريم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

إشارات:

- كثيرة هي الآيات القرآنية التي تتحدّث عن مسألة إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فمنها ما نسب ذلك إلى الله سبحانه مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(١) ومنها ما نسب الإخراج إلى الأنبياء كقوله ﷺ: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٢) وآيات أخرى نسبت ذلك إلى الكتاب لقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.
- يأتي تشبيه الكُفر والتفرقة والجَهل والشّرك والتشكيك بـ (الظّلمات) وذلك لأنّ الإنسان في تلك الحالة يكون متحيّراً لا يدري ما يفعل وكأنّه يعيش في ظلمة تامّة.
- يُعتبر النور وسيلة للإبصار والإدراك والتحرّك والنشاط وكلّ ذلك موجود في الكتاب السماويّ والصراط المستقيم .﴿كِتَٰبٌ... إِلَى ٱلنُّورِ... إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا تكفي الاستعانة بالقرآن الكريم وحده، بل لا بدّ من وجود إمام وقائد يقود الناس إلى الهدى، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ﴾(٣).

٢ ـ ترتكز فلسفة تنزيل الكتب السماوية وبَعث الأنبياء ﷺ على إنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ من الظلمة والجهل إلى نور العِلم،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٣) قال أمير المؤمنين عليّ ﷺ في مناسبات عدّة: «القُرآنُ كِتابُ اللهِ الصّامِتِ وَأَنا كِتابُ اللهِ النّاطِق». الفصول المهمّة في أصول الأئمة، ج٢، ص ١٤٥. [المترجم]

ومن ظلمة الكُفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة التفرقة إلى نور الوحدة، ومن ظلمة المعصية إلى نور التقوى.

٣ ـ لا بدّ من اعتبار القرآن الكريم أساساً للدعوة والإرشاد، ﴿كِتَٰبٌ... لِتُخْرِجَ﴾.

٤ ـ الظلمة على أنواع والنور نوع واحد، والحقّ حقّ واحد أمّا الباطل فوجوهه كثيرة، ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ... ٱلنُّورِ﴾، فكلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وردت بصيغة الجمع بينما وردت كلمة ﴿ٱلنُّورُ﴾ بصيغة المُفرد.

٥ ـ يُمثّل الأنبياء ﷺ والكُتب السماوية وسائل لهداية البشر، فيما يبقى مبدأ الهداية بإذن الله تعالى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

٦ ـ إنّ سبيل الله يقود إلى العزّة والشموخ والكمال، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ما من قانون أو دين يستحقّ أن يُتّبع، إلّا قانون ودين مَن خلق العالَم وابتدعَ الوجود، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ... لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ إنكار وجود الإله الذي إليه يعود كلّ شيء لا يُضيره سوى كونه حجّة لمعاقبة الكفّار، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ لا يقتصر الصدّ عن سبيل الله تعالى على شكل أو شكليْن، بل إنّ الكثير من النماذج تصبّ في خانة الصدّ عن سبيل الله؛ مثل الإعلام الباطل والمعاصي العلنية وإشاعة عوامل الفساد والغفلة وإيجاد الشبهات وزرع بذور التفرقة

والصّحف والأفلام المُضلّلة وتشويه صورة الدّين الحقّ وتعريف المنحرفين بأنّهم أسوة في الدّين، وعشرات النماذج الأخرى التي يمكن اعتبارها وسائل للصدّ عن سبيل الله.

□ لا مانع أبداً من الاستفادة والتمتّع بالمنافع الدنيوية؛ لكنّ الخطر يكمن في تفضيل الدنيا على الآخرة لأنّ الرّكون إلى الدنيا يُعَدُّ حاجزاً بين المرء من جهة وبين العبادة والإنفاق والجهاد والكسب الحلال والصّدق والقيام بالتكاليف الشرعيّة من جهة أخرى.

التعاليم:

١ ـ عبادة الدنيا والرّكون إليها هما السبب في تثبيت قواعد الكُفر ومحاربة الدّين ونشر الضلالة، ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا... وَيَصُدُّونَ... فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٢ ـ يمكن أن تكون أفعال الإنسان وأعماله مصدراً للضلال، ﴿يَسْتَحِبُّونَ... يَصُدُّونَ... وَيَبْغُونَهَا﴾.

٣ ـ الإنسان مُخيّر غير مُسيّر، وبإمكانه تفضيل طريق على آخر واختياره السبيل الذي يُريد، ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾.

٤ ـ يمرّ الكُفّار (في الواقع) بمراحل ثلاث، هي:

أ) انحرافهم بسبب تعلّقهم بالدنيا وركونهم إليها، ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾.

ب) صدّهم الآخرين بأعمالهم وأفعالهم، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

ت) محاولتهم شدّ الآخرين وجذبهم إلى طريقهم المُنحرف بكلّ ما أُوتوا من قوّة، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّ النفسية الكافرة هي عامل الانحراف الأساس، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ... وَيَبْغُونَهَا﴾.

٦ ـ الضلال على مراحل ودرجات، فكلّما أمعن صاحبه في ذلك أصبح رجوعه إلى طريق الحقّ شاقّاً وعسيراً، ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

إشارات:

- المقصود من عبارة ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ ليس لغة قومه ولهجتهم فقط، فقد يتحدّث شخص ما إلى جماعة بلغتهم؛ لكنّهم لا يفقهون ما يقوله بالضّبط، فالمراد من ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ هو أن يكون كلام المُتحدّث إلى قومه مفهوماً ومُدرَكاً لكي يفهم قومه ويستوعبوا الوحي الإلٰهيّ. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم كذلك في آيات أخرى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾[1]، وقد طلب سيّدنا موسى عليه السلام من الله سبحانه أن يَحُلَّ عُقدة من لسانه لكي يفهم قومه والناس الآخرون ما يقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾[2].
- المُراد بـ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ هو حرمان المُعاندين من لُطف الله سبحانه، ولو كان الله سبحانه يتدخّل مباشرة في إضلال العَبد لَما كانت هناك حاجة إلى إرسال الأنبياء وإنزال الكُتب. وفي آيات أخرى يشير القرآن الكريم إلى إضلال الله الظالمينَ والفاسقينَ والمُسرفينَ، ومعنى ذلك أنّ الإنسان يَعمد إلى إتمام الحجّة على نفسه وحرمانها من الهداية بسبب ارتكابه الظلم والمعاصي.
- قال بعض المُفسّرين إنّ فاعل الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ هو الناس وليس الله تعالى، بمعنى أنّ الله سبحانه يُضلّ مَن يرغب هو نفسه في أن يُضَلّ، وكذلك هو يهدي مَن يرغب هو نفسه في الهداية، كقوله تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ...﴾[3].
- على الرغم من أنّ النبيّ ﷺ كان يدعو قومه بلسانهم فإنّ ذلك لا يتعارض مع كون رسالته أمميّة وعالميّة، لأنّها تتضمّن أموراً لا تتعلّق بلغة دون غيرها، وقد أوصانا القرآن الكريم بأنّ نُفقّه مجموعة من المسلمين ونبعثهم للتبليغ عن الدين وتعليم الآخرين الإسلام.

---

(١) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٢) سورة طه: الآيتان ٢٧ و٢٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

التعاليم:

١ ـ كان الأنبياء عليهم السلام يتكلّمون بلغة قومهم ويعرفون ثقافتهم، وكانوا يدعونهم وفقاً لما يفهمونه ويدركونه، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

٢ ـ إنّما يريد الله سبحانه إتمام حجّته على الناس، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

٣ ـ من المؤكّد أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يتعاملون مع قومهم بحُبّ وإخلاص ومودّة، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

٤ ـ لا بدّ من أن يكون أسلوب التبليغ والدعوة بسيطاً وصريحاً وواضحاً، وأن يكون مفهوماً للجميع أيضاً، ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

٥ ـ الهداية والضلالة هما بيَد الله سبحانه وهما تستندان إلى حكمة منه، ﴿يُضِلُّ... يَهْدِى... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

إشارات:

- تذكر مُعظم الروايات أنّ يوم يقوم مولانا الإمام المهديّ (عَجّل الله تعالى فَرجه الشّريف) ويوم الكرّة ويوم القيامة هي نماذج من ﴿أَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[١].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أن تكون للأنبياء عليهم السلام مُعجزات، ﴿أَرْسَلْنَا... بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٢ ـ الهدف الذي كان يقتفيه الأنبياء عليهم السلام واحد، وهو ما أمر به اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وآله في أوّل آية من هذه السورة ونبيّه موسى عليه السلام في هذه الآية، وهو أن أخرجوا قومكم من الظلمات إلى النور، ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾.

٣ ـ يُعتبر قوم كلّ نبيّ أوّل جبهة يتوجّب عليه النضال فيها، ﴿قَوْمَكَ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٥٢٦.

٤ ـ لا سبيل لنجاة الناس وخروجهم من الظلمات إلى النور إلّا من خلال تذكّرهم قدرة الله سبحانه وغضبه إزاء الظالمين ولُطفه ورحمته بالماضين، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ مُطالعة صفحات التاريخ بإمعان تمنح الإنسان الصّبر وتدفعه إلى الشّكر، وتذكيره بالبلايا والصعاب في الأيام الخوالي يُذكّره بوجوب الشّكر، وتذكيره ببقاء الأُمم (الصالحة) وفوزها يشجّعه على الصّبر والمقاومة، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٦ ـ كلّ الأيّام هي أيّام الله سبحانه؛ لكنّ الأيّام التي شهدت وتشهد تجلّي قدرته تعالى لها طَعم آخر؛ (أي، تجلّي قدرته من خلال غضبه وعذابه للكفّار وكذلك لُطفه ورحمته بالمؤمنين)، ﴿أَيَّىٰمَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ تجوز إقامة أيّ احتفال أو مجلس عزاء أو أيّ مناسبة أخرى يتمّ فيها تعظيم أيام الله، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، وهذا خلاف ما يعتقد به أتباع الفرقة الوهابية.

٨ ـ الصّبر في الضرّاء، والشّكر والحمد في السّرّاء مِن خصال المؤمن، ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٩ ـ الصّبر أساس إدراك الحقيقة، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

التعاليم:

١ ـ اذكُروا نِعَم الله سبحانه عَبر المقارنة بين الأحداث المرّة والمناسبات الحلوة وبين زمن الحريّة وأيّام العذاب، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لا تنسبوا الانتصارات إلى أنفسكم بل إلى الله سبحانه، ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم﴾.

٣ ـ الحريّة هي أكبر نِعَم الله جميعاً، ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾.
٤ ـ أهمّ واجب يقع على عاتِق الأنبياء عليهم السلام هو محاربة الطاغوت وإنصاف المظلومين وتخليص المستضعفين، ﴿أَنجَىٰكُم﴾.
٥ ـ يؤدي رجال البلاط وبطانة السّلطان وحاشيته دوراً كبيراً في المحافظة على نظام الطاغوت، ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾.
٦ ـ الاختبارات والابتلاءات عناصر مهمّة في تربية الإنسان وتقويمه، وهي شأن من شؤون الربوبية، ﴿بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾

إشارات:

□ هذه الآية الشريفة من أهمّ آيات القرآن الكريم وأكثرها صراحة في ما يتعلّق بشُكر النِّعَم أو كُفرانها. وهي تأتي بعد آية نعمة الحريّة وتأسيس الحكومة الإلٰهيّة بقيادة موسى عليه السلام. وتشير هذه الآية إلى أنّ الحكومة الإلٰهيّة وقيادة الوحي هما من أكبر النِّعَم، وإذا لم يتمّ شُكر الله تعالى عليهما فإنّ الكافرين سيصلون عذاباً شديداً.

□ إنّ لشُكر النِّعَم مراتب، هي:

أ) الشكر بالقلب، وهو إقرار الإنسان بقلبه بأنّ جميع النِّعَم التي يتمتّع بها هي من عند الله سبحانه.

ب) الشّكر باللسان، كقولنا مثلاً: «الحَمدُ لله».

ج) الشكر بالعَمل، ويكون عَبر أداء الأمور العبادية وتسخير العُمر والمال في سبيل مرضاة الله وخدمة الناس.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِناب المَحارِمِ»[1]، وعنه عليه السلام كذلك: **«أَدْنَى الشُّكْرِ رُؤْيَةُ النِّعْمَةِ مِنَ اللهِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِهَا دُونَ اللهِ وَالرِّضَا بِمَا أَعْطَاهُ وَأَنْ لَا تَعْصِيَهُ بِنِعْمَتِهِ وَتُخَالِفَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ بِسَبَبِ نِعْمَتِهِ»**[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: نور الثقلين، ج٢، ص ٥٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٨، ص ٥٢). [المترجم]

□ مهما بلغ شكر العَبد فإنّه لا يوازي نِعَم الله التي لا تُحصى ولا تُقارَن. وقد أنشد الشاعر الفارسيّ المعروف سعدي قائلاً:

ليس للمرء إلّا أن يقدّم اعتذاره
إلى الله ويعترف له بالتقصير
فما مِن أحد يستطيع أداء الشّكر
على نِعَمه وإن بالغ في المَدح والتقدير

□ وورد في حديث أنّ الله ﷻ أوحى إلى موسى ﷺ: «اشكرني حقّ شكري». فقال: يا ربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس مِن شُكر أشكرك به إلّا وأنتَ أنعمتَ به عَلَيّ؟ قال: «يا موسى! الآن شَكرتني حين علمتَ أنّ ذلك منّي»[1].

□ وورد في روايات أخرى أنّ مَنْ لا يَشْكُر المَخْلوق لا يَشْكُرِ الخالق[2].

□ إذا استثمرنا نِعَم الله تعالى في غير سبيل الحقّ فذلك كُفران لها وبداية للكُفر. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾، ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾[3].

التعاليم:

١ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى أن يكون الشّكر وسيلة وسبباً لزيادة النّعمة، وقد صرّح القرآن الكريم بذلك بكلّ وضوح، ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾. وقد قيل في الأشعار الفارسيّة:

شُكرُك للنعمة زيادة لها   وكُفرك بها يعني فقدانها

٢ ـ أوجب اللهُ علينا الشّكر لتربيتنا لا لحاجته له سبحانه إليه، ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٣ ـ ليس الشّكر سبباً لزيادة النّعم علينا وحسب، بل ووسيلة لزيادة أعدادنا نحن وتطوّرنا ورُقيّنا في المجالات كلّها، ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

٤ ـ لا يقتصر جزاء كُفران النّعمة على سَلْبها من صاحبها فقط، بل يكون الحال

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: أصول الكافي، ج٤، ص٨٠، باب الشكر.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٤٤.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

أحياناً عكس ذلك؛ إذ قد تبقى النّعمة في يَد الجاحِد لكنّها تتحوّل إلى نقمة واستدراج له حتى تُوقع به في الهاوية، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

التعاليم:

١ ـ لا يصحّ أن يصل الأمر بالمُبلّغ أو صاحب الدّعوة إلى التوسّل بالناس لقبول دعوته، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ... فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن نمنّ على الله ﷻ بأيّ من أعمالنا ولا حتى إيماننا فهو تعالى غنيّ عن ذلك كلّه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٣ ـ لا تأثير لإيماننا أو كفرنا أو شكرنا إطلاقاً على ذات الله المقدّسة، ﴿لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

لو كَفَرَ كلّ الخلقِ به وتملّص ما زادَ كِبرياؤه تعالى ولا نَقَص

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

إشارات:

- تُعتبر هذه الآية الشريفة نموذجاً لتذكّر أيام الله والالتزام بها كما ورد في الآية (٥) من هذه السورة، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.
- قال الشيخ الطوسي في تفسير «التبيان»: «الرَّيْب أخبث الشكّ المتهم، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة»[1].
- الشكّ الذي يؤدي إلى البحث وتقبّل الحقيقة هو شكّ بنّاء ومفيد، لكنّ الشكّ في مقابل البيّنات والمعجزات ليس سوى عناد أخرق وشكّ هدّام وعائق كبير يحول بين الإنسان ووصوله إلى الحقّ، ﴿لَفِي شَكٍّ... مُرِيبٍ﴾.

---

(١) الجزء السادس، ص ٢٧٩.

□ جملة ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ لها معان عدّة، منها:

أ) أنّ المُعاندين كانوا يسدّون أفواه المؤمنين ولا يسمحون لهم بالكلام.

ب) أنّ مُعجزات الأنبياء وأدلّتهم القاطعة كانت دامغة بحيث كان المُعاندون يبدون وكأنّهم واضعون أيديهم على أفواههم، وهذا كناية عن أنّهم لم يستطيعوا نكران تلك المعجزات أو الوقوف بوَجه الحقّ.

ج) كان المُعارضون لدعوة الأنبياء يعضّون أصابعهم من شدّة غيظهم.

د) كان المُشركون يضعون أيديهم على أفواههم في حضرة الأنبياء كناية عن سكوتهم وعدم قولهم شيئاً البتّة.

التعاليم:

١ ـ وضع الله سبحانه سُنَناً وقوانين ثابتة للتاريخ والأُمم، ويمكن أخذ العِبَر والدروس من خلال التعرّف على ذلك التاريخ وتطبيقها على العصور الأخرى، ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ...﴾.

٢ ـ إنَّ كثيراً من المقاطع التاريخية لحياة البشر لا تزال مجهولة بالنسبة إلينا، ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

٣ ـ للرّسل جميعاً مُعجزات، ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

٤ ـ لم يكن الكفّار يخالفون الأنبياء شخصيّاً بل كانوا يعترضون على ما جاؤوا به ودَعوا إليه، ﴿كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم﴾.

٥ ـ لم يستند شكّ الكفّار في حقّانية الدين إلى بحث جديّ أو تحقيق هادف، بل كان ناجماً عن سوء ظنّهم وعنادهم. ﴿شَكّٖ... مُرِيبٖ﴾.

﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة قال الكفّار للأنبياء: ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾، وفي هذه الآية يقول الأنبياء

للكفّار: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾، وهذا يعني أنّ الأنبياء يريدون إفهام الكفّار أنّ دعوتهم إيّاهم إنّما هي من جانب الله إلى الله وليست من عند أنفسهم إليهم.

□ قال الزمخشري[1] والمراغي[2]: «أي يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي بينكم وبين ربكم لا المظالم وحقوق العباد. والمُتَتَبِّع لأسلوب الكتاب الكريم يرى أنّ كلّ موضع ذُكِرَ فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ «من» كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾[3]، وقوله: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾[4]؛ لأنّه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده. وفي المواضع التي تُذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تخلو من ذِكر «من» كقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾[5]؛ لأنّ المغفرة مُنصرفة إلى المعاصي ومتوجهة إليها».

التعاليم:

١ ـ الإيمان بالله سبحانه أمر فطريّ وبديهيّ لا يستوجب الشكّ إطلاقاً، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾.

٢ ـ لا بدّ من وجود المحبّة والدعوة إلى جانب العقل والفطرة، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ... يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾.

٣ ـ الدّين يدعو الإنسانَ إلى الطهارة والتخلّص من الأدران، ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ... ذُنُوبِكُمۡ﴾.

٤ ـ يُحبّ الله سبحانه أن يغفر لعَبده خطاياه ويرحمه، ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾.

٥ ـ تعمل التوبة وطاعة الله تعالى على تأخير أجل الإنسان، ﴿يَدۡعُوكُمۡ... وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

---

(١) تفسير الكشّاف، ج٢، ص ٥١٠. [المترجم].

(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج١٣، ص ١٣٤. [المترجم].

(٣) سورة نوح: الآيتان ٣ و٤.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

(٥) سورة الصفّ: الآيتان ١١ و١٢.

٦ ـ إنّ الله ﷻ يدعو إلى الهداية عن حُبّ ويؤخّر الإنسان إلى آخر لحظة من عُمره عن لُطف منه ومِنّة، ﴿يَدْعُوكُمْ... وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾.

٧ ـ تمّ تحديد عُمر كلّ إنسان مُسبقاً، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾.

٨ ـ التعصّب القومي والعرقيّ يحول بين المرء وبين قبوله الحقَّ، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٩ ـ تؤدي الأُسرة دوراً مهمّاً في عقيدة الإنسان وآرائه، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

١٠ ـ العناد والعصيان في مقابل الحقّ داءٌ لا دواء له، فقد جاء الأنبياء عليهم السلام جميعاً بما يَلزم من المُعجزات للناس إلّا أنّ بعض الناس لم يكتفوا بتلك المُعجزات بل كانوا يطالبون أنبياءهم بمواصلة المُعجزات على الدوام، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ على الرغم من قول الأنبياء عليهم السلام لقومهم: ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ بجَعل هذا نبيّاً وهذا وَصيّاً وهذا شخصاً عاديّاً، فإنّ الله الحكيم يعلم مَن يستحقّ كلّ منصب من تلك المناصب ومَن هو جدير بحَمل هذه المسؤولية الكبيرة دون غيره لأنّ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

□ كان كلام الكفّار والمشركين مع أنبيائهم يدور حول نقطتَين:

أ) أنّ الأنبياء ليسوا سوى بشر مثلهم.

ب) كانوا يطالبون أنبياءهم بأن يأتوا لهم بالمُعجزات التي يريدونها هم منهم.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

□ وفي هذه الآية أجاب الله سبحانه على لسان أنبيائه بشأن ما أثاره هؤلاء المُعاندون، قائلاً: فأمّا كوننا نحن الأنبياء بشراً مثلكم، فلا أحد منّا ينكر ذلك؛ لكنّ المسألة هي أنّ الله سبحانه قد مَنّ علينا بوَحيه؛ أمّا مطالبتكم إيّانا بمُعجزات بحسب ما تريده أهواؤكم، فهذا ليس مقبولاً لأنّه من غير المسموح لنا الإتيان بتلك المعجزات دون إذن من الله تعالى.

التعاليم:

١ ـ مع أنّ كلّ أفراد البشر متساوون في الشكل والهيئة، فإنّ ذلك لا يعني أنّهم متشابهون كذلك في الباطن والتفاصيل المعنوية، ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُم...﴾.

٢ ـ ينبغي أن يمتلك الأفراد القدوة والمُربّون والقدرات والخصائص الموجودة لدى مَن يتأسّون بهم (فإنّ ما يُعتبر عنصر قوّة بالنسبة للأنبياء كان البعض يرى أنّه نقطة ضعف. ولو لم يكن الأنبياء من جنس البشر ولم يكونوا من ذوي الحاجات والغرائز والمشاكل كما هي الحال مع البشر، ما كان لهم أن ينجحوا في مهمّتهم ويصبحوا أسوة للإنسانية)، ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

٣ ـ لم يكن الأنبياء ﷺ يتفاخرون على الآخرين بما لديهم، بل كانوا يردّدون باستمرار أنّهم بشر عاديون كأفراد البشر الآخرين قاطبة، ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ مقام النبوّة هو هدية ومنّة من الله سبحانه وتعالى، ﴿اللَّهَ يَمُنُّ﴾.

٥ ـ ما مِن مُعجزة تحدث إلّا بإذن الله تعالى وليس بحسب أمزجة الناس. (فحتى لو لم يُطالب الناس بأيّ مُعجزة لجاء بها الأنبياء بإذن الله)، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ التوكّل من أعمدة الإيمان، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٧ ـ المؤمن لا يتعب من عناد الكافرين ولا إلحاح المُعاندين، بل يستمرّ في السّير على نهجه متوكّلاً على الله سبحانه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- التوكّل هو اتّخاذ الوكيل، ولا بدّ من توفّر أربعة شروط في الوكيل، هي: (١) الدراية والعلم؛ (٢) الأمانة والنزاهة؛ (٣) القدرة والإمكانية؛ (٤) والمحبّة. ومن الطبيعيّ أن لا وجود لأيّ وكيل يحمل تلك الشروط إلّا الله سبحانه وحده؛ إذاً، فلا أحد يستحقّ أن نتوكّل عليه غيره.
- عن الإمام الرّضا عليه السلام أنّ التوكّل، هو: «**العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع...، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحدٍ سوى الله ولم يرجُ ولم يخف سوى الله**»[(١)].

التعاليم:

١ ـ إنّ الله سبحانه إذا هدى حَمى؛ إذاً، فلنتوكّل عليه وَحده، ﴿نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا﴾.

٢ ـ طريق الأنبياء عليهم السلام هو طريق الله تعالى. (لاحظ أنّ الآية الشريفة استخدمت كلمة ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ ولم تستخدم كلمة «سُبُلَهُ». وقال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[(٢)]).

٣ ـ إذا أراد المؤمن سلوك سبيل الله فلا بدّ له من تحمّل وُعُورَته، ﴿سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾.

٤ ـ علينا أن نتوكّل على الله وحده والصّبر والمقاومة والثبات في مواجهة المشركين، ﴿نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ... وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾.

٥ ـ معاذ الله أن يَحيد المؤمن عن عقيدته والتزاماته ولو عُذِّبَ وأُوذِي، ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ٣٥٩؛ ح٥٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٠٨.

٦ ـ لا طاقة لأحد بالصّبر إلّا مَن كان لديه مَن يتوكّل عليه ويستند إليه، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ... نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال:** هل كان الأنبياء عليهم السلام مشركين ـ والعياذ بالله ـ قبل بعثتهم ودعوتهم قومهم حتى يطلب منهم الكفّار أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الشرك ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، أو يُخرجوهم من أرضهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾؟

الجواب: أوّلاً: قد يكون مراد الكفّار من كلامهم هو عودة الأنبياء إلى الانضواء تحت سلطتهم ونفوذهم كما كانوا في السابق؛ أي ربما كانوا يعنون بذلك: وليكن أنّكم مؤمنون بدين آخر ولكنّكم لا يجب أن تثوروا ضدّنا وتعصوا أوامرنا أنتم وأتباعكم.

ثانياً: لاحظ أنّ كلمة ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ جاءت مع حرف الجر «فِي»، وهي بذلك تعني التغيّر والتحوّل لا الرّجوع إلى الحالة الأولى أو تغيير عقيدتهم وقبول عقيدة المشركين ودينهم، ولو كانت كلمة ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ قد أتت مع حرف الجر (إلى) لكان معنى ذلك هو العودة إلى الحالة الأولى أي الرجوع إلى الشرك وحاشا الرسل ذلك.

التعاليم:

١ ـ كان لكلّ الأنبياء عليهم السلام مُعارضون ومُعاندون، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾.

٢ ـ التهديد والإبعاد هي سياسة الطغاة والمُتعسّفين الذين لا منطق لهم، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم...﴾.

٣ ـ لا يرغب الكفّار في أن تكون للمؤمنين هويّتهم المستقلّة، ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

٤ ـ لا بدّ من مُقابلة التهديد بالتهديد، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم... لَنُهْلِكَنَّ﴾.

٥ ـ الظّلم هو سَبب الهلاك لا الكُفر، ﴿كَفَرُواْ... لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦ ـ لا حياة للظُّلم، وعاقبة الظالم هي الهلاك، ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾

إشارات:

□ يَعِد الله سبحانه في هذه الآيات الشريفة بإهلاك الظالمين وسيادة أوليائه من المؤمنين؛ ولأنّ هذا الوعد لم يتحقّق بشكله الواسع فإنّ المؤكّد هو تحقّقه عند ظهور إمام زماننا (عجّل الله فرجه).

□ وعد القرآن الكريم في الكثير من آياته بأنّ أولياء الله سيحكمون الأرض وأنّ أعداءه سيهلكون. وفي ما يلي نشير إلى ثلاث آيات بشأن المسألة المذكورة:

أ) ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(١)].

ب) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾[(٢)].

ج) ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[(٣)].

والخلاصة، فإنّ انتصار الحقّ على الباطل وقيام الحكومة الإلٰهيّة على يَد أولياء الله هو من الوعود المكرّرة والقاطعة في القرآن الكريم.

□ الذات الإلٰهيّة المقدّسة هي مصدر الخيرات والطيبات والصالحات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[(٤)]، وأمّا ما يدعو إلى الخشية والخوف فهو مقامه ﷻ. نعم؛ فإذا كان أحد أصدقائنا قاضياً ووصلت قضيّتكم إلى المحكمة وحانت ساعة الحساب والمحاسبة، فلا شكّ في أنّه سينتابنا الخوف والرهبة بسبب جوّ المحكمة وسلطة القاضي وهيبته على الرغم من أنّه صديقنا.

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٧٣.

(٢) سورة الصافات: الآيتان ١٧١ و١٧٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

التعاليم:

١ ـ يعتبر الكفّارُ الأرضَ منطقة لنفوذهم وساحة لعرض عضلاتهم، وهم غافلون عن أنّ السلطة في الأرض كلّها ستؤول إلى الأنبياء والمؤمنين. وقد ردّ الله سبحانه على تهديد الكفّار ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ بالتهديد كذلك بقوله مُخاطباً المؤمنين ﷺ: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.
٢ ـ وَعَدَ الله سبحانه أولياءَه بالنّصر والفوز، ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾.
٣ ـ لم يُبعَث الأنبياء ﷺ لبيان أحكام الله وموعظة الناس فحسب، بل لتسلّم مقاليد الحكم في الأرض كذلك، ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾.
٤ ـ التقوى هي شرط الانتصار على الظالمين، ﴿خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾.
٥ ـ لا تخشوا الكفّار إذا هدّدوكم قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ بل اخشوا تهديد الله الذي يقول: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- المقصود بـ ﴿وَرَآئِهِۦ﴾ هو العاقبة والمصير، كما يُقال مثلاً: إنّ وراء هذا الأمر لفتنة عظيمة.
- كان الأنبياء ﷺ جميعاً ينتظرون لحظة الانتصار ويترقّبونها، فقد قال سيّدنا نوح ﷺ: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[1]، وكذا بقيّة الأنبياء إذ دعوا الله أن ينصرهم ويفتح عليهم ضدّ الكفّار والمشركين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[2]. أمّا الكفّار فكانوا يسخرون من المسلمين ويقولون لهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]. وهنا يُجيب القرآن الكريم في الكثير من آياته عن ذلك ويَعِد بانتصار الأنبياء وأصحابهم وهلاك الكافرين وتعذيبهم هم

---

(١) أي، فانتصر لي منهم. [المترجم]
(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.
(٣) سورة السّجدة: الآية ٢٨.

وأتباعهم، ويقول للمشركين بالحرف الواحد بأنّ ذلك اليوم قريب جداً.

□ شراب أهل جهنّم وأصحاب النار حارقٌ ولاذِع لا بارد ولا كريم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في بعض آياته بقوله:

أ) ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[1].

ب) ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[2].

أمّا أهل الجنّة فيسكنون بالقرب من الأنهار ذات المياه السائغة ويرتوون من اللّبن الطازج والعسل المُصفّى الذي أعدّه لهم ربّهم الكريم إلى جانب النِّعَم الكثيرة الأخرى، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[3].

□ وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الحاكم الأموي الجبّار) تفاءَل يوماً في المصحف فخرج له قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[4]. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

تــوعــد كــل جــبــار عــنــيــد　　فــهــا أنــا ذاك جــبــار عــنــيــد
إذا مــا جــئــت ربــك يــوم حــشــر　　فــقــل: يــا رب مــزقــنــي الــولــيــد

فلم يَلبث إلّا أياماً حتى قُتِلَ شرّ قَتلة، ووضع رأسه على قصره ثمّ على سور بَلده[5].

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ تتحدّث هذه الآية الشريفة عن بعض جوانب عذاب جهنّم:

---

(١) سورة محمّد: الآية ١٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٢١.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٥.

(٥) الأَمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج٧، ص ٤٨١، نقلاً عن: تفسير القرطبيّ، ج٩: ص ٣٤٩.

أ) يكون تعذيب أصحاب النّار بالتدريج لكي يتجرّعوا كلّ قطرة منه.

ب) تُنزَل على أصحاب جهنّم ألوان العذاب حتى يُوشكوا على الموت والهلاك؛ لكنّهم لا يموتون.

ج) يتضاعف العذاب عليهم ويشتدّ ولا يُخَفَّف عنهم.

- استخدم القرآن الكريم العديد من التعابير لوَصف عذاب يوم القيامة، مثل: «أليم»؛ «شَديد»؛ «غليظ»؛ «عظيم» وكلّها تشير إلى شدّة ذلك العذاب ومُعاناة المُستحقّين له.

- ﴿يُسِيغُهُۥ﴾ بمعنى يَشربه بطيب وهناء، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي لا يُقاربه وإنّما يُضطَرّ إليه[1].

- قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ شَرِبَ الخَمرَ لَم تُقْبَل لَه صَلاةٌ أرْبَعينَ يَوماً، فإنْ ماتَ وفي بَطنهِ شيءٌ من ذلك، كانَ حَقّاً على اللهِ أن يَسقيه من طينة خبال وهو صَديد أهلِ النّارِ وَما يَخرجُ مِن فُرُوجِ الزُّناةِ فَيَجْتَمِعُ ذلكَ في قُدُورِ جَهَنّمَ فَيَشْرَبُهُ أهْلُ النّارِ فَيُصهرُ بِه ما في بُطُونِهِم والجُلُود»**[2].

التعاليم:

١ ـ عذاب جهنّم عذاب تدريجيّ ودائم، ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾.

٢ ـ لا يموت أصحاب النّار في جهنّم على الرغم من تجرّعهم ألوانَ العذاب، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

٣ ـ يزداد العذاب ويتضاعف على أصحاب جهنّم في كلّ حين، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

---

(١) تفسير التبيان.

(٢) تفسير مَجمع البيان، ج٦، ص ٦٧.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾

إشارات:

□ ذكرت الآيات السابقة خسران الظالمين وخيبتهم، إذ تبيّن الآية الشريفة: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ ذلك الخُسران وتلك الخيبة.

□ يُبدّل الله سبحانه سيّئات المؤمنين حسنات أحياناً، ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾[1]. في حين تأكل سيّئات الكافرين حسناتهم كما تأكل النارُ الهشيم، ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾. وورد في آيات أُخر قوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[2].

□ ذكر القرآن الكريم في الكثير من آياته عن خسّة أعمال الكافرين وأنّها ليست إلّا هباءً وعبثاً، كقوله تعالى مثلاً: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾[3]، ولعلّ الآية الشريفة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[4] تشير إلى المعنى المذكور كذلك.

التعاليم:

١ ـ كلّ ما يقوم به الكفّار يُعَدّ كالنار التي لا تُخلّف وراءها سوى الرّماد، ﴿كَرَمَادٍ﴾.

٢ ـ لا تُعجبنّكم أعمال الكفّار لأنّها لا قيمة لها إطلاقاً، ﴿كَرَمَادٍ﴾.

٣ ـ الكافر النشوان بالضّلال بعيد عن التوبة والنجاة، ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

٤ ـ الكُفر يُبيد الأعمال الصالحة، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾

إشارات:

□ ما أكثر ما تحدّث القرآن الكريم عن أنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق السموات

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٧.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٣.
(٤) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

والأرض عبثاً ولا اعتباطاً، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[١] و﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٢]، فالكفّار وحدهم يظنّون خطأً بأنّ الخلق باطل لا معنى له.

التعاليم:

١ ـ لم تُخلَق السموات والأرض إلّا على أساس حكمة الله سبحانه ومصلحة مُعيّنة وهدف مُحدّد، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ الله سبحانه غنيّ عن وجودنا ولا يضيره عدمنا، فلا داعي لغرورنا، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٣ ـ يرتبط الوجود واستمراره بإرادة الله تعالى ومشيئته، ﴿إِن يَشَأْ﴾.

٤ ـ العالَم باطل وعَبث من دون وجود الإنسان فيه، ولو أذهبَ الله سبحانه البشر جميعاً فإنّه قد يأتي بغيرهم من البشر كذلك حتى لا يكون وجود السموات والأرض باطلاً ولو للحظة واحدة[٣]، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- (البُروز) هو الخروج، ومن هنا فإنّ معنى (المُبارِز) هو المُقاتل أو المُحارب الذي يبرز من بين صفوف الجيش مُعلناً استعداده لقتال العدوّ.
- مع أنّ الناس ـ كما يُقال ـ على دين مُلوكهم، إلّا أنّ الإسلام لا يَعترف بالولاء أو الطاعة المُطلقة لأيّ مُدير أو مسؤول أو قائد، وهو ما أشار إليه أمير

(١) سورة الدّخان: الآية ٣٨.
(٢) سورة: الآية ٢٧.
(٣) تفسير الميزان.

المؤمنين ﷺ كذلك بقوله: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِق**»[1]. وعلى هذا فإنّ القول إنّ «المَأمورُ مَعذور» لا أساس له من الصّحة.

التعاليم:

١ ـ يتمّ إحضار جميع الخَلق معاً بين يدي الله سبحانه يوم القيامة، ﴿جَمِيعًا﴾.

٢ ـ الحسرة هي عاقبة التقليد الأعمى وتولّي الباطل، ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾.

٣ ـ يُطالب أصحاب النّار بتخفيف العذاب عنهم بعض الشيء وليس العذاب كلّه، ﴿مِن شَيْءٍ﴾.

٤ ـ ضلالة قادة المجتمع أو هداهم له دوره الكبير في سعادة أفراد ذلك المجتمع أو شقائه، ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

٥ ـ يتمثّل أحد أنواع العذاب النفسيّ والروحي للقادة الفاسدين يوم القيامة، في اعترافهم بعَجزهم وسوء عاقبتهم أمام أتباعهم وأنصارهم، ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

٦ ـ كلّ قوم من الذين كانوا يقولون لأنبيائهم في هذه الدنيا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، سيقولون يوم القيامة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾.

٧ ـ لا يُمكن الفرار من محكمة الله ولا عقابه، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

٨ ـ يكثر اللّغط والكلام والشجار بين الكُفار يوم القيامة، ﴿قَالَ...﴾[2].

٩ ـ ليس لأحد يوم القيامة أن يمنع وقوع العذاب الإلهيّ أو يُخفّفه، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٠، ص (٢٢٧).

(٢) وردت آيات كثيرة حول الجدل الذي سيدور بين المُستضعفين والمُستكبرين من الكفّار، منها الآية (٣١) من سورة سبأ، والآية (٤٧) من سورة غافر.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- يتخبّط المُذنبون يوم القيامة يَمنة ويَسرة مُحاولين إيجاد شركاء لهم في الجريمة وإلقاء ما اقترفوه على عاتق آخرين، فترى بعضهم يقول: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾[١] وآخرين يتّهمون القادة الفاسدين بإغوائهم قائلين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[٢] وفي بعض الأحيان يرمون التّهمة على الشيطان مُعتبرين إيّاه السّبب الرّئيس لضلالهم. لكنّ الشيطان يُجيبهم قائلاً: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾، فأنا لم أفعل شيئاً سوى أنّني وسوستُ لكم وأغريتكم للقيام بتلك الأعمال، أمّا الانحراف والضلال فمنكم أنتم لا مِنّي.
- ادّعاء الشيطان الرّجيم بأنّه لم يكن له أيّ سلطان على أيّ من البشر صحيح ومقبول لدى الله سبحانه ولدى الشيطان نفسه لإقراره واعترافه بذلك. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٣]، وكذلك قوله ﷻ في الآية أعلاه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ وعود الله تعالى كلّها حقّة ومطابقة للواقع، ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ يقوم الشيطان الرّجيم بإضلال الإنسان وإغوائه بوعوده الكاذبة ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٤].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٩.
(٢) سورة سبأ: الآية ٣١.
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٢.
(٤) سورة النساء: الآية ١٢٠.

٣ ـ كلّنا يعلم أنّ الشيطان لا يُجبر الإنسان على فعل أيّ شيء، فهو يوسوس له ودعوته إلى ذلك لا غير، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾.

٤ ـ المُصيبة هي أنّ الشيطان على الرغم من أنّه شيطان، يلوم الإنسان الضالّ يوم القيامة، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

٥ ـ لاحِظ أنّ اللّوم والتوبيخ ههنا يدلّ بوضوح على أنّ الإنسان مُخيّر في أمره، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ أمّا الإنسان المُضطرّ فلا أحد يلومه.

٦ ـ لا تعلّقوا خطاياكم على عاتق الشيطان، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾.

٧ ـ تنقطع العلاقات والسُّبُل بين الخَلق يوم القيامة، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ (ويتبرّأ أئمّة الباطل وأتباعهم من بعضهم البعض)، ويقول الشيطان الرجيم لأتباعه: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، ويقول الأتباع المُضلَّلون لأسيادهم: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾[1].

٨ ـ لا شكّ في أنّ طاعة غير الله هي الشّرك بعينه، ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾.

٩ ـ طاعة الشيطان والانقياد لوساوسه ودعواته ظلم للنّفس وللدّين، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ أينما اتّجه المرء في الجنّة سمع السلام، ﴿سَلَٰمٌ﴾.

- سلام من عند الله سبحانه على أصحاب الجنّة: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[2].
- سلام من الملائكة على المؤمنين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٧.
(٢) سورة يس: الآية ٥٨.
(٣) سورة الزمر: الآية ٧٣.

- سلام من أصحاب الجنّة على شركائهم فيها: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

□ قد يذهب الشخص أحياناً بنفسه إلى مكان مُعيّن، وأحياناً أخرى يأتي أشخاص آخرون لاصطحابه ومرافقته إلى المكان نفسه بمراسم خاصّة. يقول الله سبحانه في هذه الآية الشريفة: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ ولم يقل: «دَخَلَ» وهذا يعني أنّ أصحاب الجنّة لا يدخلونها بشكل عاديّ بل يقوم جمع من الملائكة بمرافقتهم وإدخالهم إلى الجنّة برفقتهم بكلّ احترام وتقدير. وقال تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزّمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وفي ما يخصّ أصحاب النّار أشارَ تعالى إلى أنّهم يُساقون إلى جهنّم بالضّرب واللعن والتعذيب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[1].

□ يكره أصحاب النّار بعضهم بعضاً ويتبرّأ كلّ منهم من الآخر ويتبادلون اللعن، في حين يتبادل أهل الجنّة السلام كلّما تلاقوا.

□ توجد في الجنّة أنهار مُتنوّعة ومتعدّدة، منها ما ورد في الآية (١٥) من سورة محمّد ﷺ:

أ) أنهار من الماء، ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾.

ب) أنهار من لَبن، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

ت) أنهار من شراب فردوسيّ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

ث) أنهار من العَسل، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

التعاليم:

١ ـ الجَنّة هي مأوى المؤمنين المُحسنين، خالدين فيها أبداً، ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا... خَٰلِدِينَ﴾.

٢ ـ أصحاب الجنّة أنقياء حميمون يسلّم بعضهم على بعض، وليسوا أهل شجار أو مناكفة، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

---

(١) سورة الحاقّة: الآيتان ٣٠ و٣١.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- تتميّز الشجرة الطيبة والنبتة الطاهرة بصفات عدّة، منها: أنّها تنمو باستمرار وتكون مثمرة ونَضرة على الدوام، إضافة إلى ظلالها وقوّة جذعها وثبات جذورها. وهكذا هو حال الإنسان المؤمن الموحِّد، فهو لا يخبت ذِكره ولا يَفتر إيمانه ولا تَضعف عقيدته، فإيمانه ظاهر في أفعاله وأقواله، وتراه يدعو الآخرين إلى الإيمان والمعروف.
- أشارت الروايات والتفاسير إلى بعض نماذج الكلمة الطيبة مثل: التوحيد، والإيمان، والعقائد الصحيحة، وأولياء الله وأتباعهم. نعم، فأصل التوحيد ثابت في الفطرة ومتجذّر في أعماق وجدان الناس ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وتتّضح آثاره وتأثيراته في كلّ عمل يقوم به الإنسان أو كلمة ينطق بها ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وبإمكاننا التمتّع والتلذّذ بثمره في كلّ حين ووقت، وفي السرّاء والضرّاء.
- تتميّز شجرة التوحيد بجذور ثابتة وأصول راسخة، وليس باستطاعة التهديدات والمؤامرات ولا الكلام الجارح ولا الطواغيت التأثير عليها. وقد شَبّهت الكثير من الروايات النبيّ الكريم ﷺ وآل بيته الطاهرين عليهم السلام بالشجرة الطيبة؛ لأنّ دين محمّد ﷺ وسبيل آل بيته الكرام استطاعا الصّمود والانتشار على الرغم من أنف أعدائهما، بل وسيأتي يوم يكون فيه هذا الدين هو دين العالَم أجمَع.

التعاليم:

١ ـ تدبّروا أمثلة القرآن الكريم بدقّة، ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾.

٢ ـ العقيدة الحقّة هي الكلمة الطيبة ذات الأصل الثابت في أعماق قلب المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. ومن ألطاف الله سبحانه أنّ تلك الكلمة الطيبة تعمل على

إبقاء المؤمنين ثابتين راسخين على تلك العقيدة الحقّة، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[١].

٣ ـ القول الحَقّ ثابت وراسخ وأصيل، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً... أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

□ كلّ شيء فانٍ غير الله تعالى والإيمان به، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٢]، وما كان فانياً لا يمكن أن يُثمر إلى الأبد، بينما يكون الشيء المُصطبغ بالصّبغة الإلٰهيّة سرمداً وخالداً، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣]. نعم، فصبغة الله هي صبغة دائمة أمّا بقيّة الصّبغات والألوان ففانية وزائلة .﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[٤].

□ لا تفتأ شجرة الإيمان تتفتّح وتُثمر وهكذا هو حال المؤمن الذي يذكر الله سبحانه باستمرار ويؤديّ واجباته وتكاليفه، سواء في الضّراء أو السرّاء أو الفقر أو الغنى:

ـ فهو يَصمد أمام تهديدات الظّالمين حتى آخر لحظة من حياته، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾[٥].

ـ ولا يطلب أجراً من الآخرين على دعوته، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[٦].

ـ ويضبط نفسه ويكظم غيظه، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[٧].

ـ ويطبّق سُنة الرسول ﷺ في زواجه متوكّلاً على الله، ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٨].

ـ ولا يطمع في شيء من عبادته وطاعاته إلّا التقرّب إلى الله سبحانه، ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٩].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٣) سورة النّحل: الآية ٩٦.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٨.
(٥) سورة القلم: الآية ٣٢.
(٦) سورة يونس: الآية ٧٢.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.
(٨) سورة النور: الآية ٣٢.
(٩) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

ـ وإذا افتقر نأى بنفسه عن التملّق للأغنياء أو التوسّل بهم، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

ـ وتراه فَرِحاً في جبهات القتال لأداءه واجبه الدينيّ، سواء انتصر أو اندحر، ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[2].

نعم، إنّ الإيمان بالله تعالى كالشجرة المثمرة التي تُؤتي أُكُلَها كلّ حين، في الدنيا وفي البرزخ والبعث ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، وأمّا الأموال والأولاد والنِّعَم الدنيوية الأخرى فهي كالشجرة التي لا تُثمر إلّا لأيّام معدودات، وإذا أثمرت لا تُنتج سوى القليل من الثمرات، وإن كان المال والجاه والوَلد لا يؤت أيّ ثمر إطلاقاً في بعض الأحيان بل يكون سبباً لعذاب الإنسان الرّوحيّ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾[3].

التعاليم:

١ ـ شجرة الإيمان شجرة مُثمرة باستمرار، وحياة المؤمن لا تتضمّن فصلاً اسمه (الخريف) أبداً، ﴿أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾.

٢ ـ التشبيه والتمثيل من أساليب القرآن الكريم لجَذب انتباه الناس وتذكيرهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ الاجْتِثاث: القَلْع والانتزاع والاستئصال.

□ إنّ عقائد الضالّين وكلماتهم لا أصل لهم ولا ثَمر ولا إزهار ولا مِسحة من الجمال ولا شميم عِطر ولا ثَبات ولا ظِلّ ولا نَماء، بل ذُلّ وعار.

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٥.

التعاليم:

١ ـ المقارنة من الأساليب المؤثرة في التربية والتعليم، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً... كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

٢ ـ الشّرك وكلّ ما سوى الله تعالى لا ثبات له ولا دوام، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

٣ ـ العقائد الفاسدة والباطلة كالأعشاب الضارّة، لا جذور لها ولا أصل؛ لأنّها لا تستند إلى أرض صُلبة أو تربة قويّة، ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ المَعونة الإلْهيّة ترتبط ارتباطاً وثيقاً باختيار الإنسان نفسه، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ ـ لولا عَون الله وفضله لَما استطاع أيّ إنسان الصمود أمام وساوس الشيطان ومآرب الطغاة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣ ـ أهل الإيمان ثابتون من حيث المنطق وصامدون في وَجه المذاهب المادّية، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٤ ـ إذا آمَنَ الإنسان فإنّ الله تعالى سيضمن حياته، أمّا إذا تعلّق بالشجرة الخبيثة والعقيدة الباطلة، فإنّه سوف يتخلى عنه، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

٥ ـ الإيمان بالعقائد الباطلة ظلم للنفس وللدّين، ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

٦ ـ الغضب الإلْهيّ مَنوط باختيار الإنسان لطريقه بنفسه، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- «البوار» فرط الكساد، ولمّا كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد عُبِّر بالبوار عن الهلاك[1].
- يُبدّل الكافرون والمشركون نِعَم الله تعالى الكُبرى كُفراً، فهم مثلاً:

أ) يستحبّون الشّرك على التوحيد.

ب) يتركون نعمة الفطرة الصافية النقيّة ويُفضّلون تقليد آبائهم وأجدادهم الضالين.

ت) يُرجّحون الخرافة على الوَحي الإلٰهيّ.

ث) يُقابلون النِّعَم التي جاءهم بها رُسُل الله بالجحود ويتّبعون الطغاة. ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

- نطالع في الكثير من الروايات أنّ الأئمّة الطاهرين عليهم السلام كانوا يُكثرون من قول: **«نَحْنُ وَاللهِ نِعْمَةُ اللهِ التي أنْعَمَ بها على عِبادِه»**[2]، ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.
- ورد ما يُشبه هذا المعنى في آيات أخرى كذلك، مثل الآية (٤١) من سورة القصص: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، والآية (٩٨) من سورة الكهف: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ أيّ تبديل أو تغيير أو تحريف في نعمة من نِعَم الله سبحانه يُعدّ كُفراً، ﴿بَدَّلُوا۟... كُفْرًا﴾.

٢ ـ أئمّة الانحراف سبب لهلاك مُجتمع وفساده بأكمله، وبالتالي إدخال الكثير من الناس إلى جهنّم، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

---

(١) الراغب الأصفهانيّ، مفردات القرآن.

(٢) تفسير مَجمع البيان.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾

إشارات:

□ يَجعل البعض من الناس شُركاء لله تعالى في خَلق العالَم والبعض الآخر يَجعل له أنداداً في نِعَمِه، إضافة إلى ادّعائهم أنّ ما يتمتّعون به من صحّة وعلم وجاه وسلطان وأموال إنّما أُوتوه على عِلم عندهم! لكنّ بعضهم سرعان ما يصحو من غفلته ويعلم أنّه كان ضالّاً.

التعاليم:

١ ـ مِن أبشع أنواع الكُفر بالنِّعَم هو أن يجعل الإنسان لله شريكاً ويُضلّ الآخرين معه، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ﴾.

٢ ـ يكون الطغاة أحياناً مَصدر الشّرك كلّه، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ﴾. وأحياناً أخرى تكون جاذبية الأوثان والأصنام هي السبب في ذلك، ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾[1].

٣ ـ يتخلّى الله تعالى عن بعض الناس ويتركهم لحالهم، ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾.

٤ ـ قد يكون الكفّار سُعداء في هذه الدنيا، إلّا أنّهم لن يكونوا كذلك في الآخرة، ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٥ ـ ما كلّ ما نراه من الخير لدى البعض يعني حُبّ الله لهم، فقد يكون ذلك مقدّمة واستدراجاً لغضب الله ﷻ، ﴿تَمَتَّعُواْ﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾

إشارات:

□ يؤدّي الإنفاق العَلنيّ إلى تربية الجيل الصاعد وتشجيع الآخرين على الإنفاق

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٣٥ و٣٦.

ودفع تهمة البخل عن المنفِق، بينما يكون الإنفاق في السرّ عاملاً للشموخ والإخلاص. إلّا أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ الإنفاق العَلني يتعلّق بما هو واجب كالخُمس والزّكاة، أمّا الإنفاق السريّ فيشمل كلّ ما هو مُستحبّ كالصّدقة وما شابهها.

❑ على الرغم من أنّ لكلّ من الإنفاق العلني والسريّ مميّزاته الخاصّة به، لكن يمكننا القول إنَّ الإنفاق السريّ أفضل من العَلنيّ وذلك لتقدّم كلمة ﴿سِرًّا﴾ على ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ في هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ عندما تُصدرون الأوامر، لا تسلبوا المخاطب شخصيته ﴿لِّعِبَادِىَ﴾، والعبودية لله تُمثّل بحقّ وسام شَرف وفَخر.

٢ ـ لا يكفى الإيمان بالقلب، بل لا بدّ من وجود الصلاة والإنفاق والعمل الصالح معه، ﴿ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟﴾.

٣ ـ الإسلام دين جامع، لذلك ينبغي أن تكون العلاقة مع الله سبحانه ومساعدة المحتاجين والمحرومين جنباً إلى جنب وشرطاً لقبول كلا الفعلين، ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟﴾.

٤ ـ ليس المال هو الشيء الوحيد الذي يمكن إنفاقه، بل يمكننا الإنفاق كذلك من كلّ ما نمتلك (سواء أكان عِلماً أو ثروة أو سُمعة أو سلطة)، ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾.

٥ ـ لا بدّ من أن يكون الإنفاق من رزق الله ـ أي من المال الحَلال ـ وليس أيّ شيء، فقد قال سبحانه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾، ولم يَقُل: «مِمّا عِندَهم».

٦ ـ قد يكون الإنفاق علنيّاً في بعض الأحيان وقد يكون سريّاً في أحيان أخرى، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

٧ ـ علينا استغلال الفُرَص وعدم إضاعتها، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ...﴾.

٨ ـ إذا كنتم تريدون الاتّجار مع الله تعالى فافعلوا ذلك في هذه الدنيا، إذ لن يكون أيّ بَيع أو شراء يوم القيامة، ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾.

٩ ـ ليس باستطاعة أحد التخلّص من عذاب يوم القيامة، لا بالأموال ولا بالعلاقات والمواقع، ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

- تشير هذه الآية الشريفة إلى الماء من ثلاث زوايا هي:

أ) مياه الأمطار التي تُعتبر المصدر الرئيس لسَقي النباتات وعاملاً من عوامل وجودها إضافة إلى تنقية الهواء وتلطيف الجوّ.

ب) مياه البحر التي تؤمّن الحياة للكثير من الحيوانات البحرّية، إلى جانب كونها أرخص وأفضل وسيلة للنّقل، كما أنّها تُمثّل مصدر تكوّن الغيوم والأمطار.

ت) مياه الأنهار التي تُعدّ وسيلة لإيصال الماء إلى المناطق التي تحتاج إليه.

- أوصانا الله ﷻ في الآية السابقة بالصلاة والإنفاق، وفي هذه الآية يقول تعالى: «لقد منحتكم كلّ شيء فلِمَ البخل ممّا رزقتكم».

- «التّسخير» يعني الاستفادة من المنافع، مثل تسخير الشّمس والقمر، ويعني كذلك السلطة والتسلّط الكامل كتسخير السّفن والأنهار والسّماح بتسلّط الإنسان على كلّ ذلك.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ معرفة نِعَم الله سبحانه وتعالى هي أفضل سبيل لمعرفة ذات الله المقدّسة وهذا يتطلّب فهماً شاملاً وحبّاً ودافعاً للعبادة، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... سَخَّرَ لَكُمْ﴾.

٢ ـ الماء من أكبر نِعَم الله، وكلّ نِعَمه كبيرة، ﴿مَآءً... فِي ٱلْبَحْرِ... ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

٣ ـ خُلِق الوجود لأجل أن يستفيد منه الإنسان. ﴿رِزْقًا لَّكُمْ...﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ الأسباب المادّيّة تؤدي دوراً كبيراً، فإنّ الأسباب كلّها تخضع لأوامر الله، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾.

٥ ـ خُلِقَ الإنسان ليُسخّر الطبيعة، ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ **«دائبين»** من «دَأَبَ»، بمعنى استمرّ في عادته، و«**الدَّأْبُ**» هو العادة المتواصلة، كما في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[1]. قال المراغي في تفسيره: «﴿دَآئِبَيْنِ﴾ أي (دائِمَيْن في الحركة) لا يَفتران»[2]. كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3]. فالشمس تُمثّل مُفاعِلاً عظيماً وهائلاً يعمل من دون توقّف، خلافاً للمُفاعِلات التي يصنعها البشر والتي يمكن أن تتعطّل كلّ حين فتحتاج إلى إصلاح وصيانة. فلو غُيِّبَت الشمس لفترة ما، فما الذي سيحصل يا تُرى؟ ما هو مصير الجنس البشريّ والحيوانات والنباتات؟ أيّ مُصيبة يُمكن أن تصيب العالَم وأيّ كارثة يمكن أن تحلّ به مع انتشار الميكروبات وغياب الحرارة والبخار وغير ذلك؟

الغيم والريح والضباب والشمس والفلك يعملون
كَي يصلك الرّزق ولا تأخذك عنهم الغفلة
كلّها مسخّرة لخدمتك وكلّهم لك سامعون
فليس من الإنصاف أن تكفر تلك النّعمة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١.
(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج١٣، ص ١٥٥.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

التعاليم:

- لم يَخلق الله ﷻ الأرض وما فيها من النِّعَم فقط ليستفيد منها البشر بل وكذلك خلق السماء والأجرام السماوية التي سُخِّرَت هي الأخرى لمصلحة الإنسان، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- ويشبه هذا المعنى ما قاله تعالى في الآية (١٨) من سورة النّحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
- ذكرنا في تفسير الآيات السابقة أنَّ أئمّة الفساد يجرّون الناس إلى عبادة غير الله ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وحاصل هذه الآية أنّه على الرغم من أنّ ما سوى الله تعالى عاجز عن فعل أيّ شيء، وأنّ كلّ ما يمتلكه الإنسان وغيره من المخلوقات هو من نِعَم الله ﷻ، فإنَّ الإنسان يبقى ظالماً وكفّاراً لتلك النِّعَم.
- «عَدَّ» بمعنى (أحصى)، و(الإحصاء) هو الحساب الدّقيق الذي لا يُفوّت أيّ شيء.

التعاليم:

١ ـ تهيّأت للإنسان عوامل الإنتاج كلّها وأسبابه كذلك، مثل الماء والأرض والضوء والشّمس وإلى غير ذلك، فإذا حصل أيّ عَيب أو نَقص فإنّ ذلك ناجم بالتأكيد عن إرادة الإنسان المغلوطة والتوزيع غير الصحيح، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ... إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

٢ ـ خلق الله سبحانه الإنسان، وخلق له الإمكانات والاحتياجات المطلوبة كلّها، لكنّ الإنسان يأبى إلّا أن يؤمّن حاجاته عن طريق المعصية والكُفر، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ... إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

٣ ـ الإنسان مخلوق عائِل ومُحتاج، ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾.

٤ ـ إذا كان الإنسان عاجزاً عن أن يُحصي نِعَم الله جميعاً، فأنّى له أن يشكره تعالى عليها؟ ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾.

٥ ـ عندما لا يستفيد الإنسان من نِعَم الله سبحانه بالشكل الصحيح فإنّ ذلك يعني أنّه ظلوم وكفّار، ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا
وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- سنلاحظ في هذه الآية والآيات التي ستليها بعضاً من الأدعية التي ردّدها خليل الله إبراهيم عليه السلام والتي تدلّ على حرصه ورأفته، وربّما سُميت هذه السورة باسمه عليه السلام بسبب هذه الأدعية.

- دعا سيّدنا إبراهيم عليه السلام لمكّة مرّتين في القرآن الكريم؛ المرّة الأولى كانت عندما أتى بزوجه هاجَر وابنه إسماعيل عليهما السلام إلى أرضها وأسكنهما فيها حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾(1)، وهذه هي المرّة الثانية بعدما قَدِمَت إلى ذلك المكان بعض القبائل وسكنته فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

- **سؤال**: هل أصبحت ذرّيّة إبراهيم عليه السلام كلّها موحّدة بسبب دعائه هذا؟

الجواب: ليس الدّعاء إلّا عاملاً مساعداً، أمّا إرادة الذريّة واختيارهم فذاك سبب آخر، ولا تنسوا قصّة ابن نوح عليه السلام.

- **سؤال**: لماذا سمّى إبراهيم عليه السلام مكّة بالبَلد وقد قال الله تعالى على لسانه في آيات أُخَر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؟

الجواب: إمّا أن تكون مكّة قد أصبحت بَلداً أو مدينة بعد وفود الناس

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٦.

والقبائل إليها والسّكن فيها فيكون هذا الدّعاء متعلّقاً بذلك الزمان، أو أنّه لا تضادّ بين أن تكون منطقة ما بلداً وبين أن تكون تلك المنطقة في مكان غير ذي زَرع أو قاحل. بل إنّ مكّة المكرّمة في يومنا هذا كذلك هي بلد غير زراعيّ كما هو معلوم.

□ **سؤال**: ما معنى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ وهو بطل عقيدة التوحيد بلا مُنازع؟

الجواب: كان النبيّ ﷺ صاحب الصّراط المستقيم كما نعلم، ولكنّه كان يقول في الصلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وهذا يعني أنّ على الشخص أن يستعين بالله دائماً من خطر الانحراف والضلال وإن كان متأكّداً من أنّه يسير على الصّراط المستقيم.

□ المقصود بالأمن في عبارة ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ هو القانون أو النظام الذي يضمن الأمن والاستقرار في مكّة لا أن تكون مكّة آمنة وبعيدة وبمنأى عن الأحداث والقلاقل على طول التاريخ، فقد تعرّضت الكعبة الشريفة مثلاً إلى العديد من الغارات والهجمات وأُريقت فيها الكثير من الدّماء البريئة، بل لم يتعرّض الرسول الأعظم ﷺ ولا أصحابه وأتباعه إلى أيّ ظُلم وتعذيب كما تعرّضوا له في مكّة نفسها. ويُقال إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يترك الحجّ في حجّته الأخيرة إلّا بسبب الاضطرابات التي اجتاحت مكّة في تلك الفترة. ومع ذلك فإنّ الله سبحانه جعل هذه البقعة الطاهرة مركزاً للأمن وملاذاً يُلجأ إليه من دون مُنازع.

التعاليم:

١ ـ أفضل الدّعاء ما كان لحفظ العقيدة والمبدأ الصحيحيْن. ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

٢ ـ لا بدّ من أن تكون مراكز العبادة آمنة، ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الأمن والاستقرار شرطان ضروريّان للعيش الهنيء، ﴿ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾.

٤ ـ ينبغي على قادة المجتمع أن يُفكّروا في أمن الناس واستقرارهم، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ... ءَامِنًا﴾.

٥ ـ لا يجوز أن يُسْتَغَلّ الأمن لأغراض المعصية والتّرف، بل يتوجّب اعتباره أرضية للعبادة والشعائر، ﴿آمِنًا يَعْبُدُونَنِي﴾[1].

٦ ـ ليس خطر الشّرك ببعيد عن أيّ إنسان حتى إبراهيم عليه السلام، بطل التوحيد، ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾.

٧ ـ لا تنسوا الآخرين من الدّعاء، ولا سيّما أبناءكم، ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال:** كيف يمكن للأصنام وهي تماثيل مصنوعة من الأحجار والخشب أن تُغري الإنسان وتُغويه؟

الجواب: أوّلاً، ليست الأصنام كلّها أشياءً جامدة دائماً بل قد يصبح الإنسان وخصوصاً الطغاة أصناماً. ثانياً، كانت الحلي الجميلة والغريبة الصّنع التي تُوضَع على الأصنام عاملاً آخر للإغراء. ثالثاً، عادة ما يدفع الجَهل صاحبه إلى تقديس الأصنام وإن كانت من الحجر والخشب.

□ إذا فسّرنا هذه الآية مع الآية السابقة فإنّنا سنصل إلى نتيجة فريدة، إذ قال إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، بينما يقول في هذه الآية وبصراحة: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي مَن كان موحّداً فإنّه من ذرّيّتي ويستحقّ الانتماء إليّ. وعلى هذا، فإنّ الموحّدين جميعاً هم أبناء إبراهيم عليه السلام بالدّين ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]. وهذا ما صرّح به الرسول

(١) سورة النور: الآية ٥٥.
(٢) سورة الحجّ: الآية ٧٨.

الأعظم ﷺ أيضاً إذ قال: «أنا وَعَليّ أبَوا هذِهِ الأُمَّة»[1]. وأمّا المُشرك فإنّه ليس كذلك وإن كان ابن نبيّ من الأنبياء، وهو ما قاله الله سبحانه لنبيّه نوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[2].

□ قال الإمام علي عليه السلام: «إنَّ وَليّ مُحمّدٍ ﷺ مَن أطاعَ اللهَ وإنْ بَعُدَت لُحمَته وإنّ عَدُوّ محمّدٍ مَن عَصى اللهَ وإن قَرُبَت لُحمَته»[3].

التعاليم:

١ ـ يُمكن لبعض الفنون مثل نَحت التماثيل أن تكون سبباً للانحراف والضلال كما فعلت الأصنام بالكثير من الناس، ﴿إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ﴾.

٢ ـ ليس التديّن شعاراً رنّاناً، بل هو عمل وطاعة للأوامر، ﴿تَبِعَنِي﴾.

٣ ـ توجد علاقة دينيّة قويّة بين أولياء الله والأفراد المؤمنين، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾.

٤ ـ كان الأنبياء عليهم السلام حريصين حتى على غير المؤمنين بدعوتهم ولم يحاولوا بَعث اليأس فيهم أبداً، ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٥ ـ لا رَيب في أنّ معصية الرّسول هي معصية الله سبحانه، ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ
وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧)﴾

إشارات:

□ بعد أن وهبَ الله تعالى إسماعيل لإبراهيم عليه السلام في الكِبَر، أمره أن يُسكن ولده وأُمّه في المنطقة التي سُميت في ما بَعد بمكّة. ففعل إبراهيم عليه السلام ما أُمِرَ به ولكنّه لم ينسهما من الدّعاء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٣، ص (٢٩٥) ؛ وج١٦، ص (٩٥).

(٢) سورة هود: الآية ٤٦.

(٣) بحار الأنوار، ج٦٧، ص (٢٥).

□ جاء في الروايات أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال: «**نَحنُ آل بيت رَسول الله صلى الله عليه وآله بقيّة ذرّيّة إبراهيم عليه السلام إلينا تهوي أفئدة الناس**». ثم تلا هذه الآية: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ... فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[(١)].

□ تقع مدينة مكّة المكرّمة في واد غير ذي زرع ولا ماء وهو اختبار إلهيّ لأهلها. وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته المُسمّاة بالقاصعة: «**وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وَأَنْهَار، وَسَهْل وَقَرَار، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الِّثمارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة سَمْرَاءَ، وَرَوْضَة خَضْرَاءَ، وَأَرْيَاف مُحْدِقَة، وَعِرَاص مُغْدِقَة، وَزُرُوع نَاضِرَة، وَطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاء**»[(٢)].

□ لا شكّ في أنّ دعاء الأنبياء عليهم السلام مُستَجاب؛ ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ﴿حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٣)]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّ الثمرات تحمل إليهم من الآفاق، وقد استجاب الله له حتّى لا يوجد في بلاد الشرق والغرب ثمرة لا توجد فيها، حتّى حُكي أنّه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعيّة وصيفيّة وخريفيّة وشتائيّة**»[(٤)].

التعاليم:

١ ـ يختار الأنبياء عليهم السلام أماكن سكناهم وفقاً لانسجامها مع الصلاة والعبادة. ﴿أَسۡكَنتُ... لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢ ـ تتطلّب التقوى أحياناً التشرّد والهجرة والابتعاد عن الأهل والخلّان والحرمان من النِّعَم الأخرى، ﴿أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾.

٣ ـ كانت الكعبة المشرّفة في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً منطقة محرّمة وآمنة، ﴿بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

---

(١) انظر مثلاً: الاحتجاج، الطبرسيّ، ج١، ص ١٦٠. [المترجم]

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (١٩٢) ـ الكعبة المقدّسة.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٧.

(٤) تفسير الصافي، ج٣، ص٩٢.

٤ ـ كانت الصلاة وما زالت محور الحركة الإبراهيمية وهدفها، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥ ـ لا بدّ من أن يكون أهل الصلاة محبوبين، ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٦ ـ من الواضح أنّ الصلاة كانت مفروضة في الديانات السماوية الأخرى كذلك، ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٧ ـ لا شكّ في أنّ الأفئدة لا تهوي إلى أيّ مكان إلّا بإذن الله، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً...﴾.

٨ ـ ليس الناس كلّهم يستحقّون حُبّ أولياء الله، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٩ ـ يَستثمر أولياء الله الدنيا لأهداف راقية ومقاصد رفيعة، ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ لمّا كان كلّ شيء ظاهراً لله غير خافٍ، ولمّا كان عِلمه محيطاً بكلّ شيء وبكلّ ما نفعله، وَجبَ علينا أن لا نعصيه في حضرته، ولا نتصرّف في مخلوقاته إلّا حسب أوامره وبالشكل الذي يرتضيه.

التعاليم:

١ ـ لا فرق بين الظاهر والخفيّ لدى الله سبحانه، ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾.

٢ ـ عِلم الله تعالى بالأرض والسماء واحد، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ... فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

إشارات:

□ إنّ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام نعمتان إلهيّتان بحقّ، وذلك:

أ) لأنّهما وُهبا لإبراهيم عليه السلام بسبب دعائه وطَلبه.

ب) وَهب الله هذين الولديْن لأبيهما في كِبره.

ت) كانا كلاهما صالحيْن (نَبيّيْن).

ث) أصبحا رأس السلالة النبويّة للكثير من الأنبياء من بعدهما.

لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه هو أن يكون الأولاد صالحين بارّين، سواء أكانوا عبيداً أو أسياداً. (كان إسماعيل عليه السلام ابن هاجر وهي أَمَة إبراهيم عليه السلام وكان إسحاق ابناً لسارة الحُرّة).

التعاليم:

١ ـ اشكروا الله تعالى كلّما تذكّرتم نِعَمه، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٢ ـ اشكروا الله عز وجل على استجابته الدعاء، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الأبناء نِعمة إلٰهيّة، ﴿وَهَبَ لِي﴾.

٤ ـ إذا أراد الله شيئاً فلا مانع لإرادته، ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾، حتى الشيخوخة ليست حائلاً أمام قدرة الله.

٥ ـ إذا ذكرتم نِعَم الله فاشكروه على كلّ واحدة منها، ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

٦ ـ استجابة الدّعاء سُنّة إلٰهيّة، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾

إشارات:

□ يتّضح لنا من خلال الآيات التي فسّرناها في هذه السورة والتي تخصّ سيّدنا

إبراهيم عليه السلام، أنّه سأل الله سبحانه سَبع مَطالب، هي: (١) الأمن والاستقرار لمكّة؛ (٢) تَجنيبه وبَنيه عبادة الأصنام؛ (٣) أن يجعل الله أفئدة من الناس (المؤمنين) تهوي إلى أهله وديانته في ذلك المكان؛ (٤) أن يرزقهم من الثمرات والخيرات؛ (٥) هدايتهم وتوفيقهم لإقامة الصّلاة؛ (٦) قبول الأدعية والاستجابة لها؛ وأخيراً (٧) الدّعاء له ولوالديه ولجميع المؤمنين بالغفران والرّحمة.

□ تُستخدَم كلمة (الوالديْن) للإشارة إلى الأبوين المباشريْن للشخص، أمّا كلمتَيْ (الأب) أو (الآباء) فتُطلَق على غير الوالديْن ومنهم العَمّ وأبو الزوجة كذلك. ولأنّ والدَيْ إبراهيم عليه السلام كانا مؤمنيْن فقد دعا لهما في هذه الآية بالخير والرّحمة؛ لكنّنا نلاحظ استخدام إبراهيم عليه السلام في آيات أخرى لكلمة «أب» والمقصود به هو العَمّ، والدليل على ذلك هو كُفر هذا العَمّ وشركه، ما دعا بإبراهيم عليه السلام إلى البراءة منه ومن أفعاله ـ كما تشير تلك الآيات بوضوح.

□ في الآية (١٣٣) من سورة البقرة، قال يعقوب عليه السلام لبَنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾. فأجابه بنوه قائلين: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، والحال أنّ إسماعيل عليه السلام هو عَمّ يعقوب وليس أباه، لكنّ كلمة «أب» كما قلنا تُطلَق على العَمّ أيضاً.

التعاليم:

١ ـ يشير تكرار كلمة ﴿رَبِّ﴾ أو ﴿رَبَّنَا﴾ في بداية أدعية إبراهيم عليه السلام إلى تأثير ذلك في الاستجابة مضافاً إلى كونه من آداب الدّعاء كذلك، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾.

٢ ـ استعينوا بالله تعالى ليمكّنكم من إقامة صلواتكم وصلوات أبنائكم، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾.

٣ ـ الصلاة هي محور أدعية إبراهيم عليه السلام، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ رسالة الأنبياء عليهم السلام تستند إلى إقامة دعائم الدّين إلّا أنّ

الدّعاء لإقامة الصلاة بدلاً من إقامة الدّين يدلّ على أنّ الصلوة هي السّمة الرئيسة للأديان كلّها، ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥ ـ إقامة الصلاة تُعادل القيادة والإمامة؛ فقد استخدم إبراهيم عليه السلام عبارة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ في موضعيْن اثنيْن، مرّة في ما يتعلّق بإقامة ذرّيّته للصلوة: ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾، وأخرى في ما يخصّ إمامته لذرّيّته عندما خاطبه الله سبحانه قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[1].

٦ ـ لا تَنسوا أنفسكم في الدّعاء: ﴿وَٱجْنُبْنِي... ٱجْعَلْنِي... ٱغْفِرْ لِي﴾، ولا يفوتكم أن تذكروا الآخرين أيضاً: ﴿وَبَنِيَّ...وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ... وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧ ـ على الشخص أن يذكر الجيل السابق، ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والجيل القادم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

٨ ـ اذكروا يوم قيامتكم وذرّيّتكم والمجتمع ككلّ في أدعيتكم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال**: لماذا لا يمنع الله سبحانه ظلم الظالمين وطغيانهم وهو العادل القادر؟

الجواب: لا شكّ في أنّ الله تعالى عادل وقادر وكذلك عالِم بما يفعله الظالمون، وأمّا تأخير مُحاسبتهم وإنزال العقوبة بهم فمردّه إلى أنّ الدنيا ليست داراً يمكنها استيعاب الجزاء بأكمله، فجرت سُنّة الله عز وجل بتأخير عباده وإمهالهم لكي يتوبوا وينوبوا إذا كانوا يستحقّون ذلك، وإذا لم يكونوا كذلك فإنّهم سيُحاسبون يوم القيامة بشكل كامل.

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

التعاليم:

١ ـ لا تحكموا على أيّ شيء بسرعة، ولا تظنّوا أنّ الله غافل عمّا تعملون، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٢ ـ إمهال الظالمين وتأخيرهم لا يَعني أنّ الله غافل عنهم أو أنّه راضٍ عَمّا يقومون به، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾.

٣ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى الإمهال والتأخير، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾. وعليه، لا يجوز السّكوت عن الظالم ولا اليأس من المحاولة، بل لا بدّ من العَمل بما أُمِرنا به، واعلموا أنّ الله للظالم بالمرصاد.

٤ ـ يستند كلّ من الثواب والعقاب إلى توقيت مُعيّن، ﴿لِيَوْمٍ﴾.

٥ ـ يوم القيامة هو يوم مُخيف ورهيب للغاية بحيث تبقى أعين الخلق يومئذ مفتوحة من أهواله لا يقدرون أن يطرفوا، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ـ من «الإهْطاع» ـ ولها معانٍ عدّة، منها: رَفْعُ الرّأس أو العُنُق والإسراع والنّظر بذِلّة، وكلّ تلك المعاني مجتمعة في هذه الآية الشريفة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ بالنّظر إلى الآية السابقة، يبدو أنّ هذه الآية تتحدّث عن القيامة، لكنّ جملة ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ...﴾ تشير، على الأرجَح، إلى أنّ الآية تعني العذاب الإلٰهيّ في الدنيا؛ لأنّ تأخير العذاب وإجابة دعوة الله ونُصرة الأنبياء، هي أمور تتعلّق بالدنيا لا بيوم القيامة.

□ في يوم القيامة سيطلب المُذنبون كذلك من الله سبحانه السّماح لهم بالعودة إلى الدنيا وهو ما أشارت إليه الكثير من الآيات في القرآن الكريم، مثل:

أ) ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

ب) ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[2].

ت) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[3].

التعاليم:

١ ـ يُعتبر التهديد والتحذير أسلوباً تربوياً لهداية الضالين، ﴿وَأَنذِرِ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ تحذيرات القرآن الكريم موجّهة إلى عموم البشر، ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾.

٣ ـ سيَندم المجرمون يوماً ما ولاتَ ساعة مَندَم، ﴿أَخِّرْنَا﴾.

٤ ـ عند نزول العذاب الإلٰهيّ ستُسَدّ طرق الفرار وتُغلَق أبواب التوبة، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا...﴾.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا يَعتبر كثير من الناس من مصير الماضين ولا يأخذون الدروس منهم، وعلى الرغم من أنّهم يسكنون في مساكن الأوّلين ويسيرون في الطرقات نفسها التي سار فيها الذين مِن قبلهم؛ لكنّهم ينسون أو يتناسون الأشياء كلّها، ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٢ ـ يريد الله سبحانه أن يُتمّ الحجّة بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ... وَضَرَبْنَا لَكُمُ

---

(١) سورة غافر: الآية ١١.

(٢) سورة السّجدة: الآية ١٢.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٧.

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾، (فهو تعالى يُبيّن عذاب الأمم السالفة وفي الوقت نفسه يوضّح أموراً عدّة من خلال ضربه الأمثال).

٣ ـ إنّ سُنن الله ثابتة وسائدة في التاريخ والمجتمعات على السّواء، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ إنّ الله تعالى عالِم بمكر الظالمين ومحيط به إحاطة كاملة إضافة إلى أنّه سيُحاسبهم على كلّ ما يقومون به من مَكر، فهو القادر على دَفع مَكرهم وإجهاضه وإرجاعه عليهم.

التعاليم:

١ ـ مهما كانت قدرة الظالمين وأيّاً كان بطشهم؛ لكنّهم في النهاية مخذولين بقدرة الله، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ يكون انتقام الإنسان مصحوباً بالحقد والتشفّي؛ لكنّ انتقام الله سبحانه لا يكون إلّا على أساس العدل والحكمة والتأديب.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من التحذير من لحظات الخطر والزلّة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٢ ـ لا يدفعنّكم تأخير العون الإلٰهيّ عنكم إلى التشكيك والشّبهة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٣ ـ على الرغم من امتلاك الإنسان العقل والفطرة معاً، وربما قدرة الاستشارة

كذلك، لكن إذا لم يكن هناك وَحيٌ إلهيّ داعِم فإنّه سينحرف ويضلّ عن فَهم الأمور وتصوّرها بدّقة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٤ ـ تستند المهلة التي يمنحها الله سبحانه للكفّار والظالمين إلى سُنّته وحكمته؛ لا إلى الغفلة أو التخلّف عن تنفيذ الوعد، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾.

٥ ـ لَن يُخلف الله وَعدَه وهو القادر على كلّ شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الكثير من الآيات إلى تغيّر الأرض وتبدّلها عند قيام الساعة، منها أنّ زلزالاً عظيماً يضرب الأرض[١]، وأنّ الجبال تُقلَع عن وَجهها[٢]، وتسير على سطحها وتصبح هشّة كالعهن المنفوش[٣]، وتسوَّى الأرض فلا جبال ولا تلال ولا تضاريس[٤]. أمّا تغيّر السموات فيبدأ بخمود الشمس وانطفائها ثمّ طَيّ السموات[٥]. وهكذا فإنّ النظام الكونيّ الموجود سينتهي يوماً ما كما قدّر الله له ذلك.

التعاليم:

١ ـ سيتمّ بَعث المخلوقات جميعاً وإحياؤهم مجدداً لمحاسبتهم على أعمالهم، ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾.

٢ ـ لا مَجال للرّحمة والعطف مع الظالمين يوم القيامة، ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

---

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، (سورة الزلزلة: الآية ١).

(٢) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾، (سورة الكهف: الآية ٤٧).

(٣) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، (سورة القارعة: الآية ٥).

(٤) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ثُمَّ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، (سورة طه: الآيتان ١٠٥ و١٠٦).

(٥) ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، (سورة الأنبياء: الآية ١٠٤).

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

- مَن يُعاني العذاب ويتجرّع الألم تشتدّ عليه المُعاناة عندما يسمع أصوات الآخرين وصراخهم، كما أنّ مَن يقضي أوقاتاً ممتعة ويجلس مع جماعة تشدو وتمرح يشعر بالسعادة والمَرح هو الآخر. ولذلك ورد في القرآن الكريم أنّ الله سبحانه سيجمع المؤمنين يوم القيامة معاً في الجنّة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا... أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1]، ويقذف بالمجرمين والكافرين وأشباههم في جهنّم: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[2]. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾[3]، وربّما حَملت الآية الشريفة ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[4] المعنى نفسه كذلك، (والله أعلم).
- «الأصفاد» جَمع (الصّفد)، وهو قطعة الخشب الضّخمة التي تُربَط إلى أرجل السّجناء.
- «القطِران» أو القَطْرانُ: عُصارَة الأبْهَلِ والأرْزِ ونحوهما يُطْبَخ فيُتَحلّب منه ثم تُهْنَأُ به الإِبِل الجربى. والقَطران مادة كريهة الرائحة شديدة الاشتعال.
- أحد أنواع العذاب يوم القيامة (والعياذ بالله) هو شدُّ أرجل المجرمين وأيديهم بالأغلال والأصفاد، وهو ما أُشير إليه في آيات أُخر، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ... فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، و﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[5]، و﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾[6].
- يُجمَع الشياطين والمجرمون كلّ مع أقرانهم ويُغلّون جميعاً بالأصفاد والأغلال، فمنهم مَن تُغلّ يَديه، أو يَديه ورجليْه، أو يَديه ورجليْه إلى عُنقه في آن واحد، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾.

---

(١) سورة الطور: الآية ٢١.
(٢) سورة الصافات: الآية ٢٢.
(٣) سورة الشّعراء: الآية ٩٤.
(٤) سورة التكوير: الآية ٧.
(٥) سورة الحاقّة: الآية ٣٠.
(٦) سورة غافر: الآية ٧١.

التعاليم:

١ ـ يصف القرآن الكريم الوضع الذي سيكون عليه يوم القيامة بشكل دقيق وكأنّنا نراه أمامنا عياناً، ﴿وَتَرَى﴾.

٢ ـ يجري تعذيب المجرمين وتأنيبهم وإهانتهم أمام الجميع، ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٣ ـ لو استطعنا رؤية أعمالنا كصورة مجسّمة وواضحة لبَدت لنا الألبسة الفاخرة التي نرتديها بإسراف وتبجّح، مجرّد قطع من النار واللّظى، سوداء كريهة، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لن يُترَك أيّ شخص [يوم القيامة] دون محاسبة، ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾.

٢ ـ لن يبقى أيّ عَمل دون مُقابل، ﴿مَّا كَسَبَتْۚ﴾.

٣ ـ لن يكون الثواب والعقاب الإلٰهيّ إلّا على أساس أعمالنا، ﴿مَّا كَسَبَتْۚ﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟
أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ لاحظ أنّ الآية الأولى من سورة إبراهيم عليه السلام وهذه الآية الأخيرة منها تتناول دَور القرآن الكريم ورسالته في هداية الناس. ففي الآية الأولى قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهنا يقول عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ...﴾.

ومن ناحية أخرى، فكما أنّ القرآن الكريم يُعتبر بلاغاً فإنّ وظيفة حامله هي البلاغ، كما ورد في الآية (٥٤) من سورة النور قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

التعاليم:

١ ـ يُعدّ القرآن الكريم مصدراً للتبليغ، إذاً لا بدّ للمُبلّغين من استمداد العون ومادّتهم التبليغية من القرآن الكريم نفسه، ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم هو كتاب التوحيد وعلى هذا يمكننا خَلق المُوَحّدين من صميم القرآن الكريم، ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ... وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٣ ـ الإبلاغ وَحده غير كاف، بل لا بدّ من الإنذار أيضاً، (نعم، فهدف التبليغ في الحقيقة هو الإنذار)، ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾.

٤ ـ العِلم وَحده غير كافٍ كذلك؛ إذ ينبغي التأمُّل والتذكير معاً، ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ... وَلِيَذَّكَّرَ﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّ الأُنس بالقرآن الكريم يَمنح الإنسان المعرفة والعِلم ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾، إضافة إلى تشجيعه إيّاه على عَمل الخير من خلال التذكّر والنّصائح والدروس. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾.

٦ ـ القرآن بلاغ لجميع الناس من دون استثناء، لكنّ أصحاب العقول وأُولي الألباب هم الذين يتذكّرون ما فيه ويعتبرون بعِبَره، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بَلى، مَن أصغى إلى تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته بروحه وجسمه، كان من الموحّدين وممّن يتذكّرون إن شاء الله.

«والحمد لله رَبّ العالمين»

سُورَةُ الحِجرِ

السورة: ١٥ الجزء: ١٤

عدد الآيات: ٩٩

ملامح سورة الحِجر

تتألّف هذه السورة من تسع وتسعين آية، ويُقال: إنّ ترتيب نزولها على النبيّ الأكرم ﷺ في مكّة قبل الهجرة هو الثاني والخمسون.

و«**الحِجر**» هي مدينة ثمود قوم النبيّ صالح ﷺ، فاتّخذت هذه السورة اسمها من الآية ٨٠ والتي تتحدّث عن قوم صالح ﷺ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

تتناول مُعظم آيات هذه السورة موضوع اتّهام الكفّار القرآنَ الكريم والاستهزاء بالرسول الأعظم ﷺ، ودعوة الله سبحانه نَبيّه إلى الصّبر والعَفو عنهم، وتطييب خاطره وطمأنة قلبه إزاء الضغوط المتزايدة عليه من قِبل المشركين، لا سيّما بعد أن نُكب النبيّ ﷺ بوفاة كلّ من السيدة خديجة الكبرى وعمّه أبي طالب ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

إشارات:

- ورد في تفسيرَي الطبري ومجمع البيان، في تفسير الآية (٢) من سورة الحِجر، أنّ الكفّار سيقولون لِمَن دخل من المسلمين إلى جهنّم يوم القيامة: «ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالو: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب، فأُخِذْنا بها. فيَسمع الله عز وجل ما قالوا: فيأمر من كان في النار من أهل الإسلام بالخروج منها، فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين».
- ويُخبرنا التاريخ أنّ قيصر الرّوم لمّا قرأ كتاب النبيّ ﷺ إليه، هَمَّ أن يُسْلِم؛ لكنّه قال في نفسه في اللحظة الأخيرة: سأكون في خطر وسيضيع مُلكي[1].

التعاليم:

١ ـ على الرغم من منزلة القرآن الكريم السامية ﴿تِلۡكَ﴾ فإنَّ الله سبحانه جعله في متناول يَد الجميع؛ لأنّه مكتوب: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وسَهل القراءة ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾

٢ ـ على الرغم من مسائل القرآن الكريم وموضوعاته كلّها واضحة وبإمكان الجميع ملاحظة الفرق بين الحقّ والباطل من خلاله، ﴿مُّبِينٖ﴾.

٣ ـ العزّة في المستقبل للإسلام ولن يجني الكفّار سوى الذلّ والحسرة ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. (إنّ مَن يسخرون من الإسلام والمسلمين في الوقت الحاضر سيندمون في المسقبل القريب، وما أكثر المشركين الذين يودّون أن يكونوا مسلمين؛ ولكنّهم غارقون في وَحل الطغيان والبيئة الفاسدة).

(١) مكاتيب الرّسول ﷺ.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

إشارات:

- يعود السّبب في ترك الكفّار لحالهم باستخدام كلمة ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ إلى طغيانهم وعصيانهم بعد أن أرسل الله تعالى الرّسل وبعث الأنبياء ولم يترك أحداً لحاله. وقد تكرّر هذا المضمون كثيراً في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[2].
- لا شكّ في أنّ الإنسان حَيّ بالأمل ولو أُخِذ منه هذا الأمل يوماً فإنّه سيتخلّى عن العمل ويترك الأشياء كلّها. لكنّ الإسلام ينتقد نوعاً مُعيّناً من الأمل وهو:

أ) الأمل الطويل أو المتطاول؛

ب) الأمل قبل العَمل؛

ث) الأمل من غير عَمل يُسنده؛

د) الأمل الذي يُلهي الإنسان ويَشغله؛

هـ) تمنّي الخير وانتظار الأمل من الأشرار؛

- قال رسول الله ﷺ: **«ألا إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عَليكم خِصْلَتان: اتّباع الهَوَى وَطُول الأمَل، أمّا اتّباع الهَوى فَيَصدّ عَن الحَقّ، وَطُول الأمَلِ يُنْسي الآخرة»**[3]. وفي دعاء كُمَيل نقرأ العبارات التالية: **«وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ أَمَلي»**.

التعاليم:

١ ـ لا تُضيّعوا وقتكم عند الدعوة إلى الدين مع مَن هم ليسوا أهلاً للتبليغ، ﴿ذَرۡهُمۡ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص ١٠٦.

٢ ـ قد تبلغ الغفلة بالإنسان أحياناً مبلغاً لا تُفيد معه لا براهين الأنبياء ولا تحذيرات الرّسل والأولياء، ﴿ذَرْهُمْ﴾.

٣ ـ إذا كان الأمل سيؤدّي بنا إلى الغفلة واللّهو، فلا حاجة لنا إليه، ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ (ولكن إذا كان أملاً يدفعنا إلى العمل وبذل الجهود فإنّه أمل في محلّه وهو أمل الخير الذي أشار إليه القرآن الكريم أيضاً بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾)[1].

٤ ـ لا تعتبروا إمهال الله إياكم دليلا على لطفه أو رحمته، ﴿ذَرْهُمْ... فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. (فقد يقول الطبيب لأهل المريض عند اليأس من حالته: اتركوه لحاله، ودعوه يأكل ويفعل ما يريد).

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ستنتهي فرحة عُبّاد الدنيا وسعادتهم يوماً ما، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾.

٢ ـ يقول الله تعالى: إنّه لو شاء لأهلكَ الكفّار جميعاً في الحال، لكنّ سُنّتنا اقتضت أن نُمهلهم ونؤخّرهم إلى الوقت المعلوم، ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

٣ ـ لا تغترّوا بالمهلة الإلٰهيّة، ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

٤ ـ المجتمع والتاريخ يحكمهما القانون والتوقيت كذلك، ﴿قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ الآجال والأحداث المستقبلية على نوعيْن: حتميّة وغير حتميّة؛ فأمّا الأجل غير

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

الحتميّ فيمكن تغييره بالدّعاء والصّدقة والأعمال الحسنة، وأمّا الأجل الحتميّ فغير قابل للتغيير.

التعاليم:

١ ـ لا يقتصر الأجل على الشخص فقط بل وكذلك على الأمم وتاريخها، ﴿أَجَلَهَا﴾.

٢ ـ دوام الأشخاص واستمرار الأمم بيَد الله سبحانه، ولا دَور للإنسان إطلاقاً في تأخير أو تعجيل الآجال الإلٰهيّة الحتميّة، ﴿مَّا تَسْبِقُ...﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

إشارات:

- كلمة «مجنون» لا تَعني الذاهب العقل أو فاسده، بل مَن مَسّته الجنّ، مثلما أنّ كلمة (مُتَعَفْرِت) تعني الشخص الذي تسلّط عليه العفريت. وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أنّ قدرة الشاعر على نَظم الشعر إنّما تأتي من خلال ارتباطه بالجنّ.
- تشير هاتان الآيتان إلى ما كان يقوم به المشركون من إهانة وسخرية واتّهام للنبيّ ﷺ، مثل قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى﴾ مثلاً، بدل أن يقولوا: «يا أيّها النبيّ» واستخدامهم كلمة ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ مع أنّ الكفّار لم يؤمنوا بالوَحي، وهو بذلك نوع من السخرية والاستهزاء. وكلمة ﴿مَجْنُونٍ﴾ هي اتّهام النبيّ ﷺ بما ليس فيه، وجملة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ دلالة على أنّهم كانوا يشكّكون في كونه ﷺ نبيّاً أصلاً، إضافة إلى أنّ الحرف ﴿إِنَّ﴾ في ﴿إِنَّكَ﴾ وحرف اللام في ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ يشير إلى التأكيد على حديثهم ومُعتقدهم الضالّ.

التعاليم:

١ ـ يَعتبر البعض أنّ المعنويّات هي مجرّد جنون وعَبث، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

٢ ـ لم يقبل الكفّار على ما كان النبيّ ﷺ يقوله من الوَحي وذلك واضح من قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، بدلاً من قولهم: «يا أيّها الذي أنزل الله عليه...».

٣ ـ كان الكفّار يظنّون أنّ علامة صِدق النبيّ ﷺ هي نزول الملائكة، لكنّ ذلك لم يكن سوى ذريعة واهية؛ لأنّ القرآن الكريم يُخبرنا في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾[1].

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

- نلاحظ من خلال الآيات القرآنية أنّه كلّما أتى نَبيّ من الأنبياء بمُعجزة وتجاهل قومه ذلك ولم يهتمّوا به نزلَ العذاب الإلٰهيّ بأولئك القوم، على الرغم من أنّهم قد يُمهَلون مدّة مُعيّنة. ولكن متى طلب الناس أنفسهم المُعجزة من نَبيّهم مثل طلب قوم صالح عليه السلام إخراج ناقة من بطن الصخرة في الجبل أو نزول مائدة من السّماء وهو ما طلبه قوم عيسى عليه السلام، ففي مثل هذه الحالات فإنّ غضب الله سبحانه يكون حتمياً ولن يُمهَل أولئك القوم بعد ذلك إذا تمرّد الطالبون لتلك المُعجزة على الرغم من نزولها حسب طلبهم، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.
- طلب الكفّار في الآية السابقة من النبيّ العزيز ﷺ نزول الملائكة عليهم، وفي هذه الآية يُجيب الله سبحانه وتعالى عن ما طلبوا بقوله: «إنّ الملائكة لا تنزل إلّا على مَن يستحقّون ذلك وأنّها لا تنزل على مَن لا يستحقّون نزولهم من أهل الباطل»، ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا يكون نزول الملائكة على أساس رغبة هذا وهوى ذاك، بل بالحقّ، ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١١.

٢ ـ إمهال الله لخلقه خاضع لقانون مُحدّد أيضاً، ولكن عندما يُؤتى الناس المُعجزة وفقاً لطلبهم ومع ذلك يعصون أوامر الله ورسوله فلن يُعطَوا أي مهلة، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

إشارات:

- كان الكفّار في الآية (٦) من هذه السورة يُشكّكون في مصدر الذّكر الذي كان النبيّ ﷺ يتلوه بقولهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، وفي هذه الآية يردّ الله ﷻ على ما قاله المُشركون ويقول: «أيّها الكافرون! لا تشكّوا في كوننا نحن الذين أنزلنا الذّكر والقرآن على هذا النبيّ». وكما أنّ الكفّار يصرّون على نسبة الجنون إلى الرسول ﷺ فإنّ الله سبحانه يؤكّد كذلك من جانبه أنّه مسؤول عن حفظ القرآن الكريم.
- احتوت هذه الآية الشريفة ـ على الرغم من قِصَرها ـ على أنواع ستّة من التأكيد، ثلاثة منها تتعلّق بنزول القرآن الكريم وهي: ﴿إِنَّا نَحْنُ... ٱلذِّكْرَ﴾ وثلاثة أشارت إلى مسألة الحفاظ على الذّكر: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ «واللّام» في كلمة ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾، وهذا واضح في مصطلح الأدب العربي بالنسبة لأهل الفنّ.
- بشهادة الله سبحانه ووعده في هذه الآية، لم يتعرّض القرآن الكريم إلى أيّ تغيير أو تحريف، وهو ما ورد في آيات قرآنية أخرى مثل الآية (٤٢) من سورة فُصّلت: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. وأمّا ما تشير إليه بعض الروايات من أنّ القرآن الكريم قد تعرّض للتحريف وما إلى ذلك، فإمّا أن تكون تلك الروايات موضوعة وهنا لا بدّ من ضربها عَرض الحائط، أو أن يكون مرادها من التحريف هو عدم تطبيق بعض الناس للقرآن الكريم عملاً أو معنىً كالتفسير بالرأي والذّوق والإعراض عمّن لديهم علم الكتاب وهم آل بيت النبيّ ﷺ.

وبالإضافة إلى وَعد الله سبحانه بالمحافظة على القرآن الكريم، فقد عمدَ

المسلمون ـ ومنذ نزول القرآن ـ إلى حفظه عن ظهر قلب واجتهدوا في كتابته خطّياً، بل كان البعض منهم يجعل حفظ القرآن عن ظهر قلب مهراً للزوجة، وكانوا يرتّلونه في صلواتهم، أمّا كُتّاب الوَحي فكانوا كُثُراً، وكان الإمام عليّ عليه السلام واحداً منهم عند نزوله. ودأب الأئمّة عليهم السلام على التأكيد للناس أنّ هذا القرآن الموجود بين يديهم هو المُصحف الصحيح. ويشهد حديث الثُّقلَيْن على سلامة القرآن الكريم من أيّ تغيير أو تحريف إذ صرّح النبيّ صلى الله عليه وآله بنفسه قائلاً: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي؛ كِتَابَ اللَّهِ وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي. وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1]. وهل يُمكن لأحد أن يقول: إنّ رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله باقية وثابتة بينما تغيّر كتابه وتعرّض للتحريف.

وَعَدَ الله النبيّ المصطفى «لن يموت الذكر إن أنت هلكتْ»
إنّني حافظ ذِكرك وكتابك فمَن قال تغيّر أو تبدّل، قُل: كَذِبت

- تمّ تأليف المئات من الكُتب والمقالات والرسائل من قِبَل كبار عُلماء الشيعة حول عدم تحريف القرآن الكريم، ومع ذلك نسبَ البعض ادّعاء التحريف إلى الشيعة بغير حَقّ.
- القرآن الكريم هو الذّكر ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، والإعراض عن الذّكر والقرآن يُعرّض الإنسان إلى الشّقاء والحرمان، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]. القرآن هو الذّكر ولا تطمئنّ القلوب إلّا بذِكر الله عزّ وجلّ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم ليس صادراً لا من البشر ولا من الملائكة، ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم محفوظ إلى الأبد، ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾. (يشير اسم الفاعل هنا إلى الاستمرارية والدوام).

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص ٣٤.
(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.
(٣) سورة الرّعد: الآية ٢٨.

٣ ـ من بين الأنباء الغيبية التي ذكرها القرآن الكريم والمميزات التي يمتاز بها الدين الإسلامي، هي حفظ القرآن من أيّ تحريف، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

٤ ـ القرآن هو الذِّكر، ذِكر الله سبحانه وذِكر نِعَمه وتاريخ الأُمم الماضية وذِكر يوم القيامة، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾.

٥ ـ لا بدّ من الردّ على التُّهَم وأساليب الاستهزاء الباطلة بقوّة وحزم؛ قالوا: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، فردّ عليهم تعالى: ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «شيع» جمع شيعة بمعنى الأُمّة والجماعة المرتبطة ببعضها سواء أكان ذلك الارتباط حقّاً مثل قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[1]، أو باطلاً كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[2].

□ كان غرض المستهزئين إمّا الإساءة لعظمة الأنبياء لتفريق الطالبين للحقّ من حولهم، أو رغبة من الكفّار للتعويض عن الضّعف الموجود في شخصيتهم في مُقابل عَجزهم أمام منطق الأنبياء السليم.

وأمّا ما كان يسخر منه الكفّار فهو العيشة البسيطة التي كان الأنبياء يعيشونها أو أصحابهم المحرومون أو تجرّؤهم في التطاول على تقاليدهم الخرافية.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من تقوية معنويّات الأفراد مقابل حملات الاستهزاء، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ من شأن مطالعة التاريخ والاطّلاع على مشاكل الآخرين أن يساعد الإنسان على تحمّل مشاكله، ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) سورة الصافات: الآية ٨٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٩.

٣ ـ لم يَنج أيّ نبيّ من استهزاء الكافرين به، ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. (لا ينبغي للمُبلّغ أو الداعية أن يقنط بسبب استهزاء الناس منه).

٤ ـ الاستهزاء هو أسلوب اعتاده الكفّار ليواجهوا به الأنبياء ودعوتهم، ﴿كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (الاستهزاء سلاح مَن لا منطق له).

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ علمنا في الآيات السابقة أنّ الكفّار طلبوا من النبيّ ﷺ إنزال الملائكة من السّماء ليروهم بأعينهم، وفي الآية (١٤) من هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فيروا ما يشاؤون من الملائكة وأشياء أخرى كذلك، فإنّهم لن يؤمنوا لأنّ طلبهم رؤية الملائكة ما هو إلّا ذريعة واهية يريدون بها التملّص من قبول الدّعوة، ومَن كان طبعه العناد فإنّه سينكر حتى عروجه إلى السّماء.

ورد في الآية السابعة من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

□ قال بعض المفسرين: إنّ كلمة ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ الواردة في الآية (١٢) أعلاه، تعني أنّ الله سبحانه سهّل دخول التكذيب والاستهزاء إلى قلوب الكافرين وزيّنه لهم، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾ فأصبحت قلوبهم كالحجر ولم يعودوا يقبلون بالهدى.

التعاليم:

١ ـ سُنة الله تعالى لهداية الناس واحدة، ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾.

٢ ـ يُتمّ الله حجّته ويُوصل الحقّ إلى أعماق نفوس الناس وقلوبهم حتى لا يدّعوا بعدها أنّهم لم يفقهوا الحقيقة، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ المعصية والذنب يدفعان الإنسان إلى رفض الهداية، ﴿قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٤ ـ لا يكفي إدراك الحقّ لقبوله؛ لأنّ الإيمان يحتاج إلى إرادة وتواضع وخشوع، ﴿نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ للسماوات أبواب لا تُفتَح لأحد إلّا بإرادة الله وحده ولِمَن يشاء، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾.

٦ ـ العناد عائق بوَجه المعرفة ومن عادة المعاند أن يُنكر حتى المحسوسات، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا... لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾.

٧ ـ العناد مَرض عُضال لا دواء له؛ إذ إنّ أوّل ما يقوله المُعاندون بعد رؤيتهم الآيات البيّنات: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، ثمّ بعد أن يتبيّن لهم الحقّ عياناً يقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- كلمة «بُرُوج» هي جَمع (بُرْج) ومعناها في الأصل (الظهور)، ويُقال للمرأة التي تُظهر زينتها: تَبَرّجت، وتُطلَق كذلك على القصر والبلاط والأبنية الشاهقة ذات المناظر الخلّابة. وكلمة ﴿بُرُوجًا﴾ في هذه الآية كناية عن الأجرام السماوية أو منازلها.

- يتشكّل مدار افتراضي من دوران الأرض حول الشّمس يُسمّى (منطقة البروج)، وقد قُسّمت هذه المنطقة إلى اثني عشر برجاً يتضمّن كلّ واحد من تلك البروج عدداً من النجوم، إذ سُميَ كلّ بُرج باسم مُعيّن يتناسب وأشكال تلك النجوم فيه. فالفُرس يُسمّون تلك البروج: فَرْوَرْدين، أورْديبِهِشْت، خُرداد... إلى غير ذلك، أمّا العرب فيسمّونها: بُرج الحَمَل والثّوْر والجوزاء والسّرطان والأسد والسُّنبُلة والميزان والعَقرب والقَوْس والجَدي والدّلو والحُوت.

التعاليم:

١ ـ الأجرام السماوية وحركاتها في المدارات المختلفة لها، واحدة من الآيات الدالّة على التوحيد ومعرفة الله سبحانه، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾.

٢ ـ المخلوقات السماوية جميعاً هي مخلوقات حادثة كذلك، ﴿جَعَلْنَا﴾.

٣ ـ الجَمال والزينة مبدأ أساس في الخِلقة وقد وضعهما الله حتى في مخلوقاته السماوية، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾.

٤ ـ خلق الله سبحانه السماء لتكون آية للإنسان كما هي الحال مع الأرض، ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾
إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ الاستِراق والتَّسَرُّق: اختلاس النَّظر والسمع، و﴿اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ بمعنى سَرَقه خِلسة.

□ جاء في تفسير «في ظلال القرآن»[١] وتفسير المراغي[٢]: «وما الشيطان؟ وكيف يحاول استراق السمع؟ وأي شيء يسترق؟ كلّ هذا غيب من غيب الله، لا سبيل لنا إليه إلّا من خلال النصوص».

أمّا الفخر الرازي[٣] والآلوسي[٤] فقد ذكرا في تفسيرَيهما: «فأمّا السماء فهذه السماء الظاهرة، وأمّا الشهاب فهو شعلة نار ساطع، ثم يسمى الكواكب شهاباً والسنان شهاباً لأجل أنّهما لما فيهما من البريق يُشبهان النار، والمراد بالسّماء عالم الملكوت الذي لا سبيل للشياطين للوصول إليه».

وعلى أيّ حال، يمكننا القول إنّ معنى الآية الشريفة هو وجود شخصيّات

(١) في ظلال القرآن، ج٤، ص ٤٢٧.
(٢) الجزء الرابع عشر، ص ١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ج١٩، ص ١٣٤.
(٤) الجزء التاسع، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

مقدّسة وطاهرة في سماء المعنويّات وأنّ الله سبحانه قد تعهّد بحفظها جميعاً من وساوس الشياطين، ومن يتجرّأ من الشياطين على الوسوسة في ذلك العالم الطاهر هُوجِمَ بشهاب العِلم وبرهان أهل الذّكر بالاستدلال والمنطق المحكم، بغية إبادة بدعته واستراقه ووساوسه.

التعاليم:

١ ـ السموات مركز تنظيم الأمور وتدبيرها، والملائكة هم موظّفو ومديرو تلك الأمور، وعلى هذا لا بدّ من أن تكون مراكز الإدارة والتدبير مناطق مَحميّة، ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾.

٢ ـ كلمة «الشيطان» لا تُطلَق على إبليس اللّعين فقط، ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ﴾.

٣ ـ الشيطان لا ينصرف وحده بل لا بدّ من طَرده، ﴿رَّجِيمٍ﴾.

٤ ـ استراق السّمع والتجسّس لأغراض شريرة هو من عمل الشيطان، ﴿مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾.

٥ ـ لا بدّ من التعامل مع الجاسوس بحزم وشدّة، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾.

٦ ـ متى ظهر أتباع الشياطين توجّب على مثقّفي المجتمع وعلمائه مطاردتهم بشهاب العلم، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

٧ ـ ينبغي الردّ على الوساوس والأفعال الشريرة بكلّ صراحة وحزم وعلى الفور، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، (قال تعالى في الآية الثامنة من سورة الصافات: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، وهذا يشير إلى أنّه لا بدّ من الهجوم على الشيطان وطرده من جميع الجوانب، وإلّا فإنّه قد يظهر من مكان آخر وبشكل مختلف).

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

❑ الإلقاء هو الإيجاد والرواسي من الجبال: الثّوابتُ الرَّواسخُ؛ واحدتها راسِية، و﴿مَعَـٰيِشَ﴾ جمع المَعيشة، وهي ما يُعاشُ بها.

التعاليم:

١ ـ يُعتبر انبساط الأرض وتسطّحها نِعمة من نِعَم الله، ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾؛ ولولا ذلك لكان من الصّعب القيام بالفلاحة والزراعة والكثير من الأمور الأخرى.

٢ ـ ليس انبساط الأرض وتمدّدها وإيجاد الجبال وخَلق النبات أموراً اعتباطية، ﴿مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا وَأَنۢبَتْنَا﴾.

٣ ـ خُلِقت الموجودات وفقاً لِمعيار مُعيّن وقانون خاصّ، ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

٤ ـ أرض كوكبنا صالحة لنموّ أيّ نوع من النبات، ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٥ ـ وُجِدَت الأرض ووُضِعَت الجبال وخُلِقَ النبات من أجل الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.

٦ ـ الله سبحانه كفيل بمعايش وأرزاق الموجودات جميعاً حتى تلك التي ليس باستطاعة الإنسان توفير غذائها، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ أشارت آيات عدّة إلى المقادير المعلومة والدقيقة في خَلق الموجودات، منها الآيات التالية:

• ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[(١)].

• ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[(٢)].

• ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[(٣)].

□ قال تعالى في الآية (٢٧) من سورة الشورى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، وهذا ما تؤكّده الآية (٢١) من سورة الحِجر كذلك.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٢) سورة الرّعد: الآية ٨.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢.

- قد يكون المقصود بالخزائن ههنا هو الأسباب والإمكانات والعوامل الفطريّة التي أوجدها الله تعالى في كلّ مخلوق.
- تشمل عبارة ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ المخلوقات جميعاً، فقوّة إبصارنا وسمعنا محدودة بقَدر معلوم عند الله سبحانه، فلو شاء هو لتمكّنا من سَماع أصوات دَبيب النّمل في الجانب الآخر من العالم. والجدير بالذكر أنّ الاكتشافات العلمية الحديثة أثبتت أنّ كلّ نبات له وزن مُعيّن وإذا زاد أو نقص مقدار العناصر الداخلة في تكوينه فإنّه لن يكون ذلك النبات بل نَبات آخر يختلف عنه.
- ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾: يكون النّزول أحياناً من الأعلى إلى الأسفل كنزول المطر وأحياناً أخرى يكون معنى النزول هو الأمر بإيجاد شيء ما كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[1]. وتشير هذه الآية إلى أنّ النِّعَم لها قَدر معلوم وميزان محدود ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، وقد أشارت الآيات والروايات إلى بعض العوامل الداخلة في ذلك.

ويمكن لسَعي الإنسان وجهوده أن تكون مؤثّرة في تحديد مقدار الرّزق، فالأخلاق الحميدة والاختصاص العالي وسِعة الصّدر وسلامة النيّة ودعاء الأحبة، يمكن لذلك كلّه أن يؤثّر في المقدار المعلوم.

التعاليم:

١ ـ للوجود مصدر وذلك كلّه بيَد الله سبحانه، وليس بإمكاننا التحكّم إلّا في مقدار مُحدّد من ذلك الوجود وهو ما نَعلمه ونعرفه، ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

٢ ـ لم يَخلق الله ﷻ شيئاً في الوجود إلّا وله مقدار مُعيّن وميزان مُحدّد، ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

٣ ـ خزائن الله كثيرة لا تَنفد، أمّا نزول رَحمته فتدريجيّ، ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾، فالتنزيل يعني النزول التدريجيّ.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.

٤ ـ خزائن الله سبحانه دائمة لأنّ كلّ ما كانت خزائنه موجودة عند الله فهو باق لا يزول[١]، ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

٥ ـ لا تلجأوا إلى غير الله؛ لأنّ كلّ ما تطلبونه خزائنه عند الله وَحده، ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

٦ ـ امتلاك الشيء لا يعني استهلاكه، بل لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار الحكمة والحاجة والضرورة والكثير من الأمور الأخرى إذا ما أردنا التصرّف بشيء ما، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

٧ ـ لا يزال الإنسان يجهل مصادر وجود عدّة، ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ **«لواقح»** من اللّقاح، واللَّواقِحُ من الرياح التي تَحمِلُ النَّدَى ثم تَمُجُّه في السحاب، فإذا اجتمع في السحاب صار مطراً، ويُقال: إنما الريح مُلْقِحَة تُلْقِحُ الشجر، وهي أن تجعل الريح هي التي تَلْقَحُ بمرورها على التراب والماء فيكون فيها اللّقاحُ.

□ قال تعالى في الآية (٤١) من سورة الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾؛ فمن الرياح ما كان سبباً للبركة أو عاملاً للتهلكة، كما ورد في الآية (٤٣) من سورة النور قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

□ لا يستطيع الإنسان إبقاء المياه في السُّحُب أو على سطح الأرض مدّة طويلة؛ لأنّه سيدخل إلى باطن الأرض، ولا الأودية الصخرية لأنّه حينئذٍ سيتبخّر.

---

(١) ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، سورة النّحل: الآية ٩٦.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى هو مُدبّر الوجود والمتنفّذ الأوّل والأخير، ﴿أَرْسَلْنَا وَأَنزَلْنَا فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

٢ ـ الإنسان عاجز عن توفير أهمّ ما يحتاج إليه في حياته، ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ نِعمة وجود الماء تختلف عن نعمة الإرواء نفسها، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾. (إنّ شُرب الإنسان الماء وإرواء ظمأه هي وحدها نعمة بالإضافة إلى نعمة وجود الماء؛ إذ قد يشرب الإنسان الماء من دون أن يروي عطشه).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ ذكر المفسرون معاني عدّة لكلمتي ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾، منها:

أ) الماضين والحاضرين؛

ب) السابقون إلى ميادين الجهاد القتال وغيرهم؛

ج) الواقفون في الصفّ الأوّل من جماعة المصلين والمتأخرون عنهم الذين يتعمّدون ذلك ليكونوا بالقرب من صفوف النساء المصليّات ليتسنّى لهم اختلاس النظر إليهنّ، وقد يكون مراد الآية أنّ الله سبحانه يعلم هؤلاء ويعلم نيّاتهم. وفي مُقابل هؤلاء، هناك جماعة مؤمنة وصل بهم حبّهم للمساجد حدّاً باعوا منازلهم البعيدة واشتروا منازل قريبة من المساجد لكي يتمكنوا من الوقوف ضمن الصفوف الأولى للمصلين، وهنا كذلك تورد الآية أنَّ الله تعالى يعلم هؤلاء أيضاً.

التعاليم:

١ ـ الموت والحياة بيَد الله وَحده، فالكلّ فانٍ وعلى الذين يرحلون توريث الوريث الأصلي والحقيقيّ أعمالاً صالحة، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

٢ ـ لا تأثير ولا أثر للزمان على عِلم الله تعالى، فعِلمه ﷻ بالماضي والحاضر والمستقبل واحد، ﴿عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ... عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

٣ ـ مجيء يوم القيامة وما يجري فيه من حساب وكتاب وثواب وعقاب، كلّ ذلك من شؤون الربوبيّة، ﴿رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٤ ـ إنّ السبب في وضع يوم للقيامة يتبع حكمة الله تعالى. (فلو كانت ذرّات التراب والطعام والنّطَف تكوّن الإنسان، ثمّ بعد ذلك يموت الإنسان ويتحوّل ثانية إلى تراب ولم يكن ثمة حساب ولا كتاب في يوم من الأيام، فإنّ هذا العمل برمّته لا يمتّ إلى الحكمة بشيء إطلاقاً)، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾.

٥ ـ يُحشَر يوم القيامة القديم والجديد والماضي والحاضر معاً، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ والله سبحانه عالِم تماماً بأعمال كلّ مخلوق ونيّات كلّ فرد، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾
وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ «الصلصال» من الطِّين: هو مالم يُجْعَل خزَفاً، سُمّي به لتَصَلْصُله أي يُصَوّت كما يصوّت الخَزَفُ الجديد[1]. الحَمْأةُ والحَمَأ: الطين الأسود المُنتن، و﴿مَّسْنُونٍ﴾ المُتغيّر. و﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الرّيح الحارّة التي تؤثّر في الإنسان كالسمّ.

□ هذه الآية إمّا أنّها تشير إلى مرحلة خلق الإنسان الأولى، أي خَلق سيّدنا آدم ﵇ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]، أو إلى مسيرة

---

(١) تفسير الميزان.
(٢) سورة ص: الآية ٧٦.

الخلقة لجميع البشر وأنّ الموادّ الموجودة في الأرض التي تؤلّف الطعام والنطفة تشكّل بمجموعها الإنسان، وهو ما ورد ذِكره كذلك في الآية (٣٧) من سورة الكهف: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ في إشارة إلى أنّ بداية الإنسان هي التراب ثمّ النطفة ثمّ يكون على هيئة الإنسان.

- يُخبرنا القرآن الكريم أنّ الجنّ هم مخلوقات مكلَّفة تفهم القرآن وتَعيه كالإنسان وقد خاطبها الله تعالى في آيات عدّة، مثل قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[1]، وفي الآية الأولى من سورة الجنّ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

والجنّ كالبشر يمتلكون الشهوة، وقد أخبرنا القرآن الكريم بأنّ زوجات أصحاب الجنّة هنّ حور طاهرات باكرات لم يمسسهنّ لا إنسيّ ولا جنّي: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[2]. واستناداً إلى الآية أعلاه، فإنّ الجنّ مخلوق من النار وقد كانت موجودة قبل خَلق الإنسان، وإبليس اللّعين هو واحد من الجنّ كذلك ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[3]، ومن الجنّ مَن يدخل النار كذلك إذا كان كافراً ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- البَشَرَةُ: أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد من الإنسان.

التعاليم:

١ ـ خُلِقَت الملائكة قبل الإنسان (ويدلّ على ذلك الحوار الذي دار بين الله سبحانه وملائكته عند إرادته خَلق آدم عليه السلام)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾.

---

(١) سورة الرّحمن: الآية ٣٣.
(٢) السورة نفسها: الآية ٥٦.
(٣) سورة الكهف: الآية ٥٠.
(٤) سورة هود: الآية ١١٩.

٢ ـ الإنسان مَخلوق من الطين والموادّ الأخرى؛ ولهذا نراه يَميل بالغريزة إلى الماديّات، ﴿خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ...﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- المقصود بنَفخ روح الله في الإنسان ليس التنفّس أو دخول الرّوح إلى الجسد؛ لأنّ الحيوانات هي الأخرى تتنفّس ولها روح، بل المقصود هو مَنح هذا المخلوق الجديد (الإنسان) بعض صفات الإبداع والإرادة والعِلم من لدن الله سبحانه، أمّا نسبة الروح إلى الله تعالى فهو تشريف لها كقولنا: (بَيت الله) أو (شَهر الله).
- لم يكن سجود الملائكة لآدم ﷺ سجوداً صوريّاً أو شكليّاً بل كان يُمثّل خضوعهم أمام آدم ﷺ وذرّيته، أي أنّ الملائكة مسخّرة لخدمة البشر[1].

التعاليم:

١ ـ خلق الله ﷻ الإنسان بشكل كامل وهيئة متعادلة، ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾.

٢ ـ كان سجود الملائكة تقديراً لنَفخ الله الروحَ في جَسد آدم ﷺ، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟﴾. وكما قال الشاعر الفارسي:

جَسد المَرء شريف بوجود روح آدم
ما كلّ مَن لبس اللباس قيل له ابن آدم

٣ ـ الإنسان مخلوق ذو بُعديْن، وهو كامل في كلا البُعديْن كذلك. ففي البُعد الماديّ قال تعالى: ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾، وفي البُعد المعنويّ قال ﷻ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

٤ ـ الإنسان مظهر تجلّي بعض صفات الله تعالى، ﴿مِن رُّوحِي﴾.

٥ ـ تحتاج المعنويّة إلى الجسد والعناصر الماديّة، ﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ...﴾.

٦ ـ إنّ الذين يرفضون الوقوف في صفوف الساجدين لا يمتلكون إلّا الصفات الشيطانية والإبليسية، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ...﴾.

٧ ـ على الرغم من أنّ السجود والرّكوع يُمثّلان قيمة من القِيَم، فإنّه عندما يتمّ ذلك مع ركوع وسجود الآخرين فإنّ قيمتها ستكون أكمل وأوسع[1]، ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا تستندوا في القضاء إلى عِلمكم ورأيكم فقط بل لا بدّ من أخذ اعتراف المجرم كذلك واستجوابه لبيان منشأ الجريمة وحالات المجرم للجميع، ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾.

٢ ـ إذا ظهرت بوادر التكبّر في شخص ما فلن تنفع لهدايته البيئة ولا أيّ عوامل أخرى. (كان إبليس اللّعين يعيش مع الملائكة وفي بيئة ملكوتية طاهرة؛ لكنّه تحوّل إلى شيطان بسبب عناده وتكبّره)، ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

٣ ـ التميز العنصريّ فكرة إبليس، ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ...﴾.

٤ ـ الغرور والتكبّر في مقابل أمر الله ﷻ أسوأ من عدم السجود، ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾.

٥ ـ تبرير الذّنب أسوأ من الذّنب نفسه، ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ (بهذا العذر الواهي أراد إبليس تبرير جريمته).

(١) قال تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، سورة البقرة: الآية ٤٣.

٦ ـ إذا دخل الغرور والتكبّر من ناحية خرج النور والصفات الإلٰهيّة من الناحية الأخرى. فالشيطان لم يَرَ من الإنسان سوى جسمه الطينيّ ولذلك رفض السّجود له، في حين أنّ الله تعالى لم يأمره والملائكة بالسجود إلّا لأجل الصفة الإلٰهيّة التي كان يمتلكها ذلك الجسد، ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾.

٧ ـ لا إكراه حتى في الأوامر الإلٰهيّة، ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾.

٨ ـ التكبّر لا يعني الكبرياء أو الشموخ بل الذلّ والهوان. وكلمة ﴿فَٱخْرُجْ﴾ كانت قراراً حاسماً لمَحو كلّ عبادة إبليس اللّعين وطاعاته السابقة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

٩ ـ لا يجوز الاجتهاد والعمل بالرّأي في مقابل أمر الله تعالى، فلا مكان للقول: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ بعد أمر الله ﷻ: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

١٠ ـ إنّ لحظة عصيان وتكبّر واحدة كانت كافية للطرد واللّعن الأبديّيْن، ﴿عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

١١ ـ المُتكبّر ملعون من قِبَل الله تعالى إلى الأبد، ﴿عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

- عندما تأكّد الشيطان الرّجيم من أنّه ملعون ومطرود إلى يوم القيامة، طلب من الله ﷻ أن يُمهله إلى اليوم المعلوم، لكنّه لم يُفصح عن غرضه من ذلك الطّلب. ولمّا كانت سُنّة الله تعالى قد اقتضت الإمهال والتأخير فإنّه سبحانه لم يَبخل على هذا اللّعين بالاستجابة لطلبه، ولكن ليس إلى يوم القيامة كما أراد، بل إلى اليوم المعلوم عند الله تعالى. وقد قال بعض المُفسّرين: إنّ مُهلة إبليس اللّعين ستنتهي بانتهاء وجود البشر وتكليفهم.

التعاليم:

١ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى إمهال المُذنبين، ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

٢ ـ دعاء المُذنبين وتوسّلهم مُستجاب إذا اقتضت المصلحة ذلك. فعندما طلب الشيطان الرّجيم من الله ﷻ إمهاله ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾، استجاب العليّ القدير له بلُطفه قائلاً: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- لا يُضلّ الله ﷻ أحداً، ولكن إذا اختار أحدهم طريق الضلال والانحراف بنفسه، فإنّ الله سيتركه لحاله وهذا التّرْك والإهمال والتجاهل هو أشدّ عقاب للمُذنب. ولمّا كان إبليس اللّعين قد اختار بإرادته سبيل التكبّر وطريق العناد، تركه الله تعالى وشأنه، وهذا هو معنى ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾، أي: الآن وقد طردتني من لطفك وأخرجتني من رحمتك وتركتني لحالي، فسأعمل كذا وكذا.
- كان إبليس يعلم أنّ بعضاً من عباد الله تعالى هم عباد مُخلصون (أي أنّه كان يعلم بوجود النبوّة والإمامة كما يعترف بربوبيّة الله عزّ شأنه في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، وكان يؤمن بالمَعاد لقوله: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾). وعلى هذا فإنّ المبادئ العقائدية عند إبليس كانت صحيحة ولا غبار عليها، إلّا أنّ عَيبه الوحيد والأكبر هو تكبّره وعدم تسليمه لأوامر الله وإذعانه بالعبودية. إذاً، فإنّ العلم والإيمان غير كافيين، بل لا بدّ من وجود العمل والتسليم والعبودية إلى جانب ذلك.

التعاليم:

١ ـ يحاول إبليس وقَبيله ومَن يتّصفون بصفاته نسبة خطئهم إلى الله جلّ اسمه، ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾.

٢ ـ تزيين القبائح والمساوئ هو أهمّ وسائل إبليس في إغواء الآخرين، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ الطاهرين والمُخلصين محروسون من حبائل الشيطان، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ـ لكنّ الإخلاص والخلوص ليسا كافيين وحدهما كما هو واضح، فعناية الله تعالى هي أمر ضروريّ، لأنّ كلمة (المُخْلَص) تعني (المُنتَخَب) و(المُختار) و(المُصْطَفى).

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- قال إبليس اللّعين كما في الآية السابقة: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، ولذلك يقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهذه هي سُنّتي في الحفاظ على عبادي المُخلصين من إغوائك والتكفّل بتخليصهم من حبائلك، ليس لأنّك لا تُريد ذلك، بل لأنّك لن تستطيع إغواء عباديَ المُخلصين على الإطلاق.

- **سؤال**: إذا كان إبليس اللّعين عاجزاً عن إغواء العباد المُخلصين أو إيقاعهم في شراكه، فما حكاية إغواء آدم ﷺ وأكله من الشجرة الممنوعة؟

الجواب: إنّ إبليس اللّعين لا يتوانى عن إغواء جميع العباد بما فيهم المُخلصون ولا ييأس من المحاولة؛ لكنّه بالطّبع لا يُفلح في إضلالهم.

التعاليم:

١ ـ لا سلطان للشيطان الرّجيم على عباد الله المُخلصين والمُسلّمين لأمره، ﴿عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

٢ ـ كلّ إنسان ضالّ يتّبع إبليس ويطيعه بإرادته واختياره من دون أن يُجبَرَ على ذلك، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾.

٣ ـ إذا استطعنا الدّخول إلى دائرة عباد الله بالعبادة والتقوى فلا ريب أنّنا سنكون في مأمن من الشيطان وجنوده، ﴿عِبَادِى لَيْسَ لَكَ...﴾.

٤ ـ يقتصر عمل الشيطان الرّجيم على الوسوسة فقط فلا سلطان له على أيّ من خلق الله، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ (والدّليل على ذلك هو ما سيقوله إبليس اللّعين يوم القيامة للغاوين من الناس بعد ادّعائهم أنّه هو الذي كان السّبب في دخولهم جهنّم: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾)[1].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ قد تكون عبارة ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ إشارة إلى كثرة أبواب جهنّم، ما يعني أنّ هنالك كثيراً من العوامل تجعل الإنسان من أصحاب جهنّم، كقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة لقمان ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ في إشارة إلى أنّ تعداد خلق الله كثير جداً بحيث لا يمكن إحصاؤهم.

التعاليم:

١ ـ إنّ للجنان ولجهنّم أبواباً ومداخِل، ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾. (وذُكِر في نهج البلاغة أنّ المجاهدين يدخلون إلى الجنّة من باب خاصّ «**فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ**»)[2].

٢ ـ تتألّف جهنّم (أو النار) من طبقات عدّة كما هي الحال مع الجنّة وكلّ مخلوق يُحاسب أو يُعذّب بحسب ذَنبه في واحدة من تلك الطبقات، ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.
(٢) الخطبة رقم ٢٧، فضل الجهاد.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- الـ«غِلّ» التأثير الكامِن المُستَتر، وعلى هذا فإنّ الصفات السيئة تظهر في داخل الإنسان وتنمو بشكل خفيّ وغامض. و«سُرُرٍ» جَمع سَرير، وهو من السُّرور، بمعنى المضطجع والكرسيّ يُجْلَس عليه، إذ يشعر الجالس عليه بالسرور والسعادة.
- تشير الآيات الشريفة أعلاه إلى أنّ المُتّقين يُمنَحون ثمانيَ جوائز أو نِعَم ثواباً لأعمالهم، وهي: الجِنان والعُيون والسّلامة والأمن وصفاء الصدور من كلّ غِلّ والإخاء والسُّرُر المتقابلة وابتعادهم عن كلّ ما يتسبّب في تكديرهم أو إيلامهم.
- علمنا من الآية السابقة أنّ جميع المخلوقات مُعرّضة لوساوس الشيطان الرّجيم وحبائل إبليس اللّعين إلّا عباد الله المُخلَصين، وفي هذه الآيات يُبيّن الله تعالى أنّ رَحمته ونِعمَته ولُطفه سيشمل كذلك الإنسان المُتّقي وإن لم يتمكّن من بلوغ مرحلة المُخلَصين.
- المهمّ في الأمر هو اجتماع جميع النِّعَم في مكان واحد، وهذا ما لا يمكن إيجاده في هذه الدنيا. فنحن لا نستطيع مثلاً العثور على مكان يجمع بين الجنّة والعيون معاً، فقد نَجد العَين ولا نجد عندها أي جنّة أو حديقة أو بستان، وقد نَجدهما معاً من دون أن نَعثر على أثر للسلامة، وقد نَجد بالصدفة الجنّة والعَين والسلامة من دون الأمن، وقد نَجد الأربعة معاً ولكن على حساب الصفاء والأخوّة، بل قد نَجدها مرافقة لأنواع الشّقاء والألم والمشاكل، وأخيراً، فقد يجد المرء الجميع معاً ـ على سبيل الفَرض لا التأكيد ـ وفي لحظة واحدة يموت ويترك وراءه ذلك كلّه لغيره! لكنّ ذلك يختلف يوم القيامة، فهناك توجد الكثير من أنواع النِّعَم المادّيّة والمعنوية والاجتماعيّة وحتى النفسية، وكلّها نِعَم أبدية لا تزول.

التعاليم:

١ ـ تُعتبر البشارة في هذه الآيات بعد التهديد والوعيد اللذيْن وردا في الآيات السابقة جزءاً من الضرورة التربويّة، ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ... إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ...﴾.

٢ ـ الابتعاد عن الذنوب وتجنّبها في هذه الدنيا الزائلة ثوابه السعادة الأبدية في الآخرة، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ... وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

٣ ـ نِعَم الجنّة متنوّعة ومختلفة، ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

٤ ـ نِعَم الجنّة لا نُقصان فيها؛ فهي تضمّ الجنان إلى جانب العيون، والسلامة إلى جانب الأمن، والأخوّة إلى جانب المودّة، والرّاحة إلى جانب الخلود، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

٥ ـ النِّعَم الفردوسية نِعَم شاملة، فمنها ما هو ماديّ كالجنات والعيون، ومنها ما هو معنويّ كالأمن والصّفاء، ومنها كذلك ما هو اجتماعيّ كالإخاء والودّ، والأهمّ من كلّ ذلك هو رضى الله سبحانه وتهنئته وسلامه، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

٦ ـ لا تنسجم الأخوّة مع الضغينة والحقد، إذ لا بدّ أوّلاً من نَزع الغِلّ لتتحقّق الأخوّة، ﴿وَنَزَعْنَا... إِخْوَٰنًا﴾.

٧ ـ وجود الضِّغْن والحقد وعدم تحمّل المُقابل من الآخرين لا يَعني بالضرورة أنّ أحداً ما على حَقّ والآخر على باطل ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ... وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾؛ (فإنَّ شخصين مثلاً كليهما من أصحاب الجنّة، وكليهما يقتفي هدفاً مُقدّساً لكنّ لكلّ واحد منهما رؤيته الخاصة به مُعتبراً ما يقوم به صاحبه باطلاً فيغضب منه ويحقد عليه، لكن، تلك الأحقاد كلّها وذلك الغِلّ كلّه سيزول يوم القيامة بإذن الله تعالى).

٨ ـ إذا أردنا أن تزول من بيننا الأحقاد جميعاً فلا بدّ لنا من الاستعانة بالله عليها، ﴿وَنَزَعْنَا﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة الحَشر: الآية ١٠.

٩ ـ الصفات السيّئة والخصال غير الحميدة تأسر الإنسان وتغلّه كالقيود والأصفاد، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾.

١٠ ـ الجدير بالذّكر أنّ أصحاب الجنّة لا يحسدون بعضهم بعضاً بسبب اختلاف درجاتهم ومنازلهم في الجنان، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

▫ قسّم القرآن الكريم في هذه الآيات الناسَ إلى أربع مجموعات هي:

١ ـ المُخلَصون (الأنبياء والأولياء) وهؤلاء لا سلطان لإبليس اللّعين عليهم.

٢ ـ المُتّقون من أصحاب الجنّة.

٣ ـ المُذنبون التائبون الذين أُمِرَ النبيّ ﷺ في هذه الآية بإخبارهم بعفو الله عنهم.

٤ ـ المُذنبون العاصون الذين بُشِّروا بالعذاب الأليم.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ رَحمة الله سبحانه هي أعظم بشارة وأسَرّ نَبأ، ﴿نَبِّئْ﴾، و(النّبأ) الخبر المهمّ أو السارّ.

٢ ـ المُذنبون هم عباد الله كذلك، ﴿عِبَادِي﴾.

٣ ـ لا تشكّكوا في لُطف الله ورحمته، ﴿إِنِّي أَنَا﴾.

٤ ـ عفو الله تعالى مقرون باللّطف والرّحمة، فهو لا يعفو وحسب بل ويلطف كذلك، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

٥ ـ عفوه ولُطفه سبحانه كبير ودائم، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ (تشير كلمتَا الغفران والرّحمة إلى عُمق معناهما ودوامه).

٦ ـ لُطفه تعالى ورَحمته سَبقا غضبه، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى﴾.

٧ ـ لا تَغترّوا برحمة الله سبحانه فعذابه شديد وأليم، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ... ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

- تُعتبر قصّة ضيوف النبيّ إبراهيم عليه السلام نموذجاً لرحمة الله تعالى، إذ بشّر الملائكة المُرسَلون إبراهيم عليه السلام بالوَلد، ومن جهة أخرى أخبروه بقُرب هلاك قوم لوط عليه السلام.
- تُطلَق كلمة (الضّيْف) على المُفرد والجمع من الضيوف[1].
- كان الله سبحانه قد وهب إبراهيمَ عليه السلام من قبل ولداً من أَمَته هاجر اسمه إسماعيل عليه السلام، وهذه المرّة بشّره على لسان ملائكته بأنّه سيَهبه ولداً آخر من زوجته سارة وسيُسَمّيه إسحاق. ففي المرّة الأولى قال تعالى لنبيّه بأنّه يُبشّره: ﴿بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وهنا ـ وفي ما يتعلّق بوَلده التالي إسحاق ـ يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ لنأخذ الدروس والعِبَر من الحوادث التاريخية المرّة والحلوة، ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾. (إنّ أعظم جزء في التاريخ هو سيرة الأنبياء وأعظم مَن يسرد تلك السيرة هو الأنبياء أنفسهم).

---

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، سورة الحجر: الآية ٦٨. و(هؤلاء) اسم إشارة للجماعة وقد استُخدِمَ من كلمة ﴿ضَيْفِىٓ﴾. [المترجم]

٢ ـ يظهر الملائكة أحياناً على هيئة البشر بإذن الله ويتحاورون معهم، ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٣ ـ السلام جزء من الأدب الدينيّ الذي كان موجوداً على مَرّ التاريخ، ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

٤ ـ علم الأنبياء ومعارفهم محدودة ومشروطة بإذن الله تعالى، ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾. (ففي البداية كان إبراهيم عليه السلام يجهل هويّة ضيوفه الأمر الذي دفعه إلى الارتياب والخوف منهم).

٥ ـ حاوِلوا تقديم الأخبار المُفرِحة مع الأخبار المُحزنة، ﴿نُبَشِّرُكَ﴾. (قال الإمام الباقر عليه السلام: **«قَضى الله تعالى أن يُعَوّض إبراهيم عليه السلام من عذاب قوم لوط بغلام عليم فيُسَلّي به مصابه بهلاك قوم لوط»**)[1].

٦ ـ تَعَجُّب البعض من قدرة الله تعالى ومُعجزاته لا يتعارض مع إيمانهم وتوحيدهم، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾. (في هذه الآية يُبدي إبراهيم عليه السلام تعجّبه من أمر البشارة وفي سورة هود عليه السلام في الآية (٧٢) تعجّبت امرأته كذلك قائلة: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾).

٧ ـ الأنبياء عليهم السلام مُتخرّجون من مدرسة الأدب الإلٰهيّ، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

٨ ـ ما من تضادّ بين عصمة الأنبياء عليهم السلام وبين التحذيرات الإلٰهيّة، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

٩ ـ نَهيُ الله تعالى البعض عن القيام بعمل ما لا يعني أنّهم كانوا سيقومون حتماً بذلك العمل إنّما هو نَهي وتحذير وقائيّ لا غير، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

١٠ ـ ادرؤوا اليأس والقنوط بذكر رحمة الله تعالى وربوبيّته، ﴿رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾.

١١ ـ إنّ مَن يؤمن بعلم الله تعالى وقدرته ورحمته لا يمكن أن يتداخله اليأس أو القنوط بأيّ شكل من الأشكال، ﴿وَمَن يَقْنَطُ... إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[2].

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) يُعتبر القانطون واليائسون من الضّالين الذين يتوجّب علينا البراءة منهم كما نفعل ذلك في صلواتنا اليومية: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يبدو أنّ على الملائكة المُوَكّلين بأمر من أوامر الله سبحانه إخبار أنبيائه بذلك، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾.

٢ ـ الملائكة جنود الله ﷻ وموظّفوه، فكما أنّهم يدعون للمؤمنين بالخير ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، فإنّهم يغضبون لغضب الله سبحانه على المجرمين وينفّذون أمر الله فيهم من دون رَحمة، ﴿أَرْسَلْنَا﴾.

٣ ـ ينبغي احترام التسلسل الهرميّ للمقامات والرُّتَب، وعلى الرغم من أنّ مهمّة هؤلاء الملائكة تتعلّق بنبيّ الله لوط عليه السلام وقومه، فإنّهم مأمورون بإعلام النبيّ إبراهيم عليه السلام أوّلاً باعتباره أرفع منزلة في النبوّة من لوط عليه السلام وهذا الأخير ينضوي تحت ولاية النبيّ إبراهيم عليه السلام، ومن ثَمّ إخبار لوط بالأمر، ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾.

٤ ـ لا يقتصر حساب المجرمين في يوم القيامة فقط، ﴿أُرْسِلْنَا... مُّجْرِمِينَ﴾.

٥ ـ عندما يُصبح الذّنب عامّاً ويسد الإنسان على نفسه باب التوبة، يكون غضب الله حتمياً، ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

□ ﴿الْغَابِرِينَ﴾ جَمع (غابِر) وهو الباقي في من يهلك، و(الغُبار) ما يتبقّى من التراب.

---

(١) سورة غافر: الآية ٧.

□ لاحظ أنّ إبراهيم ولوطاً عليهما السلام لم يتعرّفا إلى الملائكة في البداية، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وقال لوط عليه السلام: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. وكان الملائكة الذين قَدموا على لوط عليه السلام متنكّرين بهيئة شُبّان وسيمين فخاف لوط من أن يتعرّض لهم قومه الفاسدون وهو ما دفعه إلى القلق من وجودهم في تلك القرية.

التعاليم:

١ ـ يتمتّع أصحاب الأنبياء وأتباعهم بالحصانة ضدّ العذاب الدنيويّ، ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾.

٢ ـ يُمثّل اختلاف زوجة لوط عليه السلام معه في الرّأي أفضل دليل على أنّ الإنسان مُخيّر وغير مُقيّد بالبيئة أو المحيط، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٣ ـ العلاقات والروابط الاقتصاديّة ليست دليلاً على التبعية الفكرية أو الثقافية. (كانت امرأة لوط تعيش في منزله وتعتاش من رزقه، لكنّها مع ذلك كانت تختلف معه في الرأي والعقيدة).

٤ ـ القانون هو المبدأ الأساس في مدرسة الأنبياء عليهم السلام لا القرابة؛ فها هي إمرأة نَبيّ يشملها عذاب الله، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾. لا ينبغي للعلاقات الأُسريّة والقرابة أن تكون عائقاً في طريق تنفيذ الأهداف الدينية.

٥ ـ لاحظ أنّ زيجات بعض الأنبياء عليهم السلام كذلك لم تكن موفّقة، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٦ ـ جزاء أولياء الله وحسابهم يختلف عن جزاء وحساب أقربائهم وذويهم من غير المؤمنين، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٧ ـ غضب الله وعقابه لا يكون إلّا وفقاً لبرنامج مُعيّن وقَدر معلوم، ﴿قَدَّرْنَآ﴾.

٨ ـ إذا نزل غضب الله تعالى على المجرمين فإنّه لا يُفرّق بين القريب والغريب، والمرأة أو الرّجل، والمشهور أو المجهول، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

٩ ـ الأنبياء لا يعلمون الغيب من عند أنفسهم (فالنبيّ لوط عليه السلام لم يُحدّد هويّة الملائكة).

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ أشارَ القرآن الكريم في آيات عدّة إلى أنّ الكفّار كانوا يطلبون من الأنبياء دائماً تعجيل نزول عذاب الله عليهم فيقول بعضهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، وكانوا يتجاهلون ويسخرون من التهديدات كلّها والوعود بنزول العذاب، ويشكّكون في حقيقة غضب الله سواء في الدنيا أو في الآخرة. وفي هذه الآيات بيّن الله ﷻ أنّ غضبه نازل بالكفّار ومحيط بهم لا محالة.

□ ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ طائفة منه والجزء الأعظم الفائت منه.

التعاليم:

١ ـ لا تستهينوا بالتهديد والوعيد الإلٰهيّين، ﴿جِئْنَٰكَ﴾.

٢ ـ تستند العقوبات الإلٰهيّة إلى العدل والحقّ واستحقاق كلّ مُجرم وكافر، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٣ ـ استثمروا غفلة الكفّار لإنقاذ المؤمنين ونجاتهم، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

٤ ـ لا يخطو الأنبياء ﷺ خطوة واحدة إلّا بإشراف الله وبأمر منه، ﴿تُؤْمَرُونَ﴾.

٥ ـ يمدّ الله أولياؤه بلُطفه وعنايته في اللحظات الحرجة. (فقد تمّ الأمر بالهجرة في ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، ومع أشخاص مُعيّنين ﴿بِأَهْلِكَ﴾، وبشروط مُعيّنة ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، وإلى وُجهة مُحدّدة ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾).

٦ ـ يقوم الله سبحانه بإخبار أنبيائه حول هلاك الكفّار قبل التنفيذ، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾.

٧ ـ إنّ الله ﷻ قادر على إهلاك جيل بأكمله في طرفة عين، ﴿دَابِرَ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٠.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات: «إنّ امرأة لوط أخبرت قومها بأنّه نزل عند لوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح منهم وجهاً ولا أحسن شكلاً، فذهبوا إلى دار لوط طلباً لهم، مُظهرين اغتباطاً وسروراً بهم»[1].

□ تشير الآية إلى أنّ بإمكان الأشخاص من غير المؤمنين كذلك رؤية الملائكة.

التعاليم:

١ ـ عندما تَنهونَ عن المنكر حاولوا استخدام العبارات العاطفية والإنسانية، ﴿ضَيْفِى﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ السّمعة وماء الوَجه لا يُقَدّران بثَمن، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ... وَلَا تُخْزُونِ﴾.

٣ ـ إهانة الضّيف تعني إهانة المُضيف نَفسه، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

٤ ـ من سخرية القدر أن يأمر وينهى المجرمُ والمذنب في المجتمع الفاسد، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾.

٥ ـ في المجتمع الفاسد يُمنَع أولياء الله من التصرّف بأموالهم، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ...﴾.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال**: هل كان فعلاً يحقّ للوط عليه السلام أن يُزوّج بناته من الكفّار حتى يقترح عليهم مثل ذلك؟

---

(١) انظر: تفسير المراغي.

الجواب: قد يكون مراده من ذلك الاقتراح هو تزويج بناته إليهم بعد إيمانهم، أو ربّما كان زواج المؤمنات من الكفّار مسموحاً به في تلك الفترة، والله أعلم.

التعاليم:

١ ـ لرَدع الشخص عن ارتكاب المعصية لا بدّ أوّلاً من بيان الطرق القانونية البديلة لذلك، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾.

٢ ـ إذا أردنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونمنع ارتكاب الذنوب، علينا أن نستخدم جميع الوسائل المُتاحة لنا، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾.

٣ ـ مدرسة الأنبياء عليهم السلام لا تحرّم اللّذات ولا تقمع الغرائز؛ بل تحاول السيطرة عليها وتوجيهها نحو الاتّجاه الصحيح، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾
فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

- «العُمْر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة... والعُمر ـ بالضمّ ـ والعَمْر ـ بالفتح ـ واحد، لكن خُصّ القسم بالعَمر ـ بالفتح ـ دون العُمر نحو ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾»[1].
- الجدير بالذكر هنا أنّ القرآن الكريم لم يُقسم بحياة أحد سوى حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، لكنّ المراغي قال في تفسيره: «قالت الملائكة للوط: وحياتكَ أيّها الرّسول إنّ قومك لَفي ضلالتهم التي جعلتهم حَيارى لا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء»[2].
- «**يعمهون**» من العَمَه، بمعنى الحَيرة و«**مشرقين**»؛ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢. (٢) تفسير المراغي، ص ٢٨١٨.

□ ربما كان الهدف من إمطار حجارة من سجّيل على قوم لوط هو إبادة مَن ظلّ فيه منهم رَمق من الحياة بعد قَلب المدينة رأساً على عَقب، أو لأجل إبادتهم إبادة كاملة مع المدينة المُدَمَّرة.

التعاليم:

١ ـ يجوز القسم باسم النبيّ ﷺ، ﴿لَعَمْرُكَ﴾.
٢ ـ المعصية والانحراف يُلغيان عقل صاحبهما وإدراكه ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ ويُفقدانه بَصره وبصيرته ﴿يَعْمَهُونَ﴾.
٣ ـ لا يصحو مَن أسكرته الدنيا إلّا بصيحة سماوية، ﴿سَكْرَتِهِمْ... ٱلصَّيْحَةُ﴾.
٤ ـ يمكن للصيحة السماوية أن تَقلب بلدة بأكملها رأساً على عقب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ... فَجَعَلْنَا﴾.
٥ ـ يَد الله مُطلقة، فهو قادر على إسقاط الحجارة والعذاب من السماء كما يُنزل منها المطر والرحمة، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾.
٦ ـ العذاب الذي نزل على قوم لوط ﷺ على ثلاثة أقسام: (١) الصيحة؛ (٢) قَلب المدينة رأساً على عقب؛ و(٣) إمطار الحجارة السجّيليّة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

□ «للمتوسمين» للمُتَفرّسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته. وورد في بعض الروايات أنّ المقصود بالمتوسّمين هم النبيّ ﷺ وآل بَيته الأطهار ﷺ[١].
□ جاء في كتاب معاني الأخبار للهلالي أمير المدينة يقول: «سألتُ جعفر بن محمد [الصادق ﷺ] فقلت له: يا بن رسول الله في نفسي مسألة أُريد أن

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص ٢٣.

أسئلك عنها. قال: «**إن شئتَ أخبرتكَ بمسألتك قبل أن تسألني، وإن شئتَ فاسأل**». قال: فقلتُ له: يا بن رسول الله. وبأيّ شيء تَعرف ما في نفسي قبل سؤالي عنه؟ قال: «**بالتّوسّم والتفرّس؛ أما سمعتَ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾**»[1]؟

□ قد يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ هو أنّه ليس بالضرورة أن يشمل غضب الله سبحانه قوم لوط عليه السلام فحسب، بل هو قانون عامّ وسُنّة إلٰهيّة ثابتة تشمل جميع الجُناة والطغاة عَبر التاريخ[2].

التعاليم:

١ ـ تُمثّل الأحداث التاريخية الكثير من الأمور للمؤمنين الأذكياء المتوسّمين، ولا تعني بالنسبة للمؤمنين العاديّين سوى بضع علامات لا غير، ﴿لَآيَاتٍ... لَآيَةً﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ الاحتفاظ بآثار الأمم الماضية هو عِبرة ودرس للأجيال التي تليها، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ «الأيكة» الشّجر الكثير الملتفّ، و﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم سيّدنا شُعَيب عليه السلام إذ كانت مدينتهم تقع في منطقة ذات هواء عليل وبساتين كثيفة بين الشام والحجاز.

□ رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**ما بَعَثَ اللهُ نَبيّاً مَرّتَيْن إلّا شُعَيْباً؛ مَرّةً إلى مَدْيَن فأخَذَهم اللهُ بالصَّيْحَة، ومَرّة أخرى إلى أصحابِ الأيْكةِ فأخَذَهم اللهُ بِعَذابِ يَوْمِ الظّلّة**»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) تفسير الفرقان، عن الدرّ المنثور، ج٤، ص ١٠٣.

□ إنّنا لا نطلب من الله تعالى شيئاً، وكلّ ما ينعم به علينا من نِعَم إنّما هو فضل ومِنّة منه علينا، ولهذا يكون غضبه سبحانه على الكافرين لاستحقاقهم ذلك، ومن أجل ذلك يُعبّر القرآن الكريم عن ذلك الغضب والعذاب بالانتقام.

التعاليم:

١ ـ ليت الطغاة والظالمين كانوا يعلمون أنّ قبائحهم وظلمهم على مَدى التاريخ سيكون درساً وعبرة لمَن يأتي من بعدهم، ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾.

٢ ـ يا حبّذا لو قام المسؤولون ببناء الطّرق بالقرب من الأماكن التاريخية ليتسنّى للمارّة رؤيتها ومعرفة أحداثها، ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠
وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾

إشارات:

□ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ هم ثمود و﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾ واديهم، وكان يقع بين المدينة والشام. والحجر (بفَتح الحاء المهملة وكسرها) حِضْن الأمّ، و(حِجْر إسماعيل) و(الحُجْرَة) مشتقتان من ذلك[1]، ومنه اشتُقّ اسم هذه السورة.

□ يُستفاد من كلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أنّ النبيّ صالحاً عليه السلام لم يَكن النبيّ الوحيد الذي أُرسِل إلى ثمود (أصحاب الحِجْر) بل بُعِثَ إليهم أنبياء آخرون، وقال البعض: بل لأنّ تكذيب نبيّ واحد يعني تكذيباً للأنبياء جميعاً، ولهذا ذُكِرت كلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ههنا.

□ المُراد من «الصيحة» في هذه الآية هي الصاعقة لقوله تعالى في الآية (١٣) من سورة فصّلت: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء عليهم السلام جميعاً جاؤوا بالمُعجزات لأقوامهم، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾.

٢ ـ من أسلوب المُعاندين هو أن لا يمنحوا أنفسهم فرصة للتفكير والتدبّر، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ... فَكَانُواْ﴾.

٣ ـ غالباً ما يُصبح الإعراض عن الحقّ لدى البعض وتجاهلهم لأصحاب الحقّ عادة مستحكمة، ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾.

٤ ـ لا يَغترّ البعض بالبيوت الصخرية المنحوتة في الجبال؛ لأنّها لن تصمد أمام إرادة الله عزّ وجلّ، ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا... فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

□ «الصفح»: هو وجه كلّ شيء، كوجه الصورة، ولذلك جاءت كلمة ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ بمعنى أدِر وجهكَ وغضّ النظر عنهم. وعن الإمام الرّضا عليه السلام أنّه قال: «﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ **هو العفو من غير مؤاخذة**»(١).

التعاليم:

١ ـ الخلق عمليّة هادفة، والهدف هو الحقّ، ﴿وَمَا خَلَقۡنَا... إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

٢ ـ الخلق عمليّة هادفة طريقها المَعاد، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾.

٣ ـ إذا لم تتمكّنوا من محاسبة الكفّار فلا تيأسوا، فالقيامة آتية، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ﴾.

٤ ـ لا بدّ من أن يكون الإيمان بالمبدأ والمَعاد والأهداف الصحيحة البنية التحتية

---

(١) تفسير (الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل).

للمسائل الأخلاقيّة والعفو والصّفح، ﴿خَلَقْنَا... بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ﴾.

٥ ـ بما أنّ القيامة حَقّ وأنّ لكلّ شيء حساباً وكتاباً، فلا تهتمّوا بحِيَل الكفّار أو عناد المُعاندين، واصفحوا عنهم، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ﴾.

٦ ـ لاحِظ أنّ الذي يأمر هنا بالعفو والصّفح هو الله تعالى، الربّ والخلّاق العليم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾. (فهو يعلم بما للعفو والصّفح من تأثير إيجابيّ في نفسية الفرد والمجتمع واجتذاب الناس وتطوّرهم، فلا يكونَنّ تطبيق هذا الأمر والعمل بموجبه ثقيلاً علينا).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات السنيّة والشيعية أنّ المُراد بـ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ هو سورة الحَمد (فاتحة الكتاب)؛ لأنّ هذه السورة تُقرأ مرّتيْن في كلّ صلاة من الصلوات اليومية. وفي رواية أخرى أنّ الله سبحانه وتعالى قال في حديث قدسيّ: **«قَسَّمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن»**(١)؛ فالآية الأولى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى الآية (٤) تشير إلى صفات الله ﷻ، والآية (٥) حتى آخر السورة هي بمثابة بيان لإظهار عبودية العبد واستمداده العون والدعاء.

وقال بعض إنّ ﴿ٱلْمَثَانِي﴾ تعني القرآن الكريم نفسه و﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بمعنى الآيات السبع من القرآن وهي سورة الحمد، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾(٢).

□ عن الرسول الأعظم ﷺ: **«مَنْ أعطاهُ اللهُ القُرْآنَ فَرَأى أنَّ رَجُلاً أُعْطِيَ أفْضَلَ مِمّا أُعْطِيَ فَقَد صَغَّرَ عَظِيماً وَعَظَّمَ صَغِيراً»**(٣).

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي، ج١، ص ١٤٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) تفسير كنز الدقائق، ج١٩، ص ١٦٧.

التعاليم:

١ ـ التقنين والتشريع من حقّ الخالق المُبدِع، ولا بدّ من أن يكون التشريع قائماً على أساس التكوين، ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... ءَاتَيْنَٰكَ... وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

٢ ـ يُعتبر التكرار من المبادئ التربوية الأساس، ﴿ٱلْمَثَانِي﴾؛ (مثل: تكرار نزول الآيات والكلمات والقصص والصفات الإلٰهيّة وآيات العذاب والمعاد ومصائر الأمم الماضية والألطاف الإلٰهيّة والأوامر والتعاليم وتلاوة القرآن).

٣ ـ تُعادل سورة الحَمد القرآن الكريم كلّه على الرغم من أنّ عدد آياتها لا يتجاوز السّبع، ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

- لا يُستَخدَم النّهي دائماً بعد ارتكاب العمل بل قد يكون أحياناً كتحذير وقائيّ. فالرسول الأكرم ﷺ لم تكن عنده رغبة في دنيا الكُفّار ولهذا فإنّ نَهي الله رسولَه ههنا هو بمثابة التحذير من أجل أن لا يرغب المؤمنون بما لدى الكفّار.
- عن الرّسول الأعظم ﷺ: «**مَنْ أَتْبَعَ بَصَرَهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ كَثُرَ هَمُّهُ وَلَمْ يَشْفِ غَيْظَه**»[1].
- من بين أهمّ الوصايا التي أمر القرآن الكريم بها النبيّ ﷺ والمؤمنين هي اتّباع اللّين والرّحمة والصّبر مع أهل الإيمان، كقوله تعالى:
  - ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[2].
  - ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].
  - ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[4].

(١) تفسير الصافي، ج٣، ص ٣٢٧.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٨.
(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤.
(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.

□ المراد من كلمة ﴿أَزْوَٰجًا﴾ الأزواج من الرّجال والنساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس[١].

التعاليم:

١ ـ اعتمدوا على قدراتكم وإمكانيّاتكم في مقابل قدرات الآخرين. فمَن كان يمتلك القرآن الكريم ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ لا يرغب في دُنيا الكفّار، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... ﴾.

٢ ـ لا تتهافتوا على نِعَم الدنيا وزينتها ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لأنّها قليلة وعارضة، مضافا إلى كونها ليست سوى بُرعم أو شطأ لم يتفتّح لأحد من البشر بشكل كامل، ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

٣ ـ الرّغبة تولّد التعلّق والافتتان. (لا تُكثروا من النّظر لئلّا تُأسَر قلوبكم)، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، (لا بدّ من القضاء على المعصية والضلالة في المَهد).

٤ ـ ليس باستطاعة أحد هداية الناس إلى المعنويّات إلّا إذا كان هو نفسه ليس غارقاً في الماديّات، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ـ والمُخاطَب في هذه الآية هو النبيّ الأعظم ﷺ.

٥ ـ كلّ الذين انساقوا وراء الدنيا وملذّاتها لم ينالوا ما رغبوا فيه، ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

٦ ـ لا تأسفوا ولا تحزنوا على مَن لم يكونوا أهلاً للهداية، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

٧ ـ لا ينبغي التواضع للدنيا ولعبّادها ولا اتّباع اللين معهم، ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾؛ ولكن لا بأس بذلك مع المؤمنين، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ ـ على القائد والمُربّي أن يكون رؤوفاً وعطوفاً مع الناس، ﴿وَٱخْفِضْ﴾.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كما أنّ اتّباع اللّين والعطف مع المؤمنين والخلّان ضروريّ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنّ الجدّ والحَسم ضروريّان كذلك مع المخالفين والخصوم، ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص ٩٩.

(٢) سورة طه: الآية ١٣١.

٢ ـ تقتضي الظروف أحياناً أن تكون التحذيرات مباشرة، ﴿إِنِّي أَنَا﴾.
٣ ـ لا مَفرّ من التهديد والتحذير إزاء الكُفر، ﴿أَنَا النَّذِيرُ﴾.
٤ ـ لا بدّ من أن يكون التحذير صريحاً وحاسماً، ﴿النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠)
الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾

□ أشارت مُعظم التفاسير إلى ثلاثة معان لكلمة، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾، هي:
أ) الملأ من الكُفار الذين كانوا يرسلون جماعات تقف عند أوّل كلّ طريق يُدخل إلى مكّة أيّام الحجّ ليقولوا للحجّاج: إنّ شخصاً في مكّة يُدعى (محمّداً ﷺ) ينسب إلى نفسه ما ليس بحقّ فلا تُصغوا إليه، وما هو إلّا كاهن أو ساحر أو مجنون ـ والعياذ بالله.
ب) جماعة من الكفّار اقتسموا المصحف في ما بينهم لتأتي كلّ مجموعة منهم بشيء من الكلام يُشبه القرآن الكريم.
ت) البعض من الناس ممّن يَعمل ببعض القرآن ولا يعمل ببعضه الآخر.
□ ﴿عِضِينَ﴾ إمّا أن يكون جَمع (عِضَة) بمعنى النزاع والمشاجرة، أو هو من (العضوة) بمعنى التقطيع والتفريق.

التعاليم:

١ ـ حبّذا لو نتّعظ بالتاريخ، ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾.
٢ ـ إنّ سُنّة الله في مُعاقبة المُذنبين هي سُنّة ثابتة، ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾.
٣ ـ لا شكّ في أنّ الغضب الإلهيّ هو العقاب الأمثل للذين يجزّؤون الكُتب السماوية، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾.
٤ ـ ليس تحريف الكُتب السماوية أو تجزئتها من قِبل الكفّار أمراً جديداً، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾. (المؤمن مَن آمن بكلّ القرآن الكريم وقال: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[1]، وليس مَن تجاهل أو أنكرَ بعضه).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ تعذيب الكفّار في الدنيا لا يُزيل عنهم عذاب الآخرة، ﴿أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ... فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾.

٢ ـ السؤال والمؤاخذة من أساسيّات الأسلوب التربويّ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ سؤال الجميع ومحاسبتهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة، والاستفسار عمّا فعلوه ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يُمثّل عاملاً من عوامل الصحوة واليقظة.

٤ ـ تقتصر رسالة كلّ نبيّ على تحذير الناس وتنبيههم، أمّا محاسبتهم فهي بيَد الله سبحانه، ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ... لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ...﴾.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

❑ «الصَّدْع» هو الشقّ والإبانة.

❑ دعا النبيّ ﷺ الناس إلى دينه سرّاً لمدّة ثلاث سنوات متتالية فلمّا نزلت آية ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ بدأ بدعوة الناس جهاراً، وقال: **«يا بَنِي عَبدِ المُطّلب، إنّي واللهِ ما أعْلَمُ شابّاً في العَرَبِ جاءَ قَوْمَهُ بِأفْضَلَ مِمّا قَدْ جِئْتُكُم بِه، إنّي قَد جِئْتُكُم بِخَيْرِ الدّنْيا وَالآخِرَة»**. فشكوه عند عمّه أبي طالب قائلين: إنّ محمّداً ﷺ يُغرّر بأبنائهم، وأنّه إذا كان يريد من ذلك مالاً أو مقاماً أعطوه. فقال النبيّ ﷺ لعمّه أبي طالب: **«وَاللهِ يا عَمّ لَو وَضَعُوا الشّمسَ في يَمِيني وَالقَمَرَ في يَساري عَلى أنْ أتْرُكَ هٰذا الأمْرَ ما تَرَكْته حَتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أهْلَكَ دونَه»**. فقال له عَمّه: «اذهبْ فَقُل ما أحبَبْت فَوَالله لا أُسَلّمكَ لِشَيء أبداً»[1].

(١) تفسير كنز الدّقائق.

التعاليم:

١ ـ تكون الدّعوة على مراحل، فأحياناً تكون سريّة ويتوجّب عندها اتّباع التقيّة، وأخرى تكون علنية، ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾.

٢ ـ على المُبلّغ وصاحب الرّسالة أن لا يُعير أيّ أهميّة لما يثيره مناوؤوه من حوله، ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٣ ـ إذا أوكلتم مسؤولية كبيرة أو مهمّة صعبة إلى شخص ما، عليكم أن توفّروا له الحماية والأمان، ﴿فَٱصۡدَعۡ... إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ الحماية التي يمنحها الله سبحانه أكيدة ومضمونة، ﴿كَفَيۡنَٰكَ﴾.

٥ ـ كلّ حديث حقّ ومنطقيّ له مُعارضون ومُكذّبون، ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾.

٦ ـ إذا استهزأ بك قومك يا محمّد ﷺ فلا تبتئس ولا تحزن لأنّ هؤلاء لم يرقبوا حتى حدود الله، ﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾.

٧ ـ إنّ الذين يتّخذون آلهة غير الله سبحانه سيعلمون ما هم فيه من الضلال البعيد، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ اشتهر بين المُفسّرين أنّ المُراد من كلمة ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ في هذه الآية هو الموت باعتباره أكثر الأمور يقيناً عند البشر، وإلى هذا المعنى تشير الآيتان (٤٦) و(٤٧) من سورة المدثّر على لسان الكفّار بقولهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾. وعلى الرغم من ذلك فإنّ معنى ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ ليس الموت لكنّ هذا الأخير يبقى عامل أساس لليقين والتأكيد، فعند حضوره ودنوّه تُزاح به جميع الحُجُب عن عين الإنسان ليرى ما لَم يكن يراه من قَبل.

□ اتّخذ بعض الضالين آية ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ ذريعة لهم فقالوا: ما فائدة العبادة وقد أتى اليقين؟ وهؤلاء يجهلون أنّ الله سبحانه يُخاطب في هذه

الآية نبيّه الكريم ﷺ الذي كان قد توصّل إلى اليقين منذ بداية عهده بالوَحي، وهو الذي كان يقول للكفّار على الرغم من تهديدهم له وتوعّدهم به: «**لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ـ وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي مَا أَرَدْتُهُ**»[1]، وظلّ يَعبد رَبّه مع ذلك اليقين حتى آخر لحظة من عُمره الشريف.

التعاليم:

١ ـ إذا عَلِمَ كلّ منّا بأنّ الله سبحانه ناظر لما نُعانيه وعالِم به، هانَت علينا المشاكل كلّها، ﴿نَعْلَمُ﴾.

٢ ـ طاقة كلّ البشر وقدراتهم محدودة بما فيهم الأنبياء ﷺ، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾.

٣ ـ تؤدّي اللجاجة والعناد أحياناً إلى أن يضيق صدر أكثر الأفراد تحمّلاً وصَبراً، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾؛ على الرغم من قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

٤ ـ لَم يَضق صدر النبيّ ﷺ لا في الحروب ولا في المعارك، لكنّه لم يتحمّل كلام المشركين الجارح، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

٥ ـ الصلاة وتسبيح الله تعالى وحَمده هي الدّواء الناجع للضغوط النفسية، ﴿يَضِيقُ... فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ... وَاعْبُدْ﴾. وفي رواية نقلاً عن ابن عباس (رَضي الله تعالى عنه) أنّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أحْزَنه أمر فَزِعَ إلى الصّلاة[2].

٦ ـ الاستمرار في العبادة أهمّ من العبادة نفسها، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

٧ ـ الثبات على العبودية الحقّة عامل من عوامل الوصول إلى اليقين، ﴿وَاعْبُدْ... يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

«والحمد لله رَبّ العالمين»

---

(١) تفسير القمي، ج٢، ص ٢٢٩.

(٢) الأمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج٧، ص ١١٩.

سُورَةُ النَّحْلِ

السورة: ١٦ الجزء: ١٤

عدد الآيات: ١٢٨

ملامح سورة النّحل

هي السورة السادسة عشرة من سور القرآن الكريم وتتألّف من (١٢٨) آية. سُميت بسورة النّحل؛ لأنّها تتحدّث عن خلق نحل العسل.

ومع أنّ القرآن الكريم هو في الأصل كتاب تشريعيّ إلّا أنّ أسماء مُعظم سُوَره موضوعة على أساس تكوينيّ، مثل سورة النّجم والشّمس والفيل والعنكبوت والنّحل. وتشير هذه الأسماء إلى أنّ جميع المخلوقات سواء أكانت في الأرض أم في السّماء، أو كانت صغيرة الحجم أو ضخمة الجسم، لا فرق بينها بالقياس إلى قدرة الله ﷻ، وأنّ كتاب الشريعة مطابق لكتاب الطبيعة، وهذان الكتابان لهما منشأ واحد.

ومن بين الأسماء التي تُطلَق على سورة النّحل كذلك هي سورة النّعمة؛ لأنّها تشير إلى حوالى خمسين نعمة من نِعَم الله، مضافاً إلى أنّ آياتها تشير كذلك إلى دلائل التوحيد والمعاد وأحكام الجهاد وتهديد المشركين والنّهي عن الظّلم والفحشاء، ونقض العهود والبِدَع ووساوس الشيطان الرّجيم.

واستناداً إلى ما ذكره المرحوم العلّامة الطباطبائي في تفسير «الميزان»[1] حول سبب نزول هذه السورة، يتبيّن لنا أنّ الآيات الأربعين الأولى من هذه السورة نزلت في أواخر عهد النبيّ ﷺ بمكة قُبيل هجرته إلى المدينة، أمّا بقيّة آياتها (٨٨ آية) فقد نزلت في بداية الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص ١٠٤.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

إشارات:

- يشير ظاهر الآية إلى موضوع استعجال الكفّار نزول العذاب الإلٰهيّ، لكنّ جملة ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ لا تقتصر على نزول عذاب الله بل تشمل جميع أوامر الله قاطبة كالأمر بالجهاد وأمر ظهور إمام الزّمان عليه السلام والأمر ببدء يوم القيامة؛ إذ تأمرنا الآية الشريفة بعَدم استعجال أيّ من تلك الأمور.

- ﴿ٱلرُّوحِ﴾ هو اسم أحد الملائكة المُقرّبين الذي ورد اسمه في القرآن الكريم إمّا لوحده أو بمعية الملائكة الآخرين، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[(١)]، و﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[(٢)]، و﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾[(٣)]. لكن في هذه الآية ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ تمّ استخدام حرف (الباء) بدلاً من (واو) العطف، وقد يكون السبب في ذلك هو أنّ المقصود بـ﴿ٱلرُّوحِ﴾ ليس المَلاك الذي أشرنا إليه، بل المقصود هو المعنى اللغويّ للرّوح أي الحياة المعنوية، فيُصبح معنى الآية هو: يُنَزّل الله تعالى الملائكة بأسباب الحياة على مَن يشاء مِن عباده، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[(٤)]؛ إذ إنّ المُراد بالروح ههنا هو القرآن الكريم الذي يُعتبر أساس الحياة المعنوية، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) سورة النّبأ: الآية ٣٨.

(٢) سورة المعارج: الآية ٤.

(٣) سورة القدر: الآية ٤.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

التعاليم:

١ ـ أوامر الله ﷻ قاطعة ونزول غضبه حتميّ لا مَردّ له ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، و﴿أَتَىٰٓ﴾ فعل ماض ومعنى ذلك (وَكأنّ العذاب نازل بالفعل).

٢ ـ الله تعالى خير مَن يَفي بوعوده، ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. وفي الآية (١٠٩) من سورة البقرة والآية (٢٤) من سورة التوبة (البراءة) كان الله سبحانه قد وعد نبيّه ﷺ قائلاً: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، وهنا يقول سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا تستجعلوا أمر الله تعالى فكلّ أفعاله حكيمة ولا تُنَفَّذ إلّا في الوقت المُحَدّد لها، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ نزول الوَحي ومضمون ذلك الوَحي والشخص الذي يتلقّى الوَحي، كلّ ذلك وغيره خاضع لإرادة الله ﷻ، ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾.

٥ ـ الرسالة مَنصب تعيينيّ وليس اكتسابيّاً، ﴿مَن يَشَآءُ﴾. ولمّا كان الله سبحانه حكيماً فإنّه لا يختار أحداً للنبوّة بشكل اعتباطيّ، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾[1].

٦ ـ روح العبوديّة والخضوع لله لدى الأنبياء ﵈ هو الشّرط الأوّل لنزول الوَحي عليهم، ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾.

٧ ـ يقع تحذير الناس وتنبيههم على رأس قائمة الواجبات التي أُنيطت بالأنبياء، ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾.

٨ ـ التوحيد أساس العقيدة والتقوى أساس العمل الصالح، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

٩ ـ يتجلّى معنى التقوى والعفّة في ظلّ التوحيد، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾

إشارات:

□ الآية (٤) أعلاه تشبه الآية (٧٧) وبعضاً من الآية (٧٨) من سورة (يس):

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾.

□ وفي آيات أخرى مثل الآية (٢٠) من سورة المُرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يُسمّي القرآن الكريم النّطفة بـ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، فكيف يجرؤ هذا (الماء المَهين) على أن يكون خصيماً مبيناً.

التعاليم:

١ ـ لم تُخلَق السموات والأرض اعتباطاً أو باطلاً، بل خُلِقت بالحقّ، ﴿خَلَقَ... بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ أيّ صَنَم أو مَعبود يُمكنه أن يكون شريكاً لله في خَلقه، ﴿خَلَقَ...﴾.

٣ ـ ينبغي أن تكون محاربة الشّرك دائمة ومستمرّة؛ لاحِظ تكرار جملة ﴿تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتيْن الأولى والثالثة.

٤ ـ قد يَصل الغرور والتكبّر بالإنسان مبلغاً بحيث يُصبح عنده خصماً مُبيناً وعدوّاً لدوداً لخالِقه، ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ «**تسرحون**»: يُقال: سَرَحْتُ الماشيةَ، أي أَخْرَجْتُها بالغَداةِ إلى المرعى؛ و«**تريحون**» أي تعودون من رَعيكم مع أنعامكم إلى منازلكم.

□ كثيرة هي المنافع التي تمنحها الماشية والحيوانات للإنسان، منها اللّبن واللحوم كطعام له، ثمّ جلودها وصوفها ووبرها لصناعة الألبسة والأحذية وغير ذلك، بالإضافة إلى أنّها تُستَخدَم كرِكاب للبشر وتحمل له أمتعته وأثقاله، واستعمال بعضها كالثيران والجواميس للحرث، بل وحتى فضلاتها يُستَفاد منها كسماد حيوانيّ. وعلى الرغم من كلّ ما تقدّمه تلك الحيوانات من منافع وخدمات للإنسان فهي لا تكلّفه سوى الشيء القليل.

❑ تذكر الروايات أنّ أفضل عمل بعد الزراعة هو تربية وتدجين المواشي والحيوانات، لكن بشرط أن تدفع الزّكاة منها لمساعدة المحرومين والمحتاجين.

التعاليم:

١ ـ خُلِقت مُعظم ذوات الأربع لخدمة الإنسان (كغيرها من الحيوانات الأخرى)، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ ملاحظة تلك النِّعَم كلّها تدفع الإنسان إلى حُبّ خالقه وإخلاص العبودية له، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾.

٣ ـ ليس الاقتيات بالأعشاب هو الأصل؛ لأنّ الله سبحانه يُشير إلى أكل لحوم الحيوانات على أنّه واحد من النِّعَم التي وهبها للإنسانَ، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

٤ ـ جمال المجتمع هو في أن يكون مستقلّاً ومُكتفياً ذاتياً ومُنتجاً ومُصدّراً لأنواع الزراعة الحيوانيّة، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾.

٥ ـ يُعتبر كلّ من التجمّل والتزيّن من الاحتياجات الطبيعية للفرد والمجتمع على السواء، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾.

٦ ـ يَكمن جمال المجتمع في حركته ومثابرته لا في الرّكود والخمول؛ وينبغي أن تكون الحركة جماعية لا فردية، ﴿فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾.

٧ ـ الجمال ما خَدَم الناس لا ما اكتُفِيَ به لإشباع البطون فقط؛ الجمال هو الانضواء والسّير تحت لواء راعٍ عاقل وأمين، لا التسيّب والتخبّط، ﴿جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ على الرغم من أنّ المواشي والأنعام هي أقوى من الإنسان إلّا أنّ الله عزّ وجلّ سخّرها للإنسان وجعلها مطيعة له، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾.

٢ ـ كما ذكرنا، فإنّ المواشي والأنعام تُمثّل عاملاً من عوامل الرفاهية في حياة الإنسان، ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾. (ولكي نبيّن قيمة تلك النِّعَم ونُظهر فوائدها الجَمّة، فإنّنا نطرح هذا السؤال: «ما الذي كان سيحصل لو لم تكن تلك الحيوانات موجودة أو مخلوقة أصلاً»)؟

٣ ـ إنّ نِعَم الله سبحانه وتعالى على البشر نابعة من لُطفه ورَحمته لا على أساس استحقاقنا، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ «**الخَيْل**» والخُيَلاء والخِيَلاء: الكِبْر؛ والخَيْل: الخُيول. ولا شكّ في أنّ الفروسية تبعث على الشعور بالكِبْر والزّهو. «**والبغال**» جَمع بَغْل وبَغلة، وهو هذا الحيوان السَّحّاج الهجين من الفرس والحمار، و«**الحمير**» جَمع حِمارُ، وهو العَيْرُ الأَهْلِيُّ والوحشي، وجمعه حَمِيرٌ.

التعاليم:

١ ـ يُعتبر نَقل المسافرين والأحمال والأثقال من بين أهمّ الاحتياجات الأساسيّة للبشر، وقد خلق الله ﷻ الحيوانات الخاصة بنَقل الإنسان وحمله وأثقاله وسخّرها له لهذا الغرض، ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾.

٢ ـ ركوب الحيوانات والدّواب يبعث الرّاحة والسعادة في الإنسان إضافة إلى كون تلك الحيوانات عاملاً من عوامل الزينة والجمال، ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ﴾.

٣ ـ الزينة أو التزيّن حاجة فطرية لدى الإنسان، ﴿وَزِينَةًۚ﴾.

٤ ـ المنفعة الأساس من أيّ دابة هي الرّكوب ثمّ التزيّن ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ﴾؛ (خلافاً لما يُخَيّل لبعض الأشخاص من أنّها للجمال والزينة فقط ويجعلون ذلك هو الهدف الرئيس من امتلاك الدّواب).

٥ ـ يخلق الله تعالى ما يشاء، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦ ـ إنّ وسائط النّقل الحديثة كالسيّارات والقطارات والطائرات، هي في الحقيقة مخلوقات الله ﷻ لا الإنسان، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

إشارات:

- من الأمور التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على نفسه إرشاد الناس وهدايتهم، إذ يقول ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1] وفي هذه الآية الشريفة يقول سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

- الـ«قصد»: استقامة الطريق؛ من قَصَد يَقْصِدُ قصداً، فهو قاصِد؛ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي على الله تَبيين الطريق المستقيم والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة. ومن وصايا لقمان لابنه قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾[2]؛ أي توسط واعتدل فيه بين الدّبيب والإسراع ولا تعجل.

التعاليم:

١ ـ إلى جانب النِّعَم المادّية التي ذُكِرت في الآيات السابقة، لا ينبغي أن ننسى النِّعَم المعنوية كذلك وأهمّها الهداية، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢ ـ يُبيّن الله تعالى سبيل الهداية والاستقامة، أمّا السُّبُل المتفرّقة والضالة فنحن صانعوها، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

٣ ـ إنّ الله ﷻ لا يُجبر أحداً على الإيمان، وأمّا ضلال بعض الناس فليس دليلاً على تغلّب إرادتهم على إرادة الله أو عَجز البارئ تعالى عن هدايتهم، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٤ ـ تَرَكَ الله تعالى الإنسانَ حُرّاً في اختيار طريقه، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) سورة الليل: الآية ١٢. (٢) سورة لقمان: الآية ١٩.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

إشارات:

□ ﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي تَرْعون مواشيكم وإبلكم في المراعي. و﴿شَجَرٞ﴾ كلمة عامّة في اللغة العربيّة تشمل جميع أنواع النباتات من الشّجرة حتى العشب. قال تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الصافات: ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ وهو القَرْع، على الرغم من أنّ اليقطين لا يقوم على ساق.

التعاليم:

١ ـ هطول الأمطار ليس أمراً اعتباطياً أو بالصّدفة، بل هو نازل بإرادة الله سبحانه؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ...﴾.

٢ ـ تهطل الأمطار وفقاً لما يحتاجه الإنسان، ﴿لَّكُم﴾.

٣ ـ يَنتفع كلّ من الإنسان والحيوان والنّبات من ماء واحد، ﴿مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ...﴾.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾

إشارات:

□ أشار الله سبحانه وتعالى إلى الزّيتون والتّمر والعنب في هذه الآية من بين كلّ أنواع الفاكهة والثمرات المعروفة. ويقول المختصون بالتغذية: إنّ هذه الفاكهة بالذات تُعتبر من أندر الأنواع التي تقدّم لجسم الإنسان الكثير من الفوائد، بل وتُعدّ من ضروريّات الغذاء للإنسان[1]. وفي الآية (٣٥) من سورة النور يُسمّي

(١) راجع كتاب: اولين دانشگاه وآخرين پيامبر (= أوّل جامعة وآخر نبيّ)، الجزء السابع، بيان خواصّ العنب والتّمر.

القرآن الكريم الزّيتون بـ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ﴾ ذاكراً كذلك الزّيت المُستخلَص منه.

التعاليم:

١ ـ إنبات النباتات على اختلافها لا يكون إلّا بإذن الله سبحانه لا بمزاج المُزارع، ﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾.
٢ ـ خُلِقت النباتات والأشجار والفواكه بأنواعها من أجل أن ينتفع بها الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.
٣ ـ تُمثّل المحاصيل والأثمار علامة على سلوك الطريق لا المَقصد، ﴿لَأٓيَةً﴾.
٤ ـ رؤية الوجود والتّعرف على مكنوناته غير كافيَيْن، بل لا بدّ من التفكّر والتدبّر فيه، ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾

إشارات:

□ المقصود بتسخير الشمس والقمر هو انتفاع الإنسان منهما لأنّ الله تعالى وضعهما لخدمته وتطوّره وكماله؛ لكن لا يحقّ للإنسان اعتبار نفسه مالكاً أو مُدبّراً لأمورهما.

التعاليم:

١ ـ الوجود بكلّ ما فيه من سماء وأرض مخلوق لأجل الإنسان، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ...﴾.
٢ ـ الله سبحانه يُمسك بالوجود وما يحتوي عليه، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.
٣ ـ لا شكّ في أنّ المنافع التي يقدّمها الوجود لا تكون إلّا بأمر الله ﷻ، ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.
٤ ـ نظام الخلق مدرسة للتوحيد، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾.
٥ ـ نظام الوجود مهد التطوّر والتعقّل لأولي الألباب فقط، ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ خلق الله تعالى الألوان بكلّ أطيافها للإنسان وسخّرها له، ﴿ذَرَأَ لَكُمْ... مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾.

٢ ـ تنوّع الألوان واختلاف أشكالها دليل على قدرة الله سبحانه وحكمته، ﴿لَءَايَةً﴾. فكلّما كانت منتجات المصنع متنوّعة ومختلفة دلّ ذلك على إبداع المُصنِّع وابتكاره.

٣ ـ يُعتبر تنوّع الألوان الزاهية نِعمة من نِعَم الله تعالى للتّفريق بين الأشخاص والمنتجات القريبة الشّبه من بعضها، ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- «**مواخر**» جَمع (ماخِرَة) بمعنى السُّفُن، من مَخَرَ مَخْراً ومُخُوراً، الشَقّ يَمنة ويسرة.
- لا يَخفى ما للبحر من أثر بالغ في حياة الإنسان، فمياهه مَصدر التبخير الذي تتكوّن منه السُّحُب ثمّ نزول الأمطار، وأعماقه تزخر بما لَذّ وطابَ من أنواع الطعام من الأسماك، أمّا سَطحه فيُمثّل أرخص وأعظم وسيلة لانتقال المسافرين ونقل الحمولة من مكان إلى آخر؛ وما ذلك كلّه إلّا بتدبير الله سبحانه وقدرته ولا دَور للإنسان في أيّ منها إطلاقاً.

التعاليم:

١ ـ سَخّر الله ﷻ البحار والمحيطات للإنسان على الرغم من عظمتها وهيبتها، ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾.

٢ ـ يُمثّل البحر أهمّ مصدر للّحوم الطازجة والصحيّة، ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

٣ ـ لا تقتصر نِعَم الله تعالى على الإنسان من البحر على جَعله مصدراً لاحتياجاته الأساس كالمياه والطعام، بل وكذلك جعل له منه زينة وحلية يرتديها الإنسان، ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

٤ ـ يُعتبر البحر أكبر مصدر لأنواع الحلي الطبيعية التي يستخدمها الإنسان، ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

٥ ـ اللحوم الطازجة التي ينتجها البحر هي بحدّ ذاتها ذات قيمة عظيمة، ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

٦ ـ مع أنّ الإنسان هو الذي يسعى إلى تحصيل رزقه من الغذاء فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٧ ـ ينبغي للسعادة أن تكون هادفة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ تُمثّل الجبال أوتاداً تُثبّت الأرض وتمنعها من أن تميد، و«تميد» من مادَ الشيءُ يَمِيدُ مَيْداً: تحرّك ومالَ يَميناً ويساراً. ومعنى جملة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ هو أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الجبال لتثبّت الأرض وتمنعها من الاهتزاز والاضطراب.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام يَصف الأرض وفائدة الجبال عليها: «... **عَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا**»[1].

□ كما أنّ الأرض بحاجة إلى الجبال لتثبّتها وتمنع اضطرابها وميلانها، فإنّ الإنسان المُضطرب بحاجة كذلك إلى أولياء ربّانيّين أقوياء قادرين على إزالة اضطرابه ومنحه الأمان والاستقرار والثبات. وورد في تفسير (نور الثقلين):

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٠ ـ وهي الخطبة المعروفة بخطبة (الأشباح).

«كذلك يجري لأئمّة الهدى واحداً بعد واحد إذ جعلهم الله أركان الأرض أن تَميد بأهلها»[١].

□ تؤدي الجبال دوراً كبيراً في حياة البشر، فالثلوج التي تتجمّع على قمم الجبال وسفوحها في فصل الشتاء تُعتبر مصدراً رئيساً لمياه الأنهار والجداول في فصل الربيع عند ذوبانها، إضافة إلى كون أشكالها المختلفة تشكّل علامات للتعرّف إلى السُّبُل والممرات التي ترشد المسافرين، ولن نشعر بتلك الفوائد كلّها إلّا عندما نفترض الأرض مسطّحة وخالية من التضاريس أو ما على سطحها من مرتفعات ومنخفضات.

التعاليم:

١ ـ ليست الجبال ولا وجودها على سطح الأرض صدفة محضة بل هي تدبير إلهيّ حكيم، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾.

٢ ـ بإمكان الجبال أن تحول دون اضطراب الأرض أو تحرّكها وتمنحها السكون والثبات لأنّها ثابتة وقوية، ﴿رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. (فالشخص الثابت القويّ هو الذي يمكنه مَنع الآخرين والمجتمع من أن يتعرّضا للتزعزع أو الاضطراب).

٣ ـ تعمل سفوح الجبال المائلة على تسهيل جريان الماء إلى الأنهار، ﴿أَنْهَٰرًا﴾.

٤ ـ خلافاً لما يُعتَقد، فإنّ الجبال ليست عائقاً أمام الطرق والممرات بل هي علامات ترشدنا إلى الطرق، ﴿سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٥ ـ تُعتبر الجبال عاملاً للهداية الظاهرية والمعنوية معاً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (فالجبال هي أفضل العلامات المُميّزة للاهتداء في البراري والقفار، وكذلك أفضل السُّبُل لمعرفة الله سبحانه وتصوّر عظمة الخالق وقدرته).

---

(١) الجزء الثالث، ص ٤٣.

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- يحتاج الإنسان إلى بعض العلامات للسير والاهتداء في الصحارى والقفار، كالعلامات الطبيعية التي يمكنه الاعتماد عليها في النهار والنجوم التي تُمثّل وسائل الاهتداء أثناء الليل. وقد أشار الله تعالى في هذه الآية إلى هاتين العلامتيْن.
- لا يحتاج الإنسان إلى العلامات الضرورية للتعرّف على الطُّرق الصحيحة في البراري وحسب، بل وكذلك لمعرفة الحقّ والباطل وتمييزهما عن بعضهما البعض في خِضم الأهواء والغرائز وأنواع الطاغوت. وقد بيّن الرسول الأعظم ﷺ العلامات التي يمكن للناس الاهتداء بها بعد رحيله لكي لا يقعوا في الحيرة والضلال، وأكّد لهم أنّهم إذا تمسّكوا بتلك العلامات ولم يحيدوا عنها فإنّهم لن يضلّوا بعده أبداً. وأوّل تلك العلامات هي الزهراء البتول عليها السلام إذ قال ﷺ بشأنها: **«فاطِمَةُ بِضعَةٌ مِنّي، يُرْضِيني ما يُرْضِيها ويُغْضِبُني ما يُغْضِبُها»**[1]. والعلامة الثانية هو أبو ذَر الغِفاريّ الذي قال عنه النبيّ ﷺ: **«مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»**[2] لكي يتبع الناس مَن يُزكّيه أبو ذر ويروا مَن تسبّب في إبعاده عن المدينة حتى توفّي.

أمّا العلامة الأخرى فهي في قَوْله ﷺ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: **«تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»**[3]، وقد تبيّن للمسلمين أنّ الفئة الباغية التي استُشهِد عمّار على يَدها في حرب صفّين هي جماعة مُعاوية بن أبي سُفيان.

لكنّ أهمّ العلامات التي أشار إليها النبيّ ﷺ هي الإمام الحسين عليه السلام الذي قال عنه: **«حُسَيْنٌ مِنّي وأنا مِن حُسَيْن»**[4]، وقال الإمامان الهمامَان الصّادق والرّضا عليهما السلام: **«نَحْنُ الْعَلَامَاتُ وَالنَّجْمُ رَسُولُ اللهِ ﷺ»**[5].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٣٦.

(٢) تفسير القمي، ج١، ص ٥٣.

(٣) بحار الأنوار، ج١٨، ص ١٢٤.

(٤) بحار الأنوار، ج٣٧، ص ٧٤.

(٥) أصول الكافي، ج١، ص٢٠٧.

□ تُعتبر النّجوم علامات للتعرّف إلى جهة القِبلة والاهتداء في عرض البحر والصحارى والفلوات في الليل حيث لا وجود لأيّ علامة أفضل منها.

التعاليم:

١ ـ هل يُمكن لأيّ ذي لُبّ أن يقول: إنّ الله سبحانه وضع علائم لهداية الناس دنيوياً لكنّه ـ حاشا له ـ أغفل عن هدايتهم معنوياً؟ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ... يَهۡتَدُونَ﴾.

٢ ـ أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بعلم الفلك والنّجوم، ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾

إشارات:

□ بدءاً من الآية الأولى من سورة النّحل وحتى الآن فإنّ الآيات الخمس عشرة الماضية أشارت إلى بعض نِعَم الله تعالى، وفي هذه الآية يمكن الخلوص إلى نتيجة واحدة عامّة وعلى شكل سؤال: «هل يمكن أن يتساوى مَن يستطيع خَلق كلّ شيء مع الأصنام والأوثان التي لا تمتلك أيّ قدرة على فعل أيّ شيء. لماذا يلهث البعض وراء تلك المُسمّيات بدلاً من اللّجوء إلى الله سبحانه»؟

التعاليم:

١ ـ عند قيامكم بالتبليغ ابدأوا بالجزء ثمّ الكلّ. أي، قدّموا بعض النماذج في البداية ثمّ حاولوا استخلاص نتيجة عامّة. فبعد أن ذكر الله سبحانه بعض نِعَمه في (١٥) آية، يقول في هذه الآية الشريفة: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾.

٢ ـ اجعلوا ضمير المُقابل عند تبليغكم هو الذي يحكم بعد أن تُوقظوا عقله وفطرته، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٣ ـ لا تضادّ أبداً بين العقل والوَحي، وكلّ ما أتى به القرآن الكريم لا يتعارض مع العقل، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤ ـ إنّ عمليّة الخلق لم تكتمل ولم تنته بَعد، بل هي عمليّة مستمرّة، ﴿يَخۡلُقُ﴾.

٥ ـ لا شكّ في وجود عنصر معرفة الله والعبودية له في أعماق الفطرة الإنسانية، ولا يحتاج الأمر سوى إلى التذكير فقط، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾

إشارات:

□ ورد ما يُشبه هذه الآية في سورة إبراهيم ﷺ في الآية (٣٤)، إلّا أنّها اختُتِمَت هناك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، أمّا هنا فقد قال الله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في إشارة واضحة إلى أنّ نِعَم الله ﷻ دليل على لُطفه ورحمته، لكنّ الإنسان يتعمّد الكُفر بتلك النّعَم وإلحاق الظّلم بنفسه وبالمجتمع ككلّ.

□ على الرغم من أنّه ليس باستطاعة أيّ مخلوق عَدّ نِعَم الله لكن لا بدّ له من تذكّرها وعدم نسيانها أو تجاهلها، وهو ما أشار إليه تعالى في الآية (١١) من سورة الضّحى بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾، وجاء في الزيارة المعروفة بـ **«أمين الله»**: «ذاكِرَةً لِسَوابِغِ آلائِكَ».

□ لاحِظ أنّ الإنسان عاجز حتى عن حساب نِعَم الله وعدّها فما بالك بأداء شُكر كلّ واحدة منها!

ليس للمرء إلّا أن يقدّم اعتذاره
إلى الله ويعترف له بالتقصير
فما مِن أحد يستطيع أداء الشّكر
على نِعَمه وإن بالغ في المَدح والتقدير

التعاليم:

١ ـ علينا أن نشكر الله تعالى على ما نعرفه على الأقلّ من نِعَمه فالله غفورٌ رَحيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾

التعاليم:

١ ـ لا يختلف عِلم الله سبحانه من شيء إلى آخر سواء أكان ظاهراً أم مُستتراً، ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

٢ ـ إذا آمنّا بأنّ الله سبحانه عليم بكلّ ما نفعله توجّب علينا أن نكون مُتّقين، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

٣ ـ إنّ الله ﷻ عليم بنيّاتنا ونوايانا كذلك، ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾

إشارات:

- وَصف الله تعالى الأصنام والأوثان بأنّها ميّتة ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ وهي صفة تُطلق على الموجودات الحيّة، وذلك لأنّ الكُفّار كانوا يصنعون تلك الأصنام على هيئة الإنسان لشعورهم بأنّها أجسام حيّة مثلهم، تشعر كما يشعرون وتحسّ بما يُحسّون به.
- يتوجّب تكرار الموضوع باستمرار على الجاهل علّه يصحو. لاحِظ أنّ الآية ذكرت كلمة ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ مع عبارة ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ مع أنّ معناهما واحد.

التعاليم:

١ ـ الأصنام لا تمتلك قدرة ولا حياة ولا شعوراً ولا عِلماً (في حين أنّ من شروط المعبود ـ كما هو معلوم ـ أن يكون ذا علم وقدرة وحياة)، ﴿لَا يَخۡلُقُونَ... أَمۡوَٰتٌ... وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾.

٢ ـ كلّ معبود غير الله سبحانه مَيّت غير حَيّ أيّاً كان، ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾.

٣ ـ حتى الأصنام ستُبعَث يوم القيامة، ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾. وقال ﷻ في

الآية (٩٨) من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

أشارت الآيات السابقة إلى عَجز غير الله سبحانه عن خلق أيّ شيء وجَهله بما يُضمره له المستقبل، أمّا هذه الآية فتؤكّد أنّ المعبود الحقيقيّ للمخلوقات هو الله تعالى وحده.

- «الكِبر» هو التعالي والتكبُّر، و«الاستكبار» هو أن يفتقر الشخص العزة والعظمة فيلجأ بوسائل متعدّدة إلى اكتساب العزّة والتعالي.

- جاء في بعض الروايات أنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام مَرّ بمساكين قد بسطوا كساءً لهم فألقوا كسراً فقالوا له: هَلمّ يا بن رسول الله فأكَلَ معهم ثم تلا عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[(١)][(٢)].

التعاليم:

١ ـ إنكار المَعاد هو في الحقيقة إنكار للمبدأ، فالتوحيد والمعاد مرتبطان معاً، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

٢ ـ الكِبر أساس الكُفر والجَهل منشأ الكِبر، ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

٣ ـ الإيمان بالآخرة يمحو كلّ أنواع التكبّر والاستكبار، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ... قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾.

---

(١) سورة النّحل: الآية ٢٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، نقلاً عن تفسير العيّاشي.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- الجَرْم: قَطف ثمار الشجرة، و﴿لَا جَرَمَ﴾ يَجري مَجرَى (لا بدَّ)، ويُفسَّر (حقاً)، ومعناه: لا شكّ ولا رَيْب، وقطعاً وحَتماً.
- تتضمّن هذه الآية كذلك تهديداً للكفّار من خلال بيانها أنّ الله سبحانه يعلم ما يفعلونه وعليم بما يجترحونه، إضافة إلى أنّ فيها بشارة للمؤمنين بأنّ الله ﷻ يعلم أعداءكم وسيُعاقبهم على ما يرتكبونه ضدّكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- الـ«**أساطير**» جَمع (أُسطُورَة) وهي الأحادِيثُ الخرافيّة المكتوبة ولا نِظَامَ لها. وردت كلمة ﴿أَسَاطِيرُ﴾ تسع مرّات في القرآن الكريم على لسان الكفّار وفي كلّ تلك الموارد جاءت معها كلمة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾، وكانوا يقصدون بذلك أنّ ما أتى به هذا الرّسول لا يعدو كونه كلاماً قديماً سَمعوه عَبر أساطير الأوّلين.
- يعتقد بعض علماء الاجتماع كذلك في الوقت الحاضر أنّ الدّين هو وليد الجَهل والخرافة، وقد يكون مَردّ ذلك إلى وجود آثار واضحة من الخرافات التي استطاعت اختراق بعض أصول الأديان السماوية الأصلية في حين أنّ تلك الخرافات لا تمتّ إلى تلك الأديان بأيّ صِلة.

التعاليم:

١ ـ إرسال الرّسل وإنزال الكُتُب السماوية من شؤون الربوبية لهداية الناس وتربيتهم، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

٢ ـ اعتاد المُتكبّرون على الاستهانة بالآخرين والاستهزاء بدينهم، بل وبعقائدهم وأمّتهم كذلك، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾.

٣ ـ على الرغم من أنّ قِسماً من القرآن الكريم وليس كلّه يضمّ بعض أهمّ القصص، فإنَّ جميع تلك القصص تتعلّق بالأنبياء وأقوامهم، وهذه أخبار لم يكن الناس في زمن الرّسول ﷺ يعلمون شيئاً عن أغلبها. فكيف يتّهمون القرآن الكريم بأنّه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة إلى أئمّة الكُفر والضلال في الدنيا الذين يُضلّون الناس بإعلامهم الكاذب المُنحرف؛ لذلك فإنّهم سيحملون يوم القيامة أوزارهم وأوزار الذين تسبّبوا في إضلالهم. وورد في بعض الروايات أنّ مَن سَنّ سُنّة حسنة اسْتُنّ بها بعده فَلَه أجر مَن اتّبعه من غير أن يَنقص من أجورهم شيء، ومَن سَنّ سُنّة سيئة عُمِل بها بعده فعليه وِزْر مَن عَمِل بها من غير أن يَنقص من أوزارهم شيء[١].

التعاليم:

١ ـ لن يُخفّفَ العذاب يوم القيامة عن أئمّة الكُفر والضلال، ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾.

٢ ـ مَن يُحرّض الآخرين على ارتكاب المعاصي وركوب الذنوب، شاركهم في عذابهم أيضاً، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾.

٣ ـ يحمل أئمّة الكُفر أوزارهم كاملة غير منقوصة، وأمّا عذاب من اتّبعهم فيكون بمقدار دورهم في ذلك، ﴿كَامِلَةً... وَمِنْ أَوْزَارِ﴾.

٤ ـ الجَهل أساس مُعظم الضلالات والانحرافات، ولهذا يستغلّ العدوّ جَهل الناس لإضلالهم وإغوائهم، ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٥ ـ الذّنب عِبء كبير، وما أثقله من عِبء، ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص ٩٤، الباب الخامس، في صفة المحشر، ص ٦٢ [المترجم].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية تهديد للماكرين وتطييب لخاطر النبيّ ﷺ.

التعاليم:

١ ـ ما زال أهل المَكر يُحاربون الحقّ، ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢ ـ عندما يتعرّض أساس الدّين للخطر يأتي دَور الله سبحانه لحسم الموقف، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ لو يَعلم المُخالفون للدّين أنّهم إنّما يُحاربون الله وليس أحداً آخر؛ ربما ارعووا قليلا، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾.

٤ ـ إذا أصبح الدّين مُهَدّداً بشكل جِدّي فلا بدّ من التصرّف بشكل جِدّي أيضاً (وَصَفَ الكفّارُ في الآيات السابقة وَحي الرّسول ﷺ بأنّه مُجرّد أساطير الأوّلين، فهددهم الله بعاقبة من سبقهم؛ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾).

٥ ـ ينبغي التعامل مع العدوّ بشكل حازم لا ظاهريّ أو سطحيّ لكي تتمّ إبادة جميع مؤسساته الفكرية والتنظيمية، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم... فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾.

٦ ـ لا تقتصر عقوبة الله على الآخرة فقط، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾.

٧ ـ يُصبح الصّرح الشامخ أحياناً قَبراً لصاحبه بدلاً من أن يكون مكانا يُحافظ على حياته، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾.

٨ ـ لا يمكن لأحد التنبّؤ بزمان نزول الغضب الإلٰهيّ أو مكانه، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- يتضمّن كلّ من الجَهل والعلم معنى أوسع ممّا في هاتيْن الكلمتيْن في القرآن الكريم، فالعالِم ـ من وجهة نظر القرآن الكريم ـ هو مَن كانت نواياه وأعماله مستندة إلى الحقّ والحقيقة، وإن كان يجهل القراءة والكتابة، أمّا الجاهل فهو مَن بَطُلَت نواياه وأعماله وإن كان مُلمّاً بجميع العلوم. ويعتبر القرآن الكريم فكرة الشّرك وعبادة الأصنام من أكبر علامات الجهل، حيث وصف الله سبحانه ما كان قوم لوط عليه السلام يرتكبونه مثلاً بالجهل.

وفي هذه الآية كذلك يَصف الله سبحانه الذين ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ممّن يُواجهون مُعسكر الكُفر والشّرك، ما يَعني أنّ العلم الحقيقيّ يقود الإنسان إلى التوحيد والإيمان.

التعاليم:

١ ـ العقاب الكامل والأصلي للكفّار يكون في يوم القيامة، وما هلاكهم في هذه الدنيا إلّا مقدّمة لخزيهم وسقوطهم في الهاوية، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.

٢ ـ سيُحتَقَر الذين كانوا يحتقرون المؤمنين في هذه الدنيا وسيتمّ تجاهلهم في الآخرة، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾.

٣ ـ على مَن يتّبع شخصاً أو فئة ما في الدنيا أن يكون مستعداً لتبرير عمله يوم القيامة، ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾.

٤ ـ لن يكون باستطاعة المشركين أن يلفظوا كلمة واحدة في محكمة يوم القيامة، ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾.

٥ ـ العلم الحقيقيّ الذي يهدي إلى الإيمان والعمل الصالح هو هدية وهِبة من الله تعالى، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ عندما تقبض الملائكة أرواح الكفّار والمشركين، يُسارع هؤلاء إلى إظهار اعتناقهم الإسلام والخضوع والتسليم وكذلك ينكرون أعمالهم القبيحة وسيّئاتهم التي اقترفوها من قَبل. لكن لاتَ ساعة مَندم، فلن ينفعهم إيمانهم في تلك اللحظة؛ لأنّه إيمان عن اضطرار لا عن اختيار، ولن يُفيدهم إنكارهم أفعالهم به لأنّ الله ﷻ عالِم بما كانوا يعملون.

التعاليم:

١ ـ من المعروف أنّ الموت ليس فناءً تامّاً بل هو مُجرّد عمليّة قَبض للرّوح وفَصلها عن الجسد، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى أن يتمّ تنفيذ أوامره بوسائط خاصّة لذلك، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣ ـ لا رَيب في أنّ الكُفر والشّرك إنّما هما ظُلم يقترفه الكافر والمُشرك بحقّ إنسانيّته، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٤ ـ سيُضطرّ المشركون والكافرون يوماً إلى الاستسلام والاعتراف، لكنّ الله سيُجيبهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ... فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

٥ ـ تُمثّل لحظة الاحتضار لدى كلّ من المؤمن والكافر لحظة حسّاسة جداً، ففي ما يتعلّق بالكافر، يقول الله تعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وأمّا ما يخصّ المؤمن فقد قال سبحانه في الآية (٣٢) من سورة النّحل: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.

٦ ـ لجهنّم الكثير من الأبواب، حيث سيتمّ إدخال كلّ مُذنب من باب خاصّ، ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

٧ ـ التكبّر هو السبب الرئيس للكُفر، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ... ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)﴾

إشارات:

- في بداية الدعوة الإسلاميّة، كان الذين يدخلون مكّة من شتّى أنحاء جزيرة العرب يسمعون بنزول كتاب اسمه القرآن ونبيّ يدّعي نزول ذلك الكتاب عليه. فعندما كانوا يسألون الكفّار: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ يُجيبونهم قائلين: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وعندما يسألون المسلمين عن الموضوع نفسه يقولون: ﴿خَيْرًا﴾.
- إنّ مَن يسأل الله في دعائه الحسنة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[1]، يستحقّ أن يكون من أهل الإحسان لأنّ الله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.
- في ما يلي نُجري مقارنة بسيطة وواضحة بين ما ورد في الآيات من (٢٤ ـ ٢٨) وبين الآيات (٣٠ ـ ٣٢) من هذه السورة:
  - ﴿الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿الْمُتَّقُونَ﴾،
  - الحكم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾، النتيجة في الدنيا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.
  - الحساب في الآخرة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ... فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ... جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.
  - ساعة الاحتضار: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الحُكم بالحقّ يلزمه روح طاهرة وتقوى خالصة، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا... قَالُوا خَيْرًا﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

٢ ـ يُمكن تعريف القرآن بكلمة واحدة، (فكلمة الخير والحسنى والسعادة هي كلمات يُستعاض بها عن مئة كلمة، ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾. تتضمّن رسالة القرآن الكريم الدّعوة إلى الخير والحسنى).

٣ ـ الحسنة هي نصيب المُحسنين في الدنيا والآخرة، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

٤ ـ يتناسب الجزاء الإلٰهيّ مع عمل الإنسان، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟... حَسَنَةٌ... لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟... دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ توجد في الجنّة أنواع كثيرة من الجنان والأنهار المختلفة، ﴿جَنَّٰتُ... أَنْهَٰرُ﴾.

٢ ـ بساتين الجنان خضراء وعامرة على الدوام، لا خريف فيها ولا جفاف، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

٣ ـ السعادة الأُخروية الخالدة هي ثواب الامتناع عن الملذات الدنويّة المحرّمة، ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾.

٤ ـ لاحِظ أنّ عبارة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ هي أوسع نطاقاً من جملة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ فقد يرغب الإنسان أحياناً في شيء ما؛ لكنّه لا يجد فيه ما يُشبع رغبته أو يملأ عينيْه لكون ذلك الشيء يشير إلى مقام عرفانيّ أو معنويّ. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

٥ ـ اقتضت سُنّة الله تعالى إثابة المُحسنين والمُتقين، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ «الطيبون» هم الذين لم يكونوا مُشركين ولا عاصين، وهؤلاء أنفسهم هم

المُتّقون، وذلك استناداً إلى الآيات السابقة إذ وُصِف فيها الكفّار والمشركون بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1]. و«الطَّيِّب» هو الطاهر والمُبَرَّأ من كلّ سيّئ والموصوف بالكمالات والمحاسن.

التعاليم:

١ ـ يبدأ حساب أو ثواب بعض الأشخاص منذ اللحظة الأولى لوفاتهم، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ... ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾. وورد في بعض الروايات عن الإمام السّجاد عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ الْقَبْرَ لَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّار**»[2].

٢ ـ الموت ليس عَدَماً وفناءً، بل هو قَبضٌ للرّوح، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾.

٣ ـ الملائكة مؤتمرون بأمر الله سبحانه، وقد وكّل الله ملائكة خاصّين بكلّ أمر لتنفيذه، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٤ ـ يستقبل الملائكة الأموات الطاهرين الطيبين بالتحيّة والسلام، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ... يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾.

٥ ـ السلام والتحية هو شعار الملائكة وجزء من الآداب الدينية، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾.

٦ ـ إنّما تُمنَح الجنّة كمُقابل لا كمجاملة، ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه مضمون هذه الآية في الآية (٢١٠) من سورة البقرة وكذلك الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

---

(١) سورة النّحل: الآية ٢٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص ١٥٩.

□ إذا لم تستطع إنذارات الأنبياء عليهم السلام ولا تحذيراتهم إيقاظ بعض الناس فلا شكّ في أنّ سياط العذاب في الآخرة ستوقظهم أيّما يقظة؛ ولكن، لاتَ ساعة مَندم.

التعاليم:

١ ـ ما لَم يَرَ الكُفّار عذاب الله رأي العَيْن فإنّهم لن يتخلّوا عن كُفرهم، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾.

٢ ـ غضب الله في الدنيا للتربية لا للانتقام، فقد ذكرت الآية عبارة: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بدلاً من «أمْر الله».

٣ ـ لطالما كان تيّار الكُفر والشّرك والاستكبار نشطاً وفعّالاً على مَرّ التاريخ، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٤ ـ حاشا للهِ تعالى أن يكون عذابه ظلماً لنا؛ بل هو نتيجة ما اقترفته أيدينا، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٥ ـ كُفر الناس وتكبّرهم هما ظلم لإنسانيّتهم، ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٦ ـ ما هو أخطر من الظّلم والطغيان استمرارهما، ﴿كَانُوٓاْ... يَظْلِمُونَ﴾.

٧ ـ نزول العذاب بعد إتمام الحجّة وإرسال الرّسل والكُتُب السماوية ليس ظلماً بل هو عين العدل، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ تُطلَق كلمة (سَيِّئة) على الذنوب الصغيرة في مقابل الذنوب الكبيرة كقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[1]، ولهذا فإنّ ما يُعاقَب به الإنسان في هذه الدنيا إنّما هو جزء من العذاب بسبب ما يقترفه، أمّا العذاب الرئيس والكامل فسيأتي يوم القيامة.

□ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حَلَّ بِهِم بما كانوا يسخرون منه ويستهزؤون به ووقع عليهم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٣١.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ مَن يرتكب أعمالاً سيئة إنّما هو كمَن يذرو الرّماد في عينيه، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

٢ ـ يُعاقَب المُستَهزِئ في هذه الدنيا قبل وصوله الآخرة، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٣ ـ لا يسخرنّ بعضنا من بعض لئلّا يُسخَر من الساخر، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ
نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- تُعتبر مسألة الجَبر من الذرائع الواهية التي يتذرّع بها المشركون لتبرير انحرافهم وكُفرهم، ليقولوا بعد ذلك: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الموضوع كذلك على لسان الكفّار في الآية (١٤٨) من سورة الأنعام[١]، والآية (٢٠) من سورة الزّخرف[٢].
- **سؤال**: ألا يَعني عدم مُعاقبة الله تعالى الناسَ بسبب ضلالاتهم أنّه راضٍ بذلك؟

الجواب: أبداً؛ لأنّ الله سبحانه وفّر أسباب ووسائل هداية الناس، فأرسل الرّسل وأنزل الكُتُب، وهذا ليس من فِعل مَن يقبل بانحراف الناس أو كُفرهم. لكنّه ﷻ في الوقت نفسه لا يُرغِم أحداً على الإيمان لأنّ الإيمان بالإكراه لا قيمة له على الإطلاق.

---

(١) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. [المترجم]

(٢) ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [المترجم].

التعاليم:

١ ـ إنّ ما هو أخطر من الكُفر والشّرك وأعظم منهما هو تبريرهما ونسبتهما إلى الله ـ تعالى عمّا يشركون ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا﴾.

٢ ـ كان المشركون يؤمنون كذلك بمسألة الجَبر، ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ﴾.

٣ ـ يُحاول الضالّون والمُنحرفون تبرير ما فعله آباؤهم وأجدادهم ومَن هم على مذهبهم بالإضافة إلى تبريرهم أعمالهم هم، ﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾.

٤ ـ يحترم بعض الناس ما خلّفه لهم آباؤهم من آداب وتقاليد وشعائر مهما كانت، ﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾.

٥ ـ لا شكّ في أنّه لا يجوز تحليل ما حرّم الله تعالى كما لا يجوز تحريم ما أحلّه، ﴿حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾.

٦ ـ التبرير هو السبيل الذي اتّبعه الضالّون عَبر التاريخ، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

٧ ـ لا بدّ للتبليغ والدّعوة من أن يكونا واضحيْن وبيّنيْن، ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

٨ ـ يقتصر عمل الأنبياء والمرسلين ﷺ على الدّعوة والتبليغ لا على إرغام الناس على الإيمان، ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ
فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾

إشارات:

□ الـ «الأمّة» من أمَّ الشيءَ بمعنى ضَمّه إليه، و«الأمّة» هي كلّ جماعة تربط أفرادها عناصر مشتركة. وردت هذه الكلمة (٢٥) مرّة في القرآن الكريم.

□ «الطاغوت»: المبالغة في الطغيان، وقد وُصِفَ الشيطان والظالم والمستكبر والأصنام بالطاغوت في القرآن الكريم وكلّها سبب الطغيان والعصيان في مقابل أوامر الله سبحانه. و﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ يقعُ على الواحد مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾[١]، والجمع[٢]، كما في قوله سبحانه: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[٣].

□ هيّأ الله ﷻ كلّ أسباب هداية الناس وعواملها ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، فمنهم مَن تقبّل ذلك واهتدى ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ومنهم من أنكره ورفضه، فضلّ ضلالاً بعيداً ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ إذاً، فالهداية من الله سبحانه أمّا الضلالة فمن عند أنفسنا نحن البشر.

مثال ملفت: خلال دوران الأرض حول الشّمس يكون نصفها مُضيئاً ومنيراً لتعرّضه لضوء الشّمس، بينما يكون نصفها الآخر مُظلماً ومدلَهِمّاً. فهنا يمكننا القول إنّ النّصف المُضيء من الأرض قد أخذ نوره وضياءه من الشّمس، أمّا النّصف المُظلم منها فهو لكونه واقعاً في الجهة الأخرى، ولذلك فهو ليس مُظلماً بسبب الشّمس.

ومهما يكن من أمر، فالله ﷻ لا يُنسب الضلالة لذاته المقدّسة إلّا إذا كان الإنسان نفسه قد هيّأ أسباب الضلال كلّها واستعدّ لذلك كلّ الاستعداد، وهذا مصداق الآية الشريفة: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٥].

التعاليم:

١ ـ لم يكن بَعث الأنبياء وإرسال الرّسل عليهم السلام خاصّاً بمنطقة مُعيّنة أو إثنيّة دون أخرى أو قبيلة مُحدّدة، ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(٢) «والمذكّر والمؤنّث» (لسان العرب). [المترجم]
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦.

٢ ـ كانت الدّعوة إلى التوحيد وتجنّب الطاغوت من أُولى الواجبات التي أُنيطت بالأنبياء ﷺ، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

٣ ـ لا يمكن لخطّ التوحيد وعبادة الله الواحد أن يلتقي مع خطّ الاعتراف بالطاغوت والظّلم، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

٤ ـ من خلال عبادته اللهَ سبحانه وتوثيق ارتباطه معه، يُصبح الإنسان قادراً على محاربة الطاغوت والقضاء عليه، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

٥ ـ جَعل الله سبحانه الإنسانَ حُرّاً في اختيار السّبيل التي يرغب، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

٦ ـ حَبّذا لو كانت أسفارنا ورحلاتنا هادفة ومُثمرة، ﴿سِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

٧ ـ التاريخ مُنَظَّم ومحكوم بالقوانين، والتقاليد السائدة في المجتمع والتاريخ هي تقاليد ثابتة، ﴿سِيرُوا... فَانظُرُوا... عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٨ ـ القرآن الكريم يدعو الناس إلى القيام بالأسفار المُفيدة وممارسة السياحة الهادفة، ﴿سِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن بيّن الله سبحانه في الآية السابقة أنّ ضلال بعض الناس هو نتيجة كُفرهم وإنكارهم العقيدة الحقّة، تُخاطب هذه الآية النبيّ الأكرم ﷺ وتطلب منه أن لا يحرص على هدى مثل هؤلاء الأفراد ولا يحزن على ضلالهم؛ لأنّ ذلك لن ينفعهم في شيء إذ ختمَ الله على قلوبهم ولن يهتدوا إذاً أبداً.

□ قد يكون الخلل أحياناً في استحقاق بعض الناس لا في المُبَلِّغ، فالنبيّ معصوم ولا يمكن إيجاد نقطة ضعف واحدة فيه، وهو صاحب الخُلُق العظيم والحريص على إيمان الناس، لكنّ البعض يرفض قبول الحقّ مهما فعلنا.

التعاليم:

١ ـ يصل بعض الأفراد مرحلة لا يمكنه معها الاهتداء في هذه الدّنيا ولا الاستنصار في الآخرة، ﴿لَا يَهْدِى... مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

٢ ـ على المُبلّغ أن يعلم أنّ بعض الناس لن يقبل بالمنطق الصحيح بأيّ شكل من الأشكال، ولذلك لا ينبغي أن يتوقّع إيمانهم جميعاً مهما حرص على ذلك، ﴿إِن تَحْرِصْ...﴾.

٣ ـ الشفاعة تستلزم الاستحقاق والجدارة، وليس كلّ واحد من الناس يستحقّ ذلك، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ
بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ وفي رواية وردت في كتاب (روضة الكافي) أنّ الإمام الصّادق عليه السلام بيّنَ أنّ أحد وجوه هذه الآية هي الرّجعة، وهي أنّ الله سبحانه سيبعث في هذه الدّنيا جماعة في زمن القائم (عجّل الله تعالى فرجه الشّريف) لكنّ أعداء الشيعة سينكرون عليهم ذلك ويكذّبونهم[1].

التعاليم:

١ ـ القَسم ليس معياراً للصحّة والصّدق في كلّ مكان، ﴿أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ... لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في حديث طويل أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لأبي بصير: يا أبا بصير، لو قد قام قائمنا بعث الله إليه قوماً من شيعتنا قباع سيوفهم على عواتقهم فيبلغ ذلك قوماً من شيعتنا لم يموتوا فيقولون: بُعِثَ فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم، فيبلغ ذلك قوماً من عدوّنا فيقولون: يا معشر الشيعة ما أكذبكم هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب، لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة. أصول الكافي، ٨ ـ كتاب الروضة، ص ٥١. [المترجم]

٢ ـ الإصرار على الكُفر والجَهل أعظم منهما، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

٣ ـ أساس الفكر الجاهليّ مَبنيّ على الفصل بين التوحيد والمَعاد، ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ... لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾.

٤ ـ يوم القيامة هو الموعد الإلٰهيّ للثواب والعقاب، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾.

٥ ـ بَعث الأموات يوم القيامة حَقّ وصِدق، ﴿حَقًّا﴾.

٦ ـ الجَهل هو العامل الرئيس لإنكار المَعاد، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ كان الكفّار يشككون في وحدانية الله تعالى وصِدق الأنبياء ﷺ وقيام القيامة ومحاسبة الخَلق. وفي هذه الآية الشريفة يُصرّح الله ﷻ بأنه سيبيّن للناس جميعاً ـ لا سيّما الكفّار ـ صِدق ذلك، وسيتّضح للمشركين بطلان عقيدتهم وفساد آرائهم، ولكن لن ينفعهم النّدم حينذاك.

التعاليم:

١ ـ يوم القيامة هو اليوم الذي ستتجلّى فيه الحقائق كلّها، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ... وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾.

٢ ـ الكِذب والتكذيب هما أساس الكُفر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

□ يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾، وفي الآية (٨٢) من سورة (يس) يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾، وحول خَلق سيّدنا عيسى ﵇ قال تعالى في

الآية (٥٩) من سورة آل عمران: ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وهذا كلّه يدلّ على أنّ قول الله ﷻ وإرادته هما شيء واحد.

- ليس استخدام كلمة ﴿كُن﴾ إلّا مجرّد تقريب المعنى أو الموضوع إلى أذهاننا ـ نحن البشر ـ فالله ﷻ ليس بحاجة إلى النطق بهذه الكلمة.
- عندما يريد أحد منّا تصوّر شيء ما في ذهنه فإنّما يفعل ذلك بإرادة منه وهو ليس بحاجة إلى شيء آخر للقيام بتلك الحالة. وكذلك الله ـ نعوذ به من التشبيه ـ فعندما يريد إيجاد شيء ما فهو إنّما يفعل ذلك بإرادة منه.

التعاليم:

١ ـ كيف يمكننا نكران المَعاد في حين أنّ الله سبحانه يخلق ما يشاء بإرادة واحدة منه؟ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

٢ ـ يخلق الله تعالى الأشياء من العَدم وليس بتركيب أو تغيير الموجود (المخلوق)، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- أشار القرآن الكريم مرّات عدّة إلى الهجرة وآثارها في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى في الآية (١٠٠) من سورة النساء: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.
- عبارة ﴿هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ المُستخدَمة في هذه الآية هي أدقّ وأدلّ على الإخلاص من: ﴿يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ إنّ الذين يهاجرون من أوطانهم تاركين أموالهم وأهليهم في سبيل نشر الدّين

أو الحفاظ عليه أو المحافظة على أرواحهم لن يخيّب الله سعيهم، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا... لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

٢ ـ إذا لم تستطيعوا مواجهة الظالم وظلمه، فلا يحقّ لكم الاستسلام والإذعان لسلطته، بل لا بدّ من الهجرة، ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

٣ ـ الهجرة والصّبر والتوكّل هي رموز للانتصار على العدوّ، ﴿هَاجَرُوا... صَبَرُوا... يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٤ ـ عند مواجهتكم الظالمين اعتصموا بإيمانكم وتوكّلوا على الله لا على القوى الأجنبية، ﴿صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٥ ـ لا يكون الفتح والاستقرار إلّا بتحمّل مصاعب الهجرة، ﴿هَاجَرُوا... لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ
فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية إلى مبدأ عامّ يقبل به كلّ لَبيب عاقل، وهو الرّجوع إلى أهل العِلم والتجربة. والآية تحثّ الجميع على سؤال العالِمين والعارفين وأهل الخبرة عمّا يجهلونه. وفي المسائل الدينيّة فإنّ أفضل مَن يُسأل عنها هم آل بيت الرّسول ﷺ؛ لأنّهم المصداق الحقّ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، وتشهد على ذلك الكثير من الروايات السنيّة والشيعية والتي جمعها الشهيد نور الله التستريّ في كتابه الموسوم (إحقاق الحقّ) من الصفحة (٤٨٢) فما بعد.

□ ذكر كلّ من الطّبري[1] وابن كثير[2] والآلوسي[3] في تفاسيرهم أنّ المقصود بأهل الذّكر هو آل بيت الرّسول ﷺ.

□ نقل العلّامة المجلسيّ في بحار الأنوار، المجلّد الثالث والعشرين، من الصفحة (١٧٢) فما بعد، ما يَقرب من ستين رواية تتعلّق بهذا الشأن، إذ قال

(١) الجزء السابع عشر، ص (٢٠٩). [المترجم]

(٢) الجزء الثامن، ص (٣١٤). [المترجم]

(٣) الجزء الثاني عشر، ص (٣٣٠). [المترجم].

الأئمّة عليهم السلام في بعض تلك الروايات: **«نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ وَنَحْنُ الْمَسْؤولُون»** أو **«فَنَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ فَاسْأَلُونَا إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُون»**.

التعاليم:

١ ـ كان جميع أنبياء الله عليهم السلام من البشر ولم يكونوا من الملائكة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا... إِلَّا رِجَالًا﴾.

٢ ـ أنبياء الله سبحانه كانوا من الرّجال البالغين الراشدين؛ (باستثناء النبيّين عيسى ويحيى عليهما السلام اللذيْن بعثا في طفولتهما)، ﴿رِجَالًا﴾.

٣ ـ لا عَجب في نزول الوَحي على أحد من البشر فهذه سُنّة الله تعالى لهداية الناس، ﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ الجَهل ليس بعذر مقبول، والسؤال والتعلّم واجب على كلّ فرد، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾.

٥ ـ ينبغي أن نسأل فقهاء الدين وعُلماءه عن المسائل الدينيّة لا كلّ مَن كان يعلم مقداراً مُعيّناً عن الدّين، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾.

٦ ـ إذا كان الشخص يعلم كلّ ما يتعلّق بشيء ما عندئذٍ لا معنى لسؤاله الآخرين عن ذلك الشيء، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟... إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٧ ـ عندما تدفعنا الحاجة إلى الاستفسار من أهل الذّكر وسؤالهم، فلا بدّ من قبول جوابهم مهما كان وإلّا فلا معنى لسؤالنا، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾.

٨ ـ يجب علينا أن نسأل عندما تقتضي الحالة ذلك لا أن نسأل أيّ سؤال من دون تأمّل سابق، فالآية الشريفة لم تَقُل: «فاسألوا إن لَم تعلموا» بل قالت: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ «البينات»: المعجزات والكتب الدالّة على النبوّة، و﴿ٱلزُّبُرِ﴾ جمع (زَبور) وهو الكتاب السماويّ.

□ ربما كانت الآية تشير إلى نوعيْن من الوَحي، الأوّل هو وَحي القرآن الكريم الذي أُنزِل إلى الناس كافّة، والثاني الوَحي لتفسير القرآن الكريم وبيانه، وهذا متعلّق بالنبيّ ﷺ دون غيره. وهكذا يُصبح معنى الآية: لقد أنزلنا إليك الذّكر لكي تُفسّر لهم القرآن الكريم بالشكل الذي يُوحى إليك.

التعاليم:

١ ـ بُعِثَ الأنبياء ﷺ بالمُعجزات إلى جانب الكُتُب السماوية لئلّا يختلط على النّاس الحقّ بالباطل، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾.

٢ ـ كان الأنبياء والمُرسلون ﷺ مُسلّحين بالبيّنات (وهي الأدلّة العقليّة) والزُّبُر (وهي الأدلّة النقلية)، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾.

٣ ـ على الرغم من أنّ القرآن الكريم مُوحىً إلى النبيّ ﷺ بشخصه إلّا أنّه يُخاطب الناس جميعاً، ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ... مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ نزل القرآن الكريم على الرّسول الأعظم ﷺ جملة واحدة ثمّ أُنزِلَ بالتدريج لإخبار الناس، ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ... مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. (و«الإنزال» في اللغة هو النزول جملة واحدة أمّا «التنزيل» فهو النزول تدريجياً أو بالترتيب).

٥ ـ يحتاج القرآن الكريم إلى بيان النبيّ ﷺ وتفسيره. وعلى هذا، فإنّه لا يجوز الفصل بين القرآن والسنّة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾.

٦ ـ تقع مسؤولية توضيح القرآن وتفسيره وبيانه للناس على الرّسول ﷺ، وعلى الناس قبول ذلك مستندين إلى العقل والمنطق، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٧ ـ القرآن الكريم ذِكر وسبب لتذكير الإنسان وجذب انتباهه وتجنيبه الغفلة والنسيان، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾
أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ بيّنَ الله ﷻ أربعة أنواع من العذاب للمتآمرين على الدّين، هي:

١) العذاب الأرضيّ، ﴿يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

٢) العذاب السّماويّ، ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣) العذاب المُفاجئ، ﴿يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾.

٤) العذاب النفسيّ، ﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا يكون عذاب الله وعقابه إلّا بعد إتمام الحجّة على الناس. (في ما يتعلّق بموضوع النبوّة المذكور في الآيات السابقة فإنّ هذه الآية تتضمّن تهديداً للكافرين).

٢ ـ غالباً ما يكون خوف الإنسان الكافر من احتمال وقوع العذاب عليه رادعاً له للرّجوع إلى جادّة الصواب، ﴿أَفَأَمِنَ﴾.

٣ ـ ليَعلم المتآمرون على الدّين أنّ مكرهم وحيَلَهم باطلة أمام علم الله سبحانه وقدرته، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾.

٤ ـ لا يمكن التنبّؤ بزمان وقوع العذاب الإلهيّ ولا مكانه ولا نوعه، ولذلك فلا مَهرب لأحد منه، ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٥ ـ ليس لأحد أن يحول دون وقوع عذاب الله، ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٦ ـ قد يكون نزول العذاب بشكل مُفاجئ وفي أيّ ظرف من الظروف ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ (سواء أكان ذلك خلال سَفر الإنسان أو في وطنه أو أثناء نومه أو حتى في يقظته أو خلال مَشيه أو وقوفه. وإلى غير ذلك).

٧ ـ أحياناً يكون الرّعب والخوف والقلق كالعذاب الذي يؤدّي إلى الهلاك، ﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾.

٨ ـ في الكثير من الحالات يؤخّر الله سبحانه العذاب عن المُذنبين ويُمهلهم بسبب لطفه لمنحهم فرصة أخرى للتوبة، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٩ ـ حتى الغضب والعقوبة الإلٰهيّة قائمة على أساس التربية والرّحمة، ﴿يَأْخُذَهُمْ... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- «الفَيْء» ما بعد الزَّوالِ مِن الظلّ، أمّا الظِلّ فهو في كلّ وقت.
- «داخِر» خاضِع وخانِع، وقد يكون المُراد بـ﴿الْيَمِينِ﴾ ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ هو طَرَفَيْ النّهار أي الشّروق والغروب.
- ولعلّ سقوط الظلّ على الأرض هو الذي يتضمّن معنى سجوده لله سبحانه وإن كانت المخلوقات جميعاً من الناحية التكوينية تسجد لله وهي له مُسْلِمة وخاضِعة.

التعاليم:

١ ـ ليست المخلوقات والأشياء وحدها داخرة لله سبحانه بل وكذلك كلّ ما يترتّب عليها من خواصّ كالظلّ وغير ذلك، ﴿ظِلَالُهُ... سُجَّدًا﴾.

٢ ـ من وصايا القرآن الكريم لكلّ الناس دراسة مخلوقات الله وتأمّل التغيرات التي تطرأ عليها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ...﴾.

٣ ـ إذا كانت كلّ الأشياء في الوجود وظلالها تسجد لله سبحانه وهي داخرة فهل يليق بالإنسان وهو أعقل المخلوقات أن لا يكون من الساجدين؟ ﴿سُجَّدًا... دَاخِرُونَ﴾.

٤ ـ ليس سجود الوجود لله بأكمله وتسبيحه له إلّا عن شعور منه وإدراك وإن كنّا نحن لا نُدرك هذا، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾. (وفي ذلك قال الرازي في تفسير «مفاتيح الغيب» إنّ الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾، حال أيضاً من الظلال لأنّه تعالى لمّا وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ الدّابة اسمٌ لما دَبَّ من الحَيَوان وكلُّ ماشٍ على الأرض، وتطلَق هذه الكلمة على كلّ من الإنسان والحيوان والجنّ دون الملائكة.

□ قد يكون المقصود بسجود المخلوقات جميعاً في السماوات والأرض هو الخضوع التكوينيّ والتسليم لقوانين الوجود، أو أنّ المراد هو السّجدة التي تكون على أساس الإدراك والإحساس وإلى هذا يشير ظاهر الآيات وإن كنّا لا نشعر بذلك ولا ندركه.

□ إذا كانت المخلوقات والموجودات جميعاً بما فيها الملائكة، يسجدون لله تعالى ويسلمون لأمره فلماذا نمتنع نحن البشر عن ذلك ونستكبر؟ وعلى حد قول الشاعر سعدي الشيرازي:

كُلّ شَيءٍ خُلِقَ وسُخِّرَ لَكَ يا لَبيب

أمِنَ الإنصاف أن تَعْصِيَ مَن لَم يَبْخَلِ؟

التعاليم:

١ ـ الوجود كلّه مطيع لله وحده وله وحده يسجد لا لغيره، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾.

٢ ـ تزخر السموات كذلك بالموجودات الحيّة والمتحركة والساكنة، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ... مِن دَآبَّةٍ﴾. قال تعالى في الآية (٢٩) من سورة الشورى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

٣ ـ الملائكة مخلوقات مطيعة تماماً لله تعالى، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ سبب خوفنا من الله ﷻ هو ذنوبنا ومعاصينا لكنّ خوف الملائكة منه تعالى ناجم عمّا يعرفونه من علوّ مقامه وشموخ عظمته، ﴿يَخَافُونَ

رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾. (وفي ما يخصّ المؤمنين وخوفهم من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾)[1].

٥ ـ الملائكة غير متكبّرة ولا مستكبرة لا في ذاتها ولا في فعلها، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٦ ـ التكبّر والاستكبار هما أساس معصية أوامر الله تعالى، فإذا أزلنا ذلك الأساس لم يبق سوى الخضوع والتسليم، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٧ ـ الملائكة جُند الله المكلّفون بتنفيذ أوامره، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

- هذه الآية ـ كما هو واضح ـ لا تقصد أنّه لا يجوز للناس أن يتّخذوا إلهيْن وأنّ اتّخاذ ثلاثة آلهة جائز، بل إنّ نفي الأقلّ يعني نَفي الأكثر كذلك. وقد يكون معنى الآية هو التعليق على ما كان المشركون يقولونه من أن ثمّة إلهاً خالقاً وآخر هو ربّ مدبِّر، وأنّه لا بدّ من عبادة هذا الأخير فقط.
- تخاطب هذه الآية المشركين الذين أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة إلى ما كانوا يردّدونه قائلين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، وتقول لهم: كيف يطلب الله منكم أن تشركوا به وقد نهاكم عن ذلك.

التعاليم:

١ ـ يقتضي الأسلوب التربويّ أوّلاً تطهير الأفكار من الخرافات والعقائد الضالّة، ثمّ بيان الحقّ ليكون ذلك مؤثّراً بشكل إيجابيّ، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ... إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

---

(١) سورة النازعات: الآية ٤٠.

٢ ـ عبادة إلهيْن هي عبادة باطلة، فما بالك في عبادة آلهة عدّة، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٣ ـ العقيدة الثنوية والإيمان بمبدأين مدبّريْن لهذا العالم؛ أحدهما الخير، والثاني هو الشرّ هي الأخرى عقيدة باطلة، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٤ ـ يتطلّب نَفي الباطل وإثبات الحقّ التأكيد والإصرار، فعلى الرغم من أنّ كلمة ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾ تشير إلى المثنّى من دون أيّ لَبس إلّا أنّها أُلحِقَت بكلمة ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ـ وذلك للتأكيد ـ كما هي الحال مع كلمة ﴿إِلَـٰهٌ﴾ المُفردة والتي جاءت بعدها كلمة ﴿وَٰحِدٌ﴾ للتأكيد أيضاً.

٥ ـ الخوف من غير الله سبحانه شرك كذلك، ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ المقصود بكلمة ﴿ٱلدِّينُ﴾ في هذه الآية هو العبادة والعبودية وهما من مستلزمات الاعتراف بالدّين ومذهب الحقّ. و﴿وَاصِبًا﴾ بمعنى الدّائم والقائم والشديد، كما ورد في الآية (٩) من سورة الصّافات قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ إنّ إله جميع ما هو موجود في السموات والأرض هو إله واحد خلافاً لكلّ المُعتقدات الخرافية التي تفرض إلهاً لكلّ نوع من الموجودات، ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ لا تجوز العبادة ولا العبودية إلّا للخالق الواحد الأحد، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾.

٣ ـ لا يحقّ التشريع والتقنين إلّا لمن برأ الكون والخلق، ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ...﴾. مِن حَقّ خالق الوجود وصانعه وحده أن يضع له قانونه ونظامه.

٤ ـ لا دليل ولا تبرير للشّرك على الإطلاق، ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾

إشارات:

- «الضرُّ» هو القلق الناجم عن فُقدان نِعمة من النِّعَم، و﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ من جُؤار[1]، بمعنى الشكوى والاستغاثة.
- تكرّر مضمون هذه الآية في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضاً، كقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾.
- عن الرسول الأعظم ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَرَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ أَوْ مَلْبَسٍ فَقَدْ قَصُرَ عَمَلُهُ وَدَنَا عَذَابُهُ»**[2].

التعاليم:

١ ـ لا يظنّنَ أحدكم أنّ نِعَم الله سبحانه هي نتيجة جهوده وعلمه وإدارته أو حظّه أو أنّ كلّ ذلك جاء بالصّدفة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ كلّ النِّعَم ـ صغيرها وكبيرها ـ تُمنَح للإنسان بإرادة الله سبحانه، ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾.

٣ ـ النِّعَم كلّها من الله سبحانه، وهو الملجأ والملاذ في المهمّات، ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ... فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

٤ ـ البلايا والصعوبات تُضيء مشعل التوحيد الفطريّ، ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

٥ ـ الإنسان مخلوق ضعيف، يستسلم لأبسط المشاكل ويضعف أمام أهون المصائب، ﴿إِذَا مَسَّكُمُ﴾.

---

(١) «جَأَرَ يَجْأَرُ جَأْراً وجُؤَاراً»، المصدر نفسه. [المترجم]

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص ٣٠.

٦ ـ ما بِنا من نِعمة فمِن الله تعالى، أمّا مصائبنا ومشاكلنا فهي مِن عند أنفسنا، ﴿نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ... مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾.

٧ ـ لا ينبغي أن يكون الإيمان بالله والاستغاثة به أمراً موقّتاً أو مرحليّاً، ﴿إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ... فَرِيقٌ مِّنكُم... يُشْرِكُونَ﴾.

٨ ـ قد تؤدي الرفاهية والرّاحة أحياناً إلى الغفلة عن ذِكر الله أو الشّرك به، ﴿كَشَفَ ٱلضُّرَّ... يُشْرِكُونَ﴾.

٩ ـ بما أنّ ذِكر الله تعالى هو أمر فطريّ فإنّه يكون عامّاً وشاملاً، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾، أمّا الشّرك فهو حالة استثنائية لا تصيب إلّا البعض فقط، ﴿فَرِيقٌ... يُشْرِكُونَ﴾.

١٠ ـ إذا نسبنا كَشف الضرّ وزوال المشاكل والصعوبات إلى غير الله فهو شِرك، ﴿كَشَفَ ٱلضُّرَّ... بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ إذا ألقينا نظرة سريعة على الآيات السابقة حتى هذه الآية فسنلاحظ أنّها تشير إلى أسلوب الدّعوة والتربية الإلٰهيّة، وبالشكل التالي:

فهو الله الواحد الأحد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وهو مالِك كلّ شيء ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو الربّ والمُعلِّم ﴿لَهُ ٱلدِّينُ﴾، وهو المُنعِم والجواد ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وهو سميع الدّعاء وملبّي الاستغاثة ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾، ألا يكفي كلّ ذلك لنوَحِّدَه ولا نُشرك به أحدا.

التعاليم:

١ ـ الكُفر بالله ﷻ وإنكار نِعَمِه هما النتيجة المنطقية للشّرك، ﴿يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا۟﴾.

٢ ـ التوسّل والتضرّع لغير الله كُفران لنِعَمِه سبحانه، ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾.

٣ ـ على الرغم من استمرار الناس بالكُفر؛ لكنّ الله ﷻ لا يقطع عنهم نِعَمه ورِزقه، ﴿لِيَكْفُرُوا... فَتَمَتَّعُوا﴾.

٤ ـ الغضب الإلٰهيّ هو النتيجة الحتميّة للكُفر بالنِّعَم، ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقد ورد هذا المعنى كذلك في الآية (٣٠) من سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ قد تشير هذه الآية الشريفة إلى مضمون الآية (١٣٦) نفسها من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾. أمّا الاحتمال الآخر الذي رَجّحه العلّامة المرحوم الطباطبائيّ فهو قوله: «أضاف الشُّركاء إليهم لأنّهم هم الذين أثبتوها واعتقدوا بها نظير أئمة الكفر وأئمتهم وأوليائهم، وقيل: أضيفت الشركاء إليهم لأنّهم كانوا يجعلون بعض أموالهم لهم فيتّخذونهم شركاء لأنفسهم»[(١)].

كان المشركون يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أنكر الله عليهم ذلك في الآية (١٩) من سورة الزّخرف بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنَثًا﴾. وتجدر الإشارة إلى أنّ مُعتقَدهم الضالّ هذا أودى بهم إلى القول بثلاثة ظنون ضالّة أخرى، هي:

أ) أنّهم جعلوا لله أولاداً والحال أنّ الله سبحانه يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[(٢)].

ب) كانوا يقولون: إنّ الملائكة هي مخلوقات مؤنّثة (إناث) بينما الحقيقة هي أنّه لا يوجد إناث ولا ذكور في الملائكة.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٧.

(٢) سورة التوحيد: الآية ٣.

ت) نسبوا الإناث إلى الله ـ سبحانه وتعالى عمّا يشركون ـ وهم الذين كانوا يُعيّرون مَن لديه بنات وليس لديه أولاد ذكور، ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا﴾[1].

التعاليم:

١ ـ كلّ ما نمتلكه مِن الله وَحده، فليس من العدل أن نُخصّص نصيباً من ذلك لغيره؛ لأنّنا مسؤولون عن ذلك يوم القيامة، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا... تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾.

٢ ـ من رحمة الله تعالى أنّ لُطفه ونعمه المادية تصل إلى الضالين كذلك، ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾.

٣ ـ الأشكال الظاهرية والإنسانيّة التي نُعَلّق عليها الآمال هي نفسها تجهل أسباب الرّزق والنّعَم والبلايا، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾.

٤ ـ نسبة ولو جزء بسيط جداً من النّعَم إلى غير الله سبحانه هو شرك أيضاً، ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

- إنّ لاشمئزاز عرب الجاهلية من الإناث واعتبارهم ذلك عاراً عليهم أموراً وأسباباً، منها:

أ) لم تكن الأنثى تؤدي أيّ دَور اقتصاديّ أو إنتاجيّ في ذلك الوقت، بل كانت تُعتبر عبئاً وكاهلاً ثقيلاً في الحياة.

ب) أمّا في الحروب والمعارك التي كانت تُمثّل أحداثاً اعتياديّة في حياة كلّ قبيلة، فإنّ المرأة لم تكن تستطيع المبارزة أو القتال أو الدّفاع عن نفسها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

ج) كانت مُعظم النساء اللّاتي يتمّ أسرهنّ خلال المعارك والغزوات مُعرضة للاغتصاب والانتهاك من قِبَل العدوّ.

□ وخلافاً للعقائد الجاهلية فقد أولى الدين الإسلاميّ المرأة اهتماماً كبيراً، وفي ما يَلي نشير إلى جزء يسير من ذلك الاهتمام:

- عن الرّسول الأعظم ﷺ: «**نِعْمَ الْوَلَدُ الْبَنَات**»[1]، وقد كانت الذرّيّة الطاهرة للنبيّ ﷺ كلّها من ابنته فاطمة الزّهراء عليها السلام.

- عن الحسين بن سعيد اللّخميّ قال: وُلِدَ لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبد الله عليه السلام فرآه مُتسخطاً. فقال له: **أرأيتَ لو أنّ الله أوحى إليكَ أن أختارُ لك أو تختار لنفسك، ما كنتَ تقول؟** قال: كنتُ أقول: يا ربّ تختار لي. قال: **فإنّ الله عزّ وجلّ قد اختارَ لكَ**[2]. [ثم قال عليه السلام: **إنّ الغلامَ الذي قَتله العالِم الذي كان مع موسى عليه السلام أبدلَ الله عزّ وجلّ** (والديْه) **به جارية وَلَدَتْ سَبعين نَبيّاً**][3].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ احتقار الإناث والاستهانة بالبنات هي ثقافة جاهلية خرافية، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾.

٢ ـ على الرغم من أنّ ولادة أيّ طفل تُمثّل بحدّ ذاتها بشارة، لكنّ الخرافات حوّلت هذه البشارة إلى عار، ﴿بُشِّرَ... ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾.

٣ ـ الخرافات والعقائد الباطلة والفاسدة هي عامل تفكّك الأسرة الرئيس، ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ... يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾.

٤ ـ يتمّ أحياناً ارتكاب أبشع الجرائم تحت شعارات مُقدّسة، ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾؛ (كان بعض الناس في الجاهلية يَئِدون فلذات أكبادهم من البنات بحجّة الحفاظ على سُمعتهم وهيبتهم أو التخلّص من العار، بزَعمهم).

---

(١) بحار الأنوار، ج١٠٤، ص (٩٤).

(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص ١٠٣.

(٣) الزيادة بين الأقواس من المترجم.

٥ ـ الأديان السماويّة كلّها تستنكر وبشدّة المُعتقدات الخرافية بشأن المرأة، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾

إشارات:

□ **سؤال**: ورد في الآية (٧٤) من هذه السورة ـ سورة النّحل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾، فما معنى قوله تعالى إذاً في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾؟

الجواب: المقصود بـ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ هو: لا تُشبّهوا الله سبحانه بأيّ شيء، أمّا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ فهو: إنّ لله أفضل الصفات والأسماء على الإطلاق.

التعاليم:

١ ـ إنكار يوم القيامة هو أصل جميع القبائح والسيئات، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾.

٢ ـ لله سبحانه الكمال المطلق، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾.

٣ ـ جمال الإنسان بإيمانه، فمتى ذهب إيمانه أصبح جرثومة كلّ القبائح، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾.

٤ ـ عِزّة الله وقدرته متوّجتان بالحكمة، ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾

إشارات:

□ على الرغم من أنّ القانون العامّ الذي وضعه الله سبحانه يستند إلى الإمهال وتأخير العذاب، فإنّه سبحانه يُعزّر الظالمين ليكونوا عبرة للآخرين، كمُعاقبته قوم لوط ونوح وصالح ﷺ.

□ **سؤال**: لماذا يُعمّم الله سبحانه في هذه الآية العقاب على كلّ دابّة بسبب ما يقترفه الإنسان من ذنب؟

الجواب: إمّا أن يكون المقصود بـ﴿دَآبَّةٍ﴾ هو الإنسان فقط كقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾(١)، أو أن يكون معنى الآية هو أنّ كلّ الدواب [من الحيوانات] ستهلك وتفنى بفناء الجنس البشريّ لأنّها مخلوقة لأجله.

□ وفي بعض الأخبار أنّ أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام سئل عن السبب الذي يجعل بعض الموتى مفتوحي العيون، وبعضهم مغمضي العيون، فأجاب إنّ الموت أتاهم فماتوا على حالهم ولم يترك لهم الموت فرصة لإغماض العيون أو فتحها.

□ يُعتبر خطر بعض أنواع الظّلم عامّاً وشاملاً لجميع الدّواب بما في ذلك الإنسان والحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٢).

التعاليم:

١ ـ العقاب الإلٰهيّ لا يكون إلّا بسبب ظُلمنا نحن، ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ... بِظُلْمِهِم﴾.

٢ ـ الظّلمُ [أو البَغيُ] مَرتَعه وَخيم، وقد يهلك الحَرث والنّسل معاً، ﴿بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

٣ ـ اقتضت سُنّة الله العزيز القدير الإمهال والتأخير في العقاب، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾.
(وكما قيل فإنّ الله سبحانه يُمْهِلُ ولا يُهمِل، والعقاب الإلٰهيّ قد يُؤخّر أو يُقدّم، لكنّه لن يُفوّت على أيّ حال).

٤ ـ إنّ إمهال الله سبحانه له أجل مُعيّن ونهاية معلومة، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٥ ـ إنّما إمهال الله الظالمين نابع من لُطفه سبحانه وإعطائهم الفرصة لعلّهم يتوبون ويُصلحون، فلا ينبغي لهم أن يغترّوا بتلك المهلة، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ... مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ...﴾.

٦ ـ تَرك الظالمين أحراراً يفعلون ما يشاؤون لا يعني أنّهم على حَقّ أبداً، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٢.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

٧ ـ أجَلُ الإنسان غير قابل للتغيير ولا التأخير، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

❑ تشير هذه الآية كذلك إلى المُعتقدات الخرافية التي ذكرناها في الآيات السابقة وهي اعتبار المشركين الملائكة إناثاً وأنّهم بنات الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينما كانوا هم أنفسهم يعتبرون الأنثى عاراً وفضيحة، ويفخرون بالذّكور من الأولاد مُعتبرين أنّهم نعمة مُفضّلة على البنات، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

التعاليم:

١ ـ إذا كان أحدنا يكره نسبة شيء ما إليه فالأحرى أن لا ينسب ذلك الشيء إلى الله، سبحانه وتعالى، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

٢ ـ تَعتري الإنسان أحياناً بعض الأوهام تدفعه إلى الاعتقاد بأنّه أفضل من الآخرين وأنّ عاقبته أيضاً هي أفضل من عواقب الآخرين، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد وُصِفَ مثل هؤلاء الأشخاص في آيات أخرى بأنّهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١)، وقوله تعالى بشأنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾(٢).

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

إشارات:

❑ يريد الله تعالى بهذه الآية تطييب خاطر النبيّ ﷺ وتسكينه، قائلاً له: أيّها النبيّ

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة فُصّلت: الآية ٥٠.

لا تحزن لتجاهل قومك إياك أو إعراضهم عن دعوتك؛ لأنّ إخوانك جميعاً من الأنبياء السابقين واجهوا الحالة نفسها من أشخاص كهؤلاء.

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ معرفة التاريخ ودراسة حضارات الشعوب والأقوام السالفة من شأنها أن تمنح الصّبر وتُكسب الفرد التحمّل وأخذ العِبَر والدروس، ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ لاحِظ أنّ الله سبحانه يُقسم في هذه الآية باسمه الشّريف، ﴿تَٱللَّهِ﴾.

٣ ـ إرسال الرّسل والأنبياء عليهم السلام سُنّة إلٰهيّة ثابتة، ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٤ ـ أهمّ الوسائل التي يستخدمها الشيطان الرّجيم للدخول إلى أعماق النّفس الإنسانيّة هي تزيينه القبائحَ وتبريره الضلالاتِ، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٥ ـ القبول بما يزيّنه الشيطان الرّجيم ويقدّمه من تبريرات يُمثّل قبولاً لتسلّطه على النّفس، ﴿فَزَيَّنَ... فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾.

٦ ـ ولاية الشيطان الرّجيم ليست ولاية موقّتة؛ لأنّه لا يتوانى لحظة واحدة عن محاولاته في التسلّط على نفوس أتباعه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

٧ ـ من المعروف أنّ ولاية الشيطان الرّجيم على أتباعه لا تكون إلّا في هذه الدّنيا، أمّا في الآخرة فليس له أيّ سلطان على أحد، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الهدف الرئيس من نزول القرآن الكريم هو التمييز بين الحقّ والباطل، ﴿مَآ أَنزَلْنَا...﴾.

٢ ـ الابتعاد عن خطّ الأنبياء وتجاهل توصياتهم هو أساس جميع الاختلافات، ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

٣ ـ يُتمّ الله حجّته على الناس من خلال [إرساله] الأنبياء والرّسل، ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾.

٤ ـ القرآن الكريم كتاب للحُكم بين الحقّ والباطل بالإضافة إلى كونه وسيلة للإرشاد والرّحمة الإلهيّة، ﴿لِتُبَيِّنَ... وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

٥ ـ شرط الهداية والرّحمة الإلهيّة هو أن لا يكون الإنسان قد أغلق باب السعادة داخل نفسه، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

□ تطرّقت الآية السابقة إلى موضوع إنزال الكتاب [القرآن الكريم] الذي اعتُبِرَ سبباً لإحياء القلوب، وتشير هذه الآية إلى نزول المطر الذي يُعتبر سبباً لبَعث الحياة في الأرض.

التعاليم:

١ ـ الظواهر الطبيعية (كهطول الأمطار وغير ذلك) ليست ظواهر تحدث بالصّدفة، بل هي أمور تخضع لمشيئة الله وإرادته، ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ...﴾.

٢ ـ الأرض كالإنسان، مُعرّضة للحياة والموت، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

٣ ـ تنفيذ البرامج الإلهيّة بواسطة الأسباب هو أمر طبيعيّ وعاديّ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

٤ ـ ما مِن شكّ في أنّ الماء يُمثّل عُنصراً حياتياً بالنسبة للأرض وللمخلوقات التي تعيش عليها قاطبة، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[١].

٥ ـ يمكن اعتبار تدابير الله سبحانه وتصرّفاته في الطبيعة درساً في التوحيد، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. سورة الأنبياء: الآية ٣٠. [المترجم]

٦ ـ النّظر إلى الآيات الإلٰهيّة والتدبّر فيها هو أفضل درس لمعرفة الله، ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ كما أنّ الله سبحانه وتعالى يُنزل الماء الذي هو من أهم مناشئ الحياة من المُزن والسّحاب، فإنّه كذلك قادر على إخراج اللّبن (وهو سائل حياتيّ مهمّ كذلك) من بطون الحيوانات.

□ «الفرث» هو الغذاء المهضوم داخل المَعدة، والـ«عبرة»: كلّ ما يُعتبَر به ويُعْبَر بواسطته من الجهل إلى العِلم.

□ مع أنّ كلمة ﴿الْأَنْعَامِ﴾ جمع إلّا أنّه استُخدِمَ ضمير المُفرد في كلمة ﴿بُطُونِهِ﴾، وذلك لأنّ المقصود هو كلّ واحد من الأنعام أو ذوات الأربع وليس جميعها[1].

□ يُعتبر اللّبن [الحليب] غذاءً متكاملاً يُمكن أن يسدّ مَسدّ الماء والطعام في آن واحد؛ إذ يحتوي على الكثير من العناصر التي تُقوّي الجسم وتنمّيه. وقد ورد في بعض الروايات أنّ شُرب اللّبن يزيد العقل ويصفّي الذّهن ويقوّي النّظر والقلب والظّهر ويُذهب النسيان.

□ لا تقتصر فائدة الأنعام على تقديم الاحتياجات المادّية للإنسان، بل يمكنها أن تكون وسيلة لتكاملنا المعنويّ واكتمال إيماننا. والآن، ألا يستطيع الإله الذي يُخرج اللّبن الصافي من العَلف، إخراج الإنسان من قبره وبَعثه يوم القيامة حيّاً. أليس الإله الذي يُخرج اللبن الخالص من بين فَرث ودَم وغذاء مهضوم، قادراً على تمييز العمل الصالح عن مثيله الطالح.

---

(١) «النَّعَم: واحد الأنعام وهي المال الراعية؛ والنَّعَم الإبل والشّاء، يُذَكَّر ويُؤَنَّث». لسان العرب. [المترجم]

□ من المعلوم أن تحويل العلف إلى لَبن يتطلّب وجود جهاز للتصفية والتعقيم وفصل الموادّ الضارّة ووجود مواد للتحلية وأجهزة التسخين وعناصر منتجة للدهون والألوان المطلوبة، إضافة إلى وجود الأنابيب اللازمة في أبدان الأنعام. ألا يحتاج مركز التصفية إلى وجود مُراقب لعمليّات التصفية؟ أمّا مصفى اللبن الإلٰهيّ فلا حاجة به إلى ذلك كلّه، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾.

□ الإنسان النقيّ هو الإنسان الذي يتمكّن من اجتياز كلّ العوائق الحياتية والمسائل السياسيّة والاجتماعيّة والأصدقاء والرّفاق على اختلافهم، من دون أن يتلوّن بألوانهم أو يكتسب روائحهم، ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾.

□ لا شكّ في أنّ الخلوص هو شرط اتّصاف أيّ شراب بالسّواغ؛ فالمياه لا تكون سائغة إلّا عندما تصبح خالصة من كلّ الشوائب، ﴿خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

□ من الضروريّ أن يشمل السّواغ المستهلكين جميعاً وليس الإنسان فحسب؛ ولذلك فإنّ الآية الشريفة لم تقُل: «سائِغاً لَكُم»؛ بل قالت: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ جميعهم من الإنسان والحيوان والنّبات. ومع ذلك تشير بعض التقارير في الوقت الحاضر إلى أنّ الدول المتقدّمة تبعث بموادّ انتهت مدّة صلاحيّتها كمساعدات - بزعمهما - إلى المشرّدين واللاجئين.

□ استهلاك الإنسان للّبن والحليب دليل واعتراف منه بأنّ الذي خلق هذا الحيوان وأخرج اللبن من أعماق جسمه هو نفسه الذي خلق الإنسان ووفّر له ما يحتاج إليه، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾.

□ كتب أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتابه الخامس والعشرين (في نهج البلاغة) إلى المسؤول عن جَمع الزّكاة، يأمره فيه بمراعاة بعض الأمور عند ذهابه لجَمع الزّكاة من الرعيّة. ومن جُملة ما قال عليه السلام: «**إِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلَا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذٰلِكَ بِوَلَدِهَا، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً،... وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ،... وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالأَعْشَابِ**».

□ لا يجوز ضَرب الحيوان أو حَلبه بأظافر طويلة أو إنهاكه أكثر من طاقته أو إيقاع

أيّ نوع من أنواع الظّلم والتعسّف به. وقد بيّنَ الله سبحانه لنا في القرآن الكريم أنّ سيّدنا سليمان عليه السلام على الرغم من كونه نبيّاً وملكاً سُخِّرَت له جموع الإنس والجنّ، كان يُداعب الحيوانات ويمسح بيَده المباركة على أعناقها وأقدامها، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في أنّ نظام إنتاج اللّبن لدى الحيوانات وخروجه من بين دَم وفَرث، هو نظام يتضمّن كلّ عِبرة ودَرس للإنسان العاقل، ﴿لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا...﴾.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

- «السُّكْرُ» نَقيض الصَّحْو، و«السَّكَرُ» هي الخمر نفسها.
- تحدّثت الآيات السابقة عن الماء واللّبن (الحليب) كشرابيْن طبيعيَّيْن يمكن الحصول عليهما بشكل مُباشر، أمّا هذه الآية الشريفة فتشير إلى بعض الأشربة الأخرى التي نحصل عليها بشكل غير مباشر وذلك من خلال عَصر بعض الفواكه. عندما تتدخّل يَد الله وإرادته فلن يكون هناك سوى اللّطف والصفاء (مياه الأمطار واللّبن الخالص السائغ)؛ ولكن عندما يتدخّل البشر، فتارة يكون الرّزق جيداً ومطلوباً وتارة أخرى يُنتج شراباً يكون سبباً للفساد والانحراف.

التعاليم:

١ ـ كلّ ما تسبّب في السّكر فليس برزق طيّب، ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

---

(١) سورة ص: الآية ٣٣.

٢ ـ كلّ ما خَلقه الله هو طيّب وحلال، ويبقى علينا ـ نحن البشر ـ أن نختار إمّا أن نصرفه في الحلال أو الحرام، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

٣ ـ من العلامات والآيات التي تُعرّفنا بالخالق تعالى هي خَلق الفواكه (من خلال تعدّد ألوانها واختلاف طعمها وتباين خواصّها وفوائدها سواء على المدى القريب أو البعيد، ثمّ عناصرها المركّبة لها وتوفيرها لكلّ ما يحتاجه الإنسان، ومقدار إنتاجها والمناطق المناسبة لزراعتها وانسجامها مع سكّان تلك المناطق وسهولة حصول الإنسان عليها وكلّ العوامل الأخرى الداخلة في إيجادها وإنباتها)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ «الوَحْيُ» هنا بمعنى الإشارة والانتقال السّريع والمستتر، وبالإضافة إلى أنّ كلمة الوَحي تعني التكليف الإلٰهيّ للأنبياء فإنّها تشمل أيضاً الإيحاء للغرائز كما ورد في هذه الآية الشريفة، وكذلك الإلهام الإلٰهيّ كقوله تعالى في الآية (٧) من سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...﴾. وتشمل الكلمة معنى وساوس الشيطان الرّجيم أيضاً كقوله ﷻ في الآية (١٢١) من سورة الأنعام: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ تخضع حركة الحيوانات ودأبها في اختيار مساكنها لغرائزها التي أقرّها الله سبحانه فيها، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

٢ ـ من المعروف أنّ أفضل أنواع العسل هو عسل النّحل الجبليّ الذي يتغذّى على رحيق الزهور والنباتات الجبلية[1]، وليس العسل الصناعي المكوّن من

(١) كما أنّ أفضل أنواع اللحوم هي اللحوم الطازجة وليس المجمّدة ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، سورة النّحل: الآية ١٤.

الموادّ السكريّة التي يوفّرها لها مُربّو النّحل بالقرب من القفير، ﴿ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ... وَمِنَ ٱلشَّجَرِ...﴾.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

- أشار الله سبحانه في هذه الآية والآية (٦٦) من هذه السورة إلى نوعيْن من الطعام والشّراب المهمَّيْن في الحياة الإنسانيّة هما اللّبن والعسل، وكلاهما يخرج من بطون الحيوانات والحشرات.
- قرأنا في الآية (٦٧) أنّ الإنسان تعلّم كيف يصنع من عصير بعض الفواكه مسكراً ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، ثمّ يُخبرنا الله ﷻ بأنّ بعض الحشرات علّمها الله تعالى كيفية صُنع شراب من بعض الثمار والزهور فيه شفاء للناس.
- تُعتبر الغَفلة والبطالة أمراً مكروهاً ومذموماً في النظام الإلٰهيّ الحكيم والمليء بالأهداف؛ ولهذا نجد أنّه متى أشار القرآن الكريم في آياته إلى موضوع الأكل والشّرب، ذكر إلى جانب ذلك المسؤوليّات والواجبات التي تقع على عاتق الإنسان إزاء هذه المسألة، ومنها:
  - ﴿كُلُوا... وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾[١].
  - ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا﴾[٢].
  - ﴿كُلُوا... وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾[٣].
  - ﴿كُلُوا... وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾[٤].

وفي هذه الآية («٦٩» من سورة النّحل) يأمر الله سبحانه النّحل أن يأكل من الثمرات مع وجوب مُراعاتها الهدفَ المنشود والمسؤولية اللازمة.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.
(٢) سورة الحجّ: الآية ٢٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٢.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٤١.

□ يمكن تشبيه أولياء الله تعالى بجماعة النّحل إذ نأوا بأنفسهم عن الرذائل واختاروا لأنفسهم الشموخ والعزّة، وانتفعوا بالمعارف الإلٰهيّة وسلكوا سُبُله ذُللاً، فلم يَعُد يخرج من داخلهم وأفواههم سوى الحكمة والحلاوة المعنوية الصافية.

التعاليم:

١ ـ تتصرّف الحيوانات وفقاً لأوامر الله التي تُوحى إليها عَبر غرائزها، ﴿ثُمَّ كُلِي﴾.

٢ ـ العسل هو عصارة أنواع مُعيّنة من الثّمار والزّهور، ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣ ـ لا يقتصر الإلهام الإلٰهيّ للحيوانات على اختيار مساكنها وطعامها، بل إنّ أفعالها جميعاً تُمثّل سُبُلاً وضعها الله ﷻ أمامها لتسلكها كلّ حسب غريزته، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾.

٤ ـ تُعتبر الحركة التي قرّرها الله سبحانه لكلّ الحيوانات واختارها لها حركة بسيطة ومتواضعة، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾.

٥ ـ سبحان الله على إعجازه: مصنعٌ عجيب في بطون مخلوقات صغيرة لإنتاج العسل، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾.

٦ ـ العسل الطبيعيّ مُتعدّد الألوان، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ (فمنه ما يكون لونه أبيضَ أو أصفرَ أو أحمرَ، وقد يكون السّبب في ذلك هو اختلاف ألوان الزّهور والثمرات التي تتغذّى عليها النّحلة).

٧ ـ توجد في بعض الأعشاب والزّهور ـ كما هو معلوم ـ خواصّ علاجية تنتقل عن طريق العسل فتكون سبباً لشفاء الكثير وعلاجهم من الأمراض ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾. (من الواضح أنّ العسل لا يشفي جميع الأمراض بل بعضاً منها، لذلك وردت كلمة ﴿شِفَآءٌ﴾ بصيغة النّكرة).

٨ ـ لا شكّ في أنّ قيام مخلوق صغير كالنّحل ببناء القفير وإنتاج الشّمع والعسل إلى جانب صناعة السّمّ [في ذَنَبه]، ذلك كلّه يشير إلى عظمة الله سبحانه وقدرته، ﴿لَأٓيَةً﴾.

٩ ـ المُفكّرون والعُقلاء هم وحدهم الذين يستحقون أن تُضرَب لهم الأمثال والعِبر ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، بينما نرى آخرين لا يكلّفون أنفسهم عناء التفكير في مثل العسل ولو لدقائق على الرغم من أنّهم يقضون مُعظم أعمارهم في أكله.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

- «أرذل»اسم تفضيل من (الرَّذْل) بمعنى الرّديء والخسيس؛ ومن المعروف أنّ أرذل سنيّ العُمر هي تلك التي يَصل ضعف الإنسان ونسيانه خلالها أقصى حدّ لهما[1].
- من الطبيعيّ أن يتعرّض الأفراد العاديّون فقط إلى النسيان أو فقدان الذاكرة في كهولتهم، أمّا أولياء الله تعالى ـ مثل سيّدنا نوح عليه السلام والإمام المهديّ (عجّل الله تعالى فرجه الشّريف) ـ فمن غير الممكن أن يُصابوا بذلك على الرغم من طول أعمارهم لأنّ الله اختارهم ذُخراً للقيام بمسؤوليّاتهم خلال عُمرهم الطويل.

التعاليم:

١ ـ الحياة والموت بيَد الله تعالى وحده، ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

٢ ـ المرحلة العُمرية التي يكون فيها الإنسان عالماً ومُدركاً هي المرحلة المفيدة والقيّمة، أمّا المرحلة التي يُصاب فيها الفرد بالنسيان والغفلة فلا قيمة لها أبداً، ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾.

٣ ـ ليست أعمار كلّ الناس طويلة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ كلّ ما يحدث للإنسان من تغييرات وتحوّلات كالقدرة

---

(١) وقد ورد في الآية (٥) من سورة الحجّ ما يشبه هذا المعنى كذلك وهو وصول الإنسان إلى مرحلة من العُمر لا يعود يعلم كثيراً من الأمور بعد عِلمه بها قبل ذلك.

والضّعف والعلم والجهل والتذكّر والنسيان، كلّ ذلك قائم على أساس تقدير الله سبحانه وعِلمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٧١﴾

إشارات:

- تكون لبعض الأفعال والسلوك تأثيرات مختلفة، فالعطف والرّأفة بالآخرين مثلاً يُمثّلان عملاً صالحاً وحسناً، وقد تكون الرّأفة أحياناً في غير محلّها، وهو كما قال بعض الشعراء: [شعر]

الرّأفة بالنّمر الشّرس ذِي الأسنان ظُلْمٌ لخِرافكَ فاعْقَلْ أيها الإنْسان

والتعليم كذلك من أصلح الأعمال، لكنّ تعليم البعض من البشر يُشبه إعطاء السيف للسكران أو المجنون؛ إلّا أنّ معيار العدل والتصرّف العادل يجب أن يكون واحداً مع الجميع وفي كلّ الحالات، ولا يمكن أن تكون مُراعاة العدل وتطبيقه أمراً مذموماً في أيّ زمان أو مكان. لكنّ العدالة لا تعني أن يمنح الله سبحانه الناس جميعاً نسبة واحدة من القدرات والإمكانيّات، لأنّه إذا تساوى الناس جميعهم في النِّعَم ستزول عوامل التعاون وتنمحي أسباب المشاركة والمساهمة الضرورية للحياة الاجتماعية. يقول الله سبحانه وتعالى في الآية (٣٢) من سورة الزّخرف: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾.

- يُعتبر الاختلاف الموجود في الأرزاق الممنوحة للناس أحد الأمور الحكيمة التي فرضها الله ﷻ؛ إذ لو كان الناس جميعاً يتمتّعون بمستوى واحد من النِّعَم والأرزاق، ما كانت لتظهر كمالاتهم المعنوية إطلاقاً. فالسخاء والصّبر والإيثار وحماية المساكين والإشفاق على المحرومين والتواضع وما شابه ذلك، لن يكون لها أيّ معنى إلّا عندما تكون هناك اختلافات وفروقات في المستويات الاجتماعيّة للناس.

❑ قد يكون معنى هذه الآية هو انتقاد الله سبحانه بُخل بعض الناس ومؤاخذة جماعة من الأفراد من أصحاب القدرة والنّفوذ على عدم إشراك مَن هم تحت نفوذهم والأخذ بيَدهم. وربما كان معنى الآية استحالة انتقال بعض النِّعَم أو المزايا التي يمتلكها بعض الأفراد إلى أفراد آخرين، كانتقال جمال الوَجه أو الصوت أو الذكاء أو النّبوغ أو الشعبيّة أو تأثير الكلام. وهكذا، فإنّ هذه الاختلافات والمميزات تُعتبر رمزاً للتكامل ووجهاً من أوجه النِّعَم الإلٰهيّة؛ ولذلك يُعاتبهم القرآن الكريم على إنكارهم كلّ ذلك.

❑ يحصل البعض أحياناً على الثروة أو النفوذ بطُرق غير مشروعة أو من خلال انتزاع وسَلب حقوق الآخرين أو الاستغلال البَشع، حيث حرّمَ الإسلام هذا النّوع من المكاسب. وقد تكون طُرُق تحصيل الرّزق في بعض الأحيان سليمة ومحلّلة مئة في المئة. ومثال ذلك أن يعمل صيّادان في مركّب واحد، فتدخل شباك الصيّاد الأوّل الكثير من الأسماك في حين لا تأسر شباك الصيّاد الثاني إلّا عدداً قليلاً منها؛ ففي هذه الحالة يكون كلّ من الغِنى والفَقر بإذن الله سبحانه من أجل اختبار الغنيّ والفقير وحثّ كلّ منهما على إظهار قابليّاته وقدراته، ولا وجود لأيّ أغراض سلبيّة، وهذا بالضّبط ما تريد هذه الآية الشريفة بيانه وتوضيحه، ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾.

❑ روى أبو ذَر الغفاريّ (رضي الله تعالى عنه) عن رسول الله ﷺ في ما يخصّ اتّباع المساواة بين العبيد أنّه قال: «**أَلْبِسُوهُم مِمّا تَلْبَسُوْن وأَطْعِمُوهُم مِمّا تَطْعَمُون**»[1].

❑ تُخبرنا روايات عدّة بأنّ بعض النّاس لا يمكن إصلاحهم إلّا بالغنى وآخرين لا يُمكن إصلاحهم إلّا بالفَقر، فعلينا أن نرضى بما قسمه لنا الله الحكيم، ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾.

---

(١) انظر: تفسير كنز الدّقائق.

التعاليم:

١ ـ لا يحصل الإنسان على رزقه بالشطارة والحذاقة دوماً ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ﴾[1].

٢ ـ ينأى الإنسان ويستنكف عن تقسيم ما لديه مع مَن هم أدنى منه، فكيف يجرؤ على إشراك تماثيل من الحجر والخشب مع الله سبحانه، ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ... فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ تجاهل الآخرين وعدم تقديم المساعدة لهم هو كُفران بالنعمة، ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

□ جاء في تفسير الطبريّ أنّ كلمة ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ تُطلَق على «أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منّا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا وخدمنا من مماليكنا إذا كانوا يحفدوننا»[2]. أمّا العلّامة الطباطبائي فقد قال: «﴿وَحَفَدَةٗ﴾ جمع حافِد وهو المتحرّك المُسرع بالخدمة، أقارب كانوا أو أجانب»[3].

□ **سؤال:** لماذا أشارت الآية إلى الذكور ﴿بَنِينَ﴾ دون الإناث؟

الجواب: قد يكون المقصود من كلمة ﴿بَنِينَ﴾ هو الأولاد عموماً، ذكوراً وإناثاً، وقد يكون المَعنيّ بكلمة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ هم الإناث، ومثال ذلك ما ورد في الآية (٢٦) من سورة النّور من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، وربّما استُغني عن ذِكر البنات صراحة لوجود كلمة ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ التي تعني أولاد البنت.

---

(١) سورة الزّخرف: الآية ٣٢.

(٢) الجزء ١٧، ص ٢٥٨.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢.

التعاليم:

١ ـ الأزواج والأولاد مِن نِعَم الله سبحانه. (فالزوجة وسيلة للسّكن والمودّة، والأولاد أمل الرّجل وزينته)، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم... أَزْوَٰجًا... بَنِينَ﴾.

٢ ـ من ألطاف الله تعالى وحكمته أن خلق الزّوج وزوجته من جنس واحد وأصل واحد، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

٣ ـ الزّواج برنامج حكيم وضعه الله سبحانه، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ... أَزْوَٰجًا﴾.

٤ ـ وفّر الله ﷻ للإنسان احتياجاته النفسية والمعنويّة ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا... بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، وكذلك احتياجاته الماديّة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٥ ـ من ألطاف الله تعالى وحكمته أن جعل الرّزق طيّباً ومرغوباً، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٦ ـ ترك سُنّة الزواج والامتناع عن الإنجاب وتحريم ما أحلّه الله، باطل وكُفران بنِعَم الله، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

٧ ـ لا جَرمَ أنّ الزّنا مع وجود الزوجة وأكل المال الحرام مع وجود الرّزق الطيّب الحلال هو كُفران بنِعَم الله، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

٨ ـ يَميل الإنسان بطبيعته إلى تخليد ذِكره [بالزّواج وإنجاب الأطفال]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

٩ ـ في البداية، بيّنوا لمُخاطبيكم النِّعَم والألطاف الإلهيّة، ثمّ انتقدوهم إن تطلّب الأمر، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ... أَزْوَٰجِكُم... وَرَزَقَكُم... أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ كان المشركون يتصوّرون أنّ الله سبحانه هو السلطان والمَلِك وأنّ أصنامهم

وأوثانهم هم وزراؤه، وهذه الآية الشريفة تَنهاهم عن مثل هذه التصورات الباطلة.

□ قال الشاعر الفارسي المعروف قاآني(١):

يا مَن تجلّى كلّ الخلق منه ... وأصبح الطين العاجز به قويّاً
كلّ ما سواك هم من خلقك ... نحن به قائمون وهو قائم عليّا
وجودك واجب وليس وجودنا ... لا يشبه أحداً ولا أحد يشبهه كليّا

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن يكون المَعبود رازقاً وقادراً، وهؤلاء الشّركاء الذين تعبدون من دون الله لا يملكون أيّاً من تلك المميزات، ﴿يَعْبُدُونَ... مَا لَا يَمْلِكُ﴾.

٢ ـ لا يمكن للأصنام أو الأوثان أن تكون رازقة لا في الحاضر ولا في المستقبل [ولم تكن كذلك في أيّ وقت من الأوقات]، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

٣ ـ أيّها المشركون! لا قدرة لمعبوداتكم الخيالية على إنزال المطر من السّماء ولا على إنبات الزّرع على الأرض، ﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ لا يقتصر عجز المعبودات الزائفة على الأفعال الكبيرة، بل هي عاجزة كذلك عن القيام بأتفه الأعمال وأبسطها، ﴿رِزْقًا... شَيْـًٔا﴾.

٥ ـ كلّ التشبيهات التي ينسبها الإنسان لله تعالى نابعة من جَهله، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ... وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ميرزا حبيب بن محمّد علي گُلشن (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م ـ ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م): وُلِدَ في شيراز. وهو من كبار شعراء البلاط في زمن فتح علي شاه ومحمّد شاه وأوائل عهد ناصر الدّين شاه. كان مُلمّاً بالأدب الفارسيّ والعربيّ على السّواء، حكيماً يوازي الملّا هادي السبزواري وفقيها كالشيخ مرتضى الأنصاريّ. لُقّب بـ «مُجتهد الشعراء» و«حَسّان العَجَم». كان أوّل شاعر فارسيّ يُجيد التحدّث باللغة الفرنسية. له ديوان (پريشان ـ الحائر) و(گلستان ـ البُستان). [المترجم].

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إذا كُنّا نحن البشر لا نَقبل بتساوي شخصيْن (العَبد ومولاه) فكيف نجرؤ على المساواة بين الخالق والمخلوق، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾.

٢ ـ يُمكنكم إيقاظ وجدان الناس وإجبارهم على التفكير من خلال الأسئلة والأمثلة، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا...﴾.

٣ ـ أساس شِرك الناس هو جهلهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ القُدرة والسلطان نِعمة من نِعَم الله سبحانه، ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾.

٥ ـ لا يُوصَف الرّزق بالحَسَن إلّا إذا رافقه الإنفاق، ﴿رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾؛ ولا قيمة لطلاقة اللّسان إلّا إذا نطق بالعَدل ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٦ ـ الإنفاق سرّاً أفضل من الإنفاق في العَلَن. (وردت كلمة ﴿سِرًّا﴾ قبل كلمة ﴿وَجَهْرًا﴾).

٧ ـ اللّسان والنّطق مفتاح الرّزق، ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ... كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ... لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

٨ ـ لا تأثير للأمر بالمعروف إلّا إذا كان الآمِر مؤمناً بما يأمر ومُطبّقاً إيّاه، ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٩ ـ حتى الذين يملكون شيئاً ما، لم يكونوا ليمتلكوه إلّا في ظلّ الرّزق الإلٰهيّ. (لاحظ أنّ كلمة ﴿رَّزَقْنَٰهُ﴾ جاءت بدلاً من كلمة «مالِك» في مُقابل كلمة ﴿مَّمْلُوكًا﴾).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- الـ**«غيب»** يُقابل **«الشُّهود»** وهو أمر نسبيّ، فقد يبدو شيء ما للشخص غيباً ولغيره حاضراً وظاهراً.
- **«أمرُ الساعة»** هو يوم القيامة وهو من أبرز الأدلّة على الغيْب، ومن ألطاف الله سبحانه أنّه لم يُطلعنا على موعد الساعة.
- قد تكون هذه الآية جواباً على التشبيهات التي أوردها المشركون والتي أشار إليها القرآن الكريم في الآيات السابقة، وأنّه لو كان يوجد شريك آخر مع الله في الأرض أو في السماء لعَلِمَ الله به لأنّه عالِم الغيب والشّهادة.
- بعد مَوت الإنسان يتحلّل جسده إلى ذرات تختلط مع التراب بحيث لا يمكن تمييزها؛ لكنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الغَيْب وهو الذي سيعيده إلى الحياة مجدّداً.

التعاليم:

١ ـ ليس الله تعالى عالماً بالغيب وحسب بل هو مالِك الغَيْب كلّه، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ لا يَصعب على الله شيء ولا يُعجزه، بما في ذلك قيام الساعة، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

٣ ـ في يوم القيامة سيطفو على السّطح كلّ باطن وغائب، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ... وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

٤ ـ القيامة آتية لأنّ الله سبحانه عالِم بكلّ شيء وقادرٌ على إعادة خَلق كلّ شيء، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ... عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥ ـ استعدوا ليوم القيامة ولا يغترّ أحدكم بالدّنيا فالقيامة ليست ببعيدة، ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

٦ ـ بإمكان الله سبحانه حذف أيّ مُقدّمات أو اختزالها أو الإسراع بها، ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

□ **«الأمّهات»** جَمع (الأمّ) والهاء فيها زائد.

التعاليم:

١ ـ الولادة من الأمّ إرادة إلٰهيّة، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

٢ ـ عندما يتذكّر الإنسان المؤمن ما كان ينقصه قبل هذا وكلّ احتياجاته السابقة فإنّ ذلك لا يزيده إلّا شكراً لله سبحانه، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٣ ـ اقتضت حكمة الله تعالى وسُنّته أن يتمّ تنفيذ أيّ فعل بواسطة أو سَبب، فوسائط العِلم مثلاً هي العين والأُذن والقلب، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾.

٤ ـ من الواضح أنّ أداء الآذان يسبق أداء العيون؛ (فالأُذن تعمل حتى لدى الجنين في بطن أمّه في حين تبقى العينان مُغلقتين لفترة بعد الولادة، وقد يكون هذا هو السبب في ذِكر الآية للسّمع قبل البَصر)، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

٥ ـ استثمار النّعمة بالشكل الصحيح يعني شُكر الله عليها فالقرآن الكريم ينتقد أولئك الذين يملكون الأبصار ولكنّهم عاجزون عن رؤية الحقائق، ويملكون الآذان إلّا أنّهم غير مستعدين لسماع صوت الحقّ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٦ ـ التعلُّم هو السبيل الأمثل لشُكر نعمة امتلاك العين والأُذن، وتشير هذه الآية في البداية إلى جَهل الإنسان، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، ثمّ وَهبه الله السّمع

والبَصَر لعلّه يَشكره، وتلك إشارة إلى ضرورة التعلّم أوّلاً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

- قلنا في بداية هذه السورة (في ملامح سورة النّحل): إنّها تتحدّث عن النِّعَم المتعدّدة لله سبحانه، والتدبّر في تلك النِّعَم ومعرفة خالقها الحقيقيّ. ولغاية هذه الآية، تعرّفنا على بعض النِّعَم والآلاء مثل نِعمة نزول المَطر من السّماء، وخروج اللّبن من بطون بعض الحيوانات، ثمّ أنواع الفواكه والثمار والعسل، ونِعمة امتلاك الأزواج والأولاد. وتُشير هذه الآية والآيات التالية إلى نعمة أخرى وهي الطيور وجلود الحيوانات وصوفها ووبرها، والانتفاع بالجبال واستثمارها.

- تطير بعض الطيور فُرادى وبعضها الآخر بشكل أسراب، ومنها ما يطير بانتظام وأخرى تطير على غير نَظم ولا هُدى، ومن الطيور ما يطير هرباً من صيّاد أو مُفترِس، ومنها ما يطير بحثاً عن طعامه. وكلّ طائر مخلوق بجسم مُعيّن وأجنحة مناسبة ووزن ينسجم مع خلقته، ومن شأن هذا أن يدفع الإنسان العاقل إلى التفكير والتدبّر لمعرفة الخالق وعظمته.

التعاليم:

١ ـ يريد الله سبحانه منّا أن نتدبّر مخلوقاته وينتقد أولئك الذين لا يتدبّرون ولا يرهقون أنفسهم بالتفكير في آياته ونِعَمه، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾.

٢ ـ الطيور جميعها مُسخرات بإذن الله تعالى أينما كانت وفي أيّ حال تكون، ﴿مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٣ ـ لا ينبغي أن نَغترّ بما نمتلكه من إمكانات للطيران في السّماء ونغفل عن ذِكر الله، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

٤ ـ لا تنحصر عجائب تحليق الطيور في واحدة أو اثنتيْن، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ لكنّ أهل الإيمان هم وحدهم الذين يميّزون تلك العجائب، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

□ «البَيْت» من بَيْتُوتَة، بمعنى مكان الراحة والاستراحة حيث يقضي الإنسان ليله. و«الظَّعْن» هو الذّهاب، و«الأثاث» متاع البَيت الكثير. والمقصود بـ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ هو الخيام التي يَسهل حَملها ونَقلها أثناء السّفر.

التعاليم:

١ ـ البيوت هي أماكن للسّكن والراحة، ﴿بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

٢ ـ تأمّلوا دَور ذوات الأربع والأنعام وجلودها وأوبارها وأشعارها في إعداد وسائل العيش وصنع الخيَم للسكن، ﴿مَتَٰعًا﴾.

٣ ـ لا شكّ في أنّ زَمن الانتفاع والاستفادة من النِّعَم مَحدود، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

---

(١) كنتُ جالساً في أحد الأيام داخل طائرة فأعلن المسؤول عَبر الميكروفون بأنّنا سنهبط في المطار الفلاني بعد دقائق. فقلتُ له: «لِمَ لَمْ تَقُل: إن شاءَ الله؟» فأجاب: «إنّ الحاسوب يُعلمنا بالفترة الزمنية والمسافة والتفاصيل الأخرى كلّها بدقّة متناهية، ولا داعي لأن نقول: إن شاء الله!» قلت: «ألا تمتلك الطائرات الأخرى التي تحلّق في شرق الأرض وغربها الحواسيب؟ ومع ذلك فنرى الكثير منها يسقط. اعلَم أنّ إرادة الله سبحانه ليست بحاجة إلى حواسيبكم!» ففكّر المسؤول للحظات ثم رأيته يعود إلى مقصورته مُعلناً من جديد موضع الهبوط، ولكن هذه المرّة كانت عباراته بالشكل التالي: «سنهبط بعد لحظات إن شاء الله في المطار!» فشكرته على ذلك وقدّمت له هدية متواضعة إعراباً عن تقديري له.

٤ ـ التوفيق والانسجام بين النِّعَم واحتياجات الإنسان ومقدار استفادته من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، كلّ ذلك من تدبير الله سبحانه وحكمته، ﴿جَعَلَ لَكُم... وَجَعَلَ لَكُم﴾.

٥ ـ لاحِظ أنّ خِفّة وَزن الصوف والجلود والأوبار والأشعار هي نِعمة من نِعَم الله ﷻ، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾

إشارات:

- الـ«**أكنان**» جَمع «**كِنّ**» وهو وِقاء كل شيءٍ وسِتْرُه، والمُراد بذلك في هذه الآية هو الغيران والكهوف في الجبال.
- ذكر الله تعالى في الآية السابقة نعمة المساكن والبيوت لأصحاب المُدُن ﴿جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ونعمة الخيام للبَدو والرُّحَل من الناس، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾، وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى نعمة الغِيران والكهوف لسَكَنتها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾.
- أشارت الآية إلى كلمة ﴿سَرَابِيلَ﴾ من بين أنواع الملابس، والـ﴿سَرَابِيلَ﴾ جَمع «**سِرْبال**» وهو القَميصُ أو الدِّرْعُ أو كلُّ لباس دائم غطّى مُعظم الجسد للرّجل والمرأة والصغير والكبير وفي الأوقات جميعاً.
- قال العلّامة الطباطبائي: «على أنّ العربَ تكتفي بذِكر أحد الشّيئيْن عن الآخر للعِلْم به»[1]. فالمراد من ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ في هذه الآية هو اللّباس الذي يَقِي الإنسان الحرّ والبَرد معاً على الرغم من أنّ الآية لم تُشِر سوى إلى الحَرّ من دون البَرد.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٢.

التعاليم:

١ ـ ملاحظة النِّعَم وتأمّلها يعملان على تقوية علاقة الإنسان بوليّ نِعمته ويحييان فيه روح التسليم له ويشجعانه على عبادته، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

٢ ـ لا يَقلّ دَور الظِلّ عن الدّور الذي يؤدّيه النور، ﴿جَعَلَ لَكُم... ظِلَٰلًا﴾.

٣ ـ لا تجعلوا انتفاعكم بالنّعَم سبباً لغفلتكم عن خالقها؛ (ذُكِرت كلمة «جعل» ثلاث مرّات في هذه الآية ولم تُذكَر كلمة ﴿خَلَقَ﴾ سوى مرّة واحدة فقط).

٤ ـ من ألطاف الله سبحانه صناعة الدروع والألبسة الواقية التي تُصنَع بتليين الحديد بمهارة، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُم... بَأْسَكُمْ﴾.

٥ ـ إنّ أفضل الأساليب لدعوة الناس إلى الله وتنبيههم من العصيان والتكبّر عليه هي تذكيرهم بنِعَمه وأنّه هو خالقها، ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

٦ ـ إذا تحدّثتم خُذوا بالاعتبار المُخاطَب ومجال الحديث؛ (فمع أنّ اللّباس هو وقاء للحماية من البَرد إضافة إلى كونه يُستَخدَم للتجمّل والزينة، لكن بما أنّ منطقة الحجاز كانت تتميّز عادة بالحرّ وكثرة المعارك والحروب، نَجد أنّ الله سبحانه يشير في هذه الآية إلى فائدتيْن مُهمّتيْن للّباس بالنسبة إلى سكّان تلك المنطقة، وهاتان الفائدتان هما الحماية من الحرّ والوقاية من بأس الأعداء في الحرب)، ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ... تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان مُخيّر في انتقاء السّبيل والمُعتَقد الذي يُريد، والدليل على ذلك هو عصيان البعض دعوة الأنبياء ورفضهم قبولها، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

٢ ـ يقتصر واجب الأنبياء عليهم السلام على دعوة الناس لا إرغامهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣ ـ يجب أن تكون الدّعوة واضحة لا لَبس فيها ولا غُموض، ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٤ ـ إذا لم يمتلك الإنسان نفساً طاهرة ووجداناً يقظاً فلن ينفع معه ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، ولا نصائح أطهر أفراد البَشر وهم الأنبياء عليهم السلام، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ أشارَ القرآن الكريم مراراً إلى إنكار الكُفّار الحقّ وصدّهم عنه مع عِلمهم به وعلى الرغم من وضوحه ونصوعه، فمرّة يقول: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١]؛ أي إنّهم يُنكرون آيات الله سبحانه مع أنّهم يعرفون أنّها حقّ في قرارة أنفسهم، ومرّة يقول: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[٢]؛ بمعنى أنّهم يعرفون النبيّ صلى الله عليه وآله وهم متأكّدون من صِدق كلامه وأحقيّة دعوته كما يعرفون أبناءهم تماماً، وفي أخرى يقول: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقال كذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[٤].

□ عن الإمام الصّادق عليه السلام: «عندما نزلت الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[٥] عرف جماعة وليّهم لكنّهم أنكروه فنزلت الآية ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾»[٦].

□ رُوِيَ عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «**نَحْنُ وَاللهِ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ وَبِنَا يَفُوزُ مَنْ فَازَ**»[٧].

(١) سورة النّمل: الآية ١٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٦.
(٣) السورة نفسها: الآية ١٤٦.
(٤) السورة نفسها: الآية ٨٩.
(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.
(٦) تفسير كنز الدّقائق.
(٧) بحار الأنوار، ج٨، ص ٢٤٥.

التعاليم:

١ ـ العِلم والمعرفة ليسا كافيين، بل لا بدّ من القبول والتطبيق، ﴿يَعْرِفُونَ... يُنكِرُونَهَا﴾.

٢ ـ التعصّب الاثنيّ والعِناد والجشع إزاء المنافع الماديّة هي أسباب الكُفر بالإضافة إلى الجهل، ﴿يَعْرِفُونَ... يُنكِرُونَهَا... ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٣ ـ بعد معرفتهم الحقّ وتمييزه، تتصارع القوى النفسية للكفّار مدّة حتى تغلب عليهم الشّقوة ويصرّوا على الكُفر. قال تعالى: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾، ولم يَقُل: «فَيُنكِرونَها».

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

- ذكرنا أنّ القرآن الكريم أشار في كثير من آياته إلى الشّهود في يوم القيامة وقلنا إنّهم الأنبياء عليهم السلام والملائكة وأولياء الله والأرض وبعض جوارح الإنسان وأعضائه. عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ لكُلّ أمّة وزمان إماماً يُحشَرون مَعَه**»[1]. وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أنّه قال: «**نَحنُ الشُّهودُ عَلى هذِهِ الأُمّة**»[2].

- وعلى الرغم من أنّ الله سبحانه موجود وحاضر في كلّ زمان ومكان، وهو الشّاهد على كلّ شيء، فإنّ وجود الشّهود يوم القيامة من شأنه أن يزيد من تقوى المؤمنين وحيائهم، وأن يكون سبباً لفضح الكُفّار على مرأى الخلائق ومسمعهم.

- من شروط الشهادة العِلم والعدالة؛ لذلك فإنّ أولياء الله الذين سيشهدون

---

(١) تفسير مَجمع البيان.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٣، ص ٣٥١.

محاكمة الخَلق يوم القيامة لا بدّ من أنّهم شَهِدوا على أعمالنا في هذه الدنيا حيث كانت أعمالنا تُعرَض عليهم، وهذه هي عقيدتنا التي نُؤمن بها وهي أنّ أعمالنا تُعرَض على إمام زماننا (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) كلّ أسبوع، وهو ما تؤيّده روايات عدّة مضافاً إلى الآية الشريفة: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. فمن دون الإيمان بهذه الفكرة لن يُصبح للآيات الخاصّة بالشهادة والشهود في يوم القيامة أيّ معنى وأي تبرير، إذ كيف يُمكن لِمَن ليس له أيّ عِلم بأعمالنا ولا يتّصف بالعدالة أن يكون شاهداً علينا يوم القيامة.

□ «الاسْتِعْتاب» هو طَلَبُك إلى المُسِيءِ الرُّجوعَ عن إساءَته لتَتجاوزَ وتَرْضى عَنه.

□ يُمكن للإنسان أن يتوب في هذه الدّنيا ويعتذر ويبرّر أخطاءه، أمّا في يوم القيامة فلا اعتذار ولا توبة. وأمّا التبريرات فلا يُقبَل منها شيء، إذ عندما يُخاطب أصحاب النّار جماعة منهم قائلين لهم: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[2] يُجيبهم مُنادٍ بالقول: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]. وكذلك استدراك المعصية، فهو مرفوض أيضاً، وعندما يسأل أصحاب النّار الله سبحانه: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[4]، يأتيهم الجواب قائلاً: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾[5]، و﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[6]. أمّا الاعتذار وطلب السّماح فهو الآخر مرفوض، بل ولا يُسمَح لهم بالاعتذار أصلاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[7].

التعاليم:

١ ـ يُؤتى بالشهود من الأُمّة نفسها لتتمّ عليها الحُجّة، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

٢ ـ إنّ لله سبحانه شهوداً وحُججاً على الناس من كلّ أُمّة وفي كلّ زمان، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.
(٢) سورة سبأ: الآية ٣١.
(٣) سورة الصّافات: الآية ٢٩.
(٤) سورة السّجدة: الآية ١٢.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.
(٦) سورة السّجدة: الآية ١٤.
(٧) سورة المُرسلات: الآية ٣٦.

٣ ـ لا تخلو المحكمة الإلٰهيّة من العناصر الرئيسة المُكوّنة لها مثل الحساب والكتاب والشهود والشّهادة، ﴿شَهِيدًا﴾.

٤ ـ لا معنى للأعذار والتبريرات والمسامحة مع وجود الشهود والحُجَج، ﴿لَا يُؤْذَنُ... وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ أخبرتنا الآية الشريفة السابقة بأنّه لا يُسمَح لأحد يوم القيامة بتقديم التبريرات ولا طلب السّماح، وفي هذه الآية يُبيّن الله سبحانه أنّ غضبه في ذلك اليوم لن يُخفّف عن مُستحقّيه ولن يُؤخّر عنهم.

التعاليم:

١ ـ قد يكون الإعلان عن عقاب يوم القيامة وكيفيّة المحاسبة فيه رادعاً للإنسان عن ارتكاب المعاصي، ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ...﴾.

٢ ـ أساس عذاب الله تعالى وغضبه هو ظُلم البشر أنفسهم، ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

٣ ـ لا يُخفَّف العذاب ولا يُؤخَّر عن الظالمين يوم القيامة، ﴿ظَلَمُوا۟... فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ و...﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

□ تشير الروايات إلى مشاهد عدّة ستحدث في يوم القيامة، منها:

- خَتْم أفواه البعض وغلقها وشهادة أيديهم وأرجلهم على ما كانوا يفعلون[١].
- سماع صراخ الظالمين ونداء الاستغاثة منهم[٢].
- محاولة بعض النادمين من العاصين إلقاء اللّوم على غيرهم كالشيطان الرّجيم واتّهامه بأنّه هو الذي دفعهم إلى الكُفر وأجبرهم على الشّرك، فيُجيبهم الشيطان الرّجيم بعد أن يتبرّأ منهم قائلاً: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾[٣]. أو يعتبر البعض أنّ أصنامهم هي السّبب في ما وصلوا إليه من الذلّ والهوان؛ لكنّ الله سبحانه يُنطق الأصنام فتتبرّأ منهم وتكفر بشركهم، وهو ما نبّأ به الله الخبير العليم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[٤]. والأكبر من ذلك كلّه أنّ الله ﷻ ـ ولغرض إتمام الحجّة على الكافرين وتكذيب مُدّعاهم برَمي الطاهرين بالتهمة لتبرئة ذِممهم ـ يُخاطب سيّدنا عيسى بن مريم ﵇ قائلاً: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ فيجيب المسيح ﵇: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[٥]. وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها تُشير إلى أنّ كلّ ما عُبِدَ من دون الله سيتبرّأ من المشركين ويُكذّبهم علناً.

التعاليم:

١ ـ لا شريك لله سبحانه ـ تعالى عمّا يقوله المُشركون ـ لاحِظ أنّ الله سبحانه قال: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾، ولم يقل ﷻ: «شُركاء الله».

---

(١) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، سورة يس: الآية ٦٥. [المترجم]

(٢) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، سورة الأعراف: الآية ٥٠. [المترجم]

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٤) سورة فاطر: الآية ١٤.

(٥) سورة المائدة: الآيتان ١١٦ ـ ١١٧.

٢ ـ يدفع الخوف والرّهبة الكافر من هَول ما يراه يوم القيامة إلى إلقاء اللّوم على غيره، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾.

٣ ـ يُحشَر في يوم القيامة كلّ ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام وغيره مع مَن عَبدها، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾.

٤ ـ حتى الأصنام تُدافع عن نفسها يوم القيامة ضدّ مَن يتّهمونهم، ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ...﴾.

٥ ـ تنطق الأصنام بإذن الله لتُكَذِّبَ استحقاقها أن تُعبَد من دون الله فتقول للمشركين: إنّما كُنتم تعبدون خيالكم المريض وليس نحن، ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إذا لم نَعترف ونُقرّ في هذه الدنيا فسنُجبَر على ذلك في يوم القيامة، ولكن، لاتَ ساعة مَندَم، ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾.

٢ ـ ستُمحى التصوّرات الباطلة والتخيّلات الفاسدة جميعاً يوم القيامة (فليس طلب الشفاعة أو التقرّب أو الأمل في العزّة والانتصار من غير الله سوى خيال وباطل)، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

□ تختلف ردود أفعال الناس إزاء ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فتكون أحياناً إيجابية وأحياناً أخرى سلبيّة، ولكلٍّ درجات ومستويات ومراحل، منها:

أ) ردود الفعل الإيجابيّة:

- فمن الناس مَن يأمل فَهم هذا السّبيل وإدراكه ليتسنّى له السّير فيه، ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).
- ومن الناس مَن يُهاجر في سبيل الله، ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾(٢).
- وهناك مَن يتمّ التّضييق عليهم ومحاصرتهم لاتّباعهم سبيل الله، ﴿أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣).
- ومِن الناس مَن يتحمّل الأذى والصعوبات في سبيل الله، ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾(٤).
- ومنهم مَن يُختار لدعوة الآخرين إلى سبيل الله، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾(٥).
- ومن الناس مَن لا يأبَه بِما يُصيبه في سبيل الله، ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٦).
- وفيهم مَن يُجاهد ويُقاتل في سبيل الله، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٧).
- ومِنهم مَن يُقتَل ويَستشهد في سبيل الله، ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٨).

ب) ردود الفعل السّلبية:

- مِنهم مَن يَحسب خطأً أنّه يسير في سبيل الله، ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾(٩).
- ومنهم مَن يَبغي طريق الله أعوجَ بحسب هواه، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾(١٠).
- وهناك مَن يَصدّ الآخرين ويمنعهم من السّير في سبيل الله، ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١١).

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٢.
(٢) سورة النساء: الآية ١٠٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.
(٥) سورة النّحل: الآية ١٢٥.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
(٧) سورة النساء: الآية ٧٦.
(٨) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.
(٩) سورة الأعراف: الآية ٣٠.
(١٠) السورة نفسها: الآية ٤٥.
(١١) السورة نفسها: الآية ٤٥.

▪ وآخرون يبذلون الغالي والرّخيص ليصدّوا الناس عن سبيل الله، ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الكُفر مُقدمّة الفساد ﴿كَفَرُواْ وَصَدُّواْ... يُفْسِدُونَ﴾، والإيمان مقدّمة العَمل الصالح ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقد ورد هذا الأمر في آيات عدّة.

٢ ـ من الطبيعيّ أن يختلف حساب قادة الكُفر وأئمّته ـ الذين ساهموا في نشر الكُفر بأقلامهم وتصريحاتهم وإمكانيّاتهم كلّها ـ عن حساب الأفراد العاديين من الكُفّار، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٣ ـ ليس المُفسدون في الأرض هم فقط الذين يعبثون بأمن المُجتمع ويعرّضونه للخطر وحسب، بل يشمل ذلك كلّ شخص أو جماعة تحول بأيّ شكل من الأشكال بين المجتمع وبين تطوّره معنويّاً، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ... بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآيات الخَمس السابقة إلى موضوع الشهادة والشهود أيضاً حيث ذلك جزءٌ من عقائدنا، وهو أنّ لكلّ أُمّة شهيداً عليها في يوم القيامة، وأنّ الرسول الأعظم ﷺ هو الشاهد والشهيد على الأمّة الإسلاميّة وعلى شهداء الأُمم الأخرى جميعاً. والنقطة المهمّة هنا هي ضرورة أن تكون شهادة أولياء الله مبنيّة على الحسّ والرؤية والعِلم، وأن يكون أولئك الشهود معصومين من كلّ خطأ

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

ومنزّهين عن الكذب والزّور؛ لكي تكون شهادتهم حجّة قاطعة على جميع الناس في ذلك اليوم المهيب، أي يوم القيامة. ومن الواضح أنّ الذين يشهدون حاضر أعمال الخلق وغائبهم ويعلمون باطنهم وظاهرهم هم المقبولة شهادتهم يوم القيامة أمام الله والأمم جميعاً، ليسوا سوى الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، فهم العالِمون بتصرّفات الناس وأفعالهم وأقوالهم بإذن الله، ولا أحد غيرهم.

- ورد في تفسير الصافي[1] عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: **«نَحْنُ وَاللهِ نَعْلَمُ ما في السّماواتِ وَما في الأرْضِ وَما في الجَنّةِ وَما في النّارِ وَما بَيْنَ ذلِكَ؛ إنَّ ذلِكَ فِي كِتابِ الله»**. ثمّ تَلا هذه الآية. وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: **«إنّ اللهَ أنْزَلَ في القُرْآنِ تبْيانَ كُلّ شَيْء حَتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه هذه الأمّة»**. وأضاف أنّه لو طُلِبَ منه تقديم دليل وسَند لما يقوله لأخرج لهم ذلك من القرآن الكريم. ورُوي عن الإمام علي عليه السلام أنّ أخبار هذه الأمّة وأخبار الماضين والآتين والسموات والأرض موجودة في القرآن الكريم[2].

- وفي جوابه عن أسئلة رأس الجالوت في المناظرة التي حدثت بينه وبين جماعة من رؤساء بعض الأديان، قال الإمام الرّضا عليه السلام: **«مِن آياتِه [أي النبيّ صلى الله عليه وآله] أنه كانَ يَتيمَاً فَقيراً راعِياً أجِيراً لم يَتَعَلّم كِتاباً وَلَم يَخْتَلِف إلى مُعَلّم ثُمّ جاءَ بالقرآنِ الذي فِيهِ قَصَص الأنبياءِ عليهم السلام وأخبارهم حَرْفاً حَرْفاً وأخبار مَن مَضى ومَن بَقِيَ إلى يَومِ القِيامة»**[3].

- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«ما مِنْ أمْرٍ يَخْتَلِف فِيه اثْنان إلّا وَلَه أصْلٌ في كِتابِ اللهِ عزّ وجلّ، وَلكِن لا تَبْلُغُهُ عُقُولُ الرِّجال[4]»**.

- القرآن الكريم بيان وتبيان لكلّ شيء ولكن ليس بإمكان كلّ أحد فَهم ما فيه

---

(١) الجزء الثالث، ص ١٥١.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) الصّدوق، عيون أخبار الرّضا، ج٢، ص ١٦٦. [المترجم]

(٤) تفسير نور الثّقلين، ج٢، ص ٧٥.

وإدراكه، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله، إن القرآن: «**على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء**»[١].

يكون تبيان كلّ شيء إمّا بشكل مُباشر أو من خلال الآيات التي تتضمّن المبادئ والأصول، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢]، أو قوله ﷻ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ يُعَدُّ إشراف أولياء الله وشهادتهم على أعمالنا مبدأً قرآنياً مُسلَّماً به، ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾.

٢ ـ للشّهداء يوم القيامة مراتب ومنازل، وعلى كلّ أمّة شهيد وإمام ونبيّ يشهد على كلّ فرد فيها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٣ ـ نَبيّنا ﷺ شاهد على بقيّة الأنبياء عليهم السلام وكتابه (القرآن الكريم) تبيان لكلّ شيء، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤ ـ القرآن الكريم كتاب جامع وبيان لكلّ ما يحتاج إليه المسلمون، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

٥ ـ يستلزم التسليم والإذعان الهداية والرّحمة والبشارة الإلٰهيّة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

□ تُمثّل هذه الآية الشريفة إعلاناً إسلامياً وعالمياً كان الإمام الباقر عليه السلام يتلوها في

(١) تفسير الفرقان.
(٢) سورة الحشر: الآية ٧.
(٣) سورة النّحل: الآية ٤٤.

خطبة صلاة الجمعة. وفي ذلك يقول الفيض الكاشاني في تفسيره: «لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنّه تِبيانٌ لكلّ شيء»[1]. والجدير بالذّكر أنّ الأوامر والنواهي الموجودة في هذه الآية موجودة كذلك في الأديان جميعاً ولم يتمّ نسخها أو إبطالها إطلاقاً.

ويُقال، إنّ الوليد بن المُغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية، فكأنّه رَقّ له وقال: **«والله إنّ لقَوله الذي يَقوله حلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّه لمُثمِر أعلاه مُغْدِق أسفله وإنّه لَيَعْلو ولا يُعْلى عليه وإنّه ليُحَطّم ما تَحْتَه»**[2]! وعن عثمان بن مظعون أنّه قال: «كنتُ أسلمتُ استحياءً من رسول الله ﷺ ولم يقرّ الإسلام في قلبي بعد. فكنتُ ذات يوم عنده حال تأمّله فشخص بَصره نحو السماء كأنّه يَستفهم شيئاً. فلمّا سري عنه سألته عن حاله فقال: **«نعم؛ بينما أنا أحدّثك إذ رأيتُ جبرائيل ﷺ في الهواء فأتاني بهذه الآية** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾**»**. فقرأها عَلَيَّ إلى آخرها فقَرّ الإسلام في قلبي»[3].

- **«بالعدل»** ـ بفَتح ثمّ سُكون ـ ما أُدرِكت مُساواته بالبصيرة و(العِدْل) ـ بكَسر ثمّ سُكون ـ ما تُدرَك مُساواته بالحواسّ. و﴿بِالْعَدْلِ﴾ هو أن يعطي الشخص ما عليه ويأخذ أقلّ مِمّا له، و﴿الْإِحْسَانِ﴾ أن يُعطي أكثر مِمّا عليه ويأخذ أقلّ مِمّا له[4][5].

والعدل كذلك هو تجنّب الإفراط والتفريط سواء في العقائد أو في السلوك الشخصيّ أو الاجتماعي، وهذه الآية تُخاطب كلّاً من الفرد والمجتمع على السّواء. ولا شكّ في أنّ العَدْل هو رَمز الخلود في نظام الخلق، فقد قال رسول

---

(١) تفسير الصافي، ج٣، ص ١٥٢.

(٢) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب).

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، (بحث روائيّ) ذيل الآية.

(٤) مفردات القرآن، الراغب الأصفهانيّ.

(٥) قال أمير المؤمنين علي ﷺ: «العَدْلُ الإنْصَافُ وَالإحْسَانُ التَّفَضُّل». نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٢. [المترجم]

الله ﷺ: «بِالْعَدْلِ قامتِ السَّمَواتِ وَالأَرْض»[1]، وأُولى المبادئ التي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام في نظام التشريع.

- «الإحسانُ» كلمة مُباركة تشمل في ثناياها الخدمات المالية والفكرية والثقافيّة والعاطفية. وتُطلَق كلمة ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ على ذَنب كبير وفاضح[2]، و«المنكر» ما أنكره العَقل والفطرة والشَّرْع ونهوا عنه.
- يقول سيّد قطب في تفسيره المسمّى (في ظلال القرآن): «إنّه لا جدوى من المحاولات الجزئيّة حين يفسد المجتمع كلّه وحين تطغى الجاهليّة، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله، وحين يتّخذ له شريعة غير شريعة الله. فينبغي عندئذٍ أن تبدأ المحاولة من الأساس وأن تنبت من الجذور وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض. وحين يستقرّ هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكن إلى أساس...»[3].

التعاليم:

١ ـ هل يمكن لذي لُبّ أن يتصوّر بأنّ الله الذي يدعو الناس إلى العدل والإحسان هو نفسه غير عادل ـ والعياذ بالله ـ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

٢ ـ تقتضي الضرورة وجود كلّ من العَدل والإحسان جنباً إلى جنب ولولا ذلك لأصبحت القوانين جافّة لا تألفها القلوب، ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾. (فالعدل هو المقدار الواجب، أمّا الإحسان فهو المقدار المُستحبّ).

٣ ـ لا شكّ في أنّ الله ﷻ هو أوّل الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المُنكر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ... وَيَنْهَىٰ﴾.

٤ ـ إنّ لمساعدة الأقربين وصِلة الرَّحم أولويّة كُبرى في الإحسان، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

---

(١) تفسير الصافي، ج٦، ص ١٠٦. [المترجم]

(٢) «الفَحْشاء هو كلّ ما تَنفر عنه الطّباع السليمة ولا تُقرّه العُقول المستقيمة». محمد قلعجي، معجم لغة الفقهاء، ص ٣٤٠. [المترجم]

(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج٢، ص٤٠٨.

٥ ـ الأمر بالمعروف يسبق النّهي عن المُنكر والعَدْل مُقَدَّم على الإحسان، ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ... وَيَنْهَىٰ﴾.

٦ ـ ينبغي أن تتمّ عمليّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر في جوّ يسوده الصفاء والمحبّة، ولا بدّ من أن يكون ذلك في إطار الموعظة الحَسنة والنصيحة الطيّبة، ﴿يَأْمُرُ... يَنْهَىٰ... يَعِظُكُمْ﴾.

٧ ـ لا يجوز للآمرين بالمعروف أن يتوقّعوا قبول الناس جميعاً لما يقولونه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٨ ـ يميل الناس بالفطرة إلى العدل والإحسان وينفرون بها كذلك من الفحشاء والمُنكر، إلَّا أنّ وساوس الشيطان الرّجيم والغرائز المزروعة في الناس هي التي تتسبّب في غفلتهم، وهنا لا بدّ من إيقاظهم وتذكيرهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٩ ـ عند النّهي عن المُنكر لا بدّ أوّلاً من التصدّي للذنوب الفاضحة، كما أنّ الأمر بالمعروف يبدأ بالدّعوة إلى القيام بالواجبات، ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ... وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾.

١٠ ـ التوصية والأمر بالعدل والنّهي عن الفحشاء سُنّة إلٰهيّة أزليّة، ﴿يَأْمُرُ... يَنْهَىٰ... يَعِظُكُمْ﴾. (الفعل المضارع المُستخدَم في هذه الآية يدلّ على الاستمرارية).

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

❑ تشير الروايات إلى أنّ المقصود بالعَهد المذكور في هذه الآية هو العهد الذي يقطعه الناس مع أولياء الله وأنبيائه[١].

---

(١) راجع: تفسير الصافي وتفسير الدرّ المنثور.

□ إذا كان الناس أوفياء في عهودهم فإنّ الله سبحانه سيَفي كذلك بِما وَعد به من الألطاف، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ يجب الالتزام بالعهود والأيمان الإلٰهيّة والوفاء بها، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

٢ ـ يجب الوفاء بالعهد والأيمان مع النيّة والقصد الجاد، ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، وهذا ما صرّحت به الآية (٨٩) من سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

٣ ـ إنّ الله تعالى يعلم إذا نقضنا الأيمان وسوف يُجازينا بحسب ذلك، سواء عَلِمنا ذلك أم لم نعلَمه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾

إشارات:

□ يَذكر المؤرّخون أنّ امرأة حمقاء كانت تغزل القطن والصوف في قسم من النهار ثمّ تنقض ما غزلته في النصف الآخر منه. فسار ذلك مثلاً على الحمق وهو ما استخدَمه القرآن الكريم في هذه الآية للإشارة إلى بعض الناس ممّن يُبطلون أعمالهم وينقضون أيمانهم وعهودهم.

□ ويُقال إنّ فاطمة الزّهراء عليها السلام ذكرت هذه الآية في خطبتها التي ألقتها في مسجد المدينة أمام الخليفة الأوّل وبطانته؛ منوّهة إلى نقضهم عَهد الله ورسوله صلى الله عليه وآله الذي أخذاه عليهم بشأن الإمام علي عليه السلام في غدير خُمّ[2].

□ تتميّز أمثال القرآن الكريم بحلاوة غريبة وبلاغة عالية واحتفاظ بالمعنى

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.
(٢) انظر: تفسير الفرقان.

والمضمون لا نجده في أيّ كتاب آخر؛ بحيث يمكن إيرادها في كلّ زمان ومكان وفي كلّ مناسبة؛ أمثال يفهمها تلميذ في الابتدائية ولا يستخفها الفيلسوف.

□ تُفسَّر جملة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ على نحوين اثنين:

أ) لا تنقضوا عهودكم مع جماعة صغيرة وبسيطة تمشّياً مع أهواء جماعة أكثر عدداً وأقوى عُدّة.

ب) لا تنقضوا عهودكم مع جماعة صغيرة وبسيطة لأنّكم أصبحتم جماعة أكثر عدداً وأقوى عُدّة.

التعاليم:

١ ـ نَقض العهود والأيمان معناه إبطال كلّ الجهود، ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

٢ ـ كلّما كان العهد محكماً وقوياً كان نقضه أقبح وفَسخه أبشع، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾.

٣ ـ نَقض العهد والأيمان باستمرار عار لا يُمحى، (و﴿أَنكَٰثًا﴾ جَمع «نِكث»).

٤ ـ لا تَعبثوا بالمُقدّسات (ولا تجعلوها وسائل للخداع)، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾[1].

٥ ـ عادة ما تكون السلطة والعدّة والعَدد والضجّة السياسيّة والاقتصادية مقدّمة لنَقض العهود، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

٦ ـ يُمثّل الوفاء بالعهود والأيمان أسلوباً من أساليب الاختبار والامتحان، ﴿يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

٧ ـ تذكُّر المعاد يؤدّي إلى تعزيز التقوى ومُراعاة العهود، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

(١) «الدّخل أن يكون الباطن خلاف الظاهر وأصله أن يدخل الشيء ما لم يكن منه»، تفسير الصافي، ج٦، ص ١٥٣. [المترجم]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

□ يهدي الله سبحانه الناس جميعاً من خلال فطرتهم؛ لكنّهم، ووفقاً لميزة الاختيار والحرّية الممنوحة لهم، ينقسمون إلى مجموعتيْن:

أ) **المجموعة الأولى،** وتضمّ مَن اختاروا السّير عَكس تيّار العقل والفطرة وهؤلاء بعيدون عن التوبة، وبعيدون عن الإنابة، وقد ترك الله سبحانه أفراد هذه المجموعة على حالهم وأضلّهم بما اختاروه طوعاً.

ب) **المجموعة الثانية،** وهؤلاء ساروا على ما فُطِروا عليه وأطاعوا أوامر الله ﷻ، فأعانهم تعالى وهداهم إلى سواء السّبيل.

وهكذا، فإنّ المقصود من أنّ الله سبحانه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ و﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هو المرحلة التي تَلي اختيار الإنسان طريقه. فعلى سبيل المثال، يقوم المُعلّم في اليوم الدراسيّ الأوّل بتقديم مُحاضراته ودروسه إلى جميع الطلاب دون استثناء، فنجد المُعلّم بعد فترة يُخصّص وقتاً إضافيّاً لجماعة مُعيّنة ممّن يبذلون جهداً أكثر من غيرهم لفَهم الدّرس واستيعاب المادّة فيما يترك الآخرين الذين يكتشف أنّهم لم يأتوا إلى المدرسة إلّا عنوة أو لقضاء الوقت فقط. فلو لم تكن هداية الإنسان أو ضلاله باختياره هو، لَما قال الله ﷻ في آخر الآية: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. إذاً، لا شكّ في أنّ مساءلتنا يوم القيامة تدلّ على أنّنا كنّا أحراراً، وذلك لقُبح مُساءلة المجبر.

التعاليم:

١ ـ كان بمقدور الله سبحانه إجبار الناس وإرغامهم على ما يريد، لكنّ رحمته وسُنّته اقتضت أن تتركهم أحراراً في ما يختارون، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾.

٢ ـ الإنسان حُرّ تماماً في اختيار العقيدة والسّبيل اللذيْن يريدهما، ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾.

٣ ـ إنّ مساءلتنا يوم القيامة ليست بالهَزل، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾.

٤ ـ ستشمل المساءلة يوم القيامة كلّ ما قام به الإنسان، ﴿عَمَّا كُنتُمْ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

□ قال الرّاغب الأصفهانيّ: «الصّدود والصَدّ قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً، وقد يكون صَرْفاً وَمَنْعاً»[1]، ومعنى ﴿دَخَلًۢا﴾ هو الدَّغَل والخَديعة والمَكْر.

التعاليم:

١ ـ إذا رأيتم شيوع الخطر واستفحاله حاولوا تذكّر وصايا الله وأوامره. (وقد أشارت الآية (٩١) من هذه السورة إلى النّهي عن نَقض الأيمان بعد توكيدها)، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا﴾.

٢ ـ نَقض العهود وسوء استغلال المُقدّسات يؤدّيان إلى عاقبة السوء، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

٣ ـ أحياناً يكون ذَنب واحد سبباً لوقوع آخرين في الذنوب. (فنَقض العهود هو مُقدّمة لعاقبة السّوء وهذه الأخيرة هي ديباجة لصدّ الآخرين عن سبيل الله)، ﴿صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ استخدمت الآيات من (٩١) إلى (٩٥) من هذه السورة بعض التعبيرات المهمّة

---

(١) مُفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص ٥٦٩.

للإشارة إلى نَقض الأيمان وعقوبة ذلك، ما يدلّ على خطورة هذا الذّنب وجسامته؛ مثل قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ و﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ و﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾. وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

التعاليم:

١ ـ لا رَيب في أنّ الجَري وراء منافع دنيوية هو السبب في نَقض العهود، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢ ـ مهما كان الثّمن المدفوع لكم لنَقض العهد فهو ثمن بَخس لا مَحالة، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٣ ـ فقدان ألطاف الله سبحانه ونَقض العهد والأيمان للوصول إلى اللّذة الزائلة والسعادة الموقّتة، هي سذاجة بكلّ ما للكلمة من معنى، ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ما مِن أحد أو شيء باقٍ سوى الله ﷻ، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ...﴾.

٢ ـ يتطلّب نَبذ الماديّات والسّير إلى الله والالتزام بالعهود والوفاء بالوعود، صبراً وجَلَداً ومُحاربة شرسة مع أهواء النّفس، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾.

٣ ـ الانقطاع عن الملذّات الدنيوية ليس حرماناً بل سعادة حقيقيّة، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾.

٤ ـ ما مِن مُشترٍ أفضل من الله سبحانه؛ لأنّه الوحيد الذي يشتري البضاعة المُزجاة بأغلى الأثمان، ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: هي الحياة التي يمتلك فيها الإنسان قلباً مطمئناً وروحاً مؤمنة، فالمؤمن يرى بنور الله سبحانه، ومثل هذا الإنسان لا تنساه الملائكة من الدّعاء ولا يغيب عنه العون والمَدد الإلٰهيّين، ولا ريب في أنّ هذا الإنسان لا يعرف الخوف ولا يعتريه الحُزن.

التعاليم:

١ ـ العُمر والاثنية والجنس والوضع الاجتماعي أو السياسيّ أو غيره، كلّ ذلك ليس معياراً للأجر إطلاقاً، ﴿مَنْ عَمِلَ...﴾.
٢ ـ لا فرق بين الرّجل والمرأة في الحصول على الكمالات، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.
٣ ـ الإيمان هو الشّرط الوحيد لقبول العمل الصالح، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.
٤ ـ يُكافأ المَرء ويُثاب حتى على العمل الواحد، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.
٥ ـ لاحِظ أنّ القرآن الكريم يذكر المرأة ويشيد بدورها أينما وُجِدَت عقيدة جاهليّة تحاول إهانتها، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.
٦ ـ لا يكفي العمل الصالح بمُفرده بل لا بدّ لصاحبه من أن يكون صالحاً أيضاً، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا... وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.
٧ ـ إنّ مَثل الإنسان الفاقد الإيمانَ والعمل الصالح كمَثَل الجَسد الميت لا رُوح فيه، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾
إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ يمكن أن يكون لكلّ عمل صالح آفة، كما أنّ آفة العزّة هي التكبّر، وآفة تقديم

الخدمة للناس هو أن يشعروا بأنّنا نَمنّ عليهم، بل وحتى قراءة القرآن قد تُصاب بآفة كالرّياء والنّفاق وكسب المال والمنافسة غير الشريفة ومُخادعة الناس وسوء الفهم والتفسير بالرّأي وما إلى ذلك ممّا يستوجب لجوء الإنسان إلى الله سبحانه والاستعاذة به من شرّ كلّ الآفات والشياطين عند تلاوته القرآن الكريم.

□ قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**قَارِئُ الْقُرْآنِ يَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: قَلْبٍ خَاشِعٍ وَبَدَنٍ فَارِغٍ وَمَوْضِعٍ خَالٍ**»[1].

□ إذا تعاملنا مع القرآن الكريم من خلال التفاسير وآراء الأئمّة المعصومين عليهم السلام «**كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي لَنْ يَفْتَرِقَا**» وتدبّرنا فيه بقلوب طاهرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فإنّه سيكون سبباً لهدايتنا وقوّة لإيماننا وزيادة في عِلمنا. وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[2].

□ تشير الروايات إلى أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كلّما أراد قراءة القرآن وتلاوته ابتدأ بالقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»[3].

التعاليم:

١ ـ لا تَنسوا أنّ خطر تأثير الشيطان الرّجيم قد يُصيب أكرم النّاس وأقدس الأعمال. (فحتى النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله بحاجة إلى أن يتعوّذ من الشيطان الرّجيم إذا أراد تلاوة القرآن الكريم).

٢ ـ الشيطان الرّجيم لا يستثني أحداً من إيقاعه في شراكه؛ لكنّه عاجز عن السيطرة أو التأثير على الجميع، ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٣ ـ الإيمان بالله والتوكّل عليه قلعة تَحمي الإنسان من الزّلل، ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٤ ـ التعوّذ بالله سبحانه دليل على الإيمان به والتوكّل عليه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ... ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(١) تفسير الفرقان.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٥.
(٣) تفسير كنز الدقائق.

٥ ـ تعوّذوا بالله تعالى وهو يُعيذكم، (﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ ليُعيذكَ وإلّا فلا مَلاذ ولا مَلجأ عند غيره).
٦ ـ ليس لنا إلّا الاستعاذة به وحده سبحانه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾

إشارات:

□ أقسم الشيطان الرّجيم بعزّة الله سبحانه وتعالى أن يبذل هو وقبيله وحزبه كلّ جُهد لإيقاع الإنسان في حبائله عَبر تَزيين القبائح له وقطعه الوعود الكاذبة، ومن خلال دعواته الباطلة ووساوسه الكثيرة وبالاستعانة بمَن يتولّونه من البشر.
وبناءً على ذلك ينقسم الناس إلى مجاميع وفئات عدّة، منهم:
أ) الأنبياء ﷺ حيث يحاول الشيطان الرّجيم إحباط معنويّاتهم ووضع العراقيل أمام أهدافهم وأمنياتهم، لكن ليس له سلطان عليهم، ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[١].
ب) المؤمنون الذين يُحاول الشيطان الاتّصال بهم وإغراءهم، لكنّ هؤلاء كذلك ينجون بأنفسهم منه بعد تذكّرهم أوامر الله ونواهيه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٢].
ج) الأفراد العاديّون الذين يستطيع الشيطان الرّجيم النّفوذ إلى أعماق نفوسهم وصدورهم وإغوائهم، ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٣].
د) الفاسقون الذين تمكّن الشيطان من التسلّط على نفوسهم وأرواحهم فلم يَجد مقرّاً أفضل منها ولا مُقاماً أمنع، فسيطر على أفكارهم واستأثر بقلوبهم وكلّ عضو من أعضاء جسدهم وسيطر عليها سيطرة كاملة، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٤][٥].

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٥٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
(٣) سورة الناس: الآية ٥.
(٤) سورة الزّخرف: الآية ٣٦.
(٥) «القَرِينُ: المُصاحِبُ». لسان العرب. [المترجم]

التعاليم:

١ ـ مِمّا يُؤسَف له أنّ الإنسان هو الذي يُشجّع الشيطان الرّجيم على أن يتسلّط عليه ويُؤثّر فيه، ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[1].

٢ ـ لا شكّ في أنّ المُوَحّدين المُخلصين في أمان وصَون من حبائل الشيطان الرّجيم إلّا الذين راحوا يلهثون وراء غير الله تعالى فهم أولياء الشيطان، ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ... هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

- يغيّر الطبيب أحياناً وَصفته الدوائية الأولى التي أقرّها للمريض وذلك لحدوث تغيير في حال المريض نفسه، ومثل هذا التغيير موجود كذلك في الآيات القرآنية ويُطلَق عليه اسم (النّسْخ). وعندما كان أعداء النبيّ ﷺ والإسلام يرونَ حدوث تغيير في أمر إلهيّ ما، كانوا يسخرون ويقولون: «إنّك تتّخذ أتّباعك سخريّاً، فها أنتَ تُغيّر وتبدّل في القوانين والتعاليم كلّ يوم وكيفما شِئت، فتُلفّق ما تشاء وتُلغي وتُبطل ما تحبّ وترغب».

التعاليم:

١ ـ ثمّة نوعان من القوانين (أو التعاليم) في الدّين: (أ) قوانين ثابتة و(ب) قوانين متغيّرة، أمّا تغييرها وتبديلها فبيَد الله سبحانه وحده، ﴿بَدَّلْنَآ﴾.

٢ ـ كلّ قوانين الله ﷻ لها قيمتها وشأنها في كلّ زمان وفي كلّ الظروف، ﴿ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾.

٣ ـ الناس يجهلون سِرّ القوانين والتعاليم الإلٰهيّة، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ...﴾.

---

(١) «يُحِبّونَه ويُطيعُونَه» تفسير الصافي. [المترجم]

٤ ـ التغيير في القوانين الإلٰهيّة لا يدلّ إطلاقاً على الشكّ والريبة، أو النّدم والتّراجع، أو التطوّر العلميّ والتطبيقيّ، أو الضّعف والخَلل في التقنين، بل هو دليل على تدبير الله سبحانه وحكمته وأخذه الظروف بالاعتبار، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

٥ ـ يُحاول العدوّ استغلال كلّ الفُرَص المُتاحة والتشبّث بأيّ مَعاذير واهية، ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ... قَالُوٓا۟...﴾.

٦ ـ قد يكون الجَهل أساس بعض الانتقادات والتُّهَم والشّبهات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

إشارات:

□ المقصود بـ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو (الرّوحُ الأمين وجِبريل عليه السلام، سُمِيَ بذلك لطهارته من الدّنس وعصمته من الخطأ والزّلل)[١].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من الردّ على الاتّهامات والشّبهات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو رَدّ على الشّبهة الواردة في الآية السابقة.

٢ ـ نزلت آيات القرآن الكريم تدريجيّاً، ﴿نَزَّلَهُۥ﴾. (استخدم القرآن الكريم كلمتيْن للتعبير عن نزول آياته، الكلمة الأولى هي ﴿أَنزَلْنَآ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٢]، والثانية هي ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ وذلك لأنّ نزول القرآن الكريم حدث على مرحلتيْن، ففي المرحلة الأولى أُنزِل جملة واحدة على

---

(١) قال الفخر الرازي في تفسير (مفاتيح الغيب): «﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو جِبريل عليه السلام؛ الرُّوح جبريل والقُدُس هو الله تعالى، كأنه أضافه إلى نفسه تعظيماً له». [المترجم]

(٢) سورة القدر: الآية ١.

قلب الرّسول الأعظم ﷺ إذ كان ذلك في ليلة القَدر المُشار إليها، ثمّ كان نزوله عليه ﷺ على دُفعات وبالتدريج على مَدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً).

٣ ـ كلّ ما احتواه القرآن الكريم وكلّ تغيير حدث في أيّ من آياته ودساتيره في ظروف مُعيّنة، كلّ ذلك هو حَقّ لا يداخله الباطل، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٤ ـ لا رَيب في أنّ نزول الوَحي هو شأن ربّانيّ وضرورة من ضرورات التربية الدينية، ﴿نَزَّلَهُۥ... مِن رَّبِّكَ﴾.

٥ ـ لنزول الوَحي تأثير إيجابيٌّ كبير على المسلمين، ﴿نَزَّلَهُۥ... لِيُثَبِّتَ﴾.

٦ ـ أُطلبوا من الله سبحانه التوفيق في الثبات وأسبابه، ﴿نَزَّلَهُۥ... لِيُثَبِّتَ﴾.

٧ ـ الثبات على الإيمان هو الذي يمنحه القيمة والأصالة، ﴿لِيُثَبِّتَ﴾.

٨ ـ سلامة الرّوح والانقياد الكامل لله هما شرط الهداية والبشارة، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

❑ يبدو أنّه كان هناك شخص من غير العرب يسكن مكّة، فوجد الكُفّار في ذلك فرصة لاتّهام النبيّ ﷺ بأنّه إنّما يأخذ معارفه وعلومه القرآنية من ذلك الشّخص وينسبها إلى الله سبحانه جُزافاً؛ لكنّ ذلك كان اتّهاماً باطلاً وسخيفاً للاعتبارات الآتية:

- كيف يمكن لشخصيْن أن يتعلّما من بعضهما البعض في حين لا يعرف أيّ منهما لسان الآخر؟
- لماذا لَم يدّع أيّ شخص في ذلك الوقت أنّه مُعلّم النبيّ ﷺ وأستاذه الذي يُملي عليه [وهو فَخر ما بعده فَخر خصوصاً إذا علمنا ما وصل إليه

الرسول ﷺ من العزّة والكرامة، فكيف لم ينبرِ أحد إلى مشاركته في ذلك العزّ وتلك الكرامة][1]؟

- ما هو السرّ في بقاء القرآن الكريم ثابتاً وخالداً على مَدى (٢٣) سنة على الرغم ممّا حدث خلال ذلك من اختلاف في الظروف وتغيّر في الأحوال؟
- لماذا لَم يَدّعِ المُعلّم نفسه النبوّة وترك النبيّ ﷺ يسلبه مَجده وسلطانه[2]؟
- لِمَ لَم يُجب أحد حتى يومنا هذا على تحدِّي القرآن الكريم للناس بأن يأتوا ولو بسورة واحدة تشبه سُوَرَه؟
- كيف يُمكن لرَجل أُمّيّ أن يأتي بكلام في الجاهلية لا تزال عقول العُلماء والمُفكّرين إلى يومنا هذا حائرة في معرفة جُزء من أسراره؟
- وأخيراً، كيف تسنّى لرَجل أعجميّ أن يأتيَ بكتاب عَجز فطاحل البلاغة وفحول الفصاحة من العرب في ذلك الوقت عن الإتيان بسورة واحدة مثل سُوَره؟

التعاليم:

١ ـ من الأساليب البلاغية التي استخدمها القرآن الكريم نَقل كلام [شُبهات] المُعارضين إلى جانب الإجابة عنها، ﴿يَقُولُونَ... لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ...﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ الاستدلال القائم على القول: «لا دُخان من غير نار»، هو استدلال سقيم وباطل، ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

إشارات:

□ قد تكون هذه الآية الشريفة استمراراً للجواب المذكور في الآية السابقة وأنّ

---

(١) الزيادة بين المعقوفتين من المُترجم.
(٢) الزيادة بين المعقوفتين من المُترجم.

المُراد من تعليم النبيّ ﷺ هو اللُّغة؛ فكيف يُمكن لذلك الشخص الأعجميّ أن يُعلّم الرّسول ﷺ وهو عربيّ كلّ تلك الفصاحة والبلاغة؟ أمّا إذا كان المقصود بذلك هو مضمون القرآن الكريم ككلّ فاعلموا [أيّها الكافرون] أنّ الله لا يهدي الذين لا يُؤمنون بآياته؛ أي، أنّ ذلك المُعلّم الذي لا يُؤمن هو نفسه بآيات الله سبحانه ليس له أن يعرف كلّ تلك العلوم القرآنية السامية والمعارف الإلٰهيّة الحقّة، فما بالُك في تعليمه تلك العلوم غيرَه[1].

وقد تكون هذه الآية بمثابة إعلان وتحذير للذين يتّهمون النبيّ ﷺ بأنّه يأخذ دروسه لدى مُعلّم ما، وأنّ الله تعالى لن يهدي مثل هؤلاء أبداً.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ اتّهمَ الكُفّار في الآيتيْن السابقتيْن الرّسول الكريم ﷺ قائلين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وأنّه [حاشَا لله] يُنسب كلّ ذلك إلى الله كذباً وبُهتاناً. فردّ الله تعالى تُهمتهم تلك بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، وأضاف ﷻ أنّه ليس للهِ سبحانه أن يُعلّم كافراً كلّ تلك المعارف والعُلوم. وفي هذه الآية الشريفة يُصرّح سبحانه وتعالى قائلاً: إنّ النبيّ ﷺ ليس مِمّن يفترون على الله الكَذب أو يُنسبون إليه ما لَم يَكن مِنه، بل: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

□ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ الكذّاب يَظنّ أنّ الآخرين كذّابون مثله، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ... هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الميزان.
(٢) سورة الحاقّة، الآيات ٤٤ ـ ٤٦.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾

إشارات:

□ في بداية الدّعوة الإسلاميّة، عمدَ كُفّار مكّة إلى تعذيب والدَي الصحابيّ الجليل عمّار بن ياسر ما تسبّب في وفاتهما وذلك لإسلامهما وإيمانهما برسالة النبيّ ﷺ. فلمّا جاء دَور عمّار نفسه في التعذيب، طلب المشركون منه أن يمدح آلهتهم ليفرجوا عن أبويه. فلم يستطع عمّار رؤية والديه المُسنَّين وهما يتعرّضان إلى كلّ ذلك العذاب، فَأَجْرَى كَلِمَةَ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ بِقَلْبِهِ مُصِرّاً عَلَى الْإِيمَان، فأخلوا سبيله لكنّ أبويه تُوفّيا بسبب التعذيب! وهكذا انتقد بعض المسلمين عمّاراً لذكره آلهة قريش بخير واتّهموه بالمُرُوق عن الإسلام. فَأَتَى عَمَّارٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ يَبْكِي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ ويَقُول: **«إِنْ عادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُم»**! ثمّ قال لأصحابه: **«إِنَّ عَمَّاراً مَلِيءٌ إِيمَاناً مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِه»**[1].

ويُطلَق على مِثل هذه الحالة (التقيّة) وقد أقرّ لها الإسلام بعض الأحكام. لكن ينبغي علينا أن نعلم أنّ موارد التقيّة تختلف عن بعضها البعض، فأحياناً تكون التقيّة واجبة وأحياناً يتطلّب منّا الأمر قول كلمة الحقّ ولو أدّى ذلك إلى التضحية بأرواحنا تاركين التقيّة وراء ظهورنا، وهو ما فعله سحرة فرعون عندما شاهدوا مُعجزات النبيّ موسى عليه السلام فآمنوا على الفور ولم يأبهوا بتهديدات فرعون لهم، بل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾[2]، فنفّذ فرعون تهديده فيهم واستُشهدوا عن آخرهم. وقد مدح القرآن الكريم هذا النوع من المقاومة والصّلابة والثبات على العقيدة. ومهما يكن من أمر

(١) تفسير العياشي، ج٢، ص ٢٧١. (٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٢٥ و١٢٦.

فإنّ التقيّة لا تدلّ أبداً على الارتداد أو الضّعف والخوف أو الرّجوع عن الحقّ أو تقهقر الذّات أو الاستسلام، بل هي نوع من الاستتار والاستراتيجيّة المطلوبة للمحافظة على القوّة وتنفيذ البرامج الدينيّة اللازمة من دون تعرّضها إلى أيّ خلل أو أضرار لا مُبرّر لها. وقد شُبّهت التقيّة في بعض الروايات بالدّرع والحرز[1] كذلك.

التعاليم:

١ ـ جزاء المُرتدّ غضب الله في الدنيا والآخرة، ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ... غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٢ ـ كُلّ إنسان مُعرّض للخطر والعاقبة السيّئة، ﴿كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾.

٣ ـ يتعامل الإسلام مع بعض الحالات الضرورية بشكل استثنائيّ، ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾.

٤ ـ يختلف تكليف الإنسان في حالات الإكراه والقسر، ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾.

٥ ـ لا قيمة لأيّ اعتراف يُنتزَع بالإكراه (تحت نَيْر التعذيب والضغوط)، ﴿مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ...﴾.

٦ ـ الإيمان بالقلب هو جَوهر الإسلام وروحه، ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾.

٧ ـ قد يؤثّر الإكراه في الجسم لكن لا سلطان له على القلب، ﴿أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾.

٨ ـ أسوأ الكُفر هو الانفصال عن المسلمين والعودة إلى أحضان الكُفر، ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾.

٩ ـ الإيمان نوعان: نوع ارتبط مع روح الإنسان فهو خالد بخلودها ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ وآخر عارض زائل ﴿كَفَرَ... مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ

---

(١) الموضع الحصين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التعلّق بالدنيا وملذّاتها وتفضيلها على الآخرة إنذار بتَرك الإيمان والارتداد والبَوْء بغضب الله، ﴿ٱسْتَحَبُّوا...﴾. (ومن عوامل اللّجوء إلى الماديّات طَلب الرفاهية والتهرّب من القيود الضرورية ﴿ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾).

٢ ـ التعلّق بالدنيا يدفع بالإنسان إلى شَرح صدره وروحه لتقبّل الكُفر، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التعلّق بالدنيا واستحبابها هما سبب الغفلة عن الآخرة والعامل الرّئيس لعدم إدراك الحقائق وسماعها ورؤيتها، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا رَيب في أنّ مَن يُفضّل الدّنيا على الآخرة هو الخاسر الأكبر؛ لأنّه أهدر طاقاته وقُدراته عَبثاً، ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

إشارات:

- إذا نظرنا إلى الآيات السابقة سنلاحظ أنّ المسلمين ينقسمون إلى مجموعات عدّة:

أ) مجموعة استُشهدت بسبب تعذيب الكُفّار لها من دون أن يضطرّهم ذلك إلى قول كلمة كُفر واحدة، كوالديْ عمّار بن ياسر (عليهم الرّحمة).

ب) مجموعة كان الإيمان يغمر قلوبهم؛ لكنّهم اتّبعوا التقيّة للنّجاة بأرواحهم، مثل عمّار بن ياسر.

ج) مجموعة كَفرت بعد إيمانها، فأصبحوا مُرتدّين.

د) مجموعة هاجرت وجاهدت وصبرت على الأذى في جنب الله وتابت وحافظت على دينها بعد وقوعها في الفتنة والضلالة.

❑ المرتدّ نوعان:

أ) المرتدّ عن فطرة، وهو المولود في الإسلام عن والديْن مُسلميْن، ثمّ كَفر وارتدّ. أمّا حُكمه فهو القتل ومصادرة أمواله ولا يُستَتاب (لما تسبّب بارتداده من توجيه ضربة إلى المجتمع الإسلامي وخلل في عقيدة الناس).

ب) المرتدّ عن مِلّة، وهو المولود عن أب وأمّ غير مسلميْن (كالنّصرانيّ مثلاً) فأسلمَ هو ثمّ ارتدّ، وحُكم هذا الشخص أن يُستَتاب [فإن رجع وإلّا قُتِل][1].

التعاليم:

١ ـ لا قيمة للهجرة إلّا مع الجهاد والصّبر والثبات والمقاومة، وإلّا فهي ليست سوى فرار من الواجب، ﴿هَاجَرُواْ... جَٰهَدُواْ... وَصَبَرُوٓاْ﴾.

٢ ـ المقاومة والصمود والجهاد هي من شروط المغفرة والرّحمة الإلٰهيّتيْن، ﴿هَاجَرُواْ... جَٰهَدُواْ... وَصَبَرُوٓاْ... مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٣ ـ لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، وبالإمكان مُعالجة أيّ انحراف أو فتنة وتصحيحهما. (وكذلك الحال بالنسبة للمرتدّ، إذ بإمكانه العودة إلى حظيرة الإيمان والتوبة والإنابة)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، باب المُرتدّ عن ملّة. [المترجم]

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

إشارات:

□ لا يمكن تصوّر المشهد الرّهيب يوم القيامة، حيث ترى الكافرين يتخبّطون ويهلوسون في كلامهم لإنقاذ أنفسهم من عذاب يومئذ، فمرّة يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]، ومرّة يدّعون: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[2]، وأخرى يُعاتبون أقرانهم قائلين: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة يُجمَع الناس جميعاً ولا يُستثنى منهم أحد أبداً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢ ـ يكون الإنسان في يوم القيامة في وضع لا يسمح له بالتعرّف على أيّ شخص أو شيء، فليس في ذهنه سوى التفكير في وسيلة لتخليص نفسه وإنقاذها، ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

٣ ـ لا يُمحى أيّ من أعمالنا التي ارتكبناها في هذه الدنيا، بل كلّ شيء مُدوّن ومكتوب في إمام مُبين، ﴿تُوَفَّى... مَّا عَمِلَتْ﴾.

٤ ـ لا شكّ في أنّ حساب يوم القيامة يكون وفقاً لأعمال الإنسان نفسه، فلا ظُلم ولا انتقام، ﴿مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

إشارات:

□ يعود السّبب في استخدام القرآن الكريم كلمة «الباس» في هذه الآية مثلاً إلى أنّ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٨.
(٣) سورة سبأ: الآية ٣١.

كلّاً من الجوع والخوف يُحيطان بكلّ جزء من حياة الإنسان كاللّباس الذي يحيط بالبدن، كما هي الحال مع كلمة «الذَّوْق» المُستخدَمة كثيراً في القرآن الكريم كناية عن ذلك أيضاً[١].

التعاليم:

١ ـ التاريخ الإنسانيّ مبنيّ على أساس الضوابط والقوانين والسُّنّة الإلٰهيّة، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

٢ ـ ليَعتبر أولو الألباب من أمثلة القرآن الكريم حول تاريخ الأقوام الماضية، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

٣ ـ تحتلّ مسألة الأمن والاستقرار موضوع الصّدارة في لائحة النِّعَم وهي مُنطلَق المجتمع للتطوّر والاتّساع في الرِّزق والاقتصاد، ﴿ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾.

٤ ـ ليس بالضرورة أن يقوم بلد أو شعب ما بتوفير كلّ ما يحتاج إليه والاكتفاء ذاتياً بشكل كامل، بل يُمكن تأمين بعض الحاجات والسِّلَع عن طريق الاستيراد، ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

٥ ـ العذاب الدنيويّ ليس سوى قطرة في بحر مُقارنة بعذاب يوم القيامة، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ يُعاقَب مَن يكفر بالنّعمة في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فَكَفَرَتۡ... فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ الكُفر بالنِّعَم سبب كافٍ لزوالها، ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾.

٨ ـ ربما كان الفقر (التدهور الاقتصاديّ) والخوف (عدم استتباب الأمن) دليلاً على تجاهل المجتمع المبادئ الدينيّة وإهماله لها، ﴿فَكَفَرَتۡ... فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾.

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، سورة آل عمران: الآية ١٠٦؛ أو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، سورة الزّمر: الآية ٢٤. [المترجم]

٩ ـ يُعاقَب الكافِر بالنّعمة جسدياً (بالفقر والمَجاعة) ونفسيّاً (بالخوف والقلق)، ﴿نَكَفَرَتْ... فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تُعتبر هذه الآية تكملة للآية السابقة، وهي تشير إلى أنّ هؤلاء الكفّار لم يكتفوا بنُكران نِعَم الله وحسب بل أضاعوا أكبر نِعمة معنوية قُدِّمت لهم وكذّبوا بها، ألا وهي نعمة إرسال الرّسل والأنبياء ﷺ، فأخذهم غضب الله وعذابه نتيجة ذلك.

التعاليم:

١ ـ كان الأنبياء ﷺ بَشراً وأشخاصاً مُرسلين من بين قومهم، وكان الكفّار يعرفونهم جيّداً؛ لكنّهم فضّلوا العناد والكُفر، ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾.

٢ ـ لا ينزل عذاب الله سبحانه إلّا بعد إتمام الحجّة على الناس، ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ... فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٣ ـ تكذيب الإنسان الأنبياءَ ظُلم لنفسه ولدينه ولإمامه، ﴿فَكَذَّبُوهُ... وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا
وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

إشارات:

□ يُجيز الدّين الإسلامي أكل كلّ ما هو طيّب وحلال؛ لكنّه لا يسمح بتناول بعض الأشربة[1] ولا أنواع مُعيّنة من اللّحوم كلَحم الخنزير لأنّ هذه الأخيرة نجسة

(١) مثل المُسكرات وما شابهها. [المترجم]

في جوهرها. إضافة إلى ذلك، فإنّ الإسلام يمنع اقتناء أيّ شيء مُشتَرى بمال مغصوب ويحرّمه، وإن كان الشيء نفسه حلالاً في ذاته.

ولمّا كان كُفران النِّعَم وتكذيب الأنبياء سبباً لنزول الغضب الإلٰهيّ، فإنّ الله ﷻ يأمرنا أن ننتفع بالنِّعَم المُحلّلة مأكولها ومشروبها بدلاً من الكُفر بأنعُمه.

التعاليم:

١ ـ عن رسُول الله ﷺ: **«لَيْسَ فِي أُمَّتِي رَهْبَانِيَّةٌ وَلَا سِيَاحَةٌ»**[1]، ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٢ ـ يُسمَح بالاستهلاك والانتفاع ضمن إطار الحلال وليس بشكل عشوائيّ، ﴿فَكُلُوا... حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

٣ ـ تتطابق تعاليم الدّين مع الفطرة تماماً، فالمأكولات التي تنسجم مع طبع الإنسان مسموح بها، ﴿فَكُلُوا... طَيِّبًا﴾.

٤ ـ الدّين الجامِع تكون تعاليمه جامعة كذلك، فمثل هذا الدّين يعتبر الطهارة الظاهرية للشيء شرطاً لاستهلاكه، ﴿طَيِّبًا﴾ وكذلك الطهارة الباطنية والحقوقية، ﴿حَلَالًا﴾.

٥ ـ الرّزق نعمة إلهيّة وهديّة ربّانية وليس نتاجاً لمهارة المرزوق أو شطارته، ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ... نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.

٦ ـ ليس الأكل إشباعاً للرّغبات بل هو تنفيذ للواجبات، ﴿فَكُلُوا... وَاشْكُرُوا... تَعْبُدُونَ﴾.

٧ ـ لا عبادة ولا عبودية مع كُفران النِّعَم، ﴿وَاشْكُرُوا... إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص ٣٤٤، باب عدم جواز السفر في غير الطاعات. [المترجم]

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

- ورد مضمون هذه الآية الشريفة ـ مع اختلاف طفيف ـ في آيات أُخَر من سورتَي الأنعام والنّحل المكّيّتيْن وفي سُوَر أخرى كذلك مثل سورة البقرة والمائدة وهما سورتان مدنيّتان كما نعلم.
- ﴿أُهِلَّ﴾: من الإهلال وهو رَفع الصّوت بالتسمية عند رؤية الهلال[1]، حيث كان المشركون يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام فعُبِرّ عن فعلهم هذا بالإهلال[2].
- على الرغم من تحريم بعض المشروبات في هذه الآية لكنّ هذا التحريم غير مقتصر على هذه الأنواع فقط، بل ثمّة أنواع أخرى محرّمة بيّنها الرسول الأعظم ﷺ بالاستناد إلى القرآن الكريم وعلينا الالتزام بها، ﴿وَمَا ءَاتَنكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَنكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[3].

التعاليم:

١ ـ تحريم الشيء أو تجويزه لا يكون إلّا مِن قِبل الله وحده، فلا يحقّ لأيّ أحد تحريم شيء أو تحليله من تلقاء نفسه أو بالاستناد إلى الخرافات والأوهام، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾[4].

٢ ـ لا يقتصر السّبب في تحريم بعض المأكولات أو المشروبات وفلسفة ذلك على الأمور الصحيّة والماديّة وحسب، بل وكذلك لتجنّب القبائح المعنوية

---

(١) «الهِلال: غُرّة القمر لرَفع الناس أصواتهم عند رؤيته بالتكبير». تفسير مجمع البيان، الطبرسيّ، ج١، ص ٤٧٥. [المترجم]

(٢) الأَمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج٤، ص ٤٩٤.

(٣) سورة الحَشر: الآية ٧.

(٤) واضح أنّ الضمير المُستتر يعود لله سبحانه وتعالى. [المترجم]

كما هي الحالة مع الشّرك، إذ يمكن اعتبار ذلك هنا معياراً أيضاً، ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ... وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ ينبغي أن يكون الأكل وآدابه كذلك ضمن إطار التوحيد، ﴿حَرَّمَ... وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾.

٤ ـ لا تُسيئوا استخدام القوانين الإلٰهيّة أو ملحقاتها، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

٥ ـ لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، ففي الحالات والظروف الطارئة تُغفر الذنوب، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

☐ هاتان الآيتان تشجبان وتستنكران أيّ شكل من أشكال التحليل أو التحريم الذوقي الذي لا يستند إلى قانون إلهيّ، وتعتبر ذلك افتراءً على الله سبحانه بهدف الحصول على متاع دنيويّ قليل لا قيمة له.

التعاليم:

١ ـ لا تُبدوا آراءً مغلوطة أو غير مستندة إلى دليل بشأن الحلال والحرام (إلّا إذا كنتم مُجتهدين أو مُقلّدين لعالِم دين)، ﴿وَلَا تَقُولُوا... هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

٢ ـ لا تجوز البِدعة[1] في الدين أو أحكامه، ﴿وَلَا تَقُولُوا... هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

---

(١) «البدعة اصطلاحاً: كلّ ما هو باطل في حكم الشرع». أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ص ٨٤. [المترجم].

٣ ـ «الصّدقُ عِزٌّ وَالْكَذِبُ خُضوع»، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ... لَا يُفۡلِحُونَ﴾[1].

٤ ـ الحصول على عَرض الدنيا هو العامل الرئيس لظهور الكثير من البِدَع في الدّين، ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾.

٥ ـ تجاوز حدود الحلال والحرام يجلب الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، ﴿لَا يُفۡلِحُونَ... وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ
وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾

إشارات:

- علمنا من الآيات السابقة أنّ المقصود بعبارة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ هو أنّ الله سبحانه حرّم علينا تناول أربعة أشياء هي: ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ ﴿وَٱلدَّمَ﴾ ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾. وهنا قد يتبادر إلى أذهان البعض سؤال مفاده: «إذا كان تناول الأشياء المُحرّمة مُقتَصراً على هذه الأربعة فلماذا تشير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام إلى تحريم ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ﴾ على اليهود، علماً أنّ سورة الأنعام نزلت قبل سورة النّحل»؟ يبدو أنّ هذه الآية (١١٨ من سورة النّحل) تُجيب عن هذا السؤال وهو أنّ التحريم الذي فُرِضَ على اليهود من قَبل كان المقصود به هو فَرض حظر اقتصاديّ لمُعاقبتهم وتأديبهم، وليس لأنّ تلك الأشياء مُحرَّمة بالفعل.

- ثمة نوعان من التحريم في الدّين الإسلاميّ؛ النوع الأوّل تحريم دائم ويشمل عموم الناس، ونوع آخر موقّت يُفرَض على جماعة مُعيّنة، ﴿حَرَّمۡنَا... كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

---

(١) وقيل في الأمثال أيضاً: مَنْ عُرِفَ بِالكِذْبِ لَمْ يَجُزْ صِدقُه. أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص ٣٠٩. [المترجم].

التعاليم:

١ ـ يُمثّل الحظر الاقتصادي من خلال تحريم بعض أنواع الأطعمة أحد أنواع العقوبات الإلٰهيّة التي استخدمها الله سبحانه ضدّ بعض الأُمم السابقة، ﴿حَرَّمْنَا... كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

إشارات:

- «**الجَهْل**»: نقيض العِلْم وعدم تدبّر العاقبة، وكلمة «**الجهالَة**» أن يفعل الشخص فعلاً بغير عِلْم، وتُطلَق كذلك على الفعل الذي يقوم به الإنسان عن هوى يغلبه. ووردت كلمة (الجَهالَة) بالمعنى الأخير في كلّ من الآية (٥٤) من سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ...﴾، والآية (١٧) من سورة النّساء: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ...﴾.
- وفي الرواية عن الإمام الصّادق عليه السلام: أنّ كل معصية تصدر عن العبد هي جهالة؛ إذاً الجهالة هي التي تدعو العبد إلى المعصية وتزيّنها في عينيه.

التعاليم:

١ ـ لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، فقد أبقى باب الإصلاح والترميم مفتوحاً للإنسان، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾.

٢ ـ قبول التوبة من شؤون الربوبيّة وأسلوب إلهيّ للتربية، ﴿رَبَّكَ﴾.

٣ ـ لا تكون التوبة حقيقيّة إلّا إذا رافقها إصلاح لما قد سَبَق، ﴿تَابُوا۟... وَأَصْلَحُوٓا۟﴾.

٤ ـ طريق التوبة مفتوحة أمام الجميع، ﴿لِلَّذِينَ﴾.

٥ ـ الذنوب التي تُرتكَب بسبب تغلّب هوى النّفس لا بسبب العناد والإنكار، هي

أقرب إلى العفو والمغفرة، ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا﴾.

٦ ـ لا شكّ في قبول الله سبحانه التوبة، وجملة ﴿فَإِنَّ... لَغَفُورٌ﴾ هي جملة اسمية.

٧ ـ إنّ الله لا يَقبل توبة المُذنب وحسب بل هو غفور ورحيم معه كذلك، ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

- اعتبر الله سبحانه في هذه الآية إبراهيمَ عليه السلام بمثابة أُمّة بأكملها، وقد أبدى المُفسّرون آراءً مختلفة ومتعدّدة حول معنى هذه الآية الشريفة، منها:
  - «أنّه كان على دين لم يكن عليه أحد غيره فكأنه أمّة واحدة»(١).
  - «وعلى الجملة فقد كان غارقاً في بحار التوحيد مستغرقاً في حُبّ الإله المعبود»(٢).
  - «عن أبي العُبَيدين أنّه جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟ أخبرني عن الأمّة. قال: الذي يُعلِّم الناسَ الخَيْر»(٣).
  - المُراد بالأمّة هو القائد والمقصود وإمام العابدين جميعاً(٤).
  - «يتّسع شعاع شخصيّة الإنسان في بعض الأحيان حتى ليتعدّى الفرد والفردَيْن والمجموعة فتصبح شخصيته شخصيّة أُمّة بكاملها»(٥).
  - لأنّ قوام الأمّة كان به.

---

(١) تفسير الصافي، ج٣، ص ١٦٠.

(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج١٤، ص ١٥٨.

(٣) تفسير الطبريّ، ج١٧، ص ٣١٦.

(٤) تفسير الفرقان.

(٥) تفسير الأمْثَلُ في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج٨، ص ٣٦١.

- لأنّه يُقال للرّجل العالِم أمّة، إذ باستطاعة العالِم أن يقود أُمّة بأكملها.
- «لأنّه قام بعمل أمته، وقيل لأنّه انفرد في دهره بالتوحيد فكانَ مؤمناً وحده والناس كُفّاراً»[1].

التعاليم:

١ ـ يُعتبر تكريم أولياء الله والتعريف بالقدوة والأسوة والأبطال في مجال التوحيد أسلوباً تربوياً، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٢ ـ العدد أو الكَمّ ليس مهمّاً، المهمّ هو الجودة والحركة الإبداعية، ﴿أُمَّةً﴾.

٣ ـ لا تخشوا العُزلة وأنتم تسلكون طريق الحَقّ، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

٤ ـ ينبغي للإنسان أن لا يكون محدوداً بالبيئة أو المجتمع أو التاريخ، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٥ ـ كان إبراهيم عليه السلام مخلصاً في العمل ﴿حَنِيفًا﴾، والعقيدة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ ـ ليس لشيء من المماشاة أيّ تأثير على عقيدة المُوَحِّد (فإبراهيم عليه السلام كان يعيش مع عَبدة الشّمس والنجوم والكواكب، وكان يُماشيهم في بعض الأحيان فيشير إلى نَجم أو كَوكب مثلاً فيقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[2]، ولكن بمجرّد أن يأفل ذلك النّجم أو يغيب يعود فيقول: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[3]؛ ولذلك وصفه الله سبحانه يَصف خَليله عليه السلام في هذه الآية بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٧ ـ إنّ ما يُكسِب الإنسانَ أهميّة وقيمة هو عبادته الله تعالى عن عِلم ﴿قَانِتًا﴾، مع الاعتدال وتجنّب الضلال ﴿حَنِيفًا﴾، وخلوص في القلب، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص ٢٠٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٧٦.
(٣) السورة نفسها: الآية ٧٦.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

- ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ من «الجِبايَة»، بمعنى الجَمع والاستيفاء، واجتباء الله البعضَ معناه انتشالهم من التشتّت والعقائد المختلفة والمحافظة عليهم واستخلاصهم لنفسه.
- من النِّعَم التي وهبها الله سبحانه إبراهيمَ ﷺ الاسم الطيّب والمشهور والذرّيّة الصالحة وبناء الكعبة الشريفة والعُمر المَديد والدّعاء المُستجاب والمال الكثير، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.
- يُعدّد الله ﷻ في هذه الآيات خَمس خصال لإبراهيم ﷺ ثمّ يشير إلى مَنحه خَمس مقامات (أو منازل) إزاءها. فأمّا الخصال فهي: ﴿أُمَّةً﴾؛ ﴿قَانِتًا﴾؛ ﴿حَنِيفًا﴾؛ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ ﴿شَاكِرًا﴾. وأمّا المقامات التي وُهِبَت له فهي: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾؛ ﴿وَهَدَىٰهُ﴾؛ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ـ وهذه الأخيرة سيأتي ذكرها في الآية التالية.

التعاليم:

١ ـ اجتباء الله الفرد لا يكون إلّا على أساس استحقاق ذلك الفرد وجدارته، ﴿قَانِتًا... حَنِيفًا... شَاكِرًا... ٱجْتَبَىٰهُ﴾.

٢ ـ لا رَيب في أنّ مَن يجتبيه الله سيصل إلى مُراده، ﴿ٱجْتَبَىٰهُ... وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣ ـ دعاء الأنبياء ﷺ مُستجاب. (فإبراهيم ﷺ كان قد طلب من الله سبحانه أن يُلحقه بالصابرين، ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، وهذه الآية تشير إلى أنّ الله تعالى استجاب دعوة نبيّه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾).

---

(١) سورة الشُّعراء: الآية ٨٣.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ على الرغم من اختلاف الأساليب التي استخدمها الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم وتباين ظروف كلّ منهم فإنّ طريقهم واحد، وكلّهم كانوا مأمورين بالإيمان والاعتراف بمَن سبقهم من الأنبياء، ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٢ ـ من الواضح أنّ استخدام تعابير عدّة لِمَدح إبراهيم عليه السلام بشكل متواصل ومكرّر في آيات متتالية، إنّما يدلّ على خلوص إبراهيم عليه السلام الكامل. (لاحِظ تكرار كلمة ﴿حَنِيفًا﴾ مرّتين والإشارة مرّتين كذلك إلى أنّه «عليه السلام» لم يكن مُشركاً: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾).

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

إشارات:

- تعرّض اليهود لتأنيب الله سبحانه ومُعاقبته وتأديبه مرّات عدّة بسبب عنادهم وبَغيهم. ومن بين تلك الحالات ما أشارت إليه الآية (١١٨) من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾، ومُعاقبة أخرى تمثّلت في إجبارهم على اعتبار يوم السّبت عُطلة عن العمل، وهو ما بيّنته هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، فشكر البعض ذلك لله تعالى بينما امتعض البعض الآخر وكفر وراح يتحايل على الأمر وبدأ بالإلتفاف عليه، فباءوا بغضب من الله وعذاب شديد.
- إذا أخذنا الآية السابقة بالاعتبار، فقد يكون معنى هذه الآية كالتالي: «يا أيّها النبيّ! اتّبع مِلّة إبراهيم الذي أمرناه بأن يجعل يوم الجمعة عطلة رسمية لأُمّته، ولم نحدّد يوم السّبت عطلة لليهود إلّا مُعاقبة لهم وتأنيباً على ما ارتكبوه، لكنّ الحقّ هو أنّ يوم الجمعة هو العطلة الرّسمية الصحيحة التي كانت مفروضة منذ عهد إبراهيم عليه السلام».

التعاليم:

١ ـ مِن أوامر الله سبحانه ما هو ناجم عن غَضبه ومنه ما هو نابع من رَحمته وفضله، ﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ...﴾.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

- تتضمّن هذه الآية والآيات التالية حتى آخر هذه السورة، تتضمّن عشرَ وصايا أخلاقيّة سامية.
- تقدّم هذه الآية لائحة شاملة لكلّ المسؤولين والمُعلّمين والأساتذة والعُلماء، وينبغي عليهم جميعاً الالتزام بها لكي ينجحوا في تعاملهم مع الآخرين من مُختلف المستويات والطبقات بأساليب متنوّعة ومتعدّدة؛ إذ لا يمكن التعامل مع الناس جميعاً بأسلوب واحد لأنّ كلّ فرد يتميّز بنفسيّة مُعيّنة وقابلية مُحدّدة ما يتطلّب التعامل معه بما يَعيه ويَفهمه. وهكذا يُمكننا التحدّث مثلاً إلى الخواصّ من الناس بالحكمة والاستدلال، وإلى عامّة الناس بالموعظة الحسنة، وإرشاد المُعارضين ومجادلة المناوئين بالتي هي أحسن.
- المقصود بـ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ هي أن يكون الواعِظ مُلتزماً بِما يَعِظ به الآخرين وعاملاً به، أمّا المجادلة ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فهي التعامل مع الآخرين من دون إهانتهم أو إثارة مشاعرهم بنحو سلبيّ أو خاطئ.

التعاليم:

١ ـ الدّعوة هي أُولى واجبات الأنبياء ﷺ، ﴿ٱدْعُ﴾.

٢ ـ لا بدّ للدّعوة من أن تتّخذ صِبغة إلهيّة، ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

٣ ـ للدعوة مستويات عِدّة، (**الحِكمة؛ الموعظة؛ المجادلة بالّتي هي أحسن**؛ فالحكمة تُمثّل السبيل العقليّ بينما تُمثّل الموعظة السبيل العاطفيّ).

٤ ـ ينبغي أن تكون الموعظة حَسنة في حين لا بدّ للجِدال من أن يكون أحسَن، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ... بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ (أي، أن يكون الحُسن في المضمون والأسلوب والبيان معاً).

٥ ـ من أساليب الدّعوة بيان آثار وبركات المحاسن والحسنات وتبيين آفات ومخاطر المساوئ والسيّئات، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ (والحكمة هي معرفة مصالح الأمور ومفاسدها بواسطة العِلم والعَقل).

٦ ـ إنّك ـ أيُّها النبيّ ـ مسؤول عن الأداء لا عن النتيجة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

٧ ـ الحكمة والبرهان حَسَنان دائماً، أمّا ما يتعلّق بالموعظة والمجادلة فقد يكون الأسلوب المُتّبَع فيها حَسناً أو سيّئاً. (لاحِظ أنّ القرآن الكريم لم يستخدم صيغتَيْ التفضيل «حَسَن» أو «أحْسَن» فيما يخصّ موضوع الحكمة).

٨ ـ يُحاول الإسلام تغذية أتباعه فكريّاً ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وروحيّاً ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، إضافة إلى أنّه يتعامل مع مُعارضيه بالمنطق، ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم
بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

إشارات:

□ تذكر الروايات أنّه لمّا استُشهِد حمزة بن عبد المُطّلب عليه السلام ـ عَمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في غزوة أُحُد وقطعت بعض أعضاء بدنه الشّريف، ورأى الرّسول صلى الله عليه وآله ما صُنِعَ به، قال: «**لَئِنْ ظَفَرْتُ لَأُمَثِّلَنّ وأُمَثِّلَنّ**»! فأنزل الله هذه الآية التي تُطالب المسلمين باتّباع العَدل والصّبر عند الانتقام من الأعداء، وعندها قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَصْبِرُ! أَصْبِر!**»[1].

(١) انظر مثلاً: التفسير الأصفى، الجزء الثاني، ص ٢٣٩. [المترجم]

نعم، إذا أردنا تعريف الإسلام على حقيقته، لا بدّ لنا من إجراء مقارنة بين تصرّف المشركين في معركة أُحد وبين تصرّف الرّسول ﷺ عند فَتح مكّة وعَفوه عن المشركين جميعاً ومَن آذوه والمسلمين.

التعاليم:

١ ـ علينا اتّباع العدل والإنصاف حتى مع أعدائنا والذين اضطهدونا، ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾.

٢ ـ المُعاملة بالمِثل حقّ طبيعيّ ودينيّ، ﴿فَعَاقِبُوا۟﴾.

٣ ـ إنّ في الصّبر لحلاوة يفتقرها إليها الانتقام، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ﴾.

٤ ـ في حالات الاضطراب والتشكيك، أكّدوا على وعودكم بشكل قاطع. (لاحِظ أنّ جملة ﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ تتضمّن تأكيداً لا يوجد مثلاً في جملة «فهو خَير»).

٥ ـ يجب اتّباع القانون الأخلاقيّ حتى في الحروب، ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾.

٦ ـ القانون بمُفرده لا يكون فعّالاً؛ إذ لا بدّ من وجود العنصر الأخلاقيّ أيضاً. (فعبارة ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ هي بمثابة قانون عامّ في حين أنّ جملة، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ تُشير إلى العامل الأخلاقيّ).

٧ ـ لا تظنّوا أنّ صَبركم مُضرّ لكم وفي مصلحة أعدائكم، بل على العكس، سيكون في مصلحتكم أكثر منهم. (فسيأتي يوم تُمسكون فيه بزمام النّصر وسيصحو وجدان أعدائكم وسيرى العالم كلّه كيف تصرّفتم، وعندها فقط سيعلم الجميع ما أنتم عليه من عظمة وكبرياء وشموخ)، ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

□ لا رَيب في أنّ الدّعوة بالحكمة والموعظة والمُجادلة الحَسنة ليست بالأمر

السّهل وذلك لوجود طائفة من الناس أقسمت على مواصلة العناد واللجاجة ورفض كلّ دَعوة، ومنهم مَن تعهّد بالتآمر والصدّ عن سبيل الله، ومنهم مَن يحاول إقصاء الطّرف الآخر للوصول إلى أهدافهم المشؤومة من خلال قَذف التّهم والشّبهات والاستهزاء والحصار الاقتصادي وشَنّ الحروب واستخدام كلّ أنواع التعذيب والقَمع. لذلك جاءت هاتان الآيتان لتُطيّب خاطر النبيّ ﷺ وتمنحه الثّقة بنَفسه وتدلّه على ما يجب فعله في دعوته حتى لا يدخل في طريق مسدودة.

□ وفي تفسير (الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل) ذكر المؤلّف أنّ سورة النّحل ضمّت الكثير من النّعَم والآلاء الكفيلة بتشجيع الإنسان على شكر الله سبحانه. وفي ما يَلي سنشير إلى النّعَم الأربعين المذكورة في هذه السورة:

- السماء: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.
- الأرض: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾.
- ذوات الأربع: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾.
- اللّباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾.
- منافع الحيوانات: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾.
- اللّحوم: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.
- الزّينة والجمال: ﴿فِيهَا جَمَالٌ﴾.
- الحَمل والانتقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾.
- الهداية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.
- الماء: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾.
- المراعي: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.
- الفواكه والأثمار: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.
- اللّيل والنّهار: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.
- الشّمس والقَمر: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

- الكواكب والنّجوم: ﴿وَٱلنُّجُومَ﴾.
- النّعَم والمخلوقات الأرضيّة ذات الألوان المختلفة: ﴿ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾.
- البحار وما تحتويه من كنوز: ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ...﴾.
- حركة السّفن: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.
- الجبال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾.
- الرّوافد والأنهار: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.
- المعابر والطّرقات: ﴿وَسُبُلًا﴾.
- العلامات الطبيعية: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾.
- الاهتداء بالكواكب والنّجوم: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.
- إخضرار الأرض: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.
- اللّبَن (الحَليب) الخالص: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾.
- مُنتجات الأثمار: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.
- الشّهد والعسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾.
- الأزواج: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.
- البنون والأحفاد: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.
- الرّزق الطيّب: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.
- نعمة السّمع: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾.
- نعمة البصر: ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾.
- نعمة العقل والرّوح: ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.
- المساكن الثابتة: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.
- المساكن المتنقّلة: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾.
- الملابس بأنواعها: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾.

- نعمة الظّلّ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾.
- الملاجئ الآمنة في الجبال: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾.
- نعمة اللّباس الذي يَقي الإنسان من الحَرّ والبَرد: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ...﴾.
- نعمة الدّروع والملابس الحربية: ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

من الواضح أنّ الله ﷻ لم يذكر كلّ هذه النّعَم ليمنَّ منّته أو يُطالب بمَدحه أو لمُجرّد إشباع الغرائز، فهو تعالى مُنَزَّه عن كلّ ذلك، بل ليشجّع الإنسان على شُكر تلك النّعم والتدبّر فيها والتسليم لأمره ومواصلة ذِكره ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة النّحل: الآية ١٤؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة النّحل: الآية ٩٠؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النّحل: الآية ٤٤؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ سورة النّحل: الآية ٨١؛ و﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النّحل: الآية ٩٠.

التعاليم:

١ ـ الصّبر (وكلّ توفيق من التوفيقات الأخرى) من عند الله سبحانه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢ ـ ينبغي للمُبلِّغ أن يكون صبوراً: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ... وَٱصْبِرْ﴾.

٣ ـ الصّبر والنّصر رفيقان منذ الأزل، فبعد الصّبر يأتي النّصر: ﴿وَٱصْبِرْ... إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾.

٤ ـ الإيمان بالعَون الإلٰهيّ والمَدد السماويّ يؤدّي إلى سِعة الصّدر والتحمّل والصّبر: ﴿ٱصْبِرْ... إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾.

٥ ـ التّقوى والإحسان وسيلتان للفوز بدَعم الله وحمايته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا... مُّحْسِنُونَ﴾.

«والحمد لله رَبّ العالمين»

الفهرس

سورة هود ٥ ـ ١٣١
سورة يوسف .... ١٣٣ ـ ٢٩٦
سورة الرعد .... ٢٩٧ ـ ٣٦٥
سورة ابراهيم .... ٣٦٧ ـ ٤٢٠
سورة الحجر .... ٤٢١ ـ ٤٦٨
سورة النحل .... ٤٦٩ ـ ٥٨٨